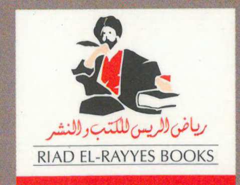
محمد ابي سمرا

موت الأبد السوري

شهادات جيل الصمت والثورة



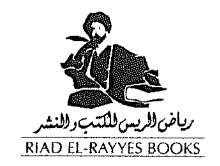
مـوت الأبـد السـوري

شهادات جيل الصمت والثورة

محمد أبي سمرا

موت الأبد السوري

شهادات جيل الصمت والثورة



The Death of Syria's Eternity

Testimonies of the Silence and Revolution Generation

Mohammad Abi Samra

First Published in July 2012

BEIRUT - LEBANON
elrayyes@sodetel.net.lb - www.elrayyes-books.com
www.elrayyesbooks.com

ISBN 978 - 9953 - 21 - 536 - 5

الطبعة الأولى: تموز (يوليو) ٢٠١٢

لشراء النسخة الإلكترونية:
www.arabicebook.com

تصميم الغلاف: هوساك كومبيوتر برس

المحتويات

مقدمة الكتاب

يروي هذا الكتاب فصولاً من حقبة رمادية من حياة السوريين وتاريخهم الصامت أو المكتوم بعد مقتلة حماه التي قام بها الرئيس الراحل حافظ الأسد في شباط ١٩٨٢، لإخماد انتفاضة جماعات «الإخوان المسلمين» العنيفة ضد نظام حكمه الديكتاتوري. وهو يروي أيضاً فصولاً أخرى عن خروج فئات واسعة من السوريين على الصمت والقهر في ثورة شعبية سلمية بدأت في آذار ٢٠١١، ولا تزال مستمرة، وتصدى لها نظام الأسد الابن، بشار، بالقتل والترويع، عوداً على بدء تاريخه الدموي.

السِّير والشهادات الحية هي مادة هذا الكتاب الذي يروي أخباراً عن الحوادث والوقائع كما عاشها رواتها في عائلاتهم وأسرهم ودوائر حياتهم الأخرى في المدارس والجامعات والمدن وأحيائها السكنية، وفي المعتقلات والسجون. لكن هذه السير والشهادات التي بدأتُ كتابتها في العام ٢٠٠٦، منحتها الثورة السورية الراهنة سياقاً وأفقاً ومعاني جديدة، بعدما أزاحت الثورة نفسها صخرة الخوف والقهر عن صدور السوريين، وحرّرتهم من سلطان الصمت والكتمان. لذا

جرى توسيع الروايات وإعادة تركيبها لتشمل يوميات الثورة كما عاشها بعض الرواة السابقين، إضافة إلى روايات وشهادات جديدة من ناشطين شاركوا في الثورة منذ بداياتها في بعض المدن السورية.

□ □ □

في العام ٢٠٠٦، عقب «ثورة الأرز» اللبنانية التي أدّت إلى جلاء الجيش السوري ومخابراته عن لبنان في نيسان ٢٠٠٥، بدأت بتسجيل هذه السير والشهادات في سياق الحدث اللبناني الكبير الذي دفع برجل سوري الجنسية بيروتي المولد والإقامة، إلى رواية سيرة حياته المأساوية بين لبنان والسجون السورية. كانت روايته تلك فاتحة لتسجيل شهادات وسير أخرى تنقل ما يعيشه السوريون في بلدهم الذي تندر الأخبار والكتابات عن حياته وحوادثه الاجتماعية. ظننت أن وجود ألوف العمال السوريين المنتشرين صامتين منذ سنين كثيرة في الديار اللبنانية، يسهِّل هذه المهمة. لكنني سرعان ما اكتشفت أن صمتهم لا ينطوي على الخوف من الرواية والخبر، بل على ما يمكن تسميته إرادة الخوف والكتمان المديدة التي اجتثت مقدرتهم على الخبر والرواية، وتركتهم يتعودون العيش في الصمت في بلادهم كما في الديار اللبنانية مكتفين بتحصيل القوت كفاف العيش. فالنظام الأسدي الذي تسلط على سورية تسلطاً طغيانياً شبه استعماري في مرآة الثورة الراهنة حوّل البلاد سجناً لمحو الذاكرة والخبر عن الحوادث والتأريخ، وقصر إرادة الكلام والتعبير إما على الكلمات الأبدية للبعث والرئيس القائد، وإما على التواصل الآني الوظائفي شبه البيولوجي.

لذا كان على هذا الكتاب أن ينتظر الحدث السوري الكبير المستمر منذ آذار ٢٠١١، لكي يُستكمل ويجد سياقه في خضم تحرر

السوريين من سجن الصمت الكبير. والحق أن هذه السير والشهادات ليست سوى نماذج قليلة من فيض ما رواه ويرويه السوريون منذ بدء ثورتهم، وما يستمرون في روايته بعد صمتهم المديد، ليصير لهم ولبلدهم ومجتمعهم حياة وتاريخ يخرجانهم من ذلك الإبد الخاوي المميت.

□□□

الفصل الأول من هذا الكتاب رواه سوري ـ لبناني يدرّس في جامعة شيكاغو، ويحمل الجنسية الأميركية. تنقل روايته شهادة وثائقية عن الحياة اليومية، الأكاديمية والإدارية والطالبية، وعن برامج التعليم، في جامعة حلب التي أمضى الراوي فيها سنتين دراسيتين ما بين (٢٠٠٣ ـ ٢٠٠٦)، أستاذاً زائراً منتدباً من جامعته الأميركية. لكن شهادته هذه تتجاوز الحياة الجامعية إلى وجوه من أحوال المجتمع السوري ومؤسساته الإدارية، والى وصف الخواء الذي يكتنف حياة الطلبة والمدرّسين الجامعيين.

راوي الفصل الثاني لبناني من مؤسسي «التيار الوطني الحر» الذي كان مناهضاً للاحتلال السوري للبنان طوال العقد الأخير من القرن العشرين ونصف العقد الأول من الألفية الثالثة، قبل عودة الجنرال ميشال عون من منفاه الباريسي إلى بيروت في العام ٢٠٠٥. شهادة الراوي هذا تنقل يوميات اعتقاله وتعذيبه في أحد سجون الاستخبارات السورية في بيروت العام ١٩٩٤.

ثالث الرواة سوري الجنسية، لبناني النشأة الأولى والمولد من أب سوري، وفد في خمسينيات القرن العشرين إلى بيروت، فعمل فيها وتزوج من لبنانية طرابلسية وأنجب منها أبناء ثلاثة، تاركاً زوجة

أولى وأطفالاً في حلب. بعد تلقيه التعليم ونيله الشهادة الثانوية في بيروت، انتقل الراوي إلى دمشق ودرس في جامعتها (١٩٨٠ ــ ١٩٨٥)، فتفوق في الهندسة الميكانيكية. قبل سفره إلى إسبانيا لمتابعة دراساته العليا بمنحة من جامعة برشلونة، شهد في شوارع حلب إعدامات ميدانية من ذيول المطاردات والاعتقالات والمقاتل الأسدية في سورية (١٩٨٩ ــ ١٩٨٥). أما بعد عودته من إسبانيا متفوقاً في دراساته الجامعية هناك، فأدى عزوفه عن الانتساب إلى «طلائع البعث» في دمشق، إلى حرمانه من معادلة شهادته الإسبانية بأخرى سورية تمكّنه من العمل. حمله هذا على القيام بما يشبه «انتفاضة» فردية، وارتكاب أشنع المعاصي والآثام في «سورية الأسد»: شتيمة البعث والرئيس القائد في مكتب وزير التربية. فعلته هذه دمّرت حياته كلها، إذ عرّضته لملاحقات أمنية مستمرة في سورية ولبنان، ولسلسلة من الاعتقال والتعذيب المتكرر في السجون السورية ما بين ١٩٨٨ و٢٠٠٥. حين ذهب أخوه للبحث عنه في دمشق، اختفى ولم يعثر له على أثر منذ العام ١٩٨٩. في مطلع العام ٢٠١٢ استكملت شهادة الراوي بعد اعتقال ابنه البكر، اللبناني المولد والنشأة والإقامة، وإرغامه على أداء خدمته العسكرية الإجبارية في خضم الثورة السورية، فروى والده أخباراً عن زياراته دمشق للقاء ابنه والتداوي من مرض السرطان.

في الفصل الرابع رواية بانورامية ميكروسوسيولوجية تتناول سيرة عائلة توزعت حياتها وإقامتها بين حمص وبيروت منذ ستينيات القرن العشرين. الشخصية المحورية في هذه الرواية العائلية المتشعبة امرأة سورية المنبت والإقامة والزواج الأول في إحدى قرى جبال العلويين، قبل زواجها الثاني من رجل لبناني بيروتي، وإقامتهما

وإنجابهما في بيروت. لكن هذا الزوج خُطف واختفى في نهار «السبت الأسود» في بدايات حروب لبنان، فتجددت زواجات المرأة وإنجابها، وأقامت علاقات بضباط من الاستخبارات السورية في بيروت حتى جلاء الجيش السوري عن لبنان في العام ٢٠٠٥.

الراوي هو حفيد المرأة هذه من ابنتها البكر من زوجها السوري الأول. الابنة، أم الراوي هذه، حملتها أمها إلى بيروت طفلة، فنشأت في كنف زوج الأم الثاني البيروتي قبل خطفه واختفائه. بعدما شبّت، فرّت من بيروت مع رجل حمصي يعمل سائق سيارة لنقل الركاب بين سورية ولبنان، فتزوجها وأقاما وأنجبا في حمص، حيث ولد ابنها الراوي العام ١٩٨٠. لكنه منفرداً رحل عن مدينة إلى بيروت العام ١٩٩٩، فتلبنن اجتماعياً، من دون أن تنقطع زياراته المتباعدة لأهله في حمص. تتتبَّع الرواية السيرتين المتوازيتين والمتداخلتين، السورية الحمصية واللبنانية البيروتية للراوي وأمه وجدته ووالده وعائلتيهما. وتروي أيضاً وقائع وحوادث من الحياة اليومية في حمص وحاراتها وأحيائها وعاداتها وتقاليدها الاجتماعية وتحولاتها، فتقدم لوحة بانورامية حية عن المجتمع الحمصي في الثمانينيات والتسعينيات من القرن العشرين. أما في بيروت، فإلى روايته محطات من سيرة حياته المتلبننة، فإن الراوي الشاب يصف علاقات جدته برجال من الاستخبارات السورية في أحياء بيروتية، وحوادث الشِقاق والعنف الأسريين بين الجدة وبناتها في أزمنة حروب لبنان، وبسبب تلك العلاقات تأجَّج هذا الشقاق الأسري العنيف، حتى جلاء الجيش السوري واستخباراته عن لبنان العام ٢٠٠٥.

مع بدء الثورة في سورية، استفاقت ذاكرة الراوي السورية

والحمصية، فعزف عن بحثه عن سبيل للهجرة إلى بلد أوروبي، وانفرد بنفسه في غرفة في بيروت، مستطلعاً وقائع الانتفاضة ويومياتها في حمص، عبر الإنترنت ومواقع التواصل الاجتماعي. ثم لم تلبث غرفته البيروتية أن تحولت ملتقى ناشطين سوريين فروا من بعض المدن السورية المنتفضة. أخيراً يقوم الراوي بزيارة سرية إلى حمص، مجتازاً الحدود اللبنانية ـ السورية مع مجموعة من صحافيين أوروبيين، قبل مدة قصيرة من هجوم الجيش الأسدي على حي بابا عمرو. من هناك يروي يوميات الثورة ومشاهداته ولقاءه أحد أعضاء التنسيقيات في المدينة، ومشاركته في تظاهرة ليلية في حارة طفولته وفتوته، الخالدية.

في الفصل الخامس الأخير من هذا الكتاب رواية تفصيلية عن أحوال المجتمع المديني في بانياس منذ ثمانينيات القرن العشرين، وعن يوميات الانتفاضة في المدينة ودوافعها المحلية، وعن أحوال شبانها الذين خرجوا في تظاهرات يومية من مساجدها إلى شوارعها وساحاتها بالتزامن مع بدء الانتفاضة في درعا في ١٨ آذار ٢٠١١. الراوي في هذا الفصل شاب جامعي من بانياس. وهو يستعيد سيرة حياته وحياة مجايليه من شبان مدينته، وتحولات وعيهم «الإسلامي» في تسعينيات القرن العشرين والعقد الأول من الألفية الثالثة. هذا قبل مباشرتهم الانتفاضة في مدينتهم، على نحو عفوي بلا إعداد ولا تنظيم مسبقين، متأثرين بصور الثورة المصرية وأخبارها التلفزيونية وعبر الإنترنت والفايسبوك. أما التظاهرات اليومية في بانياس فلعب الفضاء الإلكتروني والهاتف الخلوي وكاميراته، دوراً اساسياً في تنظيمها وفي تواصل شبانها الناشطين مع ريف المدينة الساحلية الصغيرة، ومع شبان التنسيقيات في المدن السورية الأخرى.

في بيروت التي فرّ إليها الراوي في حزيران ٢٠١١ بعد اعتقاله وتعذيبه في بانياس، جرى تسجيل شهادته عن مدينته ومجتمعها وشبانها ويوميات انتفاضتها، قبل أن يحاصرها الجيش الأسدي وأجهزة استخباراته، ويدخلانها ويروعان أهلها. وإلى حملات الاعتقال والترويع الجماعيين، نقل رجال الأمن والشبيحة أفواجاً من أهالي بانياس السنّة بالباصات إلى القرى العلوية القريبة التي قام أهلها بتحقير المعتقلين وإهانتهم والاعتداء والتبول عليهم في طقوس من الحقد والتشفي وعبادة «الرب» بشار الأسد.

□ □ □

يدين الكتاب في مادته كلها إلى أصحاب السير والشهادات الخمسة، وسواهم من ناشطين سوريين فروا إلى لبنان في اثناء الثورة المستمرة في بلدهم، هرباً من الاعتقال والقتل وتهديد عائلاتهم. هؤلاء ــ وقد رووا شهادات عن اللاذقية والقامشلي ودمشق ــ لم تتسنّ كتابة رواياتهم لطولها وفيضها عن الجمع في كتاب واحد، وقد تجد، مستقبلاً مع غيرها، متسعاً وسبيلاً إلى الرواية في كتاب آخر عن الثورة في «بلاد المهانة والخوف». وهذا عنوان كتاب سابق صدر العام ٢٠٠٤، ورويتُ فيه وقائع رحلات ومشاهدات في الديار السورية والعراقية الكردستانية والمغربية، وشهادة عن حياة أطفال الكرد في الحسكة السورية.

إلى أصحاب الشهادات الخمسة، يدين الكتاب أيضاً إلى متابعة كتابات سوريين على شبكة الإنترنت وفي الصحف البيروتية أثناء الثورة السورية وتظاهراتها اليومية. من هؤلاء ياسين الحاج صالح، سمير يزبك، رزان زينونة، فدوى سليمان، رستم محمود، وعمر

قدور الذي اقتبست عن عبارة وردت في إحدى مقالاته الصحافية عنوان الكتاب. أما قراءتي قبل سنوات، شهادة السجين السوري مصطفى خليفة في كتابه المروّع «القوقعة»، فكانت من دوافع العمل على تسجيل الشهادات وكتابتها للتعرف، في أصوات وسير أخرى، على الهول الذي تعرض له السوريون ويتعرضون.

□ □ □

أخيراً لا أدري إن كانت مجدية الإشارة إلى فقر الكتابات العربية واللبنانية المدقع وخلوها من التحقيقات الميدانية عن الثورات العربية، وعن الثورة السورية المتطاولة والمستمرة منذ أكثر من سنة. وهذه حال مزمنة تتجاوز أسبابها أساليب العمل الصحافي وإدارته وغرقه في الترهات، عدا انعدام نزاهة الصحافيين وحساسيتهم الكتابية. فالحال هذه تطاول حياتنا الثقافية العامة، ونفورها من الكتابة الميدانية ومن رواية الحوادث والوقائع وحيوات الناس، وعزوف الكتّاب المحترفين عن المبادرة والمجازفة والتطلب في تناول شؤون الاجتماع والحياة اليومية وظواهرها وحوادثها، لتطوير أساليب الكتابة والرواية. فهذه متروك أمرها لسوانا من الصحافيين والكتّاب والروائيين الأوروبيين الذين قتل بعضهم في حمص التي جازفوا بحياتهم للوصول إليها مجتازين حدود البلدان المجاورة. من هؤلاء الروائي الفرنسي ــ الأميركي جوناثان ليتل الذي كتب من حمص تحقيقاً ميدانياً في حلقاتٍ خمس طويلة، نشرتها صحيفة «لوموند» الفرنسية في شباط ٢٠١٢. وترجمت منال نحاس حلقتها الأخيرة في صحيفة «الحياة»، ٢٩ شباط.

□ □ □

أنا الذي أستصعب الكتابة عن حوادث مجتمعات أجهلها أو غريبة عني، نبهتني كتابة الغريب ليتل المشهدية، المادية والآنية، إلى أنها أقوى وأصدق إنباءً عن حوادث هذه المجتمعات من أهلها. لذا أختتم هذا التقديم بمشاهد من تحقيقه عن حمص، الذي استهل حلقته الأخيرة بوصف صقيع الموت في «جثمان شمعي (لُفّ) في كفنٍ وجُلّل رأسه بإكليل من بلاستيك، وسُجّي في زاوية من المسجد. على مقربة من النعش ركع ولد باكٍ هو أخو القتيل، ولمس وجه أخيه حانياً. عمر الميت ١٣ سنة. الليلة الماضية كان يحطّب أغصان شجر جوار المنزل ــ على ما يروي والده وسط أسرته وأقاربه، مُحمّر العينين ومنتفخ الجفنين: الأرجح أنه أضاء الهاتف النقّال، فقتله القناص. الشارع الذي تقيم فيه العائلة هدف ثابت لقناص يختبئ في مدرسة الحي، ويتمرن بالتصويب على القطط حين يعوزه البشر. أحد الجيران (المتحلقين حول الجثمان) يقول: لم نعد نجرؤ على إخراج النفايات. رجل آخر يريني جثمان أخيه على شاشة هاتفه النقّال، قائلاً إن القتيل كان يحاول حماية ابنه البالغ من العمر ١١ سنة. شرح أنه اضطر إلى نقر الجدران بين بيته والجامع ليتمكن من الخروج سالماً».

يلي هذا المشهد آخر في «مستشفى مرتجل يعالج فيه مسعفون شاباً اخترقت جمجمته رصاصة. كان يتقيأ دماً. وقف المسعف، وهو ليس طبيباً، عاجزاً ومقراً بعجزه، فلفّ مسعفون رأس المصاب بشرشف، وحملوه إلى سيارة لتنقله إلى عيادة. روى أحد الشهود: عمر الضحية في تذكرة الهوية ٢٧ سنة. أصيب قرب مسجد سعيد بن عامر القريب، وهو يحمل أدوية لأهله. قبل ساعة قتل أحد المارة برصاصة في عنقه، وهو يغادر المسجد. لم يكد الراوي ينهي روايته

حتى جيء بجريحين. الأول رجل مكتهل أصيب في أعلى صدره، وجريحة منقبة تدير في الحاضرين عينين هلعتين، وتحت الغطاء الأسود بدا جزء من فكها مكسوراً. في الأثناء كان الناشطون الإعلاميون يصورون الوقائع. تولى عمر التعليق على الصور بالصوت. أبو بلال أمسك بيديه رأسه المنحني، مغالباً الانهيار. الجريحان اللذان أُرسلا إلى العيادة للتو، أُعيدا ميتين. جهاز التمريض انشغل بـ٣ جرحى جدد أصيبوا بانفجار قذيفة قرب مستوصف آخر. على طاولة تمدد رجل رابع ينازع. لم يلبث أن لفظ نفسه الأخير في ارتعاشة لم أدرِك معناها إلا حين همد الجسد. كنت أسأل أحد الجرحى حين أُدخل رضيع أصيب في عانته. من الطريق في الخارج تصاعدت أصوات مضطربة. تراكض الناس في الاتجاهات كلها. خرجتُ لأستطلع ما يحصل. رجال غاضبون يجبرون المصور ماني (رفيق الكاتب) على الاستدارة إلى الجدار، ويحولون بينه وبين التصوير. أخيراً أفلح ماني في إخراج كلمات من خمه: إنه أحد الشبيحة يريدون قتله. ومُنع ماني من تصوير إعدام الشبيح».

مشهد ثالث: «يرابط الشبيحة على تخوم الأحياء العلوية في حمص. يصلون شوارع أحياء السنة وطرقها بالرصاص من غير توقف. يقتلون من يرميهم سوء الطالع بالمرور في هذه الأحياء. يروي بعض الشهود حوادث اغتصاب وتعذيب وفظاعات. غالباً ما يعمد الثوار إلى مقايضة معتقليهم من الجنود أو من الاستخبارات، لكنهم يقتلون الشبيحة من غير تردد. حين غادرنا، ماني وأنا، واجتزنا الشارع العريض الذي يرابط القناص في أحد مبانيه، وقعت عيناي على الشبيح، عارياً مدمىً، موثوق اليدين ومحطم الرأس، تجره شاحنة

صغيرة للجيش السوري الحر، وتعرضه على الأنظار، ويستقبل الأهالي الجثمان بالهتاف: الله أكبر».

في الختام كتب ليتل: «منذ مغادرتي حمص في ٢ شباط، تتعرض المدينة يومياً لقصف مدمر، أوقع حتى ١٧ شباط ٧١٨ قتيلاً. يلوّح الغرب والجامعة العربية بالقبعات الزرق والممرات الإنسانية، ودون الإجراءين فيتو روسيا والصين. يثير هذا ذكريات أليمة وسيئة. فبين ١٩٩٣ و١٩٩٥ ــ وكنت آنذاك في البوسنة ــ قتل حوالى ٨٠ ألف شخص، وصحافيو العالم والعاملون الإنسانيون يتفرجون، ومعهم قوات أممية حظّر عليها تكليفها القانوني إطلاق النار. إذا كان هذا كل ما يمكن اقتراحه على السوريين، فخير لهم ولنا أن يُتركوا إلى مصيرهم، وهذا أليق بالاستقامة».

هذه المشاهد الثلاثة للإشارة إلى المسافة الهائلة التي تفصلنا عن أن نكون شهوداً حقيقيين وأحراراً في الكتابة عما يحدث أمام أبصارنا، وروايته رواية مركبة مستقيمة.

رواية تشهد على ما نعيشه، وعاشه السوريون في أزمنة ما قبل الثورة، وفي زمن الثورة على نظام الأسد الذي احتل سورية احتلالاً استعمارياً جمّدها في الزمن، كأنها صحراء لا وجود للبشر فيها إلا عبيداً منذورين لموجات من القتل العنصري كلما لاحت في أفق حياتهم بارقة للحرية.

بيروت ــ آذار ٢٠١٢



الفصل الأول

جامعة الخواء البعثي

ولدت عام ١٩٥٨ في بيروت(*). أمي لبنانية، ووالدي سوري، انتقلت عائلته إلى لبنان للعمل والإقامة، فتوطنت في بيروت، وحازت الجنسية اللبنانية، بعدما صادر نظام التأميمات أملاكها الزراعية ومصنعها للغزل والنسيج في إدلب.

حتى نهاية المرحلة الثانوية تلقيت التعليم في مدرسة بيروتية للإرساليات الفرنسية، ودرست الكيمياء والعلوم الاجتماعية في الجامعة الأميركية ببيروت، ثم أقمت ثلاث سنوات دراسية في باريس، فحزت شهادة دكتوراه في العلوم الاجتماعية من جامعة السوربون، وهاجرت سنة ١٩٩٤ إلى الولايات المتحدة الأميركية، حيث بدأت التدريس في جامعة شيكاغو، وحصلت على الجنسية الأميركية.

قبل انتدابي أستاذاً زائراً في جامعة حلب، كنت قد زرت كثيراً الموطن الأول لأبي وأهله في سورية. روايات أبي وقراءاتي وأبحاثي

(*) سجلت هذه الشهادة في بيروت عام ٢٠٠٥.

الجامعية عن المجتمع السوري، وفرت لي معرفة وافية بتاريخ سورية الاجتماعي والسياسي ونظام الحكم فيها. هذا أتاح لي، حين أقمت بحلب ودرّست في جامعتها ما بين عام ٢٠٠٣ وعام ٢٠٠٥، أن أعيش وأسلك وأقدّم نفسي كسوري لا تزال اللهجة السورية حاضرة في لسانه ولغته العربية الأم. أما لبنانيتي البيروتية، حيث ولدت وعشت طفولتي وشبابي الأول وخبرت الحياة، فسهّلت لي التواصل مع المجتمع السوري، برغم أن إقامتي في حلب أستاذاً جامعياً منتدباً من الولايات المتحدة الأميركية. وحملي جنسيتها، كانا مثار مواقف ملتبسة، نتراوح بين الانبهار بي وإعلاء شأني، وإحاطتي بشيء من الريبة والحذر والغموض، حسب دوائر احتكاكي بفئات المجتمع السوري واتصالي بأهله وعلاقاتي بهم. لكن هذا كله وفر لي حصانة وحرية أن أكون على مسافة من الدوائر التي أعيش وأعمل وأتحرك فيها، كأنني شخص محلي وغريب في آن واحد، حسب الأوقات والأدوار والأحوال والمواضع المختلفة.

الثبات والتزاحم

في أول احتكاك لي بالحياة الجامعية في حلب، اكتشفت أن برامج التدريس وموادها مقررة مسبقاً ومرة واحدة «إلى الأبد». فوزارة التعليم العالي في دمشق هي التي تملي على المدرّسين الجامعيين كافة، اختيار المواد التي يدرّسونها وموضوعاتها الثابتة، المكرّرة والمستعادة سنة بعد سنة، من دون أن يسعى أيّ من الأساتذة في العمل إلى تغييرها وتبديلها أو إضافة أي جديد إليها، بل إنهم على خلاف هذا يقيمون على استعادتها وإبقائها على حالها منذ أُعِدتْ وشرعوا في تدريسها للمرة الأولى. وهذا ما يقيمون عليه أيضاً في

إعدادهم المهني والأكاديمي والثقافي، فيبقى كل منهم على حاله ومعارفه منذ بدئه التدريس في الجامعة.

ينقسم الأساتذة الجامعيون إلى فئتين ثابتتين: فئة المتفرغين الثابتين في الكلية، الذين يتسابقون للحصول على ساعات تدريس إضافية في كلية بمدينة أخرى، توفر لهم الانتقال إليها بدلات نقل تزيد على رواتبهم الشهرية الثابتة الزهيدة. أما الفئة الثانية فهي من المتفرغين أيضاً، لكن في جامعات بمدن أخرى، وغالباً ما يكونون من أصحاب الحظوة في دمشق، فيتزاحمون على الحصول على ساعاتٍ إضافية في جامعة حلب أو غيرها، من أجل بدلات النقل التي يتحكم التزاحم عليها بنظام التدريس الجامعي.

أنا الذي أتيت إلى الجامعة من خارج هاتين الفئتين، ولم أزاحم أحداً على ساعات التدريس، لم أحصل سوى على فضلات من المواد التي لا يرغب أحد في تدريسها، ولم يزاحم أحد من المدرّسين زميله عليها.

جدة الخواء الدائم

على مساحة واسعة في منطقة سكنية راقية على مدخل المدينة، تنتصب مباني كلية الآداب والعلوم الإنسانية في حلب. تضم الكلية حدائقَ وبناءً للتدريس والإدارة ومكاتب الأساتذة، وآخر للمكتبة، وثالثاً للسكن الطالبي. وسرعان ما علمت أن إنجاز مشروع بناء الكلية الجديد هذا، وتجهيزه والانتقال إليه من بناء آخر قديم، استغرقت أكثر من ٢٠ سنة، قبل أن تفتح الكلية أبوابها لاستقبال الطلبة في العام الدراسي ٢٠٠٢ ــ ٢٠٠٣.

من الخارج تبدو المباني جديدة ضخمة وحديثة الطراز المعماري والهندسي. لكن الدخول إليها والتجوال فيها، يبعثان شعوراً بالفراغ والوحشة يصدران عن الضخامة والجدة، ويملآن الباحة الداخلية الواسعة، الخالية والمقفرة غالباً، مجوّفة مبنى التدريس من طبقته الأرضية حتى الطبقة الأخيرة. في الطبقات كلها، تلتف قاعات التدريس ومكاتب الإدارة والأساتذة، حول الباحة الجوفاء المهيبة الممتلئة بتجاوب أصداء أي حركة أو صوت في أي ناحية من البناء كله. داخل هذا العراء الاسمنتي وخوائه الأصم، تخبو الحياة وتنعدم الروح، لتجتاحه الأصداء التي تخلّف في النفس والعلاقات الإنسانية البرودة والغثيان. أما حضور الطلبة والأساتذة ومكوثهم وحياتهم في نواحي المكان، فلا تترك أثراً لا يبدّده سريعاً جمود البناء خواؤه، فيظل المنتشرون فيه غرباء عنه، وعابرين في دخولهم إليه وخروجهم منه وسط ضجيج الأصداء، مخلفين وراءهم الصمت والوحشة. والحق أن طبيعة الحياة الجامعية للطلبة والأساتذة ونسيج العلاقات اليومية في ما بينهم وبعملية التدريس وأنشطتها، أضعف وأهزل من أن تبعث الروح والحياة والألفة في البناء الذي شُيّد لاستيعاب ألفي طالب وطالبة، فلا يداوم منهم على الحضور في الكلية والدخول إلى قاعات التدريس، سوى مئات قليلة على مدار السنة الدراسية الجامعية كلها.

لا يبدو أن دراسة للحاجات الوظيفية الفعلية قد سبقت إنشاء البناء الجامعي الجديد الذي صُمّم على الطراز السوفياتي الراحل في ضخامته الأفقية النمطية. فقاعات التدريس أُنشئت وجُهزت كلها متشابهة في أشكالها ومتساوية في ضخامتها واتساعها، لتستوعب الواحدة منها ٥٠٠ طالب وطالبة. لكن طلبة الكليات غير التطبيقية

في الجامعات السورية كلها، لا يداوم منهم على الحضور إلى قاعات التدريس سوى نسبة ضئيلة لا تتجاوز ستة في المئة من المسجلين والمنتسبين. لذا تبقى كل من هذه القاعات الضخمة والواسعة والمتشابهة والنمطية شبه خالية سوى من زهاء ٣٠ طالباً وطالبة يتوزعون متباعدين في أرجائها الخاوية في أوقات الدوام الجامعي طوال العام الدراسي.

ذكّرني هذا بمباني المدارس الرسمية التي أنشأها مجلس الجنوب اللبناني في كثير من المدن والبلدات والقرى اللبنانية الجنوبية والبقاعية في سنوات ما بعد الحرب في لبنان، لتبقى صروحاً عمرانية خاوية وخالية إلا من أعداد ضئيلة من التلامذة، ولتشهد على قوة زعامة الأستاذ نبيه بري وعظمتها، وحضوره كرئيس لـ«حركة أمل» الشيعية والمقيمة على ولائها لنظام الأسد السوري وسياساته في لبنان، تماماً كما تشهد ضخامة القاعات الخالية والخاوية في جامعة حلب على قوة سلطان النظام البعثي في «سورية الأسد».

ثم إن ضخامة قاعات التدريس واتساعها في الكلية الحلبية، جعلا عددها قليلاً، قياساً على كثرة مواد التدريس الجامعي وتنوّع حصصها اليومية. وهذا ما أدّى إلى أن تفيض المواد والحصص أثناء الدوام اليومي عن عدد القاعات اللازمة التي يشغلها طلبة قليلون، فيما لا يجد طلبة آخرون في مادة أخرى، قاعة فارغة يأوون إليها، فتسود الفوضى اليومية عملية التدريس في البناء الجامعي الضخم الذي يضيق بطلبة قليلين، رغم اتساعه وضخامته وخوائه.

لتكتمل صورة هذا البناء الجامعي الذي يمتلئ داخله بالفراغ والفوضى، لا بد من إلقاء نظرة على الكافيتيريا المزدحمة دائماً

بالطلبة وصخبهم، على خلاف قاعات التدريس الفسيحة وشبه الخالية منهم، طوال ساعات الدوام اليومي. سحب دخان التبغ وصخب الموسيقى والأغاني المنبعثة من جهاز تسجيل ومكبرات صوت ضخمة، تبعث على الاختناق في الكافيتيريا المزيّنة جدرانها بعدد وافر من صور السيد حسن نصر الله الأمين العام لـ«حزب الله» الشيعي اللبناني، الملتحم بالسياسات السورية ـ الإيرانية في لبنان.

أما الحال الإنشائية للبناء الجامعي الذي استغرق إنجازه ٢٠ سنة، وحال تجهيزاته، فليستا أفضل من تصميمه الهندسي والمعماري، إذ علمنا أن هناك دعوى قضائية جنائية في حق متعهد تشييده المتهم بالسرقة والاختلاس والغش في الإنشاء والتجهيز. والطلبة كثيراً ما يردّدون أن هزة أرضية لا تتجاوز قوتها ٣ درجات سوف تعرّض البناء للتصدّع والانهيار. وفي السنة الدراسية الأولى ظهرت بعض التشققات الطفيفة في البناء، كما ظهر الاهتراء السريع في التجهيزات الصحية، عدا النش في السقوف وتسرّب الماء من أجهزة التدفئة التي سرعان ما توقفت عن العمل بعد مدة من استعمالها.

المحاضرات الغيابية

كثيراً ما تسمع مدرّسي الجامعة وطلبتها في حلب يقولون إن كلية الآداب والعلوم الإنسانية كناية عن مكب للنفايات. ذلك أن كل من حاز شهادة الثانوية العامة في سورية، من دون أن يخوّله مجموع علاماته الدخول إلى كليات الحقوق والطب والهندسة، ينتسب إلى

كلية الآداب والعلوم الإنسانية لدراسة الفلسفة العامة، أو علم النفس، أو علم الاجتماع، أو الأدب العربي، أو الإنكليزي، أو الفرنسي.

الطلبة المنتسبون إلى هذه الكلية يصعب إحصاء أعدادهم وتحديدها إلا على نحو تقريبي، فيتحدثون تارة عن ٦٠ ألف طالب وطالبة، وطوراً عن مئة ألف. فالطلبة لا يدفعون رسوم تسجيل، ولا يهتمون بغير ورود أسمائهم في قائمة التسجيل بداية العام الدراسي، غير عابئين بالحصول على البطاقات الجامعية، إلا إذا كانوا يحتاجون إليها في تسهيل بعض أمورهم الحياتية والمعيشية، أو للوجاهة والتباهي. أما الأهم من هذا كله فهو تدوين أسمائهم على لوائح التقدّم إلى الامتحانات في نهاية كل فصل دراسي (السنة الدراسية تنقسم فصلين اثنين). ومن ألوف الطلبة الذين يتسجلون في هذه الكلية، لا يحضر إلى قاعات التدريس طوال الفصل سوى المئات. ولا بد أن نذكر أن عدد الطلبة الجامعيين في سورية كلها يراوح ما بين ٣٥٠ و٤٥٠ ألف طالب وطالبة في العام الدراسي الواحد. وهؤلاء يتوزعون على ٤ جامعات: دمشق، حلب، حمص (اسمها جامعة البعث)، واللاذقية (اسمها جامعة تشرين).

لتقديم صورة تقريبية عن حقيقة هذه الأعداد ومعناها وتوزعها، أذكر أن العارفين بأحوال الجامعات في سورية كانوا قد حذروني من ضخامة أعداد الطلبة فيها، قبل وصولي من أميركا أستاذاً زائراً في حلب. وحين دخلت إلى قاعات التدريس في الكلية مطلع السنة الدراسية (٢٠٠٣ ــ ٢٠٠٤)، ووجدت أن عدد الطلبة في القاعات يراوح ما بين ٣٠ و٥٠ طالباً وطالبة، قلت لبعض من الطلبة في القاعة إن عددهم لا يستهان به، قياساً إلى عدد الطلبة الذي يراوح

ما بين ١٠ و٢٠ في قاعات الجامعات الأميركية. لكن أحد الطلبة سرعان ما ضحك قبل أن يقف ويقول لي: نحن الحاضرين هنا والآن يا حضرة الأستاذ، لسنا سوى نماذج (عيّنة) تمثيلية لطلبة هذه القاعة الذين سيصير عددهم ٨٠٠ طالب وطالبة في وقت الامتحانات بعد ٣ أشهر.

بعد أيام انتبهت إلى أن بعضاً من هؤلاء الطلبة ـــ النماذج الحاضرين والممثلين للغائبين، هم وحدهم الذين ينشغلون بتدوين المحاضرات التي ألقيتها في القاعة. قبل نحو أسبوع من نهاية الفصل الأول من السنة الدراسية، قدّم لي طالب من مدوّني المحاضرات ما دوّنه، وطلب مني أن أضع توقيعي على كل ورقة منها. وحين استوضحته الغاية من ذلك، قال الطالب إنه مكلف تدوين محاضراتي لبيعها من مكتب يقوم باستنساخها وبيعها بدوره من الطلبة الغائبين الذين لا يحضرون قط إلى الكلية إلا في أيام الامتحانات. أخذت المدوّنات معي إلى المنزل، فأصابني ذهول حين قرأتها واكتشفت أنها جمل مفككة غير مفهومة.

في النهار التالي أوضحت للطلبة أن الإجابة عن أسئلة الامتحان تتطلب مناقشة نص من النصوص التي تناولتها المحاضرات بالشرح والتعليق، ولا يفيد حفظ المحاضرات المدوّنة، لأنها غير قابلة للقراءة والفهم. إذذاك وقف بعض الطلبة قائلين: أستاذ نحن لسنا في أميركا، نحن أغبياء، ولا نستطيع القيام بما تطلبه منا. حتى إن طالباً منهم قال: نحن حمير أستاذ، ومنذ صغرنا تعودنا على الحفظ الحرفي للدروس قبل الامتحانات، وليس في مقدورنا أن نشرح ونعلق ونناقش.

بعد أيام جاءني الطالب مدوّن محاضراتي إلى مكتبي شاكياً، وطلب مني أن أختصر مدوّناته من ٢٥٠ صفحة إلى ٢٥ صفحة، لأن مكتب الاستنساخ رفض استنساخ المدوّنات، قائلاً له إن الأستاذ المحاضر مصاب بمس في عقله وبإسهال كلامي، وإلا فلماذا تملأ محاضراته ٢٥٠ صفحة من الكلام، ولا يمكن لأي من الطلبة أن يشتري نسخة منها أو يقرأها؟!

رفضت اختصار مدوّنات محاضراتي، فذهب الطلبة إلى رئيس القسم، ثم إلى العميد، محتجين شاكين من طول المحاضرات، فما كان من رئيس القسم والعميد إلا أن قالا لي: ليش مصعّبها أستاذ، شو في بالدني؟! ما بدّا هــ القد، طرّيها استاذ، صلّ ع النبي.

بعد ذلك صرت ألتقي أشخاصاً لا أعرفهم، ولا أعلم أنهم من الطلبة، إذ لم أرَ أحدهم مرة في قاعات التدريس، إلا حين راحوا يسألونني عن المحاضرات ومادة التدريس وأسئلة الامتحانات. وهؤلاء رحت ألتقي بهم خارج البناء الجامعي، في مكاتب البريد أو الهاتف أو شركة الكهرباء، فأدركت أن كثيرين من الطلبة موظفون في المكاتب الحكومية هذه. كم كانت أسئلتهم وتوسّلاتهم تحرجني، حين يطلبون أن أغيّر أسلوبي في التعليم، من دون أن يحضر أحد منهم محاضرة من محاضراتي! ومرة تقدّم مني شخص يعمل في مطعم، قائلاً: صحيح استاذ بدّك تسألنا أسئلة من خارج المحاضرات؟! أما سائق سيارة الأجرة الذي صعدت إلى جانبه مرة، فقال لي: ولو استاذ ليش بدّك تعمل فينا هيك، مفكرنا فلاسفة؟!

في نهار الامتحانات، بعد توزيع الأسئلة على الطلبة، وقف جمع منهم محتجين على ما ورد في السؤال عن نص صغير طلبت شرحه

ومناقشته، فقالوا: شو يعني اشرح وناقش؟ نحن لا نعرف أن نشرح ولا أن نناقش. أما رئيس القسم الذي اشتكى الطلبة لديه، فسألني: شو يعني علّق؟!

حين ظهرت نتائج الامتحان ورسب في المادة التي درستها ثلثا الطلبة، اضطررت إلى مغادرة حلب إلى بيروت، بعدما راح بعض الطلبة الحزبيين يتحدثون عن اتجاهاتي الأميركية في التدريس ووضع الأسئلة. وأذكر أن أحدهم قال لي: ولو أستاذ، أنت أستاذ زائر، وبتسقّطنا في الامتحان؟!

كلية مراقب الدوام

في يومي الأول من العام الدراسي ٢٠٠٣ ـــ ٢٠٠٤ في الكلية، استوقفتني عبارة «مراقب الدوام» التي رحت أسمعها تتردّد كثيراً على ألسنة الأساتذة أثناء تبادلهم الكلام في لقاءاتهم. بعد أيام أدركت أن مراقب الدوام في الكلية أكثر أهمية وحضوراً في شؤونها الأكاديمية والإدارية التنفيذية من العميد ورؤساء الأقسام والمدرسين. شأنه في أهميته وحضوره شأن غيره من أشباهه في الإدارات والمؤسسات العامة في سورية كلها، حيث تجد في كل منها مراقباً أو حارساً إدارياً تنفيذياً يشغل دوراً محورياً في تسيير الأعمال في الإدارة من صغيرها إلى كبيرها.

يشغل مراقب الدوام في الكلية مكتباً صغيراً يداوم فيه ويسيّر منه الشؤون الأكاديمية الإدارية للأساتذة والطلبة. فهو الذي يوزّع برامج التدريس عليهم، ويضبط أوقاته وحصصه ومواده في القاعات. وهو يدير شؤون الحصول على الكتب والمقررات الجامعية. وهذه المهام

مسجلة في دفتر عتيق تراه مطروحاً على طاولة مكتب المراقب نفسه المستمر في وظيفته هذه منذ أكثر من ٢٠ سنة، مع العلم أن البناء الجامعي الجديد للكلية افتتح قبل سنة، فانتقل إليه المراقب من البناء القديم مع دفتره العتيق الذي يروح ينظر في صفحاته الموشكة على التلف من كثرة ما قلّبها متصفحاً، كلما راجعه أحد في الكلية في شأن من شؤونها الأكاديمية والإدارية.

ودخلت إلى واحدة من قاعات التدريس في الكلية لألقي محاضرتي الأولى على الطلبة. القاعة فسيحة مترامية الأرجاء وتتسع لنحو ٥٠٠ شخص، فلم أجد فيها أكثر من ٣٠ طالباً وطالبة جالسين في أرجائها متباعدين على كراسٍ خشبية عارية، قبالة منبر الأستاذ المحاضر العالي الضخم كمنصة القضاة في المحاكم، للشعور بأهميته ومهابته، ولبثّ الرهبة في روع الطلبة وفي القاعة الفسيحة شبه الخالية. على الجدار خلف المنصة لوح يدوّن عليه المحاضر ملاحظاته بقلم حبر خاص، وتستعمل ممحاة خاصة لمحو الحبر عن اللوح. وسرعان ما علمت في حصة التدريس في اليوم التالي، أن عليّ أن آخذ قلمي وممحاتي معي في نهاية كل محاضرة، لأحضرهما معي إلى القاعة في كل مرة، لأن تركهما قرب اللوح على طاولة المنصة العالية، لا يمكن إلا أن يعرّضهما للسرقة.

في حصة التدريس الأولى طُرق باب القاعة، فدخل منه شخص قال إنه أستاذ في الكلية، ورأيت خلفه مجموعة من الطلبة.

ــ عن إذنك أستاذ، هذه القاعة لي ولطلبتي في هذا الوقت، وفقاً لقائمة توزيع حصص التدريس التي حصلت عليها من مراقب

الدوام، وعليك أن تخليها الآن، قال الأستاذ الواقف في باب القاعة وخلفه جمع من طلبته.

ـ لكن مراقب الدوام نفسه هو الذي أرشدني إلى القاعة قبل وقت قليل، قلت للأستاذ، فأجابني بأن عليّ الذهاب مع طلبتي لمراجعة المراقب في مكتبه.

خرجت مع طلبتي الثلاثين، فمشوا خلفي وتوجهنا إلى مكتب المراقب الذي لا يتوقف عن التدخين، فيما هو مشغول دائماً بالرد على مكالمات هاتفية، من دون أن يستطيع التفرغ لأكثر من دقيقة واحدة، لمحادثة الداخلين إلى مكتبه.

لم يكن هذا الاضطراب في توزيع حصص التدريس على القاعات من أعراض بداية العام الدراسي، بل هو استمر على المنوال نفسه في أيام كثيرة متباعدة من العام. وحين سألت المراقب في المرة الأولى، قائلاً له: أين قاعتي، لقد أخذ أستاذ آخر قاعتي؟!، فتح دفتره العتيق وراح يقلب أوراقه باحثاً عن قاعة فارغة في الكلية، ثم أخذ بين الحين والآخر يجري مكالمة هاتفية مستفسراً عن القاعة الفارغة.

وعلمت لاحقاً أن مراقب الدوام يوزع حصص التدريس والقاعات بناءً على علاقاته الخاصة والشخصية بالأساتذة. فإذا كان لا يعرف الأستاذ معرفة شخصية، يباعد بين أوقات حصص التدريس التي في برنامجه اليومي، ولا يهتم بتأمين قاعة شاغرة له ولطلبته، حتى رؤساء الأقسام في الكلية لا يقوون على حمل مراقب الدوام على تدبير شأن ما أو تنفيذه. لذا على الأساتذة أن يخطبوا ود المراقب للحصول على ما يريدون. وهكذا وجدتني مرغماً على تعمّد

ملاطفته كلما دخلت إلى مكتبه، لعلّه يستلطفني كي أتدبر شؤوني في الكلية. وفي الدردشات التي تبادلناها في مكتبه، غالباً ما كان يسألني عن أميركا أسئلة لا تختلف عن أسئلة الأميين.

بروليتاريا الوظائف

مرت أيام قبل أن يسلّمني رئيس القسم في الكلية قائمة المواد والمقرّرات التي عليّ تدريسها. لاحقاً تبيّن لي أن التأخير سببه انتظار مدرّسي الساعات الإضافية الدمشقيين الذين يتمتعون، عرفاً، بأفضلية الحصول على ساعات التدريس هذه، كي يحصّلوا بدلات نقل عالية، حسب المقاييس السورية وحدها.

الأستاذ الجامعي المتفرغ منذ سنوات كثيرة لا يتجاوز راتبه ١٥ ألف ليرة سورية (٣٠٠ دولار) في الشهر، مهما أمضى من سنين في الوظيفة. أما الأستاذ المتفرغ حديثاً فلا يتجاوز راتبه الشهري ما يوازي مئة دولار بالليرات السورية. والأساتذة الجامعيون الثابتون والمتفرغون في الملاك، شأن القضاة، هم عملياً وواقعاً من الطبقة البروليتارية في البلاد، لا من الطبقة المتوسطة، على ما يُفترض أن يكونوا. فالحارس أو العامل أو ناطور البناية السوري الذي يعمل في لبنان يحصّل في الشهر الواحد أكثر من راتب القاضي أو الأستاذ الجامعي في سورية.

حيال هذه الحال يتزاحم الأساتذة الجامعيون المتفرغون في جامعات سورية كافة للحصول على ساعات تدريس إضافية، لكن ليس في المدينة التي يقيمون فيها ويتفرغون للعمل في جامعتها، بل في مدن

أخرى بعيدة، للحصول على بدلات نقل شهرية تعادل ثلثي راتبهم الشهري الثابت. فساعة التدريس الإضافية سعرها ١٥٠ ليرة سورية (٨ دولارات)، لا تسمن حصيلتها الشهرية، إلا إذا أضيفت إليها بدلات الانتقال من مدينة إلى أخرى لتدريس الساعات الإضافية، فيبلغ ما يحصّله المدرّس، إذ ذاك ما يقارب عشرة آلاف ليرة سورية، أي مئتي دولار تضاف إلى راتب التفرّغ.

لذا تجد الأستاذ المتفرغ في جامعة حلب يسعى للحصول على ساعات إضافية في جامعة اللاذقية، لأن جامعة دمشق يفيض أساتذتها عن حاجتها. وتجد المدرّس المتفرغ في جامعة دمشق يسعى لتحصيل ساعات إضافية في جامعة حلب أو اللاذقية، وهكذا دواليك.

أما الأستاذ الزائر مثلي، فيحل حلول نكبة على الكلية التي انتدب للتدريس فيها، ما دام سيحصل على ساعات تدريس يخسرها الأساتذة المنتقلون من مدينة إلى أخرى لتدريس ساعات إضافية تؤمن لهم بدلات الانتقال «السمينة» في المقاييس السورية. وهكذا لم أحصل إلا على «نفايات» المواد، تلك التي لا يستطيع الأساتذة السوريون تدريسها.

المتاهة الإدارية

المواد التي سلموني تدريسها تتطلب معرفة باللغات الأجنبية، الفرنسية والإنكليزية والألمانية، وهي تقتصر على ترجمة نصوص من هذه اللغات إلى العربية، بناءً على قرار صدر قبل ٥ سنوات يجبر الطلبة الجامعيين السوريين كافة على النجاح في هذه المواد،

ليصيروا على معرفة ما بلغة أجنبية. وسرعان ما تبيّن لي أن ليس من أساتذة سواي في الكلية لتدريس هذه المواد، وأن الطلبة الذين عليّ تدريسهم نصوصاً لماكس فيبر وبرنار لويس وبرنارد شو في لغاتها الأصلية، لم يحصّلوا من هذه اللغات الأجنبية سوى بضع كلمات وعبارات دارجة في الحياة اليومية.

حين سلمني مراقب الدوام برنامج التدريس، وسألته عن المطبوعات المتوافرة لمواد الترجمة، قال إن هناك كتاباً مقرراً عليّ أن أطلبه من مكتب بيع الكتب في البناء الجامعي. سألت رئيس القسم (وهو من متخرجي جامعات الاتحاد السوفياتي السابق) عن اسم هذا الكتاب، فقال إنه لا يعرف له اسماً. ولكي يقوم بشيء ما يدل على أنه رئيس قسم، كتب على ورقة عناوين المواد التي عليّ تدريسها، وأحالني مجدداً على مراقب الدوام لمراجعته وليحدّد لي ساعات التدريس وقاعاتها، فحصلت منه أخيراً على قائمة بأسماء كتب المواد المقررة.

حملت القائمة وذهبت إلى مكتب الحصول على الكتب الجامعية، فإذا به أكشاك صغيرة كل منها يبيع كتباً لكلية معيّنة، كالزراعة والطب والعلوم الإنسانية والهندسة. وفي الطبقة التي تعلو هذه الأكشاك مطبعة لطباعة هذه الكتب. ولكل كشك شباك كشباك بيع التذاكر في صالات السينما، يصطف أمامه الأساتذة والطلبة حاملين لوائح الكتب التي يحتاجون إليها. وحين وصل دوري وأعطيت الموظفة في الكشك قائمتي، رأيت الكتب مستفة خلفها في الكشك كيفما اتفق، وسرعان ما قالت إن الكتب التي أطلبها غير متوافرة ولا تعلم عنها شيئاً.

مرّت أيام قبل أن أراجع رئيس القسم للحصول على الكتب. رجوته السعي كي يؤمنها لي، وقلت له إن العام الدراسي قد بدأ ويجب عليّ أن أحضّر مسبقاً المحاضرات التي سألقيها على الطلبة. ما إن سمع كلمة «أحضّر» حتى التفت إليّ مندهشاً مستغرباً، وقال: «تحضّر؟! ماذا تحضّر؟! ألا تعرف الفلسفة وعلم الاجتماع؟ أنت الحائز شهادة دكتوراه من فرنسا، وأخرى من أميركا، وتعرف كل هذه اللغات الأجنبية، وتريد أن تحضّر؟!»!

وسرعان ما انتقل رئيس القسم إلى الكلام عن إدلب، بعدما عرف اسمي وأن أبي من مواليد إدلب، فقال إنه يعرف أهلي وأعمامي والمحامي الذي كلفوه متابعة دعاويهم القضائية في المحاكم، لاسترداد أرضهم التي شملها الاستملاك هناك. بعد هذه المحادثة قال إن الأستاذ الذي كان في السنة الماضية يدرس المواد التي سأدرسها، هو من الحسكة، وأعطاني رقم هاتفه لكي أتّصل به للحصول على الكتب المقررة.

اتصلت بأستاذ الحسكة، فضرب لي موعداً للقائه في حلب بعد أسبوع. وحين أتى، جلب لي كتاباً استنسخته. كان الكتاب في اللغة الإنكليزية، وعلى هوامش بعض صفحاته ترجمات تماماً لبعض المقاطع. وأنا أقلّب صفحات الكتاب، رأيت كلمة «ستوب» مكتوبة بخط كبير في وسط إحدى الصفحات، وإلى جانبها كتبت عبارة: هنا ينتهي الفصل الدراسي الأول.

لاحقاً أحضرت من بيروت بعض كتب الاجتماعيات في اللغة الفرنسية، فاستنسخت بعض فصولها ووزعتها على طلابي. وحين علم رئيس القسم بالأمر جاءني مستهجناً تصرفي، معترضاً على

فعلتي غير المسبوقة في الكلية، إذ كيف لي أن أوزّع صفحات من كتب على الطلبة من دون حصولي على إذن مسبق منه ومن العميد ومن رئيس الجامعة، وصولاً إلى وزارة الثقافة والتعليم العالي، للموافقة عليها، فقلت له أن لا وقت لديّ للقيام بهذا كله، وإنني أتخلى عن تدريس هذه الصفحات للطلبة، إن أراد، وهذا ما حصل، لأنني كنت قد خبرت بعض الشيء عن حال الإدارة في سورية.

وأنا أستمع من رئيس القسم إلى سلسلة المراتب الإدارية التي عليّ حيازة موافقتها وتواقيعها على استنساخ فصول من كتاب وتوزيعها على الطلبة، استغربت عدم تسميته مراقب الدوام، رغم أنه محور الحياة الأكاديمية في الكلية.

مرة، بعدما لاحظت أن الدروس تتوقف تماماً في الكلية بعد ظهر نهار كل ثلاثاء، سألت المراقب عن السبب، فقال إن الدروس لا تتوقف في هذا الوقت، بل هي ساعات تدريس فعلية للعمل الحزبي. ما هو العمل الحزبي؟ سألت المراقب، فجاوب بأن المنتمين إلى حزب البعث من الطلبة والأساتذة يعقدون اجتماعاتهم الأسبوعية في الجامعة في هذا الوقت.

لاحقاً علمت أن الحزبيين في الجامعة بين الأساتذة والطلبة لا يتجاوز عددهم ٦٠ شخصاً، ويعقدون اجتماعهم بين الثالثة والسادسة من كل نهار ثلاثاء، فتتعطل الدروس تماماً في الكلية.

الهيبة والرثاثة

حين دخلت للمرة الأولى إلى قاعة التدريس، وهبّ الطلبة الثلاثون

واقفين لاستقبالي استقبالهم شخصاً مرهوب الجانب، انتابني ضيق وخجل من نفسي ومن الطلبة الموزعين متباعدين في القاعة الفسيحة الموحشة. الطالبات اللواتي كان عددهن في القاعة ما بين ١٥ و٢٠ طالبة، كنّ محجبات في معظمهن. وحين وجّهت إليهن أسئلة غايتها إقامة تعارف أوّلي بيني وبينهن، استغربن أسئلتي التي لم تكن تتجاوز معرفة أسمائهن وأماكن سكنهن. وسرعان ما علمت أن غالبيتهن راسبات في السنة الدراسية الماضية. سألتهن عن الموضوعات التي درسنها، قائلاً إنني أستاذ جديد في كليتهن، ولم أستطع بعدُ الحصول على الكتب والمقررات الدراسية المطلوبة، ولا أعلم ما هي مواد التدريس. وهنا كانت دهشتهن عظيمة، إذ كيف لأستاذ يقف أمامهن على المنبر الضخم كمنابر المحاكم، أن يقول إنه لا يعلم ولا يعرف؟!

كانت الطالبات متشابهات، ولا يمكن التمييز بينهن، ما دامت أجسامهن مغطاة باللباس الشرعي، ووجوههن لا يظهر منها من وراء الحجب سوى أعينهن. وسرعان ما علمت أن حضورهن إلى قاعات التدريس ليس سوى نوع من الروتين اليومي الذي تعوّدن عليه وألفنه، ولا شاغل لديهنّ غيره لقتل الوقت والفراغ الكبير في حياتهن.

لا أتذكر أن طالبة واحدة دخلت منفردة إلى مكتبي الكبير الموحش في الكلية، لمراجعتي في شأن يتعلق بمادة من مواد التدريس وموضوعاتها. دائماً كنّ يحضرن مجموعات لمراجعتي، ويحرصن على أن يكنّ مجموعات في حلهن وترحالهن في أي وقت ومكان في الكلية. أما الطلبة الأربعة الذين دخلوا مرة إلى مكتبي، فظلوا

واقفين قبالتي وهم يحادثونني جالساً، فقلت لهم أن يجلسوا، فتلفتوا حولهم غير مصدّقين أنني إليهم أتوجّه بكلامي، وغير متوقعين أن أستاذاً يعاملهم في مكتبه معاملة إنسانية عادية، إذ كيف لطالب أن يجلس في حضرة أستاذه؟ لذا قال أحدهم إنه للمرة الأولى يسمع أستاذاً يدعو طالباً إلى الجلوس في مكتبه. وكم كان استغراب الأربعة مضاعفاً حينما طلبت من خادم مكتب الأساتذة الذي يسمّى الآذن، أن يجلب لهم القهوة أو الشاي.

غالبية طلبة الكلية يستمرون طلبة فيها أكثر من عشر سنوات. لا لأنهم لا ينجحون في الامتحانات فحسب، بل لأن لا حساب للزمن ولمراحل العمر في حياتهم التي تختلط فيها المراحل والأدوار والأحوال. فهم يعملون أيّ عمل متوافر ويستطيعون إليه سبيلاً أثناء حياتهم الجامعية الطويلة التي يتزوّج بعضهم وينجب في أثنائها. ومنهم من يتخرج من الجامعة من دون أن يغيّر تخرّجه شيئاً يذكر في حياته وعمله وشخصيته. فمن عثر على عمل ما، متقطع، في سنته الجامعية الأولى، يستمر في عمله هذا بعد تخرّجه، أو ينتقل إلى آخر لا يختلف عنه، أو يظل عاطلاً من العمل إذا كان كذلك في حياته الجامعية. فالبطالة المقنّعة المرتّتة والاعمال التي لا تراكم خبرات ولا تحتاج إلى خبرات والأقرب إلى البطالة، ترتفع نسبتها بين متخرجي الجامعة. حتى إنك لا تستطيع التمييز بين الطالب العامل والعاطل من العمل، والمتخرج عاملاً أو عاطلاً، في مجتمع تستنقع فيه الحياة والأعمال والأدوار وتتخثر.

عرفت طلبة بدأوا حياتهم الجامعية في عقد الثمانينيات من القرن الماضي، فلم يتخرجوا في بدايات الألفية الثالثة. والنظام الجامعي

وبرامج التدريس المستمرة على حالها منذ زمن بعيد، تناسب هذه الحالات. ذلك أن الانفصال بين مواد التدريس والنجاح المنفرد في كل منها، يتيحان تراكم المواد التي لا ينجح فيها الطالب ويحملها من سنة إلى أخرى إلى ما لا نهاية.

حين زرت للمرة الأولى المكتبة الجامعية في كلية الآداب والعلوم الإنسانية، سألت الحارس عن مكان وجود البطاقات التي تحوي فهارس بمحتويات المكتبة. وقف الحارس حائراً صامتاً، فأدركت أنه لم يفهم سؤالي، كأنني أتكلم لغة أجنبية غريبة تماماً عن سمعه، وقال إن عليّ مراجعة مديرة المكتبة. وحينما دخلت مكتباً كان بابه مفتوحاً، رأيت جمعاً من الموظفين والموظفات جالسين حول سخّانة كهربائية كنت قد رأيت مثلها في مكتب مراقب الدوام وغيره من المكاتب. كان المتحلقون حول السخّانة يتدفأون منتظرين غليان إبريق الشاي وركوة القهوة. الصمت والفراغ منتشران في أرجاء المكتبة كلها، إلا في هذا المكتب الذي اجتمع فيه الموظفون كلهم. قلت إنني جئت باحثاً عن بعض الكتب، وسألتهم عن مكان البطاقات. وحين قال لي أحدهم إن عليّ مراجعة مديرة المكتبة وطلب الإذن منها، فكرت أيضاً أنهم لم يفهموا سؤالي.

أرشدوني إلى مكتب المديرة، فذهبت إليه، وأدخلتني سكرتيرة إلى مكتبها. قلت للمديرة إنني أبحث عن كتب أريد أن أعرف إن كانت موجودة أو غير موجودة في المكتبة، فجاوبتني بأن لا فهارس بطاقات بأسماء الكتب لديهم، وأضافت أنهم بدأوا في ثمانينيات القرن الماضي بمشروع وضع فهارس للكتب وتوثيقها على نظام

ماكنتوش في الكمبيوتر، ثم توقف المشروع لأن هذا النظام أصيب بعطل فني، وبقي على حاله من دون إصلاح. وحين سألتها عن مكان وجود الكتب التي أبحث عنها، قالت إن محتويات المكتبة كلها موضبة في مستودع مقفل، وعليّ تزويد الموظفين بأسماء الكتب التي أريد، كي يبحثوا عنها ويحضروها لي، فأمرٌ بعد أيام للحصول عليها إن كانت موجودة واستطاعوا العثور عليها.

ثم علمت أن لا أحد يدخل إلى المكتبة المهجورة، ولا حتى الموظفون والموظفات الذين يمضون سحابة نهارهم يتنقلون من مكتب إلى آخر، يتحادثون ويشربون الشاي والقهوة ويدخنون. أما صالة القراءة الخالية على الدوام، فوجدت طاولاتها وكراسيها مكوّمة في ناحية منها، فقيل لي إنها على هذه الحال منذ استعمالها صالة لمعرض كتب افتتحه محافظ المدينة.

قلت أذهب إلى مكتبة كلية الحقوق التي قيل لي إنها تحوي ٢٠ ألف كتاب، لعلّ حالها تختلف عن حال مكتبة كلية الآداب والعلوم الإنسانية. دخلت المكتبة الحقوقية، فإذا بها مؤلفة من عدة طبقات حول بهو داخلي فسيح، ويُصعد إليها من درج ضيق ليس من سياج على جنباته، ويخاف من يصعد درجاته من الوقوع في البهو الذي قالوا إن جدرانه الجانبية أزيلت قبل أكثر من سنة، بغية إنشاء مصعد لم يُركّب، فبقيت سفرة الدرج بلا جدران تُركت بقايا ردمياتها مكوّمة على الأدراج. تجاوزت الخوف والردم، صاعداً الدرج إلى مكتبة الـ ٢٠ ألف كتاب حقوقي، فرأيت الكتب مكوّمة كيفما اتفق في القاعات. وحين سألت عن صالة القراءة، أرشدوني إلى قاعة خالية تماماً من الكراسي والطاولات، ثم أعلموني أن المكتبة

كلها مقفلة لأسبوعين اثنين للقيام بجردة لإحصاء موجوداتها من الكتب التي يعدّها الموظفون يدوياً وكتاباً كتاباً. أما مناسبة الجردة الإحصائية هذه فكانت تسريح بعض الموظفات من وظيفتهن في المكتبة لإحالتهن على التقاعد. ولأنني لم أفهم الصلة بين إحالة موظفين أو موظفات على التقاعد من الخدمة، وبين الجردة الإحصائية، قيل لي إن أعمال جرد الكتب وإحصائها تجرى كلما أحيل أي من الموظفين على التقاعد، أو انتقل من وظيفة إلى أخرى، لتحميله مسؤولية الكتب المفقودة في حال نقصان عددها في المكتبة.

لقراءة كتب اخترتها من المكتبة، أحضروا لي كرسياً وطاولة ووضعوهما في صالة فسيحة خالية تعلو فيها درجة الرطوبة في طقس كاد برده يمرضني. وحين قلت لهم إنني سآخذ الكتب لقراءتها في البيت، طلبوا مني بطاقتي الجامعية، التي لم أكن طلبت الحصول عليها بعد من إدارة الكلية. أما حين طلبتها من الموظف الإداري المختص، فقال إن الأستاذ الزائر لا يحق له الحصول على بطاقة. وبعد مراجعات كثيرة وصلت أخيراً إلى العميد، فكتب لي رسالة بخط يده، وسمّاها «أمر مهمة»، على أن ألصق عليها صورتي، كي تسهل عبوري الحدود السورية إلى لبنان.

الامتحانات وحقيبة السفر

لإدارة الامتحانات في الكلية جهاز خاص تشغل مكاتبه طبقة كاملة من المبنى الجامعي، ويعمل فيه عدد كبير من موظفين لا عمل لهم على مدار السنة سوى انتظار مواعيد الامتحانات.

وفي نهاية عامي التعليمي الأول طلب مني مكتب إدارة الامتحانات أن أضع أسئلة الامتحان، فوضعتها وسلمتها إلى مراقب الدوام الذي قام بطباعتها واستنساخها، وقال إن عليّ تسلمها من مكتب الامتحانات. هالني أن الموظف أراد تسليمي ٧٠٠ نسخة من أوراق الأسئلة وعدداً يماثلها من الكراسات المخصصة لإجابة الطلبة الذين لم يكن عددهم في قاعات التدريس يتجاوز ثمانين طالباً وطالبة طوال السنة، فأعلمني الموظف بأن الثمانين ليسوا سوى عيّنة للذين لا يحضرون أبداً إلى قاعات التدريس ويتقدّمون للامتحانات في نهاية العام الدراسي.

تجاوزت هذه المسألة، وهممت بالخروج من مكتب الامتحانات، فناداني الموظف قائلاً: شو استاذ لوين رايح، ما بدك تاخد أوراق الأسئلة والكراسات؟ وحين سألته إلى أين آخذها، جاوبني بأن عليّ إخراجها من الكلية، لأنها قد تتعرّض للسرقة في حال بقائها في المبنى، وأن القانون والعرف يحتّمان على كل أستاذ أخذها والإتيان بها في صبيحة نهار الامتحان. إلى أين آخذها، وكيف أحملها؟ سألت الموظف مجدداً، فقال: لا أعرف، لا أعرف... خذها إلى بيتك إن شئت. وفي النهار التالي أحضرت حقيبة سفر كبيرة إلى مكتب الامتحانات ونقلت فيها أوراق الأسئلة والكراسات إلى بيتي، وفي الحقيبة نفسها أعدت الأوراق إلى قاعة الامتحان في نهاره المحدد.

وكان عليّ أيضاً أن أمكث في مكتب إدارة الامتحانات ساعات لتسلم كراسات إجابة الطلبة الـ ٧٠٠ بعد عدّها كراساً كراساً في حضوري وحضور الموظف ومراقب الدوام، قبل حملها إلى بيتي في

حقيبة السفر. بعد انتهائي من التصحيح ووضع العلامات، أعدت الكرّاسات وسلمتها «عداً ونقداً» لموظفة في مكتب الامتحانات. وفي المساء اتصلت بي الموظفة هاتفيا وطلبت مني الحضور فوراً إلى المكتب لأمر هام ومستعجل لا يمكن تأجيله، فلبيت طلبها. في المكتب راحت الموظفة تسألني عن برنامج التصحيح، واعترضت على تدويني العلامات على الكراسات بالأرقام الأجنبية، ولاحظت أنني لم أضع توقيعي قرب كل علامة دوّنتها مقابل الإجابة عن كل سؤال، وأن التواقيع التي وضعتها قرب العلامة الإجمالية فقط، مدوّنة بالإنكليزية، فيما القانون السوري يطلب أن تكون التواقيع بالعربية على كل معاملة في الدوائر الرسمية. وهذا كله إضافة إلى عدم تدوين علامة صح أو خطأ على الإجابة عن كل سؤال، يجعل الأوراق غير مصحّحة، ما يعني أن عليّ أن أعيد تصحيح الكراسات كلها من جديد.

قلت للموظفة إنني لست على استعداد للقيام بأي شيء مما طلبته، وغادرت مكتبها. وفي اليوم التالي ركبت سيارتي وغادرت حلب إلى بيروت.

البيروقراطية الحكومية

ليست الأعمال الإدارية الموصوفة في الكلية، إلا عيّنة لما هي عليه الحال في الإدارات الرسمية السورية كلها. فإذا أراد أستاذ الحصول على كرسي لمكتبه في الكلية، يحتاج إلى ملء قسيمة أو استمارة ليرسلها إلى العميد عبر التسلسل الإداري. والعميد بدوره يرفع القسيمة إلى رئاسة الجامعة التي تعيدها إلى صاحب الطلب،

بالتسلسل الإداري نفسه. هذا يعني أن العام الدراسي قد ينتهي قبل تنفيذ الطلب. وإذا أراد أستاذ السفر لأمر أكاديمي ما، يحتاج إلى معاملة من هذا النوع، غالباً ما لا تنجز إلا بعد موعد السفر. وإذا كان يحق للأستاذ شراء سيارة خاصة مخفوضة الرسوم الجمركية، فإن المعاملة الإدارية التي تجيز له اقتناء السيارة لا تنجز قبل سنة أو سنتين بعد تسليم الطلب إلى الإدارة المختصة.

هذا العالم البيروقراطي من الأوراق والأختام والتواقيع والطوابع، له قنواته التي غالباً ما تتقاطع في كل إدارة عند موظف صغير أو بسيط، يشغل دور الوسيط الذي لا تُنجز معاملة من دون مرورها في مكتبه الذي تصب فيه شبكة من علاقات المحسوبية والاستزلام والصلات الحزبية والأمنية والعائلية والعشائرية التي تشكل الرشوة محورها الأساسي.

من الأمثلة على هذا العالم البيروقراطي ما يحدث في دعاوى فك استملاك الأراضي في المحاكم الإدارية العقارية. فأيّ محام يكلفه مالك لمتابعة دعوى قضائية لتحرير أرضه من الاستملاك الإداري الحكومي الرسمي الشائع في سورية، يقول للمالك إن كل دعوى غير مرفقة برشوة للقاضي ليست سوى مضيعة للوقت من دون طائل ولا جدوى. وغالباً ما يطلب المحامي الحصول على نصف مساحة الأرض أو ما يعادل قيمتها من المال، لتخليصها من الاستملاك. لذا تجد كثيرين من محامين وقضاة يملك الواحد منهم أراضي واسعة حصل عليها من الملاك المشمولة أرضهم بقوانين الاستملاك. وقد سمعت أخباراً عن محامين سجنوا لكثرة ما ارتشوا ورشوا القضاة ورؤساء المحاكم الإدارية التي لا يمكث فيها قاض أكثر من سنتين

أو ثلاث، ينقل بعدها إلى محكمة أخرى تاركاً لغيره من القضاة أن يستفيدوا من الرشى. وغالباً ما لا تُبت دعاوى الاستملاك قبل خمس سنوات أو ست، ينتقل في أثنائها القاضي الذي تقاضى رشوة، تاركاً للقاضي الجديد، الحصول على رشوة جديدة من المالك صاحب الدعوى. وتتواتر الأخبار عن قضاة ومحامين دخلوا السجن لكثرة ما ارتشوا.

محاكمة بعثية

رئيس قسم الفلسفة في الكلية مسيحي ماروني من بلدة مشتى الحلو، وكان قد نال منحة حزبية بعثية لمتابعة دراساته العليا في إحدى جامعات الاتحاد السوفياتي السابق، فتخرج منها وعاد للتدريس في الكلية. أثناء تدريسي علمت أن الجماعة الحزبية البعثية الطالبية اتهمته بسوء الإدارة في قسم الفلسفة الذي يرأسه، واستدعته إلى جلسة محاسبة أو محاكمة حضرها الطلبة البعثيون في الكلية. من التهم التي وجّهها إليه الطلبة في جلسة المحاسبة التي اقتصرت عليهم وحدهم من دون حضور أي أستاذ أو إداري في الكلية، أنه يتسلط على الطالبات المحجبات ويضايقهن ولا يحترم تقاليدهن ومشاعرهن الدينية، لأنهن محجبات. والتهمة الأخرى التي وُجهت إليه أيضاً، أنه طلب من طالب مؤمن نال منحة للدراسة في روسيا، أن يجلب له من هناك بعض زجاجات الفودكا.

أخيراً انتهت جلسة محاسبة الطلبة الحزبيين البعثيين أستاذهم ورئيس قسم الفلسفة في كليتهم، باتخاذهم قراراً مبرماً غير قابل سوى للتنفيذ، بعزله من وظيفته في رئاسة القسم، وعودته أستاذاً عادياً للفلسفة في الكلية، مع العلم أنه حزبي بعثي، وبيّنت لي صلتي

الأكاديمية به أنه كان يسيء التصرّف في عمله الإداري والأكاديمي، كغيره من الأساتذة والإداريين من دون أن يختلف عنهم في شيء سوى أنه مسيحي ماروني. وحين يتحوّل سوء التصرّف قاعدة عامة في مؤسسة تعليمية أو في غيرها من المؤسسات، على ما هي عليه الحال في سورية، لا تعود حالة سوء التصرّف تنطبق عليه، ولا تعود مرئية، ظاهرة أو نافرة، بل تصير سلوكاً عادياً، وغير قابل للمحاسبة التي لا بد أن تستهدف الذي يحسن التصرّف، والذي يبديه سلوكه هذا شخصاً نافراً وخارجاً على القاعدة المألوفة السائرة. أما من يحاسب على سوء تصرّفه فعلاً، فغالباً ما يكون الباعث على محاسبته أمراً لا علاقة له بما اقترفه من إساءات، بل وثيق الصلة بالمحسوبيات والنكايات والأحقاد الحزبية والإدارية وعصبياتها الخفية.

وحادثة فصل رئيس قسم الفلسفة من وظيفته التي مرّت مرور الكرام في الكلية، وكأنها أمر عادي، جعلتني أعلم أن الطلبة الحزبيين البعثيين في أي من كليات الجامعة السورية، يستطيعون فصل العميد من وظيفته، إذا رغبوا وأرادوا.

الفردية المختنقة

تشكل الطالبات المحجّبات أكثر من نصف عدد الطالبات في الكلية. وإذا أشرنا إلى أن المسيحيات لا يتحجبن، وأن الكرديات لا يقبلن بكثافة على ارتداء الحجاب، نستنتج أن الغالبية الساحقة من الطالبات العربيات المسلمات هي التي تقبل على ارتداء الحجاب. وهذا تتنوّع اشكاله وألوانه، ليبرز الأسود الثقيل وحاجب الجسم كله سوى العيون، بروزاً مشهوداً، حتى في كافتيريا الكلية التي أخذت

بعض الطالبات يدعونني إليها للجلوس معهن، جماعات جماعات، من دون أن تدعوني أيّ منهن مفردة لمجالستها وتناول القهوة. وطوال سنتين دراسيتين في الكلية رأيت طالباتها لا يدخلنها ولا يخرجن منها إلا شللاً وجماعات. كأن الواحدة منهن تخاف أو لا تقوى ولا تتجرأ على التنقل والجلوس منفردة. وحين فكرت في سلوك الطالبات هذا في مرآة ما علمته وتصوّرته عن حياتهن ومجتمعهن العائلي والأهلي، ونمط العلاقات السائدة في دوائر المجتمع العامة، رأيت أن حياتهن الجامعية شللاً وجماعات أمر عادي وطبيعي. ذلك أن لا شيء في حياة الطالبات يستدعي أن تكون الواحدة منهن بمفردها، إذ ما الذي ستفعله طالبة في حال انفرادها بنفسها في الكافتيريا أو في غيرها من الأماكن في الكلية؟ وإذا انفردت طالبة بنفسها وجلست وحدها في الكافتيريا، فلا بد أن تشعر بشيء من الاضطراب واللادعة واللاأمان، كأنها جسم زائد ومحاصر ومراقب ومعزول وسط الجموع المتكوكبة كتلاً وجماعات.

مرة دعتني طالبة محجّبة إلى تناول القهوة والتحادث في الكافتيريا. كانت أختها معها، كأنما لتحرس إحداهما الأخرى، ولتشعرا بالأمان، وبأن للواحدة منهما قرينتها التي تتكئ عليها، فلا تباشر العالم بمفردها. قالت لي الطالبة التي دعتني إلى مجالستها إنها تدرس الأدب الإنكليزي، وتريد التحادث معي بالإنكليزية كي تتمرّن على المحادثة في هذه اللغة التي تدرس آدابها. لذا طلبت مني أن نلتقي ساعة في النهار لهذه الغاية.

بعد لقاءين أو ثلاثة، صارت تأتي وحدها للقائي من دون شقيقتها

القرينة. وبعد لقائنا الثاني منفردين أقلعت عن محادثتي بالإنكليزية، وانطلقت تروي لي بالعربية معاناتها مع أهلها وإخوتها، ومشاكلها العاطفية والجنسية، وشعورها بالاختناق في حياتها.

من أحاديثها استنتجت أن لا البيئة العائلية القاسية والمغلقة التي تعيش فيها وتحاصرها، ولا الحجاب الذي ترتديه، يمنعانها من أن تجد متنفساً ما ومسارب لحياتها. فهي تمتلك هاتفاً شخصياً محمولاً، وتأتي إلى الجامعة، وتجلس في الكافتيريا، وتشاهد ما تريد على المحطات التلفزيونية الفضائية. لكن هذه الحرية لا تتيح لها أبداً التعبير الفعلي عن حياتها ورغباتها وإرادتها الشخصية، ولا عن المشكلات التي تعيشها، ولا عن مكنونات نفسها. وهي لا تعلم موضوعاً لرغبتها وإرادتها، بل تعيشهما على نحو غامض، ممتلئة بالضيق والحصار الدائمين، من دون أن يكون مصدر هذين الضيق والحصار خارجياً، بل داخلي شخصي وفردي، ومن دون أن تدرك مصدرهما الفعلي أو الحقيقي، كأنهما يلابسان نفسها والهواء وطبيعة الحياة اليومية ودوائرها كلها، على ما فهمت من الطالبة، حين قالت في إحدى جلساتنا في الكافتيريا، إنها موشكة دائماً على الانفجار من شدّة الكبت الداخلي في حياتها اليومية. والأصح القول، على ما استنجت، أن هذا الكبت لا يلابس حياتها على نحو شخصي ومنفرد، بل يلابس دورة الحياة اليومية الخاصة والعامة. لكن الفرق بين هذه الطالبة والأخريات من زميلاتها أن شيئاً ما في نفسها، قد يكون دراستها الأدب الإنكليزي، هو ما حملها على إدراك رغبات ما في نفسها، أو زوّدها بهذه الرغبات الغامضة التي لا معادل لها في دوائر حياتها كلها. لذا ارتدّ إدراكها هذه الرغبات ألماً غامضاً في نفسها وكيانها، نتيجة عدم عثورها على ترجمة لذاك

النازع الفردي الغامض، في دوائر حياتها الخاصة والعامة. وهذا ما ضاعف شعورها بالكبت الذي يعيشه الآخرون والأخريات بوصفه حالاً عادية وطبيعية، فلا يشعرون به في أنفسهم وحياتهم. وقد يكونون يدفعونه عنهم بتلاؤمهم مع طبيعة حياتهم التي لا شيء فيها ولا في أنفسهم يدفعهم إلى تحسّس آلام الكبت وإلى طلب الخروج منه أو معاكسته، ما داموا يصرفونه في حياتهم الطالبية شللاً وجماعات، ولا يرون أنفسهم إلا في مرايا هذه الشلل والجماعات التي تردم شعورهم بالكبت والضيق في حال انفرادهم بأنفسهم.

ولاح لي من أحاديثي مع طالبة الأدب الإنكليزي هذه، أن وسائل التواصل والترفيه الحديثة، كالهاتف الخلوي والتلفزيون والانترنت وحتى دراسة الأدب الانكليزي أو الفرنسي ـــ فيما هي تنشئ في مخيّلات الشابات والشبان ووعيهم أطياف صور جديدة مفارقة للنفس والعالم، تحضهم على الابتعاد عن نمط الحياة التقليدية المحافظة وحصارها ـــ تضاعف الكبت والضيق في أنفسهم، بدل أن تقلل منهما في المجتمع السوري. كأن ما تتيحه الحياة الجامعية والجلوس في الكافتيريا من تعارف وتخالط وتلاقٍ بين الشابات والشبان، يضاعف الكبت الجنسي والعاطفي ولا يصرفه. فما تنشئه هذه الأدوار والوسائل والوسائط الجديدة، لا يفضي إلى إنشاء قيم ودوائر جديدة للعيش، تتيح مثلاً قيام علاقة أو صلة عاطفية أو جنسية بين شاب وفتاة. فتقتصر العلاقات على اللقاء شللاً وجماعات، والتحادث في أمور لا أثر فيها للتعبير الشخصي الذي يظل مكتوماً، بل ضائعاً، أو يتحوّل ثقلاً جديداً مؤلماً لمن تصيبه أعراض فردية لا يجد لها منفذاً ولا عبارة في حياته، فتضاعف شعوره بالكبت والضيق والحصار كطالبة الأدب الإنكليزي.

فكيف لطالبة مثلها محجّبة تتخذ أختها قرينة لها، ولا تجد غير أستاذها في الجامعة سبيلاً إلى البوح عن حالها لتحادثه عن ضيقها بنفسها، وتتوسّل اللغة الإنكليزية للبدء بهذا البوح الذي استعارتني كبديل عن ضائع لمباشرته، فقالت إنها معجبة ببرنارد شو ووليم فولكنر، وتكتب يوميات عاطفية مكبوتة، وليس من سبيل لتطوير كتابتها هذه ونشرها، ولا يحتمل أن تصير صلتها بمن اختارته وسيطاً عاطفياً وتعبيرياً مستعاراً (أي أنا أستاذها) صلة شخصية ــ تخاف أصلاً من الإقدام عليها ــ كيف لمن هذه حالها أن تختبر ما تعيشه وتعبّر عنه، في مجتمع وثقافة ولغة مدارها الكبت وتغييب التجربة والاختبار الشخصيين.

لذا فكرت كم شبيهة حال الفتاة هذه في اختناق مشاعرها الفردية والشخصية وضياعها، بحال المجتمع السوري الذي، حين يكتم النظام السياسي البعثي ــ الأمني أنفاسه، ويحاصر الناس في أنفسهم وأجسامهم، يترك هذه النفوس والأجسام في حال من الاستنقاع والرثاثة والكتمان السياسي والاجتماعي.

عشائر وعمران عشوائي

حضور الطلبة من أصول أو مصادر عشائرية هو الأقوى والأبرز في الكلية، مع العلم أن نسبتهم من مجموع الطلبة لا تتجاوز ٢٥ في المئة. يقيم هؤلاء ويعيشون في مناطق عشائرية التركيب والعلاقات الاجتماعية، تمتد خارج دائرة يبلغ طول قطرها ٥٠ كلم، هي محافظة حلب، أي المدينة مع ريفها الزراعي القريب. وحين رافقت طالباً في زيارة لهذه المناطق العشائرية، لم أبصر في الأمداء القاحلة

سوى تجمّعات سكانية فقيرة العمران، كأنها مضارب طينية للبدو. معظم طلبة هذه التجمعات لا يحضرون إلى الكلية إلا في مواسم الامتحانات الفصلية. بعضهم يقيم في ضواحي السكن العشوائي الناشئة في جوار مدينة حلب، وهم جميعاً قليلو الخبرة في الزراعة، على خلاف الطلبة المنحدرين من أصول فلاحية في الدائرة الزراعية حول حلب. وهؤلاء يشكلون أيضاً ٢٥ في المئة من الطلبة.

نسبة الـ ٥٠ في المئة الباقية من الطلبة من بيئات مدينية، وهم من عائلات متباينة المراتب الاجتماعية، منها الفقيرة والمتوسّطة وما دون المتوسطة بقليل. فالجامعة الرسمية في سورية هي عماد التعليم الجامعي، وهي المفضّلة من الفئات الاجتماعية كافة، لأن الجامعات الخاصة الناشئة حديثاً، ينحدر فيها مستوى التعليم إلى الحضيض. ومن احتكاكي بالطلبة من الفئات الثلاث، استنتجت أن أبناء الفئات المدينية في سورية، وفي البلدان العربية الأخرى على الأرجح، عديمو الخبرة العملية في شؤون الحياة، وفي العمل اليدوي الحسي، لأنهم يعيشون في بيئات شبه مغلقة وفكرتهم عن العالم والعيش وشؤون الدنيا والحياة مستمدة من قيم محافظة ومدرسية وتفتقد الحس العملي والإدراك والخبرات الحسية.

واحد من طلابي المقيمين في بيئة عشائرية ويدرس علم الاجتماع، عرض عليّ مرة أن يؤمن لي ما أحتاج إليه من مادة المازوت للتدفئة ومادة البنزين لسيارتي، وقال إنه يعمل موظفاً ملحقاً بوزارة النفط، ومعجب بمدرسة شيكاغو. في البداية لم أفهم ما الذي يعنيه في كلامه على الإعجاب بهذه المدرسة التي لم أكن أتوقع أن اسمها

معروف بين الطلبة، إلى أن قال لي إنه قرأ كتاباً في ترجمة مصرية عن مذهب مدرسة شيكاغو الأميركية في علم الاجتماع، إذ نبهته قراءته الكتاب إلى إمكان وصف طبيعة العمران والعيش في حيّ العمران العشوائي الذي يقيم فيه. أدهشتني ملاحظته، كما كانت قراءته الكتاب قد أدهشته هو أيضاً، وفتحت بصيرته على النظر السوسيولوجي الوصفي للبيئة التي يعيش فيها.

كنت أعلم أن لغتنا وثقافتنا العربيتين الإسلاميتين المنحدرتين من أصول فقهية وصوفية، تبتعدان عن الوصف. فالفقه والتصوّف يمليان على الناس أحكاماً تقول لهم ماذا عليهم أن يفعلوا وكيف عليهم أن يسلكوا في حياتهم، من دون أي وصف لأحوال هذه الحياة ووقائعها وشؤونها الموضعية في الزمان والمكان المحددين، كأن ليس من واقع ووقائع في هاتين اللغة والثقافة.

ملاحظة هذا الطالب حملتني على أن أقترح عليه القيام بدراسة وصفية لحيّ العمران العشوائي الذي يقيم فيه، فزرناه معاً أكثر من مرة، لأكتشف أن الطالب البالغ من العمر ٤٠ سنة والموظف في مكاتب وزارة النفط في حلب، متزوّج بابنة عمته وأنجبا ٧ أولاد، وعضو في حزب البعث الحاكم، ويقيم أهله في قرية عشائرية تبعد عن حلب أكثر من ٥٠ كلم شرقاً.

لاحقاً قمنا بزيارة هذه القرية أكثر من مرة أيضاً. في الطريق إليها لاحظت أن لا زراعة ولا عمران إلا شحيحين فقيرين في الخلاء شبه المقفر. فكلما كنا نقطع نحو عشرة كيلومترات كان يطالعنا تجمّع سكني يحوي ١٠ أو ١٥ بيتاً طينياً متقشفاً، من دون أي أثر

لنبت أو شجر أو لحياة خارج محيط البيوت الطينية حول بئر ماء تعود إلى العصر الروماني، من دون أن تُحفر بئر واحدة اضافية منذ ذلك العصر.

توطدت علاقتي بهذا الطالب الذي تنبهت إلى أن كثرة الأدوار والدوائر والبيئات التي ينتمي إليها ويتنقل بينها، تجعله مختلفاً عن غيره من الطلبة الآخرين الذين عرفتهم واحتككت بهم. فعمله ودوره الحزبي البعثي، ووظيفته في وزارة النفط، وسكنه في حيّ العمران العشوائي، وانحداره من بيئة عشائرية لا يزال على صلة دائمة بها، إضافة إلى أنه طالب في علم الاجتماع في الكلية ـــ ان هذا كلّه ضاعف خبراته ومداركه وجعلها متداخلة ومتشابكة، فأمست حساسيته قابلة للمقارنة والربط والتركيب. هذا ما دفعني إلى الاعتماد عليه في دراسة اجتماعية عن أحياء العمران العشوائي وتركيبها الاجتماعي وصلتها بالبيئات العشائرية. فغيره من طلبة الكلية الذين كنت أوجّههم نحو دراسة العمران في شارع مديني، أو أشكال واجهات المتاجر في المدينة، أو أشكال اللباس والموضة الدارجة، أو نمط الحياة اليومية وعلاقاتها، كانوا يستغربون ويتضاحكون، قائلين: «عم (انك) تمزح، استاذ!». فعلم الاجتماع عندهم هو ما يقرأونه في كتاب ويحفظونه غيباً أو عن ظهر قلب، وعلى نحو مدرسي، ثم يكتبون بعضاً منه على صفحات كراسة الامتحانات.

أما الطالب المتعدّد الأدوار والبيئات، فقد تحادثنا معاً طويلاً عن كيفية نشوء أحياء العمران العشوائي، وكيف تُبنى البيوت العشوائية، وتسرق إليها المياه والطاقة الكهربائية والاتصالات الهاتفية من أحياء

عشوائية مجاورة سابقة عليها، وهكذا دواليك. وبعد مضي ١٠ سنوات على نشأة كل حيّ تعترف الإدارة الحكومية به، فيصير حيّاً شرعياً للعمران العشوائي.

مؤتمر ومحاضرة

مرة طلب مني رئيس قسم التاريخ في الكلية أن ألقي محاضرة خارج دوام التعليم الجامعي، ما دمت باحثاً في التاريخ العثماني لبلاد الشام. وافقت على طلبه على أن يحدّد موعداً للمحاضرة. قال إنه يجب أن يتقدّم بطلب إلى العميد ورئيس الجامعة يتضمّن موضوع المحاضرة التي يجب أن يكون نصها أيضاً مرفقاً بالطلب، مشيراً إلى أن إنجاز المعاملة الإدارية هذه يتطلب ما يزيد على شهرين على الأقل. وحين سألت رئيس القسم بعد أكثر من شهرين عن معاملة المحاضرة وموعدها، قال لي إن العميد رفض الطلب، لأن اختصاصي هو علم الاجتماع الذي أدرّسه في الكلية، ولا يجوز أن أحاضر في التاريخ. ثم روى لي أيضاً أنه استطاع أن يتجاوز هذه العقبة، وأوصل الطلب إلى رئيس الجامعة مرفقاً بنص محاضرتي، فوافق عليهما الرئيس، وهو طبيب، لكن الطلب ضاع في مكتبه.

ولظن رئيس قسم التاريخ أنني راغب في إلقاء محاضرة، وليطيّب خاطري، وعدني بأن أكون أول المشاركين في مؤتمر عن الكتابة التاريخية يقام في نهاية العام الدراسي. وفي يوم المؤتمر الموعود شرعت في قراءة نص تاريخي عن دور الفقه الإسلامي في الكتابة التاريخية في الحقبة العثمانية. كان العميد حاضراً قبالتي في الصف الأمامي من القاعة، فلم يتوقف عن تلقي المكالمات الهاتفية

المتواصلة على هاتفه المحمول، مما حملني على التوقف عن قراءة نص المحاضرة وإنهائها في الصفحة العاشرة منها، من دون أن ينتبه أي من الحاضرين إلى أنني قطعتها قبل بلوغي خاتمتها.

ودُعيت مرة أخرى لإلقاء محاضرة في جامعة البعث في اللاذقية، حيث ارتجلت الكلام ملخصاً مضمون المحاضرة السابقة. وبعد دقائق قليلة هبّ شخص في القاعة من مكانه ليقاطعني قائلاً إنني أشوّه التاريخ العثماني وتاريخ بلاد الشام الوطني، فتوقفت أيضاً عن متابعة الكلام، وأنا أسمع الصارخ في القاعة من بعيد، يردّد في غضب محموم: عيب، عيب، كأنني شتمت أمه أو أباه.

الحرب في قصص خرافية

بعد مدة من اغتيال الرئيس رفيق الحريري، زرت الطالب الأربعيني المتنقل بين بيئات كثيرة. شيئاً فشيئاً، رحت أشعر باضطرابه وضيقه بزياراتي له في بيته بحيّ العمران العشوائي قرب حلب. مرة استدعى جاراً له في الحيّ، ليروي لي حكايات عن مشاركته في وحدات الجيش السوري التي هاجمت في ١٣ تشرين الأول ١٩٩٠، قصر بعبدا الجمهوري في لبنان، لإنهاء حركة تمرّد العماد ميشال عون ضد الاحتلال السوري للبنان. قال جار الطالب إنه الجندي السوري الأول الذي دخل القصر الرئاسي اللبناني، في عداد كتيبة عسكرية من نحو ٥٠٠ جندي قصفتهم خطأً الطائرات السورية التي هاجمت القصر في ذلك النهار، فقتلوا جميعاً سوى ١٠ جنود، كان هو بينهم مع جندي كردي.

ذكرتني روايته هذه بغيرها من أمثالها كنت قد سمعتها من بعض

سائقي سيارات الأجرة في دمشق. أحد أولئك السائقين روى لي أنه كان في عداد كتيبة من الجيش السوري كانت تتمركز قرب شتورا قبيل الهجوم على القصر الجمهوري في بعبدا. وفي أثناء الهجوم تلقت كتيبته أوامر من قيادتها بالزحف نحو بعبدا، بعدما كانت الطائرات السورية قد قصفت خطأً الكتيبة السورية التي هاجمت القصر الرئاسي، فقتل معظم جنودها الذين قال راوي سيارة الأجرة إن عددهم كان ٥ آلاف جندي. وحين وصلت كتيبة السائق إلى القصر لاحتلاله، راحت أرجل جنودها المهاجمين تصطدم بقتلى الكتيبة السابقة، وكانت الأوامر العسكرية لجنود الكتيبة الجديدة المستقدمة من شتورا لمهاجمة القصر من جديد، تقول: اتركوا الجثث والجرحى في مكانها، واحتلوا القصر.

لا يستطيع المستمع إلى هذه الروايات والأخبار من جنود سوريين، أن يعلم مقدار ما يلابسها من الشطط والغفلة والتضخيم والهذيان والخيال والتهويل. فحين يروي هؤلاء الجنود أخباراً عما عاشوه وخبروه من وقائع حربية في لبنان، تجدهم يروونها على مثال القصص الخرافي، ليجعل كل راوٍ منهم نفسه في موضع البطولة القصصية الخرافية أو الأسطورية التي يروح الراوي، في كل مرة يروي قصته لمستمعيه، يضيف إليها وينقص منها، بحسب مقتضى الحال والهوى. فتارة تكون الكتيبة العسكرية مؤلفة من ٥٠٠ جندي، لتصير في حكاية أخرى مؤلفة من ٥ آلاف جندي. ورواية هذه الروايات من الجنود تلقى الاستجابة نفسها من المستمعين إليها الذين لا تختلف حالهم وحال الراوي عن جلسات حكواتية المقاهي التي يروون فيها قصص عنترة العبسي والزير سالم بن المهلهل. في زياراتي الأخيرة للطالب الأربعيني، لمست أن أحد

رواة هذه الحكايات الحربية في لبنان، يقوم حقاً بدور الحكواتي القديم ويتمتع بمكانته في الحيّ الذي يقيم فيه. أما صاحبنا الطالب فراح يقول تعقيباً على هذه الحكايات إنه لا يفهم لماذا أخذ اللبنانيون يتظاهرون ضد السوريين ويشتمونهم بعد اغتيال رفيق الحريري عام ٢٠٠٥، مستبخسين التضحيات التي قدّمها الجيش السوري للشعب اللبناني الشقيق.

الفصل الثاني

سورية الأسد قدر لبنان؟

كنت في مكتبي بمركز المعلوماتية التابع للجامعة اللبنانية في الحدث(*)، حيث كنت أعمل موظفاً، حين تلقيت اتصالاً هاتفياً في نهار من بدايات تشرين الثاني ١٩٩٤. قال لي الشخص المتصل إنه رتيب في الجيش اللبناني، وإن الرائد يريد اللقاء بي على فنجان قهوة. كنت قد تعوّدت على مثل هذا الاستدعاء كتعودي على اعتقالي المتكرّر منذ ١٩٩١، بعد انتهاء تطوّعي في الجيش اللبناني نصيراً لحركة الجنرال ميشال عون لمقاومة الجيش السوري واحتلاله لبنان في ما سمّي «حرب التحرير» عام ١٩٨٩. على الهاتف طمأنني الرتيب قائلاً إن استدعائي عادي وليس فيه ما يبعث على القلق، لأن لقائي الرائد لن يستغرق أكثر من ربع ساعة في المقر الرئيسي السابق لـ «القوات اللبنانية» في محلة الكرنتينا، الذي احتله الجيش اللبناني واتخذه مقراً له بعد حل «القوات» ومطاردة محازبيها واعتقالهم.

(*) سُجلت هذه الشهادة في العام ٢٠٠٧. ورواها ناشط قيادي في «التيار الوطني الحر».

على مدخل المقر، أخذوا مني مفاتيح سيارتي، وقادوني فوراً إلى مكتب قالوا إن الرائد سيحضر إليه بعد قليل، ثم خرجوا وأقفلوا الباب وتركوني وحدي. كانت الساعة الحادية عشرة قبيل الظهر تقريباً، وكان عليّ أن أنتظر حائراً قلقاً، فيما الوقت يمر بطيئاً بطيئاً، ساعة بعد ساعة. طرقت الباب مرات وناديتهم، فلم يجبني أحد، لكنني تردّدت في أن أستعمل هاتف المكتب الذي اقتربت منه مرات، ومددت إليه يدي، فمنعتني حيرتي من استعماله. الساعات تمضي بطيئة بطيئة وأنا أتنقل بين المقاعد جالساً ومبدلاً وضع جلوسي، ثم أقف وأمشي قليلاً، فيما الضجر يتآكلني ويرميني مجدداً على مقعد، فأغفو مخمَّراً بالضجر، ثم أفيق لتأخذني الغفوة مجدداً، كمن يغفو في منامه. صور لأهلي وللعالم الخارجي الذي غادرته كأنما من سنين، راحت تبتعد وتبتعد وتتلاشى في اليقظات الثقيلة المتتالية المغبشة بالخواء والخور.

ضوء النهار التالي الذي أيقظني، كان رخواً وبائتاً على وجهي المزيّت بدبق الضجر والانتظار والإهمال. ثم فُتح الباب فجأة ودخل منه ثلاثة رجال في ثياب مدنية، فقلت: هذه هي نصف الساعة؟! من دون أن أسمع كلمة واحدة، اقترب مني أحدهم وأدخل رأسي في كيس من قماش كان في يده، وأمرني أن أمشي، فمشيت، موقناً أنهم سيقودونني إلى وزارة الدفاع في اليرزة، حيث سيحققون معي كما في مرات سابقة.

□ □ □

في الخارج قدّرت أنهم أدخلوني إلى شاحنة أو فان. آنستني قليلاً

أصوات السيارات في الطرق التي ساروا فيها قرابة ربع الساعة، قبل أن يوقفوا السيارة التي كنت فيها معهم، وتغيب الأصوات تماماً من حولي. سكوت هائل خيّم للحظات قطعتها أصوات فتحهم أبواب السيارة وإغلاقها. وحين نزعت قليلاً كيس القماش عن وجهي، رأيت صورة لباسل الأسد على نافذة من نوافذ الفان المصفحة كلها بصفائح من حديد، بدل الزجاج، فأيقنت أنني في قبضة الاستخبارات السورية. قلقاً مرتعباً تقاذفتني الأفكار والهواجس في متاهة بلا قرار.

كانوا أربعة رجال أو خمسة في الفان الذي أخرجوني منه وساروا بي في أمكنة شعرت بأنها تحت الأرض. حين نزعوا كيس القماش عن رأسي في غرفة، انهالوا علي صفعاً ولكماً ورفساً وضرباً بأعقاب البنادق، شاتمين الجنرال ميشال عون والبطريرك مار نصر الله بطرس صفير. استمرّت الوجبة الأولى من الضرب والشتائم أكثر من نصف الساعة، قبل أن يجرّوني إلى غرفة أخرى مشيّدة حديثاً إلى جانب زنازين قديمة لمحتها متماثلة في أحجامها، فيما هم يرمونني في الجديدة ويقفلون عليّ بابها الحديد الذي من ثقوب في أعلاه يدخل ضوء شحيح لم يبدّد العتمة التامة في الزنزانة إلا بعد وقت مكّنني انقضاؤه من أن أبصر إصبعي في الظلام. تذكرت أن وجوه الرجال كانت شديدة السمرة ولهجتهم سورية، وهي الوجوه واللهجة نفسها التي تبيّنتها في وجبة الضرب والتعذيب والشتائم المسائية، بعدما سمعت وقع أقدام كثيرة تخبط الأرض مقتربة من زنزانتي.

فيما قبضاتهم وأقدامهم وشتائمهم تنهال عليّ عشوائياً ومن دون تمييز، كنت أضع رأسي بين ذراعيَّ لأحميه، قائلاً لهم إنهم أخطأوا

في القبض عليّ أنا الذي لم أقم بأي عمل مشبوه، فسمعت أحدهم يقول لي: شو صاير عليك ليصير فيك هيك، اعترف، اعترف وينتهي الأمر. قبل أن أقوى على سؤالهم بماذا أعترف؟ خرجوا وأقفلوا الباب وذهبوا، تاركين جسمي محطماً، وسرعان ما رحت في نوم ثقيل لم أستيقظ منه إلا في الصباح، قبيل اقتيادهم إياي إلى وجبة ضرب جديدة في غرفة أخرى، حيث مدّدوني على ظهري وتداوروا على ضربي بعصا على قدمي. كانت بقع من الدماء تلطخ جدران الغرفة التي قدّرت أنها للتعذيب. في أثناء وجبة الفلق الصباحية هذه، كانوا يصرخون بي قائلين: كلاب إسرائيل، عصابات التقسيم والفتنة، كلاب اليهود.

ظهراً رموا لي في الزنزانة رغيف خبز ووعاءً به مرق وعبوة بلاستيكية صغيرة قُطِع منها نصفها الأعلى وبها ماء آسن. حين طرقت باب الزنزانة طالباً الدخول إلى حمام، جاؤوا وضربوني ضرباً مبرّحاً، فظللت يومين من دون أن أقضي حاجتي. وفي المساء أذاقوني وجبة جديدة من التعذيب، هي الفروج: عاريا إلا من الكيلوت، وفي معصميّ طوقان معدنيان موصولان بجنزير معلق في سقف غرفة التعذيب، وجسمي مشدود إلى عصا غليظة، رفعوني عالياً وانهالوا عليّ بالعصيّ التي راحت ضرباتها تؤرجحني في الجهات كلها.

□ □ □

مضى عليّ يومان على هذه الحال. في الليل، كلما غفوت بين وقت وآخر، كان أحدهم يخبط باب زنزانتي خبطات عنيفة من الخارج، فينتفض جسمي المحطم وأستيقظ في حال من رعب مروّع يكاد يجمّد الدم في عروقي ويقطع أنفاسي. كنت أسمع

أصواتاً وكلمات كثيرة، جعلتني أقدّر أنهم يحضرون شباناً إلى المعتقل الذي لا أعرف مكانه ولا سبب اعتقالي فيه.

في النهار الثالث، فيما كان أحدهم يقودني إلى الحمام، لمحت وجه شاب وعرفته. إنه سامي خوري الذي كان مثلي جندياً متطوّعاً في الجيش اللبناني بقيادة العماد عون. لمحته وخفت أن أناديه، خشية أن يورّطنا ذلك في ما لا تحمد عاقبته. في النهارات والليالي التالية صرت أسمع سامي ينادي صارخاً: يا الله، فيجاوبه أحدهم: ما في الله هون ولاه، في أنا وبس، قول بأمرك يا ريس، قول يا حيوان.

حدث هذا كله قبل أن يقودوني إلى غرفة التحقيق، حيث أجلسوني على كرسيّ خشبي ورأسي داخل كيس القماش. أصداء كلماتهم التي سمعتها جعلتني أقدّر أن الغرفة فسيحة خالية. سألني المحقق أسئلة مكّنته من معرفة الكثير من سيرة حياتي، قبل أن يفاجئني قائلاً: ليش معك متفجرات في سيارتك التي ضبطنا فيها كمية من المتفجرات؟ حين جاوبته أن لا متفجرات في سيارتي التي تركتها في عهدة الجيش اللبناني، شتمني وشتم الجيش اللبناني، قبل أن يقول: الجيش اللبناني وسرمايتي سوا.

قدّرت أنهم وضعوا متفجرات في السيارة، وأصررت على رفض التهمة، فانهال المحقق عليّ بكرباج، قبل أن يستدعي الحرّاس، قائلاً لهم إن تجاوبي ضعيف، فليأخذوني، إذاً، إلى غرفة التعذيب، حيث كوّروا جسمي وسط دولاب شاحنة وراحوا يدفعونه فيتدحرج بي بينهم في ما هم يضربونني بالعصيّ ويرفسونني بأقدامهم، قبل أن

يرتطم الدولاب بالجدار في آخر الممر الطويل. كان رأسي لا يزال في الكيس فيما الدولاب يتدحرج بي مرات جيئة وذهاباً مرتطماً بالجدران، مما أزاح فقرة من عمودي الفقري من مكانها ومزّق غضروفها، وحتى اليوم لم أُشفَ من هذه الإصابة التي تحتاج إلى علاج دائم.

□□□

في النهار الخامس أو السادس اقتادوني مجدّداً إلى غرفة التحقيق. ما إن أجلسوني على كرسي الاستجواب حتى سألني المحقق عن دوري في قذف شاحنة عسكرية سورية في الحدث بقنبلة يدوية انفجرت فيها، فقلت إنني لم أسمع أي خبر عن هذه الحادثة التي لا علم لي بها. ذكر النهار الذي قُذفت فيه الشاحنة بالقنبلة، وسألني عن مكان وجودي في ذلك النهار، فأجبته بأنني كنت في بلدتي تنورين. تلا على مسامعي قائمة طويلة من أسماء أشخاص، ثم توقف لدى تسميته المقدم سمير يونس ليسألني عن صلتي به، فقلت إنني لا أعرفه ولم أسمع باسمه قبل الآن. كنت أعرف المقدّم سمير يونس، ابن بلدتي تنورين والمسؤول عني في الجيش اللبناني، حتى احتلال الجيش السوري قصر بعبدا الرئاسي في ١٣ تشرين ١٩٩٠، وأعلم أنه اشتبك على رأس مجموعة من جنوده مع وحدات من الجيش السوري في عهد الرئيس أمين الجميّل.

من الأسماء الأخرى التي ذكرها المحقق، عبّاد زوين عضو المنسقية العامة في «التيار الوطني الحر»، الذي كان سامي خوري قد أخبرني أنه هنا معنا في المعتقل، في أثناء لقائنا مصادفة في الحمام.

لم أعترف بأنني أعرف أي اسم من الأسماء التي ذكرها المحقق

الذي استدعى الحرّاس وقال لهم إنني أرفض التعاون، وطلب منهم أن يأخذوني إلى كرسي الصدمات الكهربائية.

□□□

مكبّل اليدين والرجلين ورأسي في كيس القماش، وجسمي عارٍ إلا من الكيلوت، أجلسوني على الكرسي الكهربائي، وخرجوا من الغرفة وتركوني وحدي. ميكروفون أمام فمي وسماعتان تكبّران الصوت تضغطان على أذنيّ. مع الشحنات الكهربائية الأولى الخفيفة التي سرت في جسمي لعشر ثوانٍ، سمعت أصوات أسئلتهم قوية في داخل رأسي، لكنني ظللت صامتاً متحمّلاً قوة الصدمات الأولى ومصمّماً على عدم الكلام.

الدفعة الثانية من الشحنات اجتاحت أعضائي كلها أقوى من الأولى ولمدة ٢٠ ثانية تقريباً. حاولت أن أصرخ، فلم أستطع، كأنما كل عضوٍ في جسمي قد تعطل فجأة، سوى حاسة البصر. حتى التفكير شُلّ في رأسي الذي تخدّرت أعصابه، وصارت نهباً لأرتال من دبيب النمل. أعصابي وعضلاتي يرجرجها وجيب داخلي خاطف، فأشعر بأنها من الداخل والأعماق تتمزق وتتمزق. كان عليّ أن أقاوم عبثاً حال الانهيار وفكرة أنني مقبل على نهايتي. قاومت لأنني لم أقم بالعملية التي يريدون أن أعترف بقيامي بها، ليس لأنها معيبة، بل لأنني، بكل بساطة، لست من قام بها.

في بداية الدفعة الثالثة من الشحنات الكهربائية، أغمي عليّ بعدما سمعت عبر السماعتين على أذني اسمي بيار أبي رعد ونضال حرب اللذين كنت أعرفهما، وأعرف أنهما سافرا قبل مدة إلى الإمارات

العربية المتحدة للعمل هناك، لكن الصوت قال إنني وإياهما نفذت في الحدث عملية رمي الشاحنة العسكرية السورية بقنبلة يدوية.

لا أعلم بعد كم من الوقت أفقت من إغماءتي منطرحاً أرضاً بعيداً من الكرسي الكهربائي، ومبللاً بالماء. كنت أشعر بأن جسمي رخو من الداخل وجلدي منمّل، كأنه في تقدّده موشك على التشقق، فيما أعصاب رأسي أو خلاياه متخشّبة. حين قرّبوا كوب ماء من فمي، لم أستطع أن أحرك فكيّ المنطبقين، فوضعوا شلموناً بين شفتي المتخشبتين، كي أشرق الماء من الكوب فلم أقوَ على شرقه، فيما انهمر اللعاب من فمي والمخاط من أنفي، غزيرين كالبول الذي سال لاإرادياً من مثانتي.

□□□

حملوني من غرفة كرسي الصدمات الكهربائية، ورموني في زنزانتي، حيث أخذ يشتد الوجع الرهيب في جسمي مع نوبات من الغثيان، من دون أن أقوى على التركيز والإدراك في أي زمن أنا الآن وفي أي مكان. وعي خامد متقطع، حتى بصري صار شحيحاً كليلاً، فلا أبصر سوى غبش به ثقوب سود، كالنوم الثقيل الذي نمته مخدّراً طوال عشر ساعات متواصلة، فتحوا عليَّ بعدها باب الزنزانة، لأخذي مجدداً إلى غرفة التحقيق. لم أستطع الوقوف، فحملوني وساروا بي. أحدهم قال لي في نبرة متسائلة: ليش ما أكلت أكلك ولاه حيوان، وليش ما شربت المياه، شو جاي تموت عنا هون، يا حيوان؟! بعد لحظات قليلة قال آخر: أنت كلب ولاه، كلب ورأسمالك كلب عندنا هون.

في هذه اللحظات عاودتني أصداء الأصوات التي سمعتها في النهارات والليالي السابقة. أصوات لا أزال حتى الساعة أسمعها في نومي، فتوقظني فجأة وتُذهب النوم من حواسي وجسمي. أصوات جريحة معذبة ليست من طبيعة بشرية، بل شبيهة بالتي ترسلها قطط أو كلاب ملتاعة جراء إصابتها بنوبات من المغص الشديد. في الأيام التالية، بعد تعرّضي لما كان يتعرّض له الذين كانوا يرسلون هذه الأصوات، رحت أرسل أصواتاً تماثلها، فأيقنت أنها أصوات بشر مثلي، وأصابهم ما يصيبني.

عاودتني أصداء هذه الأصوات، فيما هم يحملونني محطماً مدمراً إلى غرفة التحقيق، فقرّرت أن أقاوم، وتذكرت ما كنت قد سمعته من حكايات التعذيب في السجون السورية، وكم من الأشخاص قضوا في هذه السجون. وحين حدست أنهم سيستمرون في تدميري وسحقي حتى الموت على الأرجح، قررت أن أقاومهم حتى نهايتي، لعلّي أموت راضياً عن نفسي.

□ □ □

في النهار السابع من اعتقالي عرفت من أقوال الحراس الذين قادوني إلى غرفة التحقيق، أن المحقق ضابط برتبة مقدّم لم أبصره حين دخلت الغرفة وسمعت صوته يقول لي: انشاالله اليوم تكون أحسن من مبارح، وحابب تتعاون معنا. جاوبته: نعم سوف أتعاون، لكنني أريد أن أقول بعض الكلمات قبل أن تبدأ التحقيق معي. شلون تريد تحكي، قلي شلون؟ قال المحقق.

فجأة وعن سابق تصوّر وتصميم وإرادة قلت له: نحن لا نحبكم.

الآن عرفت لماذا لا يحبكم اللبنانيون. قبل وصولي إلى هنا كنت أحسب أننا نكرهكم لأنكم تحتلون بلدنا وتنهبونه، لكنني الآن أفهم أننا نكرهكم بقوة هذا العذاب الذي تنزلونه بي حتى الموت، هنا في هذا المكان الذي أجهل أين يكون، ولأنكم تتهمونني بعمل لا علاقة لي به. لا لا نحبكم، ولن نحبكم مهما طال زمن احتلالكم بلدنا، ولن نمارس أعمال عنف ضدكم. لا يهمّني أن تقتنع أو لا تقتنع بما أقول. التعذيب الذي تنزلونه بي لن يفيدك في شيء. لذا أرجوك أعدمني فوراً، لأنني غير معنيّ بما تتهمونني به. أرجوك أعدمني الآن. قبل أن يستدعي المقدمُ المحققُ الحراسَ، استشاط غضباً فيما هو يقول صارخاً: «أنتم يا كلاب ضد سورية؟! ضد العروبة؟! حلّك تفهم يا حيوان أن سورية الأسد قدركم في لبنان. لسه ما حابين تفهموا أنتم والحيوان تبعكم عون أن سورية قدر لبنان؟!»!

دخل الحراس غرفة التحقيق وانهالوا عليّ بأيديهم وأرجلهم طوال أكثر من ساعة، حملوني بعدها ورموني في زنزانتي. في ما بقي من ذلك النهار وفي ليلته، كان كلما وصل أحدهم في موعد خدمته، يفتحون له بوابة زنزانتي ليروح يضربني ويضربني حتى يسأم أو يتعب من ضربي.

بعد ضربة قوية سدّدها أحدهم بحذائه العسكري مباشرة إلى فمي، وأحسست جرّاءها بالتماعة برق في عينيّ، خرج الدم غزيراً من فمي الذي ما إن تحسست بيدي أسنان فكه الأسفل، حتى انتزعت أصابعي في سهولة أسناناً ثلاثاً منه.

□ □ □

لاشعورياً تعوّدت ــ كلما سمعت أصوات خطىً تقترب من زنزانتي ــ أن أضع كتفي خلف بابها مباشرة، لتتلقى الكتف من جسمي المتلاشي والمحطم ركلات أقدام الحراس الأولى العنيفة التي تعوّدوا مبادرتي بها، كلما فتحوا باب الزنزانة. وحدهما كتفاي كانتا قادرتين، بعد، على تحمّل قسوة ضرباتهم العشوائية التي لا مهرب لي من تلقيها، ولا بد أن تعطب باقي أعضاء جسمي الحسّاسة عطباً كبيراً لو أصابتها.

لكنهم حين فتحوا باب زنزانتي في النهار التاسع، لم يركلني أيّ منهم بقدمه، بل جرّوني مباشرة إلى غرفة التعذيب بالصدمات الكهربائية. ما إن أجلسوني على الكرسي وأوثقوا جسمي إليه، واضعين السماعتين على أذنيّ والميكروفون أمام فمي، وخرجوا من الغرفة، حتى بادرتهم بأقذع ما في ذاكرتي ومخيلتي من الشتائم.

أطلقت صوتي قوياً صارخاً معولاً، وحاملاً طاقة الحقد كلها التي غرستها ضرباتهم وكلماتهم في جسمي وروحي طوال الأيام التسعة الماضية، ونثرتها شتائم عليهم، من رئيس جمهوريتهم حتى أصغر نفر في جيشهم واستخباراتهم. جاوبوني على شتائمي بأن عاجلوني بصدمات كهربائية عالية الشحنات، فلم يتدرجوا في قوتها كما في المرة السابقة. فجأة انقطع صوتي فلم أعد أسمعه إلا في داخلي، كأنني أصرخ في منام. وقبل أن يغمى عليّ تماماً، أحسست إحساساً جسمانياً خاطفاً وأخيراً بتسلخ مواضع من جلد رأسي.

حين استعدت وعيي في زنزانتي، لم أستطع تقدير الوقت الذي استغرقته غيبتي مغمى عليَّ. مددت يدي ولمست رأسي، فإذا خصل من شعري تتساقط بين أصابعي من دون أن أشعر بتساقطها، كأنها

خصل من شعر شخص آخر. أجزاء ومواضع كثيرة من جسمي كانت لا تزال مخدّرة مبنجة، بينما كنت أشعر بتمزق عميق شديد الألم في الأجزاء والمواضع الحيّة أو التي استعدت الإحساس بها. وحين لمست صدري تساقط كذلك قسم من شعره في يدي. وفيما كان جسمي كله يعود إلى تلاشيه وانحطاطه، لأغيب مجدداً عن الوعي، راودني إحساس خاطف بأنني أقترب من نهايتي.

□□□

بدأت أصحو في ما تهيّأ لي أنه صباح النهار التالي، أي العاشر من أيام مصيري المجهول. بعد الظهر سمعت أصداء خطوات تقترب من زنزانتي، فأيقنت أن موعد نهايتي يقترب إذا أجلسوني، بعد، على كرسي الصدمات الكهربائية. ابتعدت أصداء خطواتهم أو توقفت، فبدأت صور من حياتي تزدحم في رأسي وتتلاحق كأنها صور شريط طويل لا بداية له ولا نهاية. وجوه أهلي وأصدقائي في المدارس والجامعة ورفاقي في النضال... أخيراً حضرتني صور ابن أخي الصغير الذي كنت مولعاً به، وسمّيناه حين ولد باسم الجنرال ميشال عون. نوبة هائلة من الحزن البعيد ألمّت بي لأنني مقبل على الموت من دون أن أراه وأودّعه.

فجأة انهال عليّ شعور عميق بالرضى عن نفسي. ها أنذا ذاهب إلى موتي راضياً مرضياً، ليس بإرادتي، بل بقوة ذاك القدر الأعمى، القاسي والظالم، الذي قال المقدّم المحقق السوري إن عليّ الإقرار به وغيري من اللبنانيين جميعاً: «سورية الأسد» قدر لبنان الذي لا مهرب منه ولا رادع له.

كذاهب إلى الموت معزياً نفسه بالرضى عن نفسه وبالوئام مع نفسه وأفعاله كلها، فكرت أن أيّ ضعف يبدر مني حيالهم، فأقرّ بما يتهمونني به كي أؤجل بتّ مصيري، سوف يورّطني في مجهول لن يفضي بي إلى غير الموت: ينقلونني إلى سجن المزة في سورية، وما أدراك ما سجن المزة، حيث يرمونني هناك منسياً لسنين طويلة، أو يحاكمونني ويعدمونني ويخفون جثتي. أرعبني هذا المصير المتخيّل المحتمل، وقلت: أموت هنا والآن، قوياً راضياً عن نفسي.

لا لم أكن مهتماً بأن أبرهن لهم أنني قوي. هم سيان عندي أن أبدو لهم ضعيفاً أو قوياً صامداً. فحيال الاقتراب من النهاية تصير وحيداً تماماً مع نفسك، ولا أحد في الدنيا كلها يحضرك إلا كصور بعيدة تبعث في روعك ما يشبه العزاء الحزين. في تلك اللحظات بدأت أفكر كيف يمكنني أن أوصل نوعاً من الوصية إلى أهلي، تماماً كالذاهب إلى إعدامه على كرسي كهربائي، فحضرتني صور حالات كثيرة تماثل حالتي في تاريخ المجتمعات البشرية. فجأة غمرني شعور عميق بحب الوطن، وطني، وإذا بجبال بلدتي تنورين تمثل أمام ناظري جميلة، فقلت إنها لي وإنني لها، وجميل أن تبقى جميلة وحرة، ومن واجبي أن تبقى كذلك. للمرة الأولى في حياتي كلها راودني هذا الشعور الذي لا عهد لي به قط من قبل.

كنت مدركاً أنني أعزي نفسي وأودعها الوداع الأخير، مؤدياً على انفراد شعائر إماتة خاصة وشخصية ولا يشاركني فيها أحد، من دون أن أعلم مكان وجودي، وماذا يفعل الآن كل من أعرفهم ويعرفونني في العالم الخارجي الذي انقطعت عنه تماماً منذ عشرة أيام.

القطعة المكسورة من صحن البلاستيك التي أبصرتها على أرض

زنزانتي، نبّهتني فجأة إلى الوسيلة التي تمكنني من ترك أثر ما يدل على أنني كنت في يوم في هذا المكان المجهول. أمسكت كسرة الصحن، وحفرت بها على الجدار فوق باب زنزانتي العبارة الآتية: أنطون الخوري حرب، شهر ١١ سنة ١٩٩٤. وحين فكرت أن أحفر أيضاً اسم المكان الذي أنا فيه، تذكرت فجأة العبارة التي كانوا يجاوبونني بها، كلما سألتهم أين أنا؟: أنت في جهنّم الحمراء، فحفرت على الجدار: جهنّم الحمراء.

بعد وقت قصير، سمعت مجدّداً وقع خطئ تقترب من زنزانتي، فوجهت كتفي نحو بابها. لكن حين فتح أحدهم الباب، فاجأني استبداله ركلي بحذائه بأن ناداني: تفضل أخ أنطون. استغربت هذه الكلمات التي سمعتها للمرة الأولى منهم، وكانت قد صارت منسية كالعالم الذي غادرته وانقطعت عنه منذ عشرة أيام. الكلمات هذه ونبرة صوت قائلها زادتني يقيناً باقتراب نهايتي، إذ فكرت أنها من الكلمات المحايدة التي يُنادى بها، عادة، الذاهبون إلى الإعدام.

ثم إنهم لم يمسكوني ويجرّوني بتلك القسوة المعتادة، لإخراجي من الزنزانة. هذا دليل آخر على عدم حاجتهم إلى إيذائي، بعد، فكرتُ، ما داموا على علم بأنني سأصير خارج الحياة ومحايداً ككلماتهم، بعد وقت قصير. لذا لم يضعوا رأسي في كيس القماش كي لا أبصر شيئاً سوى الظلام، ما دمت سأغرق في العتمة الأبدية بعد قليل. والضابط الذي رأيته فيما هم يقودونني، وكان برتبة نقيب، صار سواءً عنده أن أتبيّن ملامح وجهه وتنطبع في ذاكرتي، ما دامت هذه الذاكرة ستنطفئ كلها في هنيهة خاطفة بعيد إجلاسي على الكرسي الكهربائي. هكذا نظرت في عيني النقيب، وقلت له: أرجوك أريد أن أبعث خبراً لأمي بأنني كنت هنا عندكم. صامتاً

حدّق النقيب في عينيّ، كأنه يقول لي إن أمنيتي هذه سيان إن تحققت أو لم تتحقق.

كل شيء في سلوكهم أخذ يزيدني يقيناً بأنني ذاهب إلى نهايتي المحتومة. قبل أن يدخلوني إلى غرفة مصعد، قال النقيب لأحدهم أن يحضر لي بيجاما. إنها لباس الإعدام، فكرت. حين أمر النقيب بغسلي بعد خروجنا من المصعد، قلت إنها غسلة ما قبل الموت. في بهو فسيح قرب المصعد، وجهوا إلى جسمي العاري إلا من الكيلوت، أنبوباً من الكاوتشوك، فاندفع الماء من فوهته غزيراً وراح ينهمر عليّ بارداً، فأحسست بصقيع لم يطفئ الحمّى الداخلية في جسمي المحطم. البيجاما التي أحضروها وأمروني بأن ألبسها، كانت عسكرية وأضفتها إلى أشياء ما قبل الإعدام وترتيباته المسبقة.

□ □ □

فجأة أدخلوني إلى مكتب فرشه وثير فخم، ومزيّن بشعارات بعثية وعلم سورية ونسرها، وبصور حافظ الأسد وابنه باسل، ثم خرجوا من المكتب وتركوني مع شخص في ثياب مدنية مشغول بأوراق أمامه على طاولة مكتبه الذي رنّ هاتف عليه، فتناول سماعته وقال عقب إصغاءة قصيرة: حاضر سيدي، أمرك سيدي.

أعاد الشخص السماعة إلى مكانها وخاطبني قائلاً: فوت لعند سيادتو، ناطرك فوت، ثم قام عن كرسي مكتبه فاقترب مني وأمسك يدي وجرّني نحو باب فتحه أمامي لأدخل منه، فدخلت، فإذا أنا في مكتب آخر فسيح وأكثر فخامة.

رأيت في المكتب الفسيح رجلاً في ثياب مدنية، فنظر إليّ قائلاً:

أبرك أبرك (اجلس) فجلست على مقعد مستغرباً مندهشاً (لاحقاً، بعد أيام من خروجي، رويت قصتي هذه لسامي خوري الذي كنت قد التقيت به في حمام المعتقل، فقال لي إن رجل المكتب الفسيح هو جامع جامع المسؤول عن جهاز الاستخبارات السورية في بيروت).

سألني الرجل، إن كنت شربت قهوة، وهل أريد سيجارة؟ وفي تلك اللحظة أيقنت أن الموت ليس مصيري. وسرعان ما أحضر رجل المكتب السابق القهوة والسجائر، فيما رجل المكتب الفسيح يقلّب أوراق ملفات على مكتبه. شعور عميق بالراحة غمرني، ورحت أتلاشى وأتلاشى غير مدرك إن كان النعاس أم الخمول ما استبدّ بجسمي كله وحواسي وتركني واهناً واهياً كطيف.

قال لي رجل المكتب الفسيح: ولو يا أنطون، انت ابن عيلة، شو هالحركات اللي عم تعملها؟ لاحقلي ميشال عون وماشي عالعمياني! مبيّن عليك شاب ابن عيلة... شو رح يفيدك ميشال عون؟!

مندهشاً خاملاً سمعت كلماته التي كانت تصلني من بعيد، ثم قال: اكتشفنا أن عملية الحدث نفذها العكاريت من جماعة عرفات، وأنت سوف تذهب إلى بيتك. لم أصدق ما سمعت، فقلت: خلص ع البيت؟! فجاوبني متجاوزاً سؤالي: بس بدّي منك شغلي، نريد أن تتعاون معنا، ولا لزوم لأن تحكي شو صار معك. مش لازم تحكي لحدا أبداً شو صار. اشكر ربك أنك طلعت من هون طيب، وإذا عزت أي شيء نحن حاضرون. نريد منك أن تتعاون معنا.

لم أجاوبه في شيء، فتابع كلامه قائلاً: يلا قوم امشي... بس ما تجرّب بعد اليوم تتشيطن، قعود عاقل ودير بالك ع شغلك. أما إذا

مش عاجبك هالبلد، فأنا بنصحك تسافر، ونحن نساعدك إذا قررت السفر، خلصنا حركات. أخيراً قال في نبرة حاسمة: سورية لا تُشتم في لبنان، لا أحد يستطيع أن يشتم سورية في لبنان، لا أحد، ثم تقدّم من الباب وفتحه قائلاً لعسكري يقف خارجاً أن يأخذني. أمسك العسكري يدي وجرّني خلفه وأخرجني من المكتب الفسيح حتى بوابة المبنى، وقال لي أن أخرج، فخرجت.

□ □ □

الضوء باهر ومدوّخ في الخارج، والعالم فسيح، كأنني للمرة الأولى أبصر وأنتبه إلى أن في وجهي عينين. كأنني لا أعرف من أنا ولن أتعرّف إلى نفسي. فجأة رأيت المقر الرئاسي الموقت، فأدركت أنني كنت في مقر الاستخبارات السورية في الرملة البيضاء قرب فندق البوريفاج. من بعيد لمحت ضابطاً في الجيش اللبناني أعرفه، فلوّحت له بيدي. كنت متأكداً من أنه رآني ويحدق فيّ من دون أن يبادلني تحيتي بمثلها، ربما لم يتعرّف إليّ أو خشي أن يظهر على معرفة بي، أنا الجندي السابق في الجيش أيام ميشال عون، والخارج من مركز الاستخبارات السورية مرتدياً بيجامة الاعتقال وفي قدمي مشاية من الكاوتشوك، وشعري مشعّث ومحطم الأسنان أمشي مهدماً ضائعاً لا أعرف إلى أين ولا في أي اتجاه.

مشيت مبتعداً من مقر الاستخبارات والمقر الرئاسي الموقت، وحين عبرت قربي سيارة أجرة، أشرت لسائقها، فتوقف. قلت له إنني ذاهب إلى الروضة، قرب السبتية، وإنني آخذه تاكسي، فجاوبني: طلاع يا ابني طلاع. كان السائق في حوالى الستين من عمره، ولهجته جنوبية، وفاجأني بقوله: أكيد كنت مسجون هون، الحمد

لله عالسلامة، منيح انك طلعت طيب، ربك بيحبك. ثم روى لي أن صهره أمضى شهوراً هنا عندهم لأنهم اتهموه بأنه مقرب من البعث العراقي، وخرج معطوباً، لا يسمع في واحدة من أذنيه ولا يبصر في عين من عينيه، قبل أن يقول لي ثانية: اشكر ربك يا ابني لأنك تسمعني وتراني، ولازم تروح تشوف حكيم.

في الطريق، حاولت جاهداً أن أشحذ تفكيري وذاكرتي المشتتين وأركّزهما، كي أرشد السائق إلى الطريق المؤدية إلى الروضة، حيث بيت أهلي. حين وصلت إلى أمام بيتنا، رجوته أن ينتظرني لآتيه بأجرة التاكسي، فلم يرضَ. سألته عن اسمه ورقم هاتفه كي أتصل به لاحقاً، فقال: خلص يا ابني، الله معك، روح عند أهلك، ارتاح ما يهمّك.

□□□

كان باب بيتنا مفتوحاً، ورأيت أمي تكنس الشرفة الأرضية أمامه، فوقفت في مكاني بعيداً منها. حين انتصبت واقفة بعد لحظات، نظرت إليّ، وكادت تشيح وجهها عني قبل أن تكرّر التحديق فيَّ مرات ثلاثاً حتى عرفتني وركضت نحوي وارتمت عليّ تبكي وتنوح وتصرخ، فأخرج صراخها أختي من البيت. جامداً واجماً تحركت بين أمي وأختي إلى الممر الداخلي، حيث لمحتُني في المرآة، فلم أتعرّف إلى نفسي: بقع صغيرة عارية من الشعر في رأسي، ثلاث أسنان أمامية مفقودة من فكي الأعلى، بيجامة السجن على جسمي المحطم الهزيل الذي فقد نحو ١٥ كلغ من وزنه في ١٠ أيام.

□□□

في المستشفى حيث أمضيت خمسة أيام بعد إطلاق سراحي، بدأت

أستعيد رويداً رويداً ما حدث لي. ساعة بعد ساعة، راحت الأوجاع في جسمي تشتد وأنا أتماثل إلى الشفاء، فتنبعث في نفسي نوبات متلاحقة من الألم والغضب الهستيري الذي أخرجته صراخاً وشتائم، ليهرع الأطباء والممرضات لتهدئتي. ظللت على هذه الحال يومين اثنين مطلقاً بين ساعة وأخرى نوبات غضبي الهستيري الذي يمزق أعصابي. لكنني في اليومين الثالث والرابع هدأت، ومررت بمرحلة من الحزن العميق الصامت والبكاء المتواصل، متذكراً رفاقي المفقودين ـــ ومنهم ابن بلدتي تنورين، عادل ضومط، الذي اختفى منذ ١٣ تشرين ١٩٩٠ ـــ متخيلاً أنهم تعرّضوا ويتعرّضون لما عرفته في مقر الاستخبارات.

خرجت من المستشفى مصاباً بتمزق في غشاء المعدة عليَّ أن أتناول له دواءً دائماً. أما فقرة ظهري التي انحرفت من مكانها فتحتاج إلى علاج مدى عمري كله. وها آنذا حتى اليوم مصاب بأرق وقلق ليليين يمنعانني من النوم قبل الساعة الثانية أو الثالثة من الليل، رغم تناولي أقراصاً منوّمة ومهدئة على الدوام.

في الأيام الأولى التي أمضيتها في بيت أهلي رفضت أن أقابل أحداً سوى قلة قليلة من رفاقي. أهلي بدورهم تجنبوا أن يخبروا، عن خوف، أحداً قصتي، وأصروا على ألا أخبر أحداً بما حصل لي. تلافياً للقائي الزائرين الكثيرين الذين توافدوا إلى بيتنا، أمضيت أسبوعين اثنين منعزلاً في بيت امرأة من أقاربنا، لا أقابل أحداً. في هذه المدة أصابتني حال من الإيمان، فرحت أصلي وأصلي شاكراً الله على نجاتي. لكن هذه الحال سرعان ما تلاشت، بعدما عدت إلى حياتي العادية وعملي في مركز المعلوماتية التابع للجامعة اللبنانية.

بعد أيام أتت دورية من الشرطة العسكرية اللبنانية إلى إدارة الجامعة، فاعتقلني عناصرها وقادوني إلى السجن في «قصر نورا» في سن الفيل. كان قد مضى يوم واحد على اعتقالي وسجني، حين أتاني ضابط بمحضر وقال إن عليّ أن أضع عليه توقيعي، قبل أن يحقق معي أحد ويسألني سؤالاً واحداً، فرفضت الاطلاع على المحضر وتوقيعه. أمضيت في سجن «قصر نورا» شهراً و٢٠ يوماً، أطلق بعدها سراحي، ليصدر في حقي حكم بسجني المدة نفسها، بتهمة التحريض على الفتنة والقيام بأعمال إرهابية.

□□□

في ١٤ شباط ٢٠٠٥، أدّت محاولة رفيق الحريري الخروج بنفسه وبسياسته وبلبنان على القدر السوري، إلى إخراجه من الحياة، فخرجت الغالبية الساحقة من اللبنانيين من صمتها واستنكافها وعليهما، فقالت في ١٤ آذار ٢٠٠٥: لا ليست «سورية الأسد» قدر لبنان.

في الليلة التي تلت جلاء الجيش السوري واستخباراته عن لبنان، استطعت للمرة الأولى بعد أيامي العشرة السود في مقر الاستخبارات السورية، أن أنام في الساعة ١١ قبل منتصف الليل، فلم يتناوب عليّ القلق والأرق اللذان مرضت بهما في ليالي ما بعد المقر، فجافاني النوم قبل الساعة الثانية أو الثالثة من كل ليل. لكن تلك الليلة كانت الأولى والأخيرة التي لم يضنني فيها الأرق الليلي الطويل.

□□□

عندما علمت بخروج مفرزة الاستخبارات السورية ورحيلها عن

الرملة البيضاء في نهار من نيسان ٢٠٠٥، ذهبت إلى هناك، فالتقيت موكب رستم غزالي، قائد جهاز الاستخبارات السورية في لبنان، يعبر أمام المقر في سيارته المرسيدس السوداء. كنت مع صديقي محمد خالد، أحد نزلاء المقر، بسبب اعتقاله على حاجز للجيش السوري في الضاحية الجنوبية.

قلت للجنود اللبنانيين الذين كانوا يحرسون المقر إني صحافي، ودخلت أفتش عن الزنزانة التي أمضيت فيها أيامي العشرة.اهتديت إليها، فأضأت جهاز هاتفي الخلوي وقرّبته من الجدار فوق بابها، وقرأت العبارة ــ الوصية التي حفرتها بكسرة من صحن البلاستيك قبل ١١ سنة: أنطون الخوري حرب، شهر ١١ ــ ١٩٩٤، جهنم الحمراء، ثم التقطت صورة لوصيتي.

خرجت من المقر في ذلك النهار، طائراً بفرح الانتصار، بلا أي شعور بالحقد والضغينة على السوريين، إلا رجال الاستخبارات وضباطهم. خرجت وفي رأسي دويّ أصداء الاستغاثات والصرخات التي سمعتها في أيامي العشرة المشؤومة، وكان جواب جلادي رجال الاستخبارات عليها: ما في الله هون، تركوا الله عَ جنب يا كلاب، سورية قدركم.

□□□

أنا من جيل عاش فتوته وتفتّح وعيه على الدنيا فإذا بسورية البعث والأسد قدر لبنان. جيل خائف ويخنقه شعور عام بعدم الرضى عن الحياة، حياته المختنقة والمحاصرة، وخصوصاً حياة غير المنخرطين في صفوف ميليشيا «القوات اللبنانية» المسيحية وأجهزتها التي قهرت الناس وأذلتهم ودمّرت المجتمع العادي، وجعلته مجتمعاً

حربياً. إنه جيل لم يعرف الحياة العادية والطبيعية، سوى في الصور والمشاهد التي تبثها المحطات التلفزيونية العالمية عن الحياة خارج لبنان الذي اتسمت الحياة فيه بالقسوة والضيق والقلق.

أذكر من مشاهد طفولتي معلمة في أوتوكارنا المدرسي تصرخ بنا نحن الأطفال أن نخفض رؤوسنا ولا ننظر من النوافذ إلى الخارج. لم أخفض رأسي، ونظرت من النافذة، فرأيت جثة امرأة مقطّعة مرمية إلى جانب الطريق في محلة سد البوشرية.

في فتوّتي تطوعت في الصليب الأحمر مدة ٥ سنوات، فعايشت حروب انشقاقات ميليشيا «القوات اللبنانية» في شوارع المناطق المسيحية، وأسعفت جرحاها وحملت الكثير من جثث قتلاها، قبل أن أعايش بعدها حرب الجبل في ثمانينيات القرن العشرين التي رأيت في أثنائها الكثير من أصدقائي ورفاقي يدمنون المخدرات وغيرها من الآفات الاجتماعية في مجتمع الحرب وفظاعاته المروّعة.

في خضم هذه الحقبة السوداء ظهرت حركة العماد ميشال عون، واعدة الناس ــ وخصوصاً أبناء جيلي من الشبان ــ بالخلاص من قهر الميليشيات وسطوتها وتسلطها وحروبها المدمّرة، فالتحقت بصفوف الجيش اللبناني متطوعاً، أنا الذي رفضت حضور أيّ اجتماع حزبي في حياتي المدرسية والجامعية كلها.

أما بعد أيامي السود في مقر الاستخبارات، فأعطيت معظم وقتي للنشاط المتواصل في «التيار الوطني الحر»، كي لا تظل سورية البعث والأسد قدر لبنان واللبنانيين.

الفصل الثالث

صراخ في ظلمات السجون

من أب سوري حلبي وأم لبنانية طرابلسية ولدت(*) سنة ١٩٦٠ في محلة المصيطبة ببيروت التي وفد إليها والدي في أواسط الخمسينيات من القرن الماضي، فعمل في مرفئها، تاركاً زوجة وخمسة أبناء في حلب. من أمي التي كانت مدرّسة ثم مديرة مدرسة في بيروت، أنجب سواي أخي وأختي، من دون أن يتحمّل مسؤولية إعالتنا وتربيتنا، فتركنا لأمي التي كانت قسوتها شديدة علينا.

موجز مأساة عائلية

كان أبي مستهتراً مبذراً ما يحصّله من عمله على أهوائه، فلم يوفر شهوته وصبواته للخمر والنساء، فاستأجر لذلك مسكناً خاصاً في جونيه، على ما روت لي أمي بعد وفاته. ثم إنه كثيراً ما كان يترك منزله ــ منزلنا في المصيطبة ويغيب أوقاتاً، إما عائداً إلى أهله

(*) سُجلت هذه السيرة ــ الشهادة في بيروت، عام ٢٠٠٧، بعد جلاء الجيش السوري عن لبنان، واستكمل فصلها الأخير في نهايات العام ٢٠١١ أثناء الثورة السورية.

وزوجته وأبنائه في حلب، وإما مهاجراً للعمل في إيران وبلدان الخليج العربية، بعدما ترك عمله في مرفأ بيروت واحترف نجارة الباطون في ورش البناء، فعمل في شركة روسية لبناء الجسور في الأهواز، وتزوّج هناك امرأة إيرانية. وحين هاجر إلى الكويت للعمل سرعان ما تزوّج زواجاً عرفياً بكويتية.

في بعض فصول الصيف كان يأخذنا معه إلى حلب، نحن أسرته البيروتية، فننزل في مسكن بمحلة السليمانية التي يكثر فيها المسيحيون والأرمن. كان وكيل عمله في مرفأ بيروت، لبنانياً من عائلة كسّار المسيحية والحلبية الأصل، فوفَّر له منزلاً في حلب وأسكننا فيه.

أعمامي ونساؤهم المقيمون بمنطقة شعبية في حلب، كانوا كلما ذهبنا إلى هناك نسمعهم يقولون عن أبي إنه «بلا شرف»، لأنه تزوّج امرأة لبنانية على زوجته الحلبية، فالفكرة الشائعة في كثير من الأوساط السورية، وخصوصاً العامية والمحافظة، أن النساء في لبنان متفلتات وسيئات السمعة، برغم أن أمي كانت محجَّبة منذ الثالثة عشرة من عمرها. أنا بدوري، كثيرة هي المرات التي سمعت فيها هذا العم أو ذاك من أعمامي يقول للآخر، كلما أبصروني: «تفرج، تفرج ها قد جاء ابن القحبة، تلك المتشاوفة في صمت ومن دون أن ترفع رأسها المطأطئ نحو الأرض، لتوهمنا أنها شريفة». لكن أمي كانت في منتهى التواضع والخجل، ومثلها كنت أنا شديد الخجل الذي حمل أعمامي على القول إني مثل البنات.

من ذكريات طفولتي أثناء إقامتنا الصيفية في حلب، أن الناس هناك كانوا في حال من التيه والهذيان ما بعد هزيمة حرب ١٩٦٧،

حينما كانت سورية في حال من التخبّط السياسي والانقلابات العسكرية وعدم استمرار رؤساء الجمهورية في الحكم أكثر من ستة أشهر أو ثمانية. في تلك الأيام كانت الألفة سائدة بين البيروتيين والحلبيين، والانتقال بين سورية ولبنان سهل وعادي، إذ كنا نركب الحافلة من بيروت إلى حلب بثلاث ليرات لبنانية للراكب. ومرة ذهبنا بالقطار مروراً برياق، فدفعنا ليرتين لبنانيتين وربع الليرة للراكب. وفي عهد الرئيس اللبناني شارل الحلو، أذكر أن المغنية اللبنانية صباح أحيت في الصيف حفلة غنائية مشهودة في حلب.

كنا هناك حين تُوفي الرئيس جمال عبد الناصر عام ١٩٧٠، فشعرت بأن الناس ازدادوا تيهاً وهذياناً وتخبطاً، فيما كانت أمي في أيام «عدّتها» حداداً على والدي الذي توفي أواخر صيف ١٩٧٠ في حلب. أذكر أنه عاد مرة إلى المنزل ثملاً في الساعة الثانية بعد منتصف ليل من بدايات ذلك الصيف. كانت رائحة الكحول تفوح منه، وحاملاً في جيبه زجاجة ويسكي، حين دخل إلى البيت، فقالت له أمي أن يذهب إلى زوجته الحلبية ويتركها وشأنها، فتشاجرا وقذفها بزجاجة الويسكي التي أصابت الجدار وتطايرت شظايا في الغرفة. أخيراً دفعته أمي، فوقع وجُرح جرحاً بالغاً في رأسه، ونُقل إلى المستشفى. بعد مدة قصيرة أصيب بداء في رئتيه أدى إلى وفاته، فدفن في حلب.

طمعاً في تقاسم إرث أبي الموهوم راح أعمامي الحلبيون يتملقون أمي ويتقرّبون منها. أحدهم قال لها إنه على استعداد للزواج بها «أحسن ما تروحي لبرا وتتزوجي رجلاً غريباً، فالأقربون أولى بالمعروف»، على ما سمعته مرة يقول لها، مع أنه كان متزوجاً

وعنده أولاد كثيرون. رفضت أمي الزواج، فأخذ أعمامي يضايقونها ويتسلطون عليها، حتى إن اثنين منهما تشاجرا مرة وتضاربا مدفوعين برغبة كل منهما في فرض إرادته عليها، فما كان منها أخيراً، إلا أن عادت بنا إلى بيروت، من دون أن تعود قط إلى حلب.

بعد مدة من عودتنا إلى بيروت، أدخلتنا أمي، أنا وأخي وأختي، إلى دار الأيتام الإسلامية، فنزلنا فيها نحن الثلاثة، وتعلمنا في مدارس بيروت الرسمية، وكانت أمي قد تزوّجت برجل لم تنجب منه، وكان حضوره في حياتي أشبه بحضور ظل بعيد أو طيف.

عام ١٩٧٨ تخرجت من ثانوية الطريق الجديدة حاملاً شهادة البكالوريا في قسمها الثاني فرع الرياضيات. ولأن القانون اللبناني لا يمنح النساء اللبنانيات الحق في أن يحمل أبناؤهن جنسيتهن في حال زواجهن برجل غير لبناني، كنت وما زلت أحمل جنسية والدي السورية، رغم أنني ولدت ونشأت في لبنان. لذا قررتُ الرحيل إلى دمشق لأتابع دراستي الجامعية هناك، بلا رسوم ولا تكاليف مادية يستحيل عليّ تحمّل أعبائها في الجامعات اللبنانية.

من عملي الليلي في دمشق وفَّرت لأخي الأصغر ما يمكّنه من دراسة علوم الصيدلة في جامعة بيروت العربية، بعد مدة من خروجه من دار الأيتام. كان في السنة الأخيرة من دراسته الجامعية عام ١٩٨٤، حين ذهب إلى دمشق باحثاً عني أثناء سجني هناك ١١ شهراً، فاختفى ولم نعد نعلم عنه شيئاً، سوى أن أحد السجناء الكثيرين الذين سألتهم عنه بعد خروجي من السجن، واصفاً لهم ملامحه، قال لي إنه قد يكون صادف شاباً في مثل هذه الملامح،

لكنه لا يذكر اسمه. مذذاك اختفى أخي تماماً بلا أي خبر أو أثر يرشدني إلى مكان وجوده. أما أختي فقد تزوّجت في بيروت بعد خروجها من دار الأيتام، فأنجبت ولدين قبل إصابتها بسرطان الرحم ووفاتها عام ٢٠٠١.

في جامعة البعث

أمضيت خمس سنوات (١٩٧٨ ــ ١٩٨٣) طالباً في كلية الهندسة في جامعة دمشق، ومقيماً في المدينة الجامعية المخصّصة لسكن الطلاب. كنت متفوقاً في دراستي من دون أن أتوقف عن العمل ليلاً في فندق «البستان» وعامل تنظيفات في مطار دمشق لاحقاً، لأكسب معيشتي وأدّخر ما يفيض عن كلفتها لدى أمي المقيمة مع زوجها وأختي وأخي في بيروت.

في بداية دراستي الجامعية، انخرطت في الجيش مؤدّياً خدمتي الإلزامية برتبة رقيب أول. لكن سريان ما يسمّى «قانون الاحتفاظ» بالمجنّدين الإلزاميين، للقيام بحملات مطاردة «الإخوان المسلمين» وأهلهم ومعارفهم وسواهم من المعارضين في سورية كلها، أدّى إلى تأجيل تسريحي من الجيش حتى تخرّجي من الجامعة عام ١٩٨٣. كغيره من القوانين في «سورية الأسد» لم يكن «قانون الاحتفاظ» ذاك يطبّق إلا على أمثالي العراة من الحظوة وغير المدعومين وليس لديهم ما يرشون به الضباط والنافذين. لكنني عوّضت عن عريي ذاك بتفوّقي الدراسي الذي حمل ضابطاً علوياً كبيراً، ويتولى رئاسة مفارز الحرس في الجامعات، على اختياري لتدريس بناته الأربع دروساً خصوصية في منزله، لقاء إلحاقي بمفرزة الحرس في جامعتي

الدمشقية، من دون أن أقوم بنوبات الحراسة المطلوبة مني. هكذا كنت أداوم في الجامعة نهاراً، وأدرّس بنات الضابط مساءً، قبل ذهابي إلى عملي الليلي الطويل في الفندق أو المطار، فلا أنام أكثر من ساعتين قبيل الفجر. فطاقة الشباب وقوة الإرادة، كانتا تحفزانني على تحمّل الإرهاق الجسماني والنفسي طوال تلك السنوات الجامعية الخمس في حيّ البرامكي الدمشقي، حيث مجمع مباني كليات الجامعة التي كانت تعج بكل أنواع أجهزة الاستخبارات. كنت آنذاك راضياً بما أنا فيه، وبأنني مدعوم ومأخوذ بتفوّقي الدراسي الكفيل بحصولي على منحة دراسية في الخارج. هذا برغم أنني في حياتي الجامعية وخدمتي العسكرية شبه الشكلية، خبرت ما كان يقال آنذاك، وخصوصاً في السلكين العسكري والأمني، من أن «السني مدعوس، ولسانه ممنوع أن يظهر خارج أسنانه». أما في الإدارات الحكومية فكان من الصعب إنجاز أي معاملة من دون وساطة ورشوة.

وإذا كان من الصعب إنجاز المعاملات في الإدارات الحكومية من دون وساطة ورشوة، فإن صغار الموظفين والجنود وعناصر الأجهزة الأمنية العلويين، كانوا قادرين على تخليص المعاملات وحل سواها من مشكلات إدارية مستعصية يصعب على كبار الموظفين والضباط السنة غير الموالين لنظام الأسد، تخليصها وحلها. أذكر مثلاً عقيداً في الجيش كان يدرّس في كلية الهندسة العسكرية، لم يستطع الحصول من وزارة الدفاع على تصريح يسمح له بالسفر إلى مكة لأداء مناسك الحج، إلا بعدما وكّل بالأمر رتيباً علوياً في الجيش، هو المعاون الأول ورئيس مفرزة الحرس العسكري في الجامعة، ورشاه بـــ ٧ آلاف ليرة سورية. وفي تلك الأيام كانت قد بدأت

تشيع تسمية العلويين في الأسلاك العسكرية والأمنية بلفظة FM، ترميزاً واختصاراً وللتنبيه إلى أنهم من أجهزة الاستخبارات أو من بطانتها. وقد تكون هذه التسمية مستلة من اسم الموجة الإذاعية المعروفة FM. أما اليوم فأستعيض عن هذه اللفظة بتسمية العلويين «جماعة المتيّتة»، أي شاربي المتة.

ابن عميد كلية الهندسة البعثي القديم، كان زميلي في الكلية ويأتي مع ابن عمته في سيارته الخاصة إلى الجامعة. وهذه من امتيازات أبناء البعثيين النافذين الذين من عاداتهم أن يطلبوا مساعدة الطلاب المتفوقين، لقاء إغراءات مالية، كي يتمكنوا من النجاح. فكثيرون من أبناء البعثيين كانوا يتغيّبون عن الدراسة وعن الامتحانات، وينجحون بتفوّق في نهايات الأعوام الدراسية، فيكافأون بالحصول على منح في بعثات إلى هنغاريا وتشيكوسلوفاكيا والاتحاد السوفياتي السابق. ومن امتيازات هؤلاء أيضاً حصولهم على مخصصات مالية بين ٤ و٥ آلاف ليرة سورية، لقاء انتسابهم إلى دورات إعداد حزبي، غالباً ما يسجلون أسماءهم في لوائحها للحصول على المخصصات من دون أن يفعلوا شيئاً. وهناك ما يسمّى «مهام رفيق بعثي» التي كانوا «يفرزون» سيارات خاصة للذين يقومون بها، فيراقبون الطلبة وغير الطلبة ويكتبون التقارير، ويطاردون مطلوبين ويدهمون بيوتاً ويعتقلون سكانها، لقاء مكافآت مالية. كنت أسمع طلاباً في الجامعة يتحادثون عن هذه المهام، فيقول أحدهم لرفيقه: «كم حصّلت من مهمة حمص، أو حلب أو اللاذقية؟». وكان البعثيون يتوزعون في ما بينهم عضوية الهيئات الطالبية ولجانها في الجامعة، من مالية وإدارية وثقافية... إلخ.

سنوات الترويع

حين تكثَّفت مطاردة الإخوان المسلمين في سورية سنة ١٩٧٩، تكاثرت المطاردات والاعتقالات والمداهمات، وانتشرت الحواجز في الشوارع، فعاش المجتمع السوري، وخصوصاً في حماه وحلب وحمص ودمشق، حالاً من التململ والقلق والخوف. كانت الحوادث قد بدأت بحادثة الكلية الحربية في حلب، حيث جمع الضابط السنِّي الحلبي إبراهيم اليوسف طلاب الكلية وفصل العلويين عن السنّة، قبل أن يأمر مجموعة من أتباعه الجنود بإعدام زهاء ٤٠ طالباً من العلويين رمياً بالرصاص. كان اليوسف عضواً في جماعة «الإخوان المسلمين» التي يقودها في شمال سورية عدنان عقلة وعلاء الدين زيتون ومحمد سكر الذين بدأ الجيش والاستخبارات مطاردتهم مع جماعاتهم المسلحة، فيما قامت جماعات «الإخوان المسلمين» بتفجير قطارات ودور للسينما ومقاهٍ وملاهٍ ليلية ومتاجر للخمور في حمص وحماه وحلب ودمشق وإدلب واللاذقية.

في تلك الفترة أُخبرت باعتقال عمّ لي وابنه وثلاثة من أزواج بناته في حلب، حيث كان عمي خادم مسجد ومتزوّجاً بثلاث نساء، ويتردّد إلى زيارتي في المدينة الجامعية في دمشق، فيجلب لي بعضاً من المؤونة، كالزيت والزيتون والمآكل البيتية، ويعطيني بعض المال عطفاً منه عليّ، قائلاً لي إني أذكى شخص في العائلة ويحضّني على متابعة دراستي الجامعية. كنت أعلم أن إخوته يقولون إنه «معقّد» لأنه منصرف عنهم وعن غيرهم من الناس إلى شؤون دينه ومسجده، من دون أن أدري لماذا كان يأتي إلى دمشق كل شهر أو شهرين، مكتفياً بقوله لي إنه يأتي إما لشغل وإما للقاء

أشخاص عازمين على السفر، لكن الأكيد أن أزواج بناته كانوا من جماعة «الإخوان».

ذهبت إلى حلب للاستفسار عنه، حيث يقيم في حيّ الكلاسة القديم الذي سكانه من الحلبيين القدامى أو الأصليين في المدينة. مشيت في أزقة الحيّ الضيقة، من دون أن أنتبه إلى أن رجال الاستخبارات يراقبون العابرين، إلا حين فتحت لي زوجة عمي باب بيتها وقالت في صوت مرتجف: «روح، روح شو جاي تعمل هون؟! روح بيتنا مراقب والاستخبارات منتشرة في الحي كله». سألتها عن عمي فجاوبت: «روح، الله يستر، الله يستر»، ثم أغلقت الباب. ما إن وصلت إلى آخر الزقاق الضيّق حتى اعترضني رجل الاستخبارات وأوقفني قائلاً: «ماذا أتيت تفعل هنا؟: أتيت لأزور عمي»، جاوبته، ثم أعطيته بطاقتي الجامعية وبطاقة هويتي السورية، فحدّق فيهما، ثم حدّق في وجهي، قبل أن يقول: «اذهب ولا تفكر في أن تأتي مرة أخرى إلى هنا، وانسَ أن لك عماً وبيت عم في حلب، اذهب»؛ فأدرت ظهري ومشيت عازماً على العودة فوراً إلى دمشق.

من طالب حلبي في جامعة دمشق ويؤدي خدمته العسكرية في الجيش، وبيت أهله مجاور لبيت عمي في الكلاسة، علمت لاحقاً أن مسؤول تنظيم «الإخوان المسلمين» في حلب، علاء الدين زيتون، كان في بيت عمي قبل ليلة من دهمه ومصادرة منشورات وأسلحة منه واعتقال عمي وابنه. ما إن سمعت هذا الخبر، حتى قلت في نفسي: خلص راح عمي، انتهى مع أولاده وأصهرته، ثم قررت ألا أزور حلب أبداً.

كثيراً ما سألت عن مصيرهم في السجون السورية التي نزلت فيها، لاحقاً، سنوات كثيرة في حقب متتالية بين ١٩٨٤ و٢٠٠٧، فلم يفدني أحد بخبر عنهم، إلا ما سمعته من ضابط سوري قال لي إن اسم عمي وارد في سجلات السجون، لكنه لا يعلم إن كان توفي في السجن أو ينزل في مستشفى أو في مصح للأمراض العقلية.

في تلك الحقبة من مطالع ثمانينيات القرن العشرين، عاش الشعب السوري في حال من خوف داهم تفشى في نسيج الحياة العامة والخاصة. فالملاحقة الأمنية الاستخباراتية كانت تشمل عائلات المطلوبين من آبائهم وأولادهم وإخوتهم وأعمامهم وأخوالهم وأصهرتهم، لسوقهم إلى الاستجواب والتحقيق وتقديم التقارير.

أنا مثلاً استُدعيت مرتين إلى التحقيق في فرع الأمن العسكري في دمشق، بعد اعتقال عمي في حلب. في المرة الأولى حققوا معي مدة ساعتين، وفي الثانية احتجزوني ليومين من التحقيقات في الفرع نفسه. ومن الظواهر التي عاشها المجتمع السوري في تلك الحقبة، ظاهرة هرب المطلوبين وعائلاتهم وعائلات المعتقلين وتنقلهم من مدينة إلى أخرى. فمن كان يشعر بأنه قد يكون مطلوباً في حلب كان يهرب منفرداً أو مع أسرته إلى دمشق أو إلى غيرها من المدن السورية. والدمشقي الخائف كان يهرب بدوره إلى مدينة أخرى. وتكاثر في الجامعة اعتقال الطلاب من أقارب المعتقلين والفارين. ورجال الاستخبارات أحكموا مراقبتهم على المدارس الابتدائية والإعدادية والثانوية، فاستعملوا المدرّسين في استطلاع الأخبار من التلامذة عن أهلهم وأقاربهم. المدرّسون أخذوا يرفعون تقارير دورية لأجهزة الأمن، والطلاب الجامعيون جرى تجنيد أعداد كبيرة منهم لكتابة تقارير يومية عن زملائهم.

الأكراد الذين كانوا آنذاك هائجين مطالبين بتمثيلهم في مجلس الشعب، استمالت أجهزة الأمن والاستخبارات رجالاً كثيرين منهم وجنّدتهم في المطاردات والملاحقات والتحقيقات، فتحوّلوا وحوشاً ضارية في المداهمات والتعذيب. المنزل الذي كان يتعرّض أصحابه للدهم والاعتقال، كانت تُنهب محتوياته الثمينة من مجوهرات وأموال وغيرها من الحاجيات التي يمكن حملها. وإذا أعجبت المداهمين امرأة أو فتاة من هذا البيت أو ذاك يقتادونها معهم ويفتعلون فيها ما يشاؤون. والفتيات المحجبات في الجامعة كان رجال الاستخبارات ينتظرون خروجهن من الحرم الجامعي إلى الشوارع القريبة، فيهجمون عليهن وينزعون الحجابات عن رؤوسهن ويضربونهن.

حين كنا مرة في رحلة جامعية إلى اللاذقية التي كان يسيطر عليها رجال رفعت الأسد المعروفون بـ «سرايا الدفاع»، رأينا رجالاً من «السرايا» يهاجمون الفتيات المحجبات على مدخل الجامعة. وفي حديقة ابن هانئ أو البطارنة القريبة من شاطئ البحر في اللاذقية رأينا أيضاً رجالاً من «السرايا» نفسها ينزلون من سيارة بيجو ٥٠٤ مزيّنة بصورتين لحافظ الأسد وأخيه رفعت، ويختطفون ثلاث فتيات سافرات يتمشين في الحديقة. ومن أعمال هذه السرايا أيضاً أن رجالها كانوا يدهمون بيوت الأثرياء في اللاذقية وينهبونها بحجة البحث عن المطلوبين واعتقالهم.

حي المزة الدمشقي

لاحقاً ،في برشلونة الإسبانية، حيث كنت أدرس الهندسة الزراعية في جامعتها بمنحة تفوّق دراسي حصلت عليها من جامعة دمشق،

تعرّفت إلى شابة سورية علوية فرّت إلى إسبانيا مع أسرتها المعادية عداءً عشائرياً وعسكرياً مكتوماً لنظام حافظ الأسد، بعدما صفى نفوذ كبار ضباط عائلتها في الجيش. روت لي الشابة أن خمس معلمات في مدرستها في حيّ المزة الدمشقي، اختفين عام ١٩٨٢، وظلت أسباب اختفائهن غامضة بالتزامن مع تكاثر حوادث التهديد والخطف، ومع بث الأجهزة الأمنية شائعات عن اكتشاف أوكار للدعارة تديرها في الحيّ جماعة «الإخوان المسلمين». في الأثناء توقف عن الدراسة في المدرسة نفسها نصف تلامذتها الفتيات، بعد منعهن من ارتداء الحجاب. ثم إن حيّ المزة تعرّض سكانه لحصار أمني مشدّد فرضته «سرايا الدفاع» التي شيّد قائدها رفعت الأسد قصراً له على أعلى تلة تشرف على المنطقة، وجعلها ضاحية لسكن ضباطه، وسمّاها «السومرية»، على اسم ابنته سومر. مجندو «السرايا» وضباطها ارتكبوا أبشع القذارات في ترويع الأهالي الذين دفعهم الخوف إلى الاعتصام بالصمت والتسليم، حيال تعرّضهم لضروب من المهانات والاعتداءات اليومية. في الصباحات الباكرة تعوّد سكان المزة حين يستيقظون، على قيام وحدات «السرايا» باستعراضات عسكرية صاخبة في الشوارع، فيوقف عناصرها أياً من المارين، ويطلبون منه إبراز بطاقة هويته، ويهينون هذا أو ذاك من العابرين. من يتركونه في حال سبيله، غالباً ما كانوا يتكرّمون عليه برفسة على قفاه وشتيمة مقذعة، عليه تقبلهما بصمت، خشية تعرّضه لما هو أدهى وأمرّ، أي الاعتقال الذي لم يكن ينجو منه بعض العابرين، بلا سبب إلا لأن أحد عناصر «السرايا» رغب في ذاك أو أراد أن يتسلى. من تقع عليه قرعة الاعتقال، كانوا لا يكفّون عن ضربه طوال الطريق إلى مقرهم قرب منزل قائدهم، من دون أن

يجرؤ المعتقل على السؤال عن مصيره. بعض البيوت كانت تتعرّض لعمليات دهم، في أي وقت من النهار أو الليل، بحثاً عن مطلوبين، فلا تسلم أثاثات البيوت من التحطيم والسرقة، ولا يسلم أهلها من الترويع وضروب الإهانات والشتائم.

وكان من عاديّات الأمور وأسهلها إلصاق تهمة الدعارة، أو الانتماء إلى أوكار «الإخوان»، بأصحاب البيوت التي تتعرّض للدهم، وسط صمت الأهالي واستكانتهم. وروت الشابة العلوية الدمشقية الإقامة في مطالع ثمانينيات القرن الماضي، أنها شهدت عدداً من عمليات اختطاف شبان ورجال من الشارع، أثناء ذهابها إلى المدرسة، وفي طريق عودتها منها إلى منزلها في المزة الذي حوّلته إقامة آمر «السرايا» وحرسه اللجب فيه، إقطاعاً أمنياً في مواجهة الحصار الأمني، لم يجد الأهالي العراة من صلات بأصحاب الحظوة والسلطان الأمني، سوى كتمان غضبهم والاسترسال في سكوتهم واستسلامهم وانكفائهم، فمنعوا أبناءهم وبناتهم من الخروج من المنازل مع حلول المساء. فعابرو الشوارع ليلاً مستريبين خائفين، غالباً ما كانوا يتعرّضون للتوقيف والمساءلة إلى أين هم ذاهبون، ومتى سيعودون؟

في مراهقتها كانت الشابة العلوية تشعر في المدرسة بأنها منبوذة بين زملائها التلامذة، لأنها ابنة ضابط علوي بعثي في الجيش، برغم أن والدها كان معزولاً ومهمشاً بين أقرانه الضباط، لأنه لم يكن موالياً مع عشيرته لنظام الأسد ورهطه العشائري والعسكري. وهذا ما حمله على منع أولاده من الانتساب إلى «طلائع البعث» وشبيبته في المدرسة التي عاشت ابنته فيها فصاماً مؤلماً ما بين

كراهيتها البيتية والعائلية لنظـام الأسد، ورغبتها المحمومة الممتنعة في أن تكون من «الطلائع» المدرسية، حينما كانت توزع على التلامذة طلبات الانتساب إليها في مطلع كل عام دراسي. في الصف الحادي عشر (البكالوريا) ألحّت عليها رغبتها، فأخذت تبكي في الصف الذي انتسـب تلامذتـه جميعاً إلى طلائع فتيان البعث وفتياته. فهي لم تعد تتحمّل أن تحرمها الكراهية العائلية والبيتية لكل ما يمت بصلة إلى النظام الأسدي وعشيرة الأسد، من النشاطات البعثية التي يقوم بها أقرانها في المدرسة، فتُفرد بينهم إفراداً يعذبها ويتركها غريبة كسيرة الجناح. قد يكون هذا الفصام من بواعث تمرّدها المزدوج والفصـامي على الكراهية البيتية الصامتة تلك، وعلى رغبتها المدرسية المحمومة والممتنعة في أن تكون من فتيات البعث، أسوة بقريناتها، على مقاعد الدراسة. وجد ذلك التمرّد المكبوت متنفّسه في ميلها إلى رفض الفروق الطبقية ما بين تلامذة المدرسة من أبناء الميسورين والضباط في حيّ المزة، وتلامذتها الفقراء المقيمين في حي صبَّارة المسيحي الشعبي المجاور. وقد يكون خروجها من آلام ذلك الفصام، نموذجـاً لمثيلاتها وأمثالهـا من أبناء العائلات العلوية النافـذة في الجيش والأجهـزة الأمنـية، قبل قيام حافظ الأسد بتصفية نفوذ ضباطها من «رفاقه»، بالاستبعاد والنفي والإعدام والسجن، عشية استيلائه على السلطة وغداته في مطلع سبعينيات القرن العشرين. أما بعد مقاتله العامة المشهودة، وحملات الترويع والاعتقال في الثمانينيات، فانعطف النظام الأسدي بالمجتمع السوري انعطافاً غير مسبوق، بأن نقل دبيب الريبة والخوف والوشاية والتآمر السائد في الدوائر العليا الضيقة للحزب والجيش والأجهزة الأمنية، إلى النسيج الاجتماعي

العام، متوسلاً تحويل الاختلافات والتمايزات والفروق الاجتماعية، من عشائرية وطائفية ومناطقية، شقاقاً مكتوماً بين الناس، يتغذى من الوشاية والخوف. وذلك لتسوير سلطته الأمنية بمركب الخوف ــ الكراهية الذي غرسه في المجتمع السوري، وجعله مصدراً ومعيناً لا ينضب لبث العداوات بين جماعاته وفئاته، عبر تسليط أجهزته الأمنية عليها في الأحياء السكنية والإدارات العامة ومؤسسات التعليم. هكذا أصبحت اللغة والمعاملات والمبادلات بين الناس، جماعات وأفراداً، مسكونة بدبيب عداوات مكتومة وغامضة، تبثها الأجهزة الأمنية وترعاها وتقبض على مقاليدها، فتحوّل المجتمع مجتمعاً أمنياً خالصاً، تضخمت فيه الاختلافات المذهبية. ففي المدارس والجامعات، مثلاً، جرت مطاردة الشبان المتديّنين والفتيات المحجبات، وتصويرهم من صنائع «أوكار الإخوان المسلمين» الذين سمّاهم حافظ الأسد في إحدى خطبه «الإخوان المجرمين»، لزرع العداوة بينهم وبين الشبان غير المتديّنين والفتيات السافرات.

وفي الجامعة أخذ الطلبة، شباناً وفتيات، يتسابقون على التطوّع في دورات تدريبية لما سمّي «الصاعقة» و«المظليين»، سعياً إلى التمايز وحيازة مسدسات يوزعها عليهم وعليهن قائد «سرايا الدفاع» رفعت الأسد. فتفشى بين الطلاب والطالبات حمل المسدّسات في قاعات التدريس، تباهياً وتسلطاً على الآخرين. إحدى الطالبات لم تستطع فتح مظلتها في دورة التدريب، فهوت من الطائرة إلى الأرض وقضت فوراً، فأطلقت تسمية «دورة الشهيدة ألماظة خليل» على المظليات. أما أبناء كبار الضباط في الجيش والأجهزة الأمنية، فأخذوا يدخلون إلى قاعات التدريس في صحبة مرافقين مسلحين. وهيهات أن يتمكن

طالب من اختيار الكلية التي يريد الانتساب إليها إن لم يكن منتسباً إلى حزب البعث. لذا أخذ الطلبة ينتسبون إليه في المرحلة الثانوية. والبعثي الذي يحصل على منحة تفوّق لإكمال دراساته في الخارج، يصعب ألا يكون من أبناء النافذين، فيجري تزوير سجل علامته، لأنه غالباً ما لا يحضر إلى الجامعة إلا في أيام الامتحانات.

مشهد إعدام في حلب

عام ١٩٨٣، تخرجت من كلية الهندسة في جامعة دمشق، حاملاً درجة التفوّق في قسم الهندسة الميكانيكية والآليات الزراعية، فبدأت أحضّر المستندات والإفادات المطلوبة من الطلاب المتفوقين الذين ترسلهم الإدارة الجامعية في بعثات إلى الخارج لاستكمال دراساتهم العليا. وبما أن والدي حلبي، كان عليّ أن أذهب إلى حلب للحصول على إخراج قيد من دائرة النفوس هناك. ركبت الباص ليلاً من دمشق، فوصلت الساعة السابعة صباحاً إلى حلب حيث فوجئت بانتشار دوريات كثيفة للجيش والأمن في شوارعها شبه الخالية والمقفرة، كأن حالاً من الطوارئ المشددة مفروضة على المدينة. لعنت حظي التاعس، حين علمت في الباص أن قوات الجيش تطارد المرشد الروحي للإخوان المسلمين في حلب، عدنان عقلة ومعاونه محمد خير سكر. الخوف والفراغ في الشوارع حملا سائق الباص على إنزال ركابه قرب الملعب البلدي على طرف المدينة، ممتنعاً عن الوصول إلى المحطة التي يتوقف فيها عادة. لذا كان عليّ أن أمشي مسافة ٤ كلم لأصل إلى دائرة النفوس.

سرت في طريق صاعدة تتجه نحو منطقة تدعى المشارقة، المعروفة باسم سكانها الحلبيين من آل مشارقة. بعد قليل من الخطى، رأيت

فجأة دورية من جنود يوقفون مجموعة رجال رافعين أيديهم عالياً ووجوههم إلى جدار المقبرة في آخر الطريق الصاعدة. أخافني المشهد فأوقفني بعيداً، ومن بعيد رحت أعدّ الرجال المصطفين إلى الجدار. كان عددهم ١٩ رجلاً. وسرعان ما تقدم ضابط مسافة قصيرة نحو الرجال، وراح يصرخ: واو... واو... واو، فاصطف نحو ١٤ جندياً خلف الرجال، وأمطروهم بنيران بنادقهم الرشاشة. وسط أزيز الرصاص، رأيت أجسام ١٩ رجلاً تتهاوى تباعاً وتتساقط بطيئاً بطيئاً نحو الأرض، في مشهد لم أبصر له مثيلاً في حياتي، حتى على شاشة السينما. (لاحقاً علمت أن ستة من الرجال الذين ثقّب الرصاص أجسامهم، كانوا من عائلتي زعرور والأسدي، على ما نشرت الصحف أسماءهم، ووصفتهم بالمتعاملين والمتآمرين والخونة). جمدت في مكاني محدقاً في مشهد الإعدام الميداني الصباحي لرجال مصطفين، ثم تتهاوى أجسامهم قرب جدار مقبرة. لم أعد أقوى على أيّ حركة وتعطلت حواسي وشُلّ تفكيري كلياً. كان دمي يغلي في جسمي الذي شعرت بأنه يذوب شيئاً فشيئاً كشمعة مسلطة عليها من الأعلى كتلة هائلة من النار.

مضى وقت لم أستطع تقديره حين استعدت قليلاً من وعيي، ورأيتني ممدّداً على الأرض قرب إطار سيارة عسكرية. فوقي، في البعيد، أبصرت وجه جندي أشقر جميلاً في قبة السماء الزرقاء الواسعة. كما من عالم آخر، سمعت صوته يناديني قائلاً: شو باك يا عمي، شو باك؟!

ساعدني الجندي وأوقفني على رجليّ مردداً: قوم، قوم تماسك، انت رجّال، قوم. كان لساني مربوطاً ومتجمّداً في فمي اليابس.

سألني الجندي عن اسمي الذي ظللت أكثر من دقيقة في حال نسيان تام له.

أجلسني الجندي على حافة الرصيف، وأخذ يلاطفني، ممرّراً أصابعه على وجهي، قائلاً لي أن لا أخاف، وأنه رأى ما لو رأيته لمتُّ أو أصبت بالشلل فوراً. تذكرت اسمي من دون أن أقوى على النطق، واستطعت أن أميّز لهجة الجندي غير العلوية الشبيهة بلهجة أهل اللاذقية أو طرطوس.

بعد قليل أحضر إبريقا بلاستيكياً فيه ماء، وقال لي أن أشرب وأغسل وجهي، وصبّ الماء على يديَّ المرتجفتين اللتين أسقطتا النظارة عن وجهي فيما كنت أبلله بالماء، فداستها قدمي وحطمتها، فلم أعد قادراً على الإبصار في وضوح.

حين بدأت أتأتئ بعض كلمات، قال لي الجندي أن أهدأ وأذهب إلى جامع قريب، حيث يمكنني أن أجلس وأستريح، لخلوّ محيط الجامع من الدوريات والمداهمات العسكرية والإعدامات الميدانية. نصحني الجندي أن أجلس على باب الجامع وأتلو سورة الفاتحة وغيرها من سور القرآن الكريم. قمت عن حافة الرصيف، متثاقلاً شبه مخدّر مشيت حتى وصلت إلى باب الجامع، حيث جلست أكثر من ساعة، قبل أن أغادر إلى دائرة النفوس، عابراً شوارع رأيت جثثاً لقتلى كثيرين مرمية على جنباتها، فيما النساء يصرخن معولات على شرفات البنايات والبيوت.

في مركز الأمن العسكري

وصلت في التاسعة صباحاً إلى دائرة النفوس، فطلب مني الموظف

المسؤول في الدائرة أن أذهب إلى مديرية الأمن العسكري في منطقة تدعى السريان، لأحصل منها على إفادة قال إنه بدونها لا يُسمح لدائرة النفوس بإصدار إخراجات قيد وإعطائها لطالبيها. وصلت إلى المديرية وما إن لفظت اسمي لرجال الأمن العسكري ونظروا في سجلاتهم، حتى أوقفوني. كنت أعلم أن رجالاً كثيرين من عائلة أبي في حلب معتقلون منذ مطلع الثمانينيات، بتهمة انتماء عمي إلى جماعة «الإخوان المسلمين».

أتذكر من أيام توقيفي الأربعة في مركز الأمن العسكري، الأسئلة التي لا تنتهي عن عمي وأولاده وأصهرته الذين لم أرهم منذ سنوات. أتذكر أيضاً وقع خطواتي وأصداءها تتردّد في سمعي إلى ما لا نهاية وهم يقودونني معصوب العينين في ممرات طويلة، ذهابا إلى قاعة التحقيق وإياباً منها إلى الزنزانة التي وضعوني فيها.

كان سقف الزنزانة الضيقة شاهقاً جداً، ومن فتحة فيه يصلني ضوء كأنه ضوء مصباح بعيد. صرخات المعتقلين وأدعيتهم إلى الله والنبي متوسلين معذبيهم ليرأفوا بهم، كانت تصلني قوية ومختلطة بشتائم رجال التعذيب المقذعة. في الساعات الـ٢٤ الأولى التي أمضيتها على هذه الحال في زنزانتي، قبل اقتيادي إلى التحقيق، كثيراً ما خاطبت الله متضرّعاً، قائلاً له أن يميتني، فجأة الآن، في سكتة قلبية، إن كان يحبني. وحين فتح رجل أمن باب الزنزانة وناداني باسمي، كان الرعب في جسمي قد جعله لوحاً من الجليد، فيما عرق ساخن يخرج من داخلي، سرعان ما يبترد ما إن يتفصّد من جلدي ويسيل عليه. كنت أرتجف حين أمسكني رجل الأمن وأخرجني من الزنزانة، قائلاً لي أن لا أخاف، ما دمت غير متهم في

شيء، وأنني سوف أُسأل بعض الأسئلة، فأجيب عنها وينتهي الأمر. إذا كانت هذه حالي من أمس وأنا غير متهم في شيء، فعلى أي حال سأكون لو كنت متهماً؟! فكرتُ، فيما رجل الأمن يكمّم رأسي كله بكيس من القماش ويشد وثاقه على عنقي، ويجرّني خلفه ممسكاً ياقة قميصي. أصعدني درجاً طويلاً ونبهني أكثر من ٢٠ مرة لأهتدي إلى الدرجات، قبل أن يجرّني وراءه في ممر طويل خطوت فيه نحو ٤٠ خطوة. حين اصطدمت كتفي بما ما قدّرت أنه حافة باب، مددت يدي تلقائياً لعلّها تصل إلى شيء أستند إليه، فضربني رجل الأمن على يدي وأمرني ألا أمدّها ثانية، ثم أجلسني على كرسي ونزع كيس القماش عن رأسي، فوجدتني في صالة قبالة خمسة رجال وراء طاولات. ذكر أحدهم أسماءً وسألني إن كنت أعرف أصحابها، فقلت إنها أسماء عمي وأولاده وأصهرته، وإنني لم أرهم منذ سنوات، وأتيت إلى حلب للحصول على إخراج قيد استكمالاً لملف بعثتي الدراسية إلى الخارج، كطالب جامعي متفوّق في كلية الهندسة في جامعة دمشق. استمر التحقيق أكثر من ساعة أمر المحقق بعدها بإعادتي إلى زنزانتي، فأعادني رجل الأمن نفسه، بعدما كمّم رأسي بكيس القماش، فزلّت قدمي ووقعت فيما كنت أنزل درجات السلم. شتمني الرجل قائلاً: قوم ولاه حيوان، ثم رفسني بقدمه رفسة قوية على صلبي، فظل موضعها يؤلمني طوال ٢٥ يوماً.

استمر الوضع على هذه الحال إلى اليوم الرابع من اعتقالي، حتى قال أحدهم للضابط في قاعة التحقيق أثناء استجوابي: سيدي، هذا مسطول، سيدي، ما بيعرف شي وما خصو بكل هالقصص. كانت لهجة الرجل واضحة في علويتها الصافية، المتضخمة والقاسية،

وتابع كلامه قائلاً: فلتو سيدي، شو بدنا فيه، فلتو، وقع له ورقته وخليه يفل سيدي، ثم التفت الرجل إليّ وسألني: شو ولاه، بدك تفل؟ فجاوبته بأنني طالب جامعي ولا أسعى إلى شيء سوى الذهاب في بعثة دراسية إلى الخارج.

«قرد، إذا تخرجت راح تشتغل هني (هنا) وتفيد بلدك هني؟»» سألني في صوته الأجش الثخين، قبل أن يأمر بإطلاق سراحي.

في دائرة النفوس

خرجت من مديرية الأمن العسكري حاملاً ورقة إفادتي، وتوجّهت إلى دائرة النفوس. حين سلّمت الإفادة إلى مدير الدائرة الشركسي المدعو طورستان أبو تمبي، نظر فيها وقال إنها غير ممهورة بتوقيع الأمن العسكري، وعليّ أن أعود إلى مقره لوضع التوقيع المطلوب عليها. راكضاً عدت إلى مديرية الأمن، حيث التقيت على بابها المحقق نفسه الذي اقترح إطلاق سراحي. حين أطلعته على ما يريده مدير دائرة النفوس، جعل يشتمه مستنكراً مستاءً، لا من عدم حاجة الإفادة إلى التوقيع فحسب، بل من إصراره على حصولي عليها أصلاً، لإعطائي إخراج القيد.

«قرد، نكاية به الابن القحبة طلاع معي في السيارة، طلاع»، قال لي المحقق الذي صعدت إلى جانبه، فانطلق في سيارته مسرعاً، من دون أن يتوقف عن شتم مدير دائرة النفوس التي دخل إليها غاضباً، وهو يمسك الورقة بيد ويجرّني خلفه بيده الأخرى، منادياً بأعلى صوته: «وينو هـــ الأخو القحبة ابن القحبة وينو»؟! ثم فاجأ المدير بدخوله إلى مكتبه وهو يدفعني أمامه دفعاً، ويقول له: هذا طالب

متفوّق، ليش ما بتعطيه إخراج قيد، ولاه ابن القحبة، بدل ما تبعثو ع الأمن العسكري؟! ياالله أعطيه إخراج قيد، أحسن ما أحرق كل الشركس هلق».

«احترم نفسك يا رفيق، أنا رفيق مثلك»، قال مدير دائرة النفوس للمحقق الذي جاوبه: «بلا رفيق بلا سرماية اعطيه إخراج قيد أحسن ما أحرقك، هلق»؛ ثم كرر شتائمه المقذعة، فما كان من رئيس دائرة النفوس إلا أن قال لموظف في مكتبه أن يأخذني إلى حيث أحصل على ما أريد. أمسك محقق الأمن العسكري الموظف من رقبته، وجرّه أمامه شاتماً ودافعاً جمعاً من الناس كانوا في مكتب المدير. وهكذا لم أكتفِ بالحصول على إخراج قيد شخصي، بل طلبت آخر عائلياً، وحصلت عليه في لحظات قليلة.

قبل أن أخرج مع المحقق من مبنى الدائرة، سألني إن كنت أحتاج إلى المال، فشكرته قائلاً إن معي ٤٠٠ ليرة تكفيني لأعود إلى دمشق، فصرخ بي قائلاً إنها لا تكفي، ثم توجّه مجدداً إلى مكتب مدير دائرة النفوس وهو يجرّني من يدي. دفع جمعاً من الناس الذين كانوا لا يزالون في المكتب، وصرخ في المدير قائلاً أن يعطيني ٥٠٠ ليرة، مهدداً إياه بحرقه وحرق الشركس معه، فتناول المدير أوراقاً مالية من جيبه وأعطاني إياها. أخذتها وخرجت مع المحقق الذي قال لي: أنا حبيتك، حبيتك؛ ثم أطلعني على اسمه، وأوصلني في سيارته إلى موقف باصات دمشق. في السيارة أخبرني أن رئيس دائرة النفوس الشركسي ليس إلا نصاباً فاسداً وينتمي إلى جهاز أمني غير الأمن العسكري، ويتقاضى رشى من طالبي المعاملات من دائرته ليتقاسمها مع ضباط الجهاز الأمني الذي ينتمي إليه. حين

نزلت من سيارة المحقق قال لي إن الله يحبني، وإنه هو أحبني أيضاً، وأن آتي إليه كلما احتجت إلى شيء.

بعد مضي سنوات كثيرة تعرفت في بيروت إلى مجموعة طلاب سوريين حلبيين يدرسون في جامعة بيروت العربية، وفيما كنا نتراوى أخبار الحوادث والاعتقالات والسجون في سورية، روى أحدهم كيف قُتل رئيس دائرة النفوس في مكتبه في حلب، فقال إن مسلحين اثنين من جهاز أمني دخلا مكتبه في العاشرة والنصف صباحاً، وأمطراه بوابل من الرشقات النارية من بندقيتيهما الرشاشتين وسط تدافع الموظفين والناس وهربهم من مكاتب دائرة النفوس. قال الراوي إن القاتلين جعلا جسم القتيل مثقّباً كالمنخل، فسألته إن كان يعرف اسمه، فذكر أنه يدعى طورستان أبو تمبي، ففرحت منتشياً كما لو أنني أتناول كأساً من البوظة المثلجة في حرّ آب، وقلت إن رب العالمين أخذ لي حقي.

في جامعة برشلونة

عدت إلى دمشق حاملاً إخراج القيد، فترجمته إلى اللغة الانكليزية وقدمته مع غيره من المستندات إلى إدارة الجامعة، لأكون في عداد الطلاب الثلاثة المتفوقين الذين يُبعثون إلى الخارج لمتابعة دراساتهم العليا. كنت في المرتبة الثانية بين ٨٠ طالباً من الناجحين في كلية الهندسة، لكنني سرعان ما علمت بعد أيام أنهم حذفوا اسمي من بين الطلاب الثلاثة المتفوقين واستبدلوه باسم غيره. طوال سنة لم أوفر وسيلة ممكنة من المراجعات الإدارية والرسائل الاعتراضية المتوسلة التي بعثتها إلى إدارة الجامعة، لاسترداد حقي في أن أكون في عداد البعثة الدراسية إلى الخارج، لكن ما من وسيلة أوصلتني إلى نتيجة.

أخيراً استطعت أن أحصل على موعد لمقابلة عضو القيادة القطرية في حزب البعث زيدان زيدان، وهو من أصول بدوية ويقال إنه لم يحصل سوى على الشهادة الابتدائية. ذهبت إلى مكتبه في دمشق وأطلعته على وضعي. سألني قائلاً: ياول ـــ وهذه لفظة في لهجته البدوية تعادل كلمة ولاه ـــ أنت رفيق حزبي؟ فجاوبته بأنني منصرف إلى دراستي ومعيشتي ولا وقت لديّ لأكون حزبياً. سريعاً قال لي إن الأولوية لـــ«الرفاغ» (أي الرفاق) الحزبيين، ثم تابع قائلاً: روح نغلع (إنقلع) من هني (هنا) يا الله؛ فانقلعت خارجاً من مكتبه.

زوج عمتي توسّط لي لدى مدير السجن المركزي في دمشق، وهو لواء سني من حلب، فاستطاع بدوره أن يتوسّط لي مع زوج ابنته، وزير الداخلية آنذاك، محمد عادل الدباغ الذي وعده خيراً، فألحقت بعد سنة كاملة بالبعثة الدراسية التي أُرسلت إلى إسبانيا، وسافرت إلى هناك عام ١٩٨٦ والتحقت بكلية الهندسة الزراعية في برشلونة.

مع طلبة البعثة السورية للمتفوقين، أقمت في المسكن الطالبي بكلية الزراعة في برشلونة. كان مقرراً أن يحصل واحدنا على منحة مالية مقدارها ألفا دولار أميركي في السنة. لكن موظفي السفارة السورية في إسبانيا ـــ التي عبرها كانت تصلنا المنحة من الحكومة الإسبانية ـــ تعوّدوا التواطؤ في ما بينهم، وفي مقدمهم السفير، لاقتطاع خوّة أو إتاوة لهم من منحنا التي لم يكن يصلنا منها سوى ٦٠٠ أو ٧٠٠ دولار في السنة. وهذا مبلغ لم يكن يكفي لمصاريفنا، فأرغمنا على العمل ليلاً لنحصّل كلفة قوتنا وتنقلاتنا.

عملت في مطاعم كثيرة وفي محطة قطارات في دوام ليلي مرهق، من دون أن أتأخر في دراستي التي تفوقت فيها، ما حمل إدارة كلية

الهندسة الزراعية في برشلونة على الاهتمام بي، فصارت ترسلني في دورات تدريبية إلى أكبر مصانع الآليات الزراعية. في السنتين الدراسيتين الأخيرتين أُلحقت بقسم المعالجة الحرارية للمعادن في أحد هذه المصانع، حيث ابتكرت لشركة IBRO للجرارات الزراعية آلة جديدة تتمكن من بذر الحبوب في الحقول على نحو يحميها من أن تأكلها الطيور أو الحشرات. وحين تخرجت في عداد ٥٦ طالباً من المعهد العالي للدراسات الهندسية الزراعية، وكنت المتفوق بين الطلبة السوريين الثمانية، عرضت إدارة المصنع علينا، أنا وطالبين لبنانيين أحدهما من أصل أرمني والآخر مسيحي، أن نبقى في إسبانيا ونعمل في القسم الذي تدرّبنا وأنهينا اختصاصنا فيه بتفوّق. الطالبان اللبنانيان استجابا للعرض الذي منعني الخوف من موظفي السفارة السورية من الاستجابة له. فقانون البعثات الدراسية في سورية يحذّر المبعوثين من عدم العودة مباشرة إلى ديارهم للعمل في القطاع العام الحكومي السوري، لقاء أجور زهيدة، كما لو أنهم في الخدمة العسكرية الإجبارية. لذا فكرت أنهم في السفارة سيعتقلونني، ويعيدونني إلى سورية وسجونها، لو بقيت في إسبانيا، فعدت عام ١٩٨٩ إلى دمشق.

في مكتب وزير التعليم العالي

كنت ساذجاً وحسن النية حين قدّرت أن تفوّقي العلمي كفيل بفوزي في امتحان الكولوكيوم الذي يتقدم إليه في دمشق حملة الشهادات العليا الاجنبية لمعادلتها بشهادات سورية. رسبت في هذا الامتحان مرتين متتاليتين، موقناً أنني كنت بين الناجحين الذين أعرف أن كثيرين منهم لم يكونوا في مستواي العلمي. وحين

راجعت كبار الموظفين في لجان المعادلات قال لي أحدهم إن نجاحي يتطلب مني أن أدفع له ١٠ آلاف دولار أميركي رشوة (أي ما يعادل نصف مليون ليرة سورية لا أملك منها شيئاً)، وأن أتعهّد بالخضوع لدورة إعداد حزبي لمدة سنة كاملة، وبالعمل في القطاع الحكومي العام مدة سنتين براتب ٢٥٠٠ ليرة سورية شهرياً (أي نحو ٥٠ دولاراً أميركياً)، وبالتدريس التطوّعي المجاني في الجامعة.

نمط الحياة والعلاقات الذي خبرته طوال إقامتي في إسبانيا، والاحترام العادي والبديهي الذي يسود بين البشر، إضافة إلى التقدير الذي حظيت به هناك، وإلى المبلغ الخيالي المطلوب مني دفعه رشوة ولا أملك منه شيئاً يذكر، هذا كله حملني على أن أتجاسر وأطلب موعداً لمقابلة وزير التعليم العالي في سورية، لعلّي أتمكن من معادلة شهادتي. لم أتلق أي جواب عن الطلبات الخطية الثلاثة التي تقدمت بها لمقابلة الوزير، فقررت أن أذهب إليه مباشرة في مكتبه. كنت ممتلئاً قهراً وغضباً حين وصلت وطلبت من مدير مكتبه شاكر الفحام أن يسمح لي بالدخول لمقابلته. من أنت لتقابل وزيراً؟! قال لي ساخراً هازئاً. استفزتني لهجته، فجاوبته بأنني لا أحد سوى شخص ضيّع ٢٨ سنة ـــ وهو عمري كله ـــ في الدراسة والتعب والشقاء والعمل في لبنان وسورية وإسبانيا، ولا يُعقل أن تضيع هنا في سورية هباءً في هباء. لذا أريد أن أقابل الوزير لأطلعه على وضعي، لعله ينصفني. لم يكن مدير المكتب قد سمع من أحد مثل هذا الكلام قط، فنظر إليّ وهبّ واقفاً من خلف مكتبه وهمّ بصفعي، فيما هو يشتمني محاولاً طردي. نوبة عارمة من القهر والغضب استبدّت بي، وأفقدتني صوابي والسيطرة على نفسي، فقلت إنني لن أخرج من المكتب قبل أن أقابل الوزير الذي أعلم أنه

يوظف متخرجاً من كلية العلوم عاملاً في الصرف الصحي، ومهندساً زراعياً في وزارة المال، وطبيباً بيطرياً في إدارة الأوقاف (وهذه كلها غيض من فيض حالات متخرجي جامعة دمشق).

في هذه اللحظة تحيّر مدير مكتب الوزير وارتبك قليلاً، ثم سألني: هل أنت رفيق في الحزب؟! بكل ما أوتيت من قوة صرخت قائلاً: لا، لست رفيقاً ولا بعثياً ولا حزبياً ولا علوياً ولا مدعوماً، وليس لديّ وقت لأضيّعه في مثل هذه الأمور التي لا أفقه منها شيئاً. فجأة تقدم الرجل مني وصفعني، فاعتليت طاولة مكتبه ورفسته بقدمي على وجهه، ورحت أصرخ شاتماً البعث والدولة والوزراء والرئيس وعائلته. كانت رفستي قد أوقعت مدير مكتب الوزير أرضاً، فقام مسرعاً إلى زاوية مكتبه وضغط على زر كهربائي، فانطلق رنين قوي من جرس أدخل رنينه الصاخب كوكبة من رجال الأمن إلى المكتب، فهجموا عليّ واعتقلوني، وساقوني مكبّلاً إلى قسم الاستخبارات العسكرية. وفي تلك اللحظة بدأت مرحلة جديدة من حياتي استمرّت ٣ سنوات و٨ أشهر في السجون السورية.

سنة في سجن الحرجلّي

لم أعلم إلا بعد أيام أنهم اقتادوني إلى فرع فلسطين في جهاز الاستخبارات بدمشق، الذي كان يحمل آنذاك الرقم ٢١٥، وصار اليوم يسمّى ٣ تسعات لأنه يحمل الرقم ٩٩٩. طوال شهرين ونصف الشهر من سنة ١٩٩٠، تعرّضت لأنواع لا تحصى من التعذيب، منها ضربي عارياً ومعلقاً في سقف الزنزانة، وصعقي بالتيار الكهربائي، لأنني عميل الاستعمار والعدو الصهيوني.

مَن هو المسؤول عنك؟ قل مَن هو المسؤول عنك؟ كان السؤال الأول للمحقق معي، ذي اللهجة العلوية، والذي قد يكون علوياً وقد لا يكون. فمنذ مطالع سبعينيات القرن العشرين، مع تزايد أعداد العلويين في الأجهزة الإدارية البيروقراطية والأمنية، أخذ رجال غير علويين ينطقون باللهجة العلوية المميزة، كي يؤكدوا أنهم من الجماعة المحظية المسيطرة في داخل أجهزة النظام. وهذا يمنحهم قوة وحظوة إضافيتين، ويمكنهم من التسلط على الناس والموظفين، ومن إنجاز المعاملات والحصول على رشى.

كان جوابي للمحقق أن الله وحده هو المسؤول عني، فقال: أقصد مَن هو المسؤول عنك هنا على الأرض؟ فأنت وليس الله من ضرب سكرتير الوزير وشتمه وشتم الرئيس القائد والحزب. لا أحد مسؤول عني ــ قلت ــ وأنا مسؤول عن نفسي. وقد فعلت ما فعلته لأنني تعبت وشقيت وعملت وخدمت في الجيش ودرست وتفوقت في الجامعة، ولم أكن أنام أكثر من أربع ساعات في اليوم طوال ثماني سنوات، ويريدون تضييع حقي في أن أعيش بكرامة. إذذاك، سألني المحقق: أنت من مواليد لبنان؟ ثم تابع قائلاً: اللبنانيون عندهم شوفة حال، ولا يتوقفون عن كراهيتنا. إلى الأبد سوف ندعس رؤوسهم هنا وفي لبنان الذي ليس سوى محافظة سورية.

بعد شهرين من التعذيب والتحقيقات نقلوني إلى سجن القلعة، فنزلت فيه وتذوّقت الويل طوال خمسة شهور في زنزانة شديدة الرطوبة تحت الأرض، قبل أن ينقلوني إلى سجن الحرجلّي، وما أدراك ما الحرجلّي، الذي يبعد عن دمشق نحو ٣٢ كلم، وعن

الطريق بين دمشق ودرعا جنوباً نحو ١٥ كلم، ويقع في أرض قفر لا نبت فيها ولا بشر، وإذا خبط المرء قدمه على الأرض الناعمة التربة كمسحوق ترابة البناء، يتصاعد منها غبار أبيض تصل سحبه الكثيفة إلى ما يزيد على عشرة أمتار. أما الزاحفة المعروفة باسم أبو بريص، فيراوح طولها في الحرجلّي بين ٣٠ و٤٠ سنتم، حتى إذا ما أطلقها خبراء التعذيب في السجن من جحورها، بعد تجويعها أياماً، تهجم أرتالها على السجناء العراة في القيظ، وتروح تنهش لحمهم وتمزق منه نتفاً تلتهمها، تاركة أجسامهم في العراء مبقورة العضل تنزف من مواضع كثيرة.

فنون التعذيب في الحرجلّي تفوق الخيال وتعصى على الأحلام. كانوا مثلاً يمدّدونني عارياً على سلم ويربطون جسمي إلى خشبه، ثم يرفعون السلم ويسندونه إلى جدار، قبل أن يرشقوني بماء مثلج، ويهوون عليّ بسياطهم التي تروح أطرافها الدقيقة تلسع جلدي لسعات نارية متتالية، كأنها ضربات منجل. كانت هذه اللسعات السريعة تمزق لحمي وعضلاتي تحت جلدي المزرقّ، فأصرخ فيهم قائلاً: يا أخي أنا قتلت النبي محمد والسيد المسيح والنبيين موسى وإبراهيم! فبماذا تريدون مني أن أعترف أكثر من ذلك؟! خلصوني. كان ردّهم على هذا الصراخ يأتي سريعاً، فيرشقون بالماء المثلج جسمي الممزق، ثم يتناوبون على اغتصابي. كان كل واحد منهم يخرج ذكره ويضعه في فمي وأذني وعيني ومؤخرتي، قبل أن يبول عليّ أخيراً. أكثر من مرات خمس أو ست تعرضت لهذا النوع من التعذيب.

من فنون تعذيبهم أيضاً أنهم كانوا يربطونني عارياً إلى سرير معدني

عسكري، ثم يربطون خصيتي بخيط من النايلون موصول من طرفه بكلغ من الحديد، ومن طرفه الآخر بقدم رجل منهم جالس على كرسي، يروح يجذب الخيط بقدمه بطيئاً بطيئاً، فيما رجل آخر يضع إحدى قدميه على رقبتي والأخرى على ظهري كي لا أقوى على الحراك. كلما جُذب الخيط يزداد الألم الرهيب حتى أكاد أشعر بأن روحي قد تجمعت كلها في خصيتيَّ، وسوف تخرج منهما. حين يصير جسمي أزرق كله ينزعون الكلغ من طرف الخيط، كي لا أموت. هذه العملية كانت تترك جسمي في حال من الخدر التام، وفمي ناشفاً حتى اليباس، وحواسي كلها معطلة مثل تفكيري، كأنني انفصلت عن العالم انفصالاً كاملاً، فلا أستردّ إحساسي المتباطئ قبل ساعة أو ساعتين.

هناك أنواع من التعذيب الانفرادية الدائمة في الزنزانة الضيقة التي من فتحة في سقفها العالي نحو خمسة أمتار أو ستة، كانت تسقط عليَّ نقاط منتظمة من الماء الممزوج بالكلس، فلا أستطيع أن أتفاداها. ومن الفتحة نفسها ينفثون أحياناً الغاز أو غاز الأعصاب أو الدخان، أو يدلقون عليَّ المازوت، فأروح مجدداً أردّد صارخاً أنني قاتل النبي وعيسى المسيح وموسى وإبراهيم، من دون أن أسمع غير أصداء صرخاتي في الظلام.

من فنون تعذيبهم أيضاً أنهم كانوا يضعونني في غرفة صغيرة متحركة الجدران وتروح جدرانها تضيّقُ عليَّ حتى تهصر جسمي بطيئاً بطيئاً لمدة بين ٣ و٦ ساعات متواصلة، فتكاد تهرسه. مرة وضعوني في هذه الغرفة طوال ١٨ ساعة، لأنني قلت لواحد من الحراس: إلى جهنم وبئس المصير.

في سجون حلب ودمشق

بعد نحو سنة على هذه الحال في سجن الحرجلّي، نقلوني إلى سجن تدمر العسكري الذي ينزل فيه كبار السجناء السياسيين والعسكريين، فالتقيت ضباطاً كثيرين من رتبة ملازم إلى عميد. كان هؤلاء الضباط جميعاً من السنّة، من دون أن يكون بينهم ضابط علوي واحد. لكن سجن تدمر أرحم بما لا يقاس من سجن الحرجلّي. ففي تدمر استمتعت بأشغال الطبخ وتنظيف الحمامات ومكاتب إداريي السجن طوال خمسة شهور، قبل أن يسألني أحد المحققين مرة، بعد استجوابي مرات كثيرة: ماذا تفعل هنا وأنت لم تقترف ذنباً؟ يجب أن تخرج ما دام اعتقالك لا يفيدنا في شيء. هكذا نقلوني إلى سجن أمن الدولة في حلب، فنزلت فيه شهرين اثنين، وكان مديره ضابطاً علوياً من حيّ السلمية في حلب، يدعى منيف وزي الذي يكنّ كرهاً شديداً للسنّة، فأنزل بي، مثل سائر السجناء، تعذيباً يومياً يذكّر بالتعذيب في سجن الحرجلّي، من دون أي تحقيق.

كانوا يمنعون عنا الماء في سجن أمن الدولة بحلب، ولا يسمحون لنا بالدخول إلى الحمامات، ويرغموننا على شرب بولنا بعد أيام من العطش الشديد، فأصبت بمرض الريقان. ثم نقلوني إلى سجن أمن الدولة في إدلب حيث أمضيت ٢٥ يوماً فقط، ليعيدوني بعدها إلى سجن الأمن العسكري في حلب، حيث استقبلني السجانون برفساتهم فتدحرجت على درج طويل وأصبت بجروح في رأسي ورضوض في كتفي. وفي هذا السجن صارت تأتيني نوبات من الصرع لخوفي من أخذي إلى غرفة التعذيب بالصعقات الكهربائية.

وكلما كانوا يفتحون باب زنزانتي، كان ينهمر البول مني من دون أن أشعر به إلا بعد انهماره. مرة سعلت أمام المحقق، فصفعني فرددت عليه صفعته بمثلها. كلفتني فعلتي هذه كسراً في كاحلي وآخر في مشط قدمي اليسرى، وانزياح صابونة ركبتي من مكانها. وحين هجم عليَّ المحقق حاملاً سكيناً ليطعنني بها استطعت أن أنزع السكين من يده وأحزّ به معصم يدي التي تمزق شريان ووريد فيها. أفقدني النزف كمية كبيرة من دمي فغبت عن الوعي قبل أن ينقلوني إلى المستشفى، حيث مكثت أربعة أشهر، بعدما أجروا لي عملية جراحية في قدمي.

من مستشفى حلب العسكري نقلوني إلى سجن دمشق المركزي للسجناء السياسيين، فأمضيت فيه شهوراً آكل وأشرب وأنام، من دون تحقيق ولا تعذيب. وفي كانون الأول من سنة ١٩٩٢ حاكموني، فقال قاضي محكمة أمن الدولة إن الأدلة على التهم الموجهة اليَّ ضعيفة، فاكتفى بعقوبة السجن التي أمضيتها في نحو عشرة سجون في الديار السورية، وبحرماني من الحصول على جواز سفر حتى بلوغي الخامسة والأربعين من عمري.

هاأنذا في عام ٢٠٠٧، وفي السابعة والأربعين من عمري، وأعيش محطماً في بيروت، وعبثاً أحاول الحصول على جواز سفر سوري أو لبناني، لأفر من هذه البلاد، هارباً إلى إسبانيا التي علمتني معنى العيش وكرامة الحياة البشرية، وعلمتني أيضاً أن السجون في الديار السورية مرآة مجتمعها المكتوم المحطم. بل إن تاريخ سورية منذ خمسينيات القرن الماضي وحتى اليوم، لم يُكتب منه شيء سوى ما كُتب على أجسام السوريين في السجون.

بين بيروت وطرابلس

مطلع عام ١٩٩٣، وبعد نحو ٤ سنوات في عشرة سجون في الديار السورية، عدت إلى بيروت. كنت محطماً، وكان عليّ، استجابة لتعميم أمني أصدرته الاستخبارات السورية، أن أزور فرعاً من فروعها كل ١٥ يوماً، للتحقيق معي وتقديم تقرير عما فعلت. بعد مضيّ نحو شهرين على عودتي، طُرق في السادسة صباحاً، باب بيت أمي التي أقمت عندها في محلة برج أبو حيدر ببيروت. ما إن فتحت الباب حتى اعتقلني ٤ رجال من الاستخبارات السورية واقتادوني في سيارتهم إلى مقرهم في منطقة الطريق الجديدة القريبة.

جامع جامع، المسؤول عن المقر الأمني، كان في إجازة، ويحل محله ضابط استخبارات صغير برتبة ملازم من ضواحي حلب، اسمه محمود اسطنبولي الذي أبلغني بوجوب ذهابي كل ١٥ يوماً إلى دمشق للتحقيق معي وتقديم التقارير في فرع الاستخبارات، لأنني سجين سياسي سابق، ثم قال إنه، خدمة لي، سينقل ملفي إلى مركز سرية بيروت الإقليمية للاستخبارات السورية في محلة الطريق الجديدة. هكذا جعلت أزور هذا المقر مرة في الأسبوع، فيما راح صغار عناصر الاستخبارات يأتون إلى منزل أمي في برج أبو حيدر، كلما طاب لهم ذلك، فيتغدّون ويطلبون مني أن أقاسمهم ما يتوافر لديّ من مال قليل. أرهقتني زياراتهم وزياراتي مقر استخبارات الطريق الجديدة، فاقترحت على أمي الطرابلسية الأصل، أن نرحل عن بيروت للإقامة في منزل أهلها في طرابلس، فاستجابت طلبي.

أمضينا سنتين في طرابلس، أخبرني في بداياتها جيران بيتنا المقفل

والمهجور في بيروت أن رجال الاستخبارات السورية طرقوا بابه أكثر من ٤٠ مرة، قبل أن ينقطعوا عن المجيء إليه والسؤال عني، من دون أن يخبرهم أي من الجيران عن مكان إقامتنا الجديد.

في دكان أحد أقارب أمي عملت في طرابلس واستطعت أن أحصّل معيشتي، وساعدتني أمي في الزواج بفتاة طرابلسية أنجبت منها ولدين ذكرين. وحين علمت أن جامع جامع انتقل إلى قيادة فرع الاستخبارات في شارع الحمراء، قلت إن ملفي العتيق في مركز استخبارات الطريق الجديدة، قد نُسي في غمرة السنوات الثلاث التي مضت، فقررت العودة إلى بيت أمي في بيروت للإقامة فيه والبحث عن عمل مناسب لإعالة زوجتي وطفليّ. والحق أنني عشت مرتاح البال قليلاً في بيروت، وحصّلت من مواظبتي على العمل في التدريس وفي ما يتوافر من أعمال، ما مكنني من شراء شقة سكنية بالتقسيط في عرمون. وحين بدأ في لبنان تقديم طلبات التجنيس، رحت أعدّ المستندات المطلوبة لحيازة الجنسية اللبنانية. كان ينقصني إخراج قيد مصدّق من دائرة النفوس في حلب، فذهبت إلى هناك للحصول عليه، وكانت زوجتي حاملاً في شهرها الخامس.

عودة إلى السجون

في حلب حصلت على إخراج القيد وذهبت إلى دمشق للمصادقة عليه من وزارة الخارجية السورية التي طلبت بدورها مصادقة جهازي أمن الدولة والأمن السياسي الذي ما إن وصلت إلى أحد مكاتبه، وأخرج رجل الأمن ملفي، حتى نظر مباشرة في عيني قائلاً: أهلاً وسهلاً، أين كنت؟ إننا ننتظر قدومك منذ ٥ سنوات، أهلًا

وسهلاً شرّفت، يا عميل الاستعمار والصهيونية. الأرجح أنك كنت هارباً ومختفياً في تل أبيب. ثم صفعني رجل الأمن صفعة تغيّبت بعدها عن الحياة سنتين وثلاثة أشهر في سجون سورية، التي كنت قد تغيّبت فيها ٣ سنوات وثمانية أشهر، وليصير عدد السجون التي زرتها ١٥ سجناً، تكرّرت فيها عذاباتي المروّعة.

لكن المفجع أن أخي الأصغر الذي كان موشكاً على إنهاء دراسة الصيدلة في جامعة بيروت العربية، ذهب إلى دمشق باحثاً عني، فاختفى ولم نسمع عنه خبراً منذ ذلك الوقت، مما عجل في موت أمي بعد سنوات قليلة، بعدما تمكنت من إخراجي من السجن. لقد باعت الشقة السكنية التي اشتريتها في عرمون، ضاحية بيروت، بـ٢٦ ألف دولار أميركي ودفعتها لضابط كبير في الأمن العام اللبناني لقاء سعيه لدى ضباط استخبارات سوريين للإفراج عني، شرط ألا تذكر لأحد اسم الضابط اللبناني الذي قبض منها المال بعد وصولي إلى بيروت، وكانت زوجتي قد أسقطت حملها بجنينين ومكثت شهوراً في المستشفى، بعدما تضاءل وزنها إلى ٣٥ كلغ.

نهار أخرجوني من سجن أمن الدولة في دمشق، كانت سيارة مرسيدس سوداء تابعة لهذا الجهاز، تنتظرني عند بوابة السجن، فأدخلوني إليها وتوجهت بي فوراً إلى بيروت، من دون أن تتوقف على الحدود اللبنانية ـ السورية، وكان يقودها شخص لبناني، ومعه إلى جانبي شخصان آخران لبنانيان أيضاً، أظن أنهما من رجال جهاز الأمن العام اللبناني، فيما كانت صور حافظ الأسد تزيّن زجاج السيارة الخلفي.

بعد خروجي الثاني من السجن سنة ١٩٩٨، أقمت في بيروت على سعي متصل لمعرفة خبر ما عن أخي الذي اختفى، فلم أعثر له على أثر يذكر. ما إن بلغت الخامسة والأربعين، وهو العمر الذي يخوّلني الحصول على جواز سفر سوري، وفقاً لقرار محكمة أمن الدولة السورية، حتى ذهبت إلى دمشق سنة ٢٠٠٦ لاستصدار الجواز الذي وحده يمكّنني من الفرار من حياتي في هذين البلدين الشقيقين، لبنان الذي ولدت فيه من أم لبنانية وحرمت من الحصول على جنسيته لأنني سوري الأب، وسورية التي دمّر نظامها البعثي شبابي وحياتي لأنني اقترفت ذنب التفوّق في دراستي، ولم يساعدني مزاجي في أن أكون بعثياً صالحاً، أي منحطاً وسافلاً ومنحلاً وواشياً، ليجعل من هذه كلها وسيلته الوحيدة، ليحيا متطفلاً ومارقاً ومتسلطاً على الناس.

بدل أن أتمكن من الحصول على جواز سفر سوري في رحلتي ما قبل الأخيرة إلى دمشق عام ٢٠٠٦، اعتقلت هناك أسبوعاً أضفته إلى مأساتي وخبرتي الطويلتين في السجون السورية. وفي ٢٦ أيار ٢٠٠٧، ذهبت أيضاً إلى دمشق لعلّ مصادفة ما تمكّنني من الحصول على جواز سفر، فاعتقلت أسبوعاً جديداً.

حين اعتقلوني للمرة الأخيرة في مقر الاستخبارات العسكرية في دمشق، ربطوني بسلاسل معدنية، يداً إلى رجل، وجروني من رقبتي ككلب، فرحت أدبّ على الأربع، وصولاً إلى السيارة التي نقلتني إلى مقر آخر للتحقيق. مقيّداً بالسلاسل نفسها أجلسوني على كرسي قبالة المحقق الذي، فيما هو ينظر في ملف، قال لي: ماضيك حافل... شو بدك تصير رئيس جمهورية؟! تذكيراً منه بالاستفتاء الذي كان جارياً في سورية لتثبيت بشار الأسد في رئاسة

الجمهورية. ثم راح المحقق يسألني: شو عامل ولاه، شو سارق، أكيد سارق سلاح من الدولة؟! أنت مجرم، أكيد مجرم، سارق مصاري وسلاح، وبدك تعمل رئيس جمهورية؟! طوال ساعة من التحقيق كان الرجل يتكلم مهلوساً، هكذا، كأنه تناول نوعاً من المخدرات.

مكثت أسبوعاً واحداً في السجن أطلقوا بعده سراحي، فعدت إلى بيروت خائباً وبلا أمل.

ذكريات سجن الحرجلّي

في سنواتي السبع المتقطعة في السجون وصلت في مرات كثيرة إلى حافة الموت الذي من يقع في هوته الغامضة، يختفِ، ومن لا يقع لا يعود إلى الحياة، بل إلى خِربَةِ الحياة التي عدت إليها جسماً متهالكاً تالفاً وروحاً مظلمة. أتذكر من تلك السنوات مئات الوجوه التي أجهل الآن مصيرها، وهي أكثر بما لا يقاس من وجوه الأشخاص الذين عرفتهم وأتذكرهم خارج السجون التي هي أصدق إنباءً عن البعث والأسد من سورية المجتمع والدولة.

من ذكرياتي في سجن الحرجلّي الذي أمضيت فيه ما يقارب السنة، أن مدير السجن العميد معلا معلا ومساعده الرائد فيصل غانم، كانا يديران مزرعة أنشآها في الأراضي الصحراوية القريبة من السجن. مثل العبيد في أزمنة النخاسة كنا، نحن السجناء، نُساق إلى العمل اليومي في مزرعة العميد والرائد الخاصة التي استثمرا في إنشائها الرشى والإتاوات التي يحصّلانها من أهالي السجناء لقاء السماح لهم بزيارة أبنائهم وأقاربهم. لريّ المزروعات في أراضي مزرعة

السجن الصحراوية، حفرنا بئراً ارتوازية، فيما السياط تلهب أجسامنا العارية. وإلى العمل اليومي في المزرعة كان علينا أن نسير حفاة لرعي قطعان العميد والرائد من الأغنام والأبقار، ولنقطف مواسم الخيار والبندورة والقثاء التي كانت تشحن من مزرعة السجن لتباع في الأسواق.

مرة رأيت حرّاس السجن ينزعون عن سيارة جيب تويوتا لوحتها اللبنانية ليضعوا عليها لوحة سورية من رقمين اثنين فقط، هما علامة أن السيارة صارت تابعة لجهاز الأمن العسكري، بعد سرقتها من لبنان وإدخالها إلى سورية، جرياً على عادة ترسّخت طوال أكثر من عقدين من سيطرة النظام البعثي الأسدي على لبنان.

شبكات مافيا الفساد والتهريب

كان العقيد الحلبي البعثي مصطفى التاجر، آمر سجن حلب الذي أُنزلت فيه ثلاثة أشهر في مطلع التسعينيات من القرن الماضي. ابن آمر السجن كان معي في الزنزانة نفسها، لأنه كان زعيم مافيا خط والتهريب الناشط بين حلب وتركيا، والمعروف بخط باب الهوا، فأدخل إلى السجن بعدما استفحلت صفقات التهريب وشاعت أخبارها ولم يعد في الإمكان السيطرة عليها. بعض السجناء معنا كانوا من الذين حاول ابن العقيد التاجر توريطهم في صفقات تهريب السلاح والمخدرات، فرفضوا خائفين، وكان القبض عليهم وسجنهم جزاء رفضهم. وفي السجن أخذ ابن العقيد يبتز ضحاياه، بأن يتقاضى إتاوات ورشى من أهاليهم التجار والأثرياء، لقاء السماح لهم بزيارة أبنائهم في السجن. من هؤلاء أذكر شخصاً خمسينياً

يدعى عبد الرحمن بكدول كان يملك محلاً ضخماً لبيع الأجبان والألبان والفراريج في حلب. وكان أخوال بكدول من آل الشوربجي الواسعي الثراء والمعروفين بأعمالهم في تجارة المواشي والعلف وتصنيع الألبان والأجبان على صعيد سورية كلها، وكانت شبكاتهم التجارية وفي أعمال التهريب، تمتد من سورية إلى الأردن وتركيا. كان ابن آمر السجن يشاركهم ويسهل لهم صفقات التهريب الضخمة التي اكتُشِفت إحداها، فلم يستطع العقيد مصطفى التاجر وابنه إخفاء ضلوعهما في إدارة الشبكة. وحين طاولت التهمة آل الشوربجي، وكان ضرورياً أن يُعتقل ويُسجن شخص منهم، استطاعوا إقناع ابن أختهم عبد الرحمن بكدول بأن يتلبّس التهمة ويدخل السجن وحده، لقاء مبلغ كبير من المال ووعدٍ بالإفراج عنه بعد مدة قصيرة. لكن الرجل الذي قبل أن يفدي أخواله، مات في سجن حلب أثناء إحدى جلسات تعذيبه صعقاً بالتيّار الكهربائي.

أحمد عبد الدايم

أثناء عملي في مزرعة سجن الحرجلّي، تعرفت إلى شاب من إدلب يدعى أحمد عبد الدايم، كان يدرس الطب البيطري في جامعة حماه، فاعتقل عام ١٩٨١. أخبرني هذا الشاب أن مجموعات كبرى من الطلاب في جامعة حماه اعتقلوا آنذاك، لأن آباءهم كانوا معتقلين بتهمة انتمائهم إلى جماعة «الإخوان المسلمين». أما الشاب الذي لم يكن أحد من أقاربه معتقلاً بهذه التهمة، فقد اعتقل لأن أصدقاء له في الجامعة كانوا يزورونه في مسكنه الجامعي، واعتقل آباؤهم، فحكم عليه بالسجن ١٥ سنة بتهمة إيوائه مجرمين فارين.

ومن روايات طالب الطب البيطري أيضاً، أن كثيرين من الذين كان يقال إنهم مجرمون فارون، كانوا قد أعدموا ميدانياً في شوارع حماه، على غرار ما رأيت في حلب.

بعدما غادرت سجن الحرجلّي ومزرعته، سألت كثيراً عن أحمد عبد الدايم الذي أحببته وتقاسمت معه عذابات السجن، فلم يفدني عنه أحد بأي خبر، فأضفته إلى لائحة السجناء الموتى أو المختفين في سجن الحرجلّي.

أبو داوود

من المتورّطين في شبكات مافيا التهريب والفساد في سورية البعث، كان معي في سجن حلب، المدير العام للمطاحن الحكومية، ومعاون مدير شركة الزيوت والزيتون الحكومية أيضاً، وأحد ضباط إدارة الجمارك، وأمين صندوق المالية في جامعة دمشق. أما أبو داوود، وهو رجل حلبي في الستين من عمره، وكان موظفاً في السكة الحديد، فقد روى لي أنه ذهب مرة ليقبض راتبه التقاعدي، فقالوا له إن عليه أن يحضر مهرجاناً إحياءً لذكرى بعثية، كي يستطيع أن يحصل على راتبه. قال لهم إنه مريض بداء الضغط والسكري، ولا يقوى على حضور المهرجانات الحاشدة، فجاوبوه بأن عليه أن يستغني، إذاً، عن راتبه الشهري، فذهب صاغراً إلى حضور المهرجان. حين اشتعل التصفيق صاخباً أثناء الخطبة البعثية النارية، لم يصفق أبو داوود، فقال له الرجل الذي يجلس إلى جانبه أن يصفق، فجاوبه أبو داوود بأن كل هذا التصفيق ليس سوى ضحك على الذقون.

بعدما انفضّ المهرجان ذهب أبو داوود ليقبض راتبه الشهري، فاعتقل ورُمي في سجن حلب ثم استقدموا ابنيه من رومانيا، حيث كان أحدهما يدرس طب الأسنان والآخر الهندسة المعمارية، وحرموهما من المنحة الدراسية. وقبل أن أغادر سجن حلب كان أبو داوود قد اختفى ولم أعد أراه بين السجناء، فقدّرت أنه تُوفي تحت التعذيب.

ناصر المكحل

تكاد قصة ناصر المكحل الذي التقيت به في سجن حلب، تشبه قصتي مع السجون السورية في بعض فصولها. كان ناصر طالباً في كلية الطب البيطري في حماه، فرفض أوامر عميدها الذي أراد إخراجه من غرفته في المسكن الطالبي الجامعي، لإسكان طالب من أقاربه فيها. وحين عاد ناصر يوماً إلى غرفته، ووجدها خالية من أغراضه التي رُميت خارج مبنى السكن الطالبي، شتم حزب البعث، فقبض عليه واقتيد إلى السجن.

كان ناصر المكحل شاباً طويلاً وجميلاً، أشقر الشعر وعيناه خضراوان، مما دفع حراس السجن إلى إجباره على الرقص لهم، بعدما جعلوا يلبسونه كيلوتاً نسائياً وحمّالة ثديين ويضربونه ويشتمونه فيما هو يرقص، قبل أن يتناوبوا على اغتصابه. مرة أحضروا الويسكي كي يسكروا فيما هو يرقص لهم، لكنه لم يرقص سوى دقائق قليلة رفض بعدها الاستجابة لرغبتهم، فاقتادوه إلى قاعة التعذيب. عند الفجر سمعنا صراخه، ولم نعد نراه في الأيام التالية، فأيقنا أنه مات جرّاء اغتصابه وصعقه بالشحنات الكهربائية.

شاب بلا اسم

شاب آخر نسيت اسمه وتشبه قصته قصة ناصر المكحل، التقيت به في سجن تدمر في الفترة الأولى من سجني. كان هذا الشاب طالباً في جامعة دمشق. في سنته الجامعية الأخيرة منعه داء الربو من متابعة دورة العمل التطوّعي لمدة ٤ أسابيع في أحد مصانع الحكومة للبسكويت ومحارم الورق والبيرة والمصابيح الكهربائية وغيرها. وهي الدورة التي كان على جميع الطلاب الجامعيين متابعتها ضمن مادة التدريب العسكري الإجبارية التي يُحسم لكل طالب يتلكأ عن المداومة على حضورها، ٣٥ علامة من مجموع علاماته العام في السنة الجامعية الأخيرة.

قبيل بدء دورة العمل التطوّعي في المصانع الحكومية، أصيب الشاب الجامعي بنوبة ربو خانقة، فوصف له الطبيب أن يذهب إلى منطقة طقسها مناسب للاستشفاء من الربو. لذا غادر دمشق للإقامة في منطقة ديريك القريبة من حماه، ونزل عند جدته هناك. وحين دهم رجال الاستخبارات منزل أهله في حمص لاعتقاله بسبب تخلفه عن دورة العمل التطوعي، لم يجدوه، فاعتقلوا أخاه وزوجة أخيه، ولم يفرجوا عنهما إلا بعد اعتقاله، فالتقيت به في سجن تدمر، وكانت سنوات قد مضت على تنقيله بين عدد من السجون.

كان شاباً ناحلاً، رقيقاً وأنيساً، وأمضينا معاً أوقاتاً من التحادث والشكوى. وحين غادرت السجن الذي بقي فيه، بكيت بكاءً مرّاً لفراقه، وسكنت ملامحه في ذاكرتي حتى لقائي الثاني به سنة ١٩٩٥ في فرع فلسطين من سجن العدوي في دمشق، حيث أمضيت أسابيع من الحقبة الثانية من سجني. استمر لقاؤنا نحو ٤٥

دقيقة، لم نتبادل أثناءها سوى كلمات قليلة. كانت إحدى رجليه مقطوعة ويتوكأ على عكازين، وجسمه ازداد نحولاً وتضاءل وزنه إلى حوالى ٣٥ كلغ. وحين انتهى لقاؤنا بكيت رثاءً لحاله وحالي، موقناً أنه سيموت في السجن بعد مدة قصيرة.

محمد زيتون

في المرة ما قبل الأخيرة من اعتقالي أسبوعاً في سجن دمشق المركزي عام ٢٠٠٦، التقيت رجلاً اسمه محمد زيتون، وكان إمام مسجد في حلب التي كنت قد التقيته في سجنها عام ١٩٨٨، وكان في الأربعين من عمره. لم أعرفه حين التقينا في المرة الثانية بعد ١٨ سنة، ولم أصدق عينيّ حين عرّفني بنفسه وقال إنه في التاسعة والخمسين من عمره، وإنهم يحاكمونه للمرة الأولى منذ دخوله السجن.

روى لي الرجل أن أجهزة التلفزيون التي أدخلت إلى زنازين سجن دمشق المركزي تستثمرها إدارة السجن التي تتقاضى من كل سجين يرغب في مشاهدة التلفزيون ٥٠٠ ليرة سورية يومياً. بوابير الكاز تؤجّر بدورها بـ٣٠٠ ليرة للراغبين في استعمالها. وكل سجين يدفع مئة ليرة إذا أراد الاستحمام، و٢٥٠ ليرة لقاء غسله ثيابه. أما أجهزة الهاتف الخلوي فتؤجّر للراغبين في محادثة أهلهم.

الموت أو الاختفاء أو إسبانيا

في جسمي وروحي أحمل آثار السجون السورية الـ١٥ التي أُنزلت فيها طوال نحو سبع سنوات متقطعة، بين ١٩٨٩ و٢٠٠٧،

فحطمتني السجون ودمّرت حياتي، ولم تبقِ لي بصيص أمل في الخلاص من مآسي ماضيَّ وحاضري، سوى رغبتي في الفرار من هذه البلاد إلى إسبانيا التي خبرت فيها معنى أن أكون إنساناً محترماً بين البشر، وأسهم اختباري هذا في زجي في سجون البعث السوري.

أعيش اليوم في بيروت شخصاً معلقاً أو موقوف الحاضر والحياة والمصير. لا لبنان يمنحني جنسيته، ولا سورية التي أحمل جنسيتها تمنحني جواز سفر يمكّنني من الفرار من سوريتي التي ورثتها من والدي مع لهجتي.

أنا الآن في السابعة والأربعين، لكنني لم أعش قط في عمري. كلما أبصرت وجهي في مرآة، أو تساءلت من أنا، أراني كهلاً عتيقاً متداعياً، ولا أعرفني إلا على هذه الحال. حين أستعيد ما أنزله الدهر والقدر بي من قسوة لا تتحمّلها أجسام البشر وأرواحهم، أحسب أن بقائي حياً أعجوبة لا تستنفدها نجاتي من الموت أو الاختفاء في السجون، حيث لا معنى للموت والاختفاء. فالذين يموتون ويختفون في سجون الأسد لا يخبرون شيئاً، بل يتركون للأحياء أن يفكروا في معنى حياتهم.

أمس قال لي ابني البكر إن حذاءه تهرّأ، حتى إن باطني قدميه يدوسان الأرض عاريين، فيما هو يمشي في الشارع متجهاً إلى مدرسته في بيروت. بكيت خفية عنه لأنني لا أملك ثمن حذاء جديد يذهب به إلى مركز الامتحانات الرسمية لشهادة البكالوريا. الأدوية التي أحتاج إلى تناولها على نحو دائم لأتمكن من تحمّل مأساتي، لا أحصل عليها إلا حين أعثر على شخص يشفق بي —

كناظر المدرسة الرسمية التي يتعلم فيها ابني ــ ويساعدني في الحصول عليها من جمعيات طبية خيرية.

في صباحات صيف بيروت القائظة، أخرج إلى الشوارع ضائعاً هائماً على وجهي. تارة أتذكر أصدقاء لي من أيام الدراسة في إسبانيا، ما زالوا يراسلونني حتى اليوم ويقولون لي أن أهاجر إلى هناك حيث يتدبّرون لي عملاً في سهولة، فأقول متمتماً: أين أنت يا إسبانيا، أين أنت يا برشلونة؟! أمشي في شوارع بيروت مترنّحاً دائخاً بعض الشيء، والألم يتزايد في ظهري وساقيّ ويدي اليمنى شبه المشلولة من أثر ما تعرّضت له في السجون السورية. أمشي مترنّحاً من عرج بدأ يتزايد في رجلي اليسرى. فجأة تخطر في رأسي فكرة الموت. الموت السهل والمفاجئ، هكذا بضربة شمس تسقطني فوراً في الشارع.

أدمنت هذا المشي في شوارع بيروت. أمس، فيما كنت أمشي مستدعياً فكرة موتي، عبرت في ذاكرتي صور كثيرة لا حصر لها لوجوه سجناء صادفتهم في السجون السورية، واختفوا، أو سمعت أخبار اختفائهم من أهلهم الذين قالوا إنهم ذهبوا لزيارتهم، كالعادة، في السجن، فلم يعثروا على أي أثر لهم، سوى خبر اختفائهم من بين نزلاء السجن. هل أخي من هؤلاء المختفين موتاً مفاجئاً أو بطيئاً أو قتلاً أو انتحاراً في تلك السجون؟! وأنا، حين أفكر في الموت، ألست منهم ومثلهم؟! وابني البكر الذي نجح في امتحانات البكالوريا اللبنانية، مثلي قبل نحو ثلاثين سنة، هل يرثني في لبنانيته الضائعة أو المستحيلة، وفي سوريته هذه التي دمّرت جسمي وحياتي؟!

أيّ قدر هذا الذي يكرّر مصائر البشر في هذه البلاد، ليرث الابن مأساة أبيه وأمه كاملة؟!

سرطان الأسد

قبل زهاء ثلاثة أشهر من بدء الثورة في سورية في آذار ٢٠١١، ذهب ابني البكر البالغ العشرين من عمره في رحلة سياحية مع أصدقائه إلى الأردن. ما إن اجتاز الحدود اللبنانية حتى اعتقله رجال الاستخبارات السورية واقتادوه إلى دمشق، لأداء خدمته العسكرية الإلزامية التي تخلف عنها منذ بلوغه الثامنة عشرة. هو مثلي لبناني المولد، لكنه يختلف عني في أنه لبناني الإقامة الدائمة والثابتة، ولا تربطه بسورية سوى ولادته من أقدار حياتي ومآسيها. وبما أن لا شيء يتغيّر في «سورية البعث والأسد»، كان عليّ ــ أنا المصاب بسرطان البروستات، وساعدني ضابط سوري مسيحي أعرفه، على تلقي العلاج الدوري الشهري في أحد مستشفيات دمشق، هرباً من كلفته المادية العالية في مستشفيات بيروت: ٣٥٠ دولاراً للجرعة في مقابل ٨٠ دولاراً في دمشق ــ أن أسعى لدى الضابط نفسه، كي يجنّب ابني خدمته العسكرية في مناطق متوترة، بعد اندلاع الثورة في سورية. تمكن الضابط من إلحاقه بوحدة حراسة عسكرية لجهاز الدفاع المدني في دمشق، وأوصى به العميد العلوي، قائد الحرس، الذي جعله مرافقاً له في أوقات الحراسة. رجال الاستخبارات العسكرية اقتادوه مرتين إلى مقرهم، فحققوا معه وسألوه عني، وماذا أفعل في لبنان؟ لكنه قال لهم إنه لا يعلم أي شيء عن ماضيّ الذي فتحوا ملفاته وحاولوا اختبار معرفته به،

فتركوه يعود إلى خدمته في حراسة مقر جهاز الدفاع المدني. أعلم أن تسريحه من الخدمة العسكرية الإلزامية سوف يتأخر سنوات، لأنهم في حاجة إلى أمثاله لإخماد الثورة وقتل الثائرين، تماماً كما احتفظوا بي مجنّداً طوال خمس سنين، قبل ثلاثين سنة، للقيام بحملات المطاردة والاعتقال، استكمالاً لمقتلة حماه في عام ١٩٨٢.

في زياراتي العلاجية الشهرية التي تستغرق يومين في المستشفى الدمشقي، أذهب للقاء ابني المجند في مقر خدمته، فيروي لي أخباراً عن الأحوال السائدة في الجيش. من هذه الأخبار أنهم يحتفظون بمجنّدي الخدمة الإلزامية المنتهية مدة تجنيدهم المقررة، لقاء راتب شهري قدره ١١٥٠٠ ليرة سورية، أي بزيادة ١١ ألف ليرة عن راتب المجند في الأحوال العادية. أما الرتيب المجنّد فارتفع راتبه إلى ١٩ ألف ليرة، فيما صار راتب الضابط الاحتياطي المستدعى إلى الخدمة، ٢٣ ألف ليرة سورية. من أخبار ابني أيضاً أنهم أخرجوا السجناء غير السياسيين من السجون، وجنّدوهم في عصابات الشبيحة، لقاء ألف ليرة سورية للواحد منهم. أخبرني كذلك بأن العميد العلوي الذي جعله مرافقاً له، أحبّه، لأنه، أي ابني، منفتح وأنيق الملبس ولا يتهيّب الكلام والمزاح، على خلاف المجنّدين في وحدة الحراسة. قلت له إن عليه أن يكون مثل «حمار الحاخام، ساعة ملاك وساعة شيطان»، وأن يحفظ لسانه عمّا قد يورّطه ويعرّضه للأخطار. خفض صوته فيما هو يروي لي أن جنود وحدات حراسة المنشآت المدنية ورتباءها وضباطها من غير العلويين، لا يمكثون في مواقعهم أكثر من ١٥ يوماً، فينقلونهم من

منشأة إلى أخرى، كي لا يحصل تعارف وتآلف بينهم، قد يؤديان إلى انشقاقهم وفرارهم من الخدمة. هذا بينما يبقى الضباط والرتباء والجنود العلويون في مواقعهم من دون تبديل.

منذ أيار ٢٠١١، أخذوا يستقدمون عائلات علوية إلى دمشق، فيسكنونها لتكثير العلويين فيها. أمنوا لهم السكن في منشآت ومبانٍ حكومية، وبعض قطع الأرض الخالية من العمران في أحياء سكنية، قاموا بتسييجها، ووضعوا فيها مساكن جاهزة، لإسكان عائلات علوية، وزعوا السلاح على رجالها، واستخدموهم في عصابات الأمن والشبيحة. هكذا نشأت تجمعات سكنية علوية مسلحة جديدة في قلب أحياء دمشق. التجمعات هذه تزوّدها يومياً شاحنات خاصة، بالخضرة والحبوب واللحوم والخبز، إضافة إلى المياه التي تنقل إليها بالصهاريج. في الدوائر والإدارات الحكومية تزايد عدد العلويين الذين تكاثر حضورهم في الشوارع وبين بائعي البسطات في الأسواق، حيث انتبهت أنا نفسي إلى شيوع الكلام باللهجة العلوية أكثر مما قبل الثورة، وخصوصاً بين الصرافين الجوالين الذين صارت أصواتهم تعلو في مناداتهم لجذب الزبائن، بعدما كان الصراف الجوّال يعمل خائفاً في السرّ والخفاء، لأنه يعتبر مجرماً. ويُروى في دمشق أن البلدات والقرى في جبال العلويين، أصبحت خالية من الرجال والشبان تقريباً، بعد تجنيدهم في أجهزة الأمن وعصب الشبيحة، ونشرهم في مدن المحافظات وأريافهم. حتى إن أعداداً من النساء والصبايا العلويات، جنّدن للعمل في المستشفيات والجامعات. ممرّض أعرفه يعمل في مستشفى المؤاساة الدمشقي، أخبرني أنهم جلبوا من بانياس وطرطوس فتيات للعمل ممرّضات في المستشفى وسواه من مستشفيات دمشق، فأمنوا لهن

السكن، وبعضهن أسكنوهن في غرف في المستشفيات حيث يعملن، أو في مساكن طلبة الجامعات، ويومياً يوزعون عليهن حاجاتهن من التموين.

ما من مرة ركبت سيارة تاكسي من حيّ السومرية القريب من المستشفى الذي أتلقى العلاج فيه، لأزور قريبة لي تسكن في حيّ من ضواحي دمشق، إلا كان سائق التاكسي علوياً. فحاسة السمع لديّ لا تخطئ في تمييز لهجتهم التي أجيدها، ورحت أحدثهم بها، فيطمئنون ويروون لي ما لديهم من أخبار. رجل مسنّ منهم أخبرني أنه سُرح من خدمته في جهاز الأمن الجنائي قبل ثلاث سنوات. ما إن سألته عما حدث في درعا، حتى التفت إليّ قائلاً: والله ناك اختهن ماهر، قاصداً ماهر الأسد قائد الفرقة الرابعة الشهيرة في الجيش السوري. ثم روى لي أن ابن أخيه ملازم أول في الفرقة نفسها، وأخبره بأنه شاهد ماهر الأسد شخصياً يقتل زهاء سبعين درعاوياً، وأن هذه الحادثة يتباهى بها أهالي قريته القريبة من القرداحة. حين قلت له مستاءً إنه لا يجوز لابن حافظ الأسد أن يعرّض حياته للخطر، بادرني قائلاً: ماهر رجال... رجال، ضاغطاً أسنان فكيه بقوة، في لفظه حرف الجين مشدداً مطعماً بلفظ حرف الشين، تمثيلاً على قوة الرجولة الفائقة التي يمتلكها ماهر الأسد. هذا قبل أن يقول أيضاً: الحوارنة أخوات منيوكة، والله ما رح يخلي منهم واحد... حوارنة عربان. تابع السائق المسن تلذذه برواية أخبار قائد الكتيبة الرابعة البطولية في درعا، فقال إن جندياً برتبة مساعد أول تمنّع عن تشغيل مدفع الدبابة لقصف المدينة، فصعد ماهر بنفسه إلى الدبابة، حيث استل حربة بندقية، وقطع بها عضو المساعد أمام عيون جنود الطاقم، مهدّداً متوعّداً بأنه سيقتل فوراً كل

من يتردّد لحظة واحدة في القصف المدفعي. لم يتوقف السائق الراوي عن ترداد كلمات: عربان... عربان، اخوات منيوكة، قبل أن يقول، أخيراً: بدهن ياخذوا الحكم؟! والله مستعدين نقتل ٨ ــ ١٠ ملايين منهم... ما بنسلم... اي بحظي بديني بذمة امرأة خيّ، ما بنسلّم (لا نستسلم).

أيّ قدر هذا الذي لم يشأ أن ينهي حياتي المأساوية إلا بسرطان، بعدما دمّرتني سجون الأسد؟! أعلم أنني لن أشفى من سرطاني الذي أؤجل فتكه بجسم أحمله ويحملني محطمين إلى دمشق، كي أحقنه بجرعة بخسة الثمن هناك، وعزّ حقني بها هنا في لبنان الذي سأموت وأدفن فيه، وأوصيت بأن يُكتب على شاهدة قبري: لبناني ــ سوري بلا جنسية، قُتل في لبنان في زمن الثورة على سرطان الأسد.

الفصل الرابع

حمص ـ بيروت
خارج سجن الأسد

من أخبار سيرتي العائلية(*) التي سمعت أهلي يتراوونها في أزمنة وأوقات وأماكن متباعدة مشتتة ما بين حمص وبيروت، فارتسمت كالمنامات صورها في ذاكرتي، علمت أن عائلة والدي تعود بنسبها إلى حارة تدعى الورشة في حمص، أيام كان سور يدعى سور الأربعين يحوط حاراتها القديمة التي يسمّيها أهلها «الحواير» في محكيّتهم العامية، وكان انتسابهم إليها وإلى عائلاتهم يقوم في الركن والقلب من حياتهم وعلاقاتهم وتعارفهم وهوياتهم المحلية وتعريفهم أنفسهم. أما أنا ففي حارة أخرى أحدث عهداً، تدعى جورة الشياح، ولدت عام ١٩٨٠، أيام كان أهالي الحارات والأحياء الجديدة في حمص يخشون الخروج من منازلهم إلا

(*) في بيروت، قبل زهاء سنة من بداية الثورة السورية، روى هذه السيرة ـ الشهادة شاب سوري الأصل والمنبت في حمص التي ولد فيها عام ١٩٨٢. وهو تلبنن اجتماعياً، بعد وفادته إلى العاصمة اللبنانية وإقامته فيها منذ عام ١٩٩٩. وقد جرى استكمال تسجيل شهادته بعد أشهر على بداية الثورة السورية.

لدواعي الضرورة، ويتجنّبون أن يجلسوا ويلعب أولادهم في فسحات داخلية مكشوفة يسمّونها «أرض الديار». وهذه تتوسط الدور التي يتوزعون الإقامة في غرفها بقايا أهل وأقارب. فبين عامَيْ ١٩٧٩ و١٩٨٣، كان الخوف مهيمناً على أهالي حمص وحماه وحلب من رشقات طلقات نارية قد تنهمر فجأة في أي وقت، إبان حرب شوارع مفاجئة ما بين الجيش السوري وأجهزة الأمن ومسلحي «الإخوان المسلمين» في هذه المدن.

لكنني منذ عام ١٩٩٩ غريب عن حمص وحاراتها وأهلي فيها، أعيش على قلق في بيروت التي أمضيت فيها أوقاتاً من طفولتي، في الحقبة الأخيرة من حروب لبنان، متنقلاً بين منازل جدتي لأمي، قبل مغادرتي حمص، لأحيا متشرداً في بيروت، ومستأنفاً سيرة طفولتي وفتوتي الشقيّة في مدينتي السورية. أوقات طويلة من نهارات تشرّدي ولياليه في عاصمة لبنان، أمضيتها منفرداً بنفسي، مستعيداً تلك الصور المتناثرة من سيرتي الشريدة، علّني أعثر على خيط يجمع فجواتها وعثراتها، ويرتق شتاتها، لكنني لم أعثر، أخيراً، إلا على رغبة محمومة تدعوني إلى مغادرة بيروت، إلى أيّ مدينة غير عربية تقبلني، وقد تشفيني وتحرّرني من سيرتي، ومن الشقاء والقسوة والعنف في هذه البلاد.

والدي وعائلته

والدي من عائلة كبيرة عددياً، لكنها موزعة ومشرذمة وبلا لحمة تجمعها، وهي ضئيلة الشأن بين عائلات حمص المعروفة وصاحبة المكانة والنفوذ قديماً وحديثاً. جدي لوالدي ورث عن أبيه قليلاً من

المدّخرات المالية والأملاك الزراعية، لكنه بدّدها على أهوائه وشهواته، على ما سمعت من والدي وأعمامي الذين يقولون إنه كان «نسونجياً» قبل زواجه بجدتي حين كانت في الرابعة عشرة من عمرها، وفي أثناء إنجابه منها ١٦ ولداً تُوفي منهم سبعة أطفال، وعاش التسعة الباقون حياة قلّة وشظف في حمص: خمس بنات وأربعة صبيان، لم يتابع أيّ منهم تعليمه، واضطرّ كبيرهم، والدي، إلى ترك المدرسة في بدايات المرحلة المتوسطة ليبدأ العمل في العاشرة من عمره، متكفلاً، وفق مقدرته، معيشة إخوته وأخواته الصغار.

في مطلع خمسينيات القرن العشرين، كان جدي يعمل في ورش البناء، فأسّس في حمص نقابة للعاملين في هذه المهنة وترأسها، وعلى آخر قطعة أرض زراعية استبقاها من إرث والده، شيّد تدريجاً وفي أوقات متباعدة بيتاً أجّر منه غرفاً كان ينجز تشييدها فوضوياً وبلا أيّ نظام معماري، ثم سكن أخيراً، مع جدتي، في واحدة من هذه الغرف.

بعد تركه المدرسة في العاشرة من عمره، عمل والدي «معاون بوسطة» يملكها أخواله ويشغّلونها ما بين حمص وبيروت. ربما تناهت إليه من سيرة والده أخبار عن نشاطه في الحركة العمالية ونقاباتها، فانتسب في فتوته إلى الحزب الشيوعي السوري، وشارك في توزيع بيانات ضد الوحدة السورية ــ المصرية التي أضعفت الأحزاب السياسية الأربعة الأساسية في سورية خمسينيات القرن الماضي: الحزب الشيوعي الذي كانت حرب ١٩٤٨ في فلسطين ونكبتها، وموافقته مع ربيبه الاتحاد السوفياتي على قرار تقسيمها، قد

أدّت إلى تهميشه شعبياً وجماهيرياً، فتصاعدت شعبية حزب البعث العربي ثم الاشتراكي تصاعداً قوياً على حساب الحزب الشيوعي، ثم على حساب الحزب السوري القومي الاجتماعي الذي تعرّض محازبوه لملاحقات واعتقالات، بعد اتهامه باغتيال الضابط السوري عدنان المالكي أيام الانقلابات العسكرية السورية المتلاحقة ومنازعات ضباط الجيش على السلطة. لكن الوحدة السورية ــ المصرية بزعامة جمال عبد الناصر سرعان ما انهارت عام ١٩٦١، فاستأنف الضباط انقلاباتهم ومنازعاتهم الدامية أحياناً، بعدما تمكن حزب البعث من السيطرة على الجيش والسلطة والمجتمع في سورية التي استولى حافظ الأسد على سلطات دولتها وجمعها كلها في شخصه ورهطه، وحكمها بالقبضة الأمنية، فانتفض على حكمه «الإخوان المسلمون»، تمهيداً للانفجار الكبير ومقتلة حماه في عام ١٩٨٢.

من أقوى الأخبار حضوراً عن والدي في سيرتي العائلية الضبابية، ذاك الخبر الذي يصوّره يخبّئ علب تبغ تحت ثيابه ويلصقها إلى جسمه، ليهرّبها من لبنان إلى سورية في رحلاته بينهما ذهاباً وإياباً أيام عمله «معاون بوسطة» أخواله. إلى هذا الخبر ــ الصورة التي تعود إلى ما قبل زواجه، هناك أيضاً رواية عن حادثة أصابته بجراح بالغة حينما كان مجنداً في الجيش السوري أثناء «حرب الاستنزاف» على الجبهة السورية ــ الإسرائيلية في الجولان المحتل، بعد حرب تشرين ١٩٧٣ التي خاضها الجيشان السوري والمصري ضد الجيش الإسرائيلي. كان مكمنه في خندق على جبهة الجولان أيام «حرب الاستنزاف» حينما أشعل مرة في الليل سيجارة له وأخرى ناولها لصديقه أبو عبدو الذي نبّهه إلى أن يختبئ، لأن الحرب لا

تقيم وزناً للرجال ولا تحتمل «المرجلة». ما إن أنهى أبو عبدو تحذيره حتى سقطت في ناحية من الخندق قذيفة إسرائيلية اخترقت بعض شظاياها جسم والدي، وكانت أشدّها أذيةً تلك التي استقرّت في إحدى كليتيه وسبّبت له نزفاً داخلياً. لم يكن لدى الوحدة العسكرية السورية المرابطة في الموقع سيارة سوى سيارة الضابط الخاصة. هذا حمل أبو عبده على رفع سلاحه الحربي في وجه الضابط مهدّداً متوعّداً بأنه سيطلق النار عليه ويرديه شهيداً مثل صديقه، إذا لم يعطه مفاتيح سيارته. استجاب الضابط مرغماً، بعدما جرّده أبو عبدو من سلاحه وحصل منه على المفاتيح، فنقل والدي الجريح النازف إلى أقرب مستشفى في قطنا.

كان أخوال والدي الذين توسّعت أعمالهم في النقل ما بين حمص وبيروت، قد صاروا أصحاب نفوذ في أجهزة السلطة السورية واستخباراتها، فأحضروا أمهر الأطباء المعروفين في حلب لعلاج ابن أختهم في المستشفى الذي استمرّ مكوثه فيه شهوراً. بعد شفائه مكّنهم نفوذهم من تسريحه من الخدمة العسكرية، لكن براتب شهري يتقاضاه مدى حياته، لقاء حصولهم من الأطباء على تقرير يفيد أنه مصاب بعجز دائم نتيجة إصابته على الجبهة في الحرب. لكنّ والدي عاد إلى عمله مع أخواله بعدما صاروا يملكون في حمص كاراجاً لنقل الركاب في سياراتهم وحافلاتهم ما بين سورية ولبنان.

العاملون في هذه المهنة، من سائقين وأصحاب سيارات وحافلات ومعاونين في المواقف والكاراجات في المدن السورية، هم طائفة أو فئة من الرجال، يجمعهم في كل مدينة نمط مشترك في عيشهم

وكسبهم وقيمهم الأخلاقية والسلوكية، وتنتظم علاقاتهم وصلاتهم المتداخلة والمتشابكة في سلك قوامه خليط من علاقات القربى والمحسوبية والاستزلام والولاءات والرشى المتصلة كلها بالأجهزة الأمنية السورية. فوالدي مثلاً، لم يعد يُعرف باسم عائلته، بل باسم عائلة أخواله الذين يعمل معهم وشكّل نفوذهم سنداً له في العمل نفسه، وفي الحارات والأحياء التي سكنها في حمص. حتى إن والده، جدّي، صار يُنسب إلى عائلة زوجته التي أثرى إخوتها من أعمالهم التي ما كان لها أن تستمر وتزدهر لولا صلتهم بالأجهزة الأمنية. هذا رغم أن والدي وأخواله السنّة، كانوا ينفرون من حزب البعث وسلطته الأمنية والعسكرية ويكرهون أبناء الطائفة العلوية النافذين فيه والمسيطرين على مقاليد السلطة والحكم في سورية.

قبل بداية الحرب في لبنان عام ١٩٧٥، قام والدي بعمليات تهريب أسلحة في سيارته من سورية إلى منظمة «فتح» الفلسطينية في بيروت والجنوب اللبناني، واستمرّ في عمله هذا في السنوات الأولى من الحرب، حتى إنني سمعته مرة في طفولتي في حمص يقول متباهياً إنه «عرفاتي» الهوى والولاء، أي مؤيّد ومناصر لمنظمة «فتح» الفلسطينية بزعامة ياسر عرفات، أيام كان النزاع بين «فتح عرفات» والنظام السوري على أشدّه في لبنان النصف الثاني من ثمانينيات القرن الماضي. ثم إنه أتبع تباهيه بـ«عرفاتيته» بروايةٍ عن تعرّض سيارته لإطلاق نار كثيف، وفراره بها في واحدة من عمليات تهريبه السلاح لمنظمة «فتح» في جنوب لبنان قبل الحرب.

كنا آنذاك نقيم في شقة استأجرها في بناية من طبقات خمس في منطقة الوعر، تبعد حوالى خمسة كلم من حمص وتعتبر ضاحية من

ضواحيها الجديدة. من ذكرياتي القليلة عن بيتنا في تلك البناية، أحاديث والدي الكثيرة المتواترة عن كراهيته حزب البعث السوري والجماعة المسيطرة على السلطة السورية. كان يعلن موقفه هذا في حضور أمي وأخواتها اللواتي كن ينزلن عندنا في البيت، هاربات من بيروت أثناء حروبها الطاحنة في منتصف ثمانينيات القرن العشرين. كنَّ، كلما دخلتُ إلى أي غرفة من البيت يجلسن فيها مع أمي، يتوقفن فجأة عن أحاديثهن التي فهمت منها مرّة أن أمهم، جدتي، سجينة في لبنان وأنجبت في السجن مولوداً سمّته باسم أخيهن البكر الذي قتل في بيتهن في الطريق الجديدة قبل سنوات. أتذكرني أيضاً في مشهد متكرّر أمشي مع والدي في طريق رملية مبتعدين من البناية الوحيدة في ذلك الخلاء من الوعر، حيث سكنّا أقل من سنة في شقة عالية من البناية. كان كلب يتبعنا ونحن سائران في تلك الطريق الرملية، فيلتفت والدي إلى الكلب ويناديه: «أهلاً بالرفيق، كيفك رفيق؟ سلّملي على الرفيق الفريق».

جدّتي لأمي وأزواجها

لا أعلم إلى أي وقت ومناسبة يعود مشهد لي أتذكرني فيه طفلاً مع أمي وأخواتها وأمها، جدتي، وأشخاص آخرين لا أعرفهم هنا في لبنان، واقفين حول قبر نقرأ الفاتحة. كان نهار عيد شمسه ساطعة على قبور يتجمّع حولها ناس كثيرون جاؤوا لزيارة موتاهم. لمن هذا القبر؟ سألت أمي، فالتفتت إليّ وقالت: هو قبر فيكتوريا، خالتي.

في طريق عودتنا من تلك المقبرة في إحدى قرى إقليم الخروب إلى بيروت، على ما علمت لاحقاً، روت لي أمي أن فيكتوريا التي ماتت

قبل سنين، كانت الزوجة الأولى لزوج أمها، الذي عاشت أمي طفولتها في كنفه في بيروت كأنها إحدى بناته، من دون أن ترى قط والدها السوري، الزوج الأول لأمها السورية في قرية حلبكو في جبال العلويين، شمال سورية الغربي.

هذه الرواية الغامضة والغريبة، لم تكن الأولى ولا الأخيرة في سلسلة الأخبار والروايات التي تناهت إليّ نتفها مشتتة مبعثرة، في أثناء أحاديث أهلي المستريبة وشجاراتهم العنيفة طوال سنوات طفولتي الموزّعة بين حمص وبيروت. كان عليّ أن أنتظر سنوات كثيرة لأكبر وأعي وأجمع شتات سيرتي العائلية من أمثال هذه الأخبار والروايات التي كان أهلي يتراوونها في ما بينهم أثناء لقاءاتهم وشجاراتهم المتصلة، كأنها في موضع السر من حياتهم وعلاقاتهم المتشابكة.

هي جدتي لأمي من تحتل دور «البطولة» أو موضع القلب في هذه السيرة العائلية التي تبدأ في قرية حَلْبكّو العلوية في جبال العلويين السورية، حيث ولدت جدتي لأمي في النصف الأول من أربعينيات القرن العشرين. هناك، في تلك القرية، أرغمها أهلها على الزواج بشاب من قرية الشرقية العلوية المجاورة لقريتهم. كانت في مطالع العقد الثاني من عمرها، فأنجبت، هي الصبية الفائقة الجمال، طفلة من زوج تنفر منه، وعائلته أدنى شأناً ومرتبة من عائلتها، فدبّ بين الزوجين والعائلتين شقاق أدّى إلى طلاقهما، وتكفلت الزوجة المطلقة وعائلتها النافذة حضانة الطفلة الوليدة وتربيتها.

في مدينة اللاذقية السورية الساحلية، شاءت المصادفات أن يلتقي رجل لبناني بيروتي يعمل في بواخر نقل تجاري وكثير التنقل بين

موانئ البحر المتوسط، الصبية المطلّقة الفائقة الجمال. كان الرجل كهلاً، لكن افتتانه بجمال الصبية وتعلقه بإطلالتها البهية، حملاه على التعرّف إلى أهلها وطلب الزواج منها، فكان له ما أراد، برغم فارق السن الكبير بينهما، وبرغم أنه كان متزوجاً امرأة أخرى في بيروت، حيث يقيمان في الطريق الجديدة مع أولادهما الكثيرين الذين لا يقل عمر أكبرهم عن عمر صبية حلبكو ـ اللاذقية التي تزوّجها وأتى بها مع ابنتها الطفلة إلى بيروت في نهايات الخمسينيات من القرن العشرين.

في بيروت لم يطلّق رجل الموانئ البحرية المسنّ زوجته الأولى، فيكتوريا اليهودية التي كان قد التقى بها في إسطنبول في إحدى رحلاته البحرية السابقة فتزوجها وأتى بها إلى بيروت، قبل ما يسمّى «نكبة فلسطين» عام ١٩٤٨. ومن أحاديث أهلي عن «أسرارهم» الغائلية، سمعت مرات أن لفيكتوريا أهلاً في إسرائيل، كانت تسافر في مناسبات متباعدة للقاء بهم في عواصم أوروبية. أما بعد زواج رجل التنقل بين الموانئ، من صبية حلبكو ـ اللاذقية الجميلة، فشيّد لزوجته الأولى، فيكتوريا وأولادهما الخمسة، منزلاً على أرض يملكها في إحدى قرى إقليم الخروب، وظل يتنقل في إقامته ما بين هذا المنزل ومنزل الطريق الجديدة الذي أنزل فيه زوجته الجديدة وابنتها الطفلة التي عاملها معاملة أب لابنته من دون تمييز بينها وبين أبنائه الجدد من أمها، زوجته الثانية. لكن الرجل اختطف من مرفأ بيروت، واختفى أثره بين مئات المختطفين المسلمين الذين أعدمهم خاطفوهم الكتائبيون المسيحيون ميدانياً في ما سُمّي «السبت الأسود» البيروتي الشهير في بدايات الحرب في لبنان عام ١٩٧٦. بعد سنوات على اختفائه تُوفيت زوجته الأولى فيكتوريا، فدُفنت في

مقبرة القرية التي كانت تقيم فيها في إقليم الخروب. وقد يكون مشهد زيارتي هذه المقبرة في طفولتي، وفاءً من أمي للرجل الذي كان في مثابة والدها، واختفى في ذلك «السبت» اللبناني «الأسود»، من دون أن يضم قبر رفاته، فاتخذ أهله وأولاده من قبر فيكتوريا معلماً لذكراه وزيارته في المناسبات الدينية.

كثيراً ما سمعت أمي تروي حادثة اختطاف والدها ـ زوج أمها، لكنها في كل مرة كانت تضيف إليها بعض تفاصيل جديدة، لا أدري، وقد لا تدري هي أيضاً، إن كانت تذكرتها حقاً أم هي صنيعة ما يستدخله في الذكريات من تخيّلٍ مرورُ الزمن على الحوادث وتكرار روايتها. تقول إنه اصطحبها معه إلى مكتبه في مرفأ بيروت صبيحة ذلك السبت، وكانا معاً في المكتب حينما بدأت تدوي في الخارج رشقات طلقات نارية غزيرة بعثت الاضطراب والخوف في أرجاء المرفأ، قبل وقت قليل من دخول مسلح مقنّع إلى المكتب، وإطلاقه رشقات من بندقيته الحربية على زجاج النافذة، صارخاً بشتائمه، وطالباً منهما الخروج فوراً. دفعهما المسلح أمامه في الممر، حيث أبصرتُ رجالاً آخرين يقتادهم مسلحون مقنعون. في الخارج اقترب منهما شخص تقول إنه قد يكون من معارف والدها العاملين في المرفأ، وقال للمسلح الذي يقتادهما أن يتركها لأنها قريبته، فأشار والدها إليها بيده أن تذهب مع الرجل الذي بادر إلى إمساكها من يدها وجرّها خلفه، فاستجابت إليه ملتفتة إلى الخلف، فأبصرت والدها في مشهد أخير يدفعه المسلح أمامه، واضعاً فوهة بندقيته في ظهره.

كان أزيز الطلقات يتدافع من الجهات كلها، فيما الرجل الممسك

بيدها يجرّها خلفه صامتاً من دون أن يلتفت إليها. حتى إنه ظل على صمته فيما هو يفتح باب سيارته ويدخلها إليها. فقط بعد انطلاقه في السيارة قال لها أن لا تخاف وإنه سيوصلها إلى البيت ويعود لتخليص والدها. لم يتوقف أزيز الطلقات، فيما هي تبصر من نافذة السيارة كما في منام، مسلحين مقنّعين يطلقون النار من بنادقهم فوق رؤوس جموع من الرجال الراكضين في الشوارع مذعورين هلعين. كانت السيارة تبتعد بها من المرفأ في اتجاه «بيروت الغربية»، فلمحتُ في مشهد خاطف كما في منام، وجه رجل يشبه كريم بقرادوني، قريباً من بناية قد تكون بيت الكتائب المركزي. كان دويّ الرصاص المتباعد في الأرجاء ينشر الرعب والموت اللذين رأت على صفحات صحف النهار التالي صورهما المروّعة. ومذذاك اختفى والدها ــ زوج أمها، من دون أيّ خبر، سوى ذلك الصمت الذي تقول إنه أشعرها بأنها غريبة عنه في التفاتتها الأخيرة إليه، حينما رأت المسلح يدفعه أمامه واضعاً فوهة بندقيته في ظهره.

من زوجها المخطوف والمختفي في ذلك السبت من مطالع عام ١٩٧٦، كانت جدتي لأمي قد أنجبت ثلاث بنات وصبيّيْن اثنين، إضافة إلى ابنتها البكر (أمي) من زوجها الأول ومطلقها في حلبكو، فاستمرت العائلة هذه مقيمة في منزلها في الطريق الجديدة، الذي كانت جدتي قد بدأت فيه حياتها الزوجية الثانية في سنة من نهايات خمسينيات القرن العشرين.

اختفاء زوجها، وأصلها ومنبتها السوريةن في قرية حَلْبكّو، وفوضى مجتمع الحرب في محلة الطريق الجديدة وبيروت، انعطفت بحياتها

وعلاقاتها وحياة أولادها الستة منعطفاً جديداً شرّع حياة العائلة وعلاقاتها ومصيرها على الفوضى والتنابذ والتمزّق والعنف المتمادي. في البداية اكتنف ذلك المنعطف غموض أخذ يتكشف لاحقاً بعد الاجتياح الإسرائيلي للبنان عام ١٩٨٢. ففي عام ١٩٨٣ قُبض على جدتي بتهمة ضلوعها بدور ما في عملية تفجير السفارة العراقية في بيروت أواخر عام ١٩٨١، فسُجنت في وزارة الدفاع اللبنانية حتى عودة القوات السورية إلى بيروت عام ١٩٨٨. كانت حاملاً بأصغر أبنائها حين قبض عليها، فوضعت مولودها في مستشفى السجن في اليرزة عام ١٩٨٤. لم يكن واضحاً ومعلوماً من هو والد هذا الطفل الذي تروي بناتها، خالاتي وأمي، أنها حبلت به أثناء علاقتها برجل لبناني بيروتي يعمل محامياً، انتهت علاقتهما قبل سجنها، من دون أن يتضح إن كانا تزوجا أم أن علاقتها به كانت واحدة من علاقاتها برجال كانوا يتردّدون إلى منزلها في الطريق الجديدة، ومنهم ضباط في منظمة «الصاعقة» الفلسطينية ــ السورية، وفي الاستخبارات السورية. لكن الأكيد أنها بعد اختطاف زوجها المسن، رجل البواخر والموانئ البحرية، تزوّجت رجلاً أردنياً، فعاشا معاً لسنوات في منزل الطريق الجديدة، وأنجبت منه صبيين وبنتاً، قبل أن يتركها مع أولاده الثلاثة منها، ويرحل نهائياً إلى الأردن. أخيراً، قبل سنوات قليلة، شاءت مصادفات اللقاءات الافتراضية على موقع التواصل الاجتماعي «فايسبوك» على الانترنت، أن يتعرّف أولادها الثلاثة هؤلاء إلى إخوة لهم أردنيين من والدهم الأردني الذي لم يشاهدوه منذ طفولتهم، فذهبوا إلى عمان للقائه مع إخوتهم من زوجته الأردنية التي اقترن بها بعد مغادرته بيروت في مطلع ثمانينيات القرن العشرين.

ابنها الأصغر الذي ولدته عام ١٩٨٤، أثناء سجنها في وزارة الدفاع اللبنانية، منحته اسم ابنها البكر من زوجها المختفي في «السبت الأسود». كان ذلك الابن قد قُتل في ظروف يكتنفها الغموض، ربما في عام ١٩٧٨. هي قالت وأشاعت في الحيّ وبين أولادها أن رصاصة طائشة أطلقها قناص من خلف خطوط التماس في بيروت الشرقية، أصابته إصابة قاتلة، بعدما اخترقت زجاج نافذة غرفته في المنزل. لكنني في طفولتي المشتتة بين حمص وبيروت، كثيراً ما سمعت أمي وخالاتي وأخوالي يتراوون نتفاً من سيرة أمهم وحوادثها المكتومة أو الغامضة. من هذه الروايات المكتومة، لكن الشائعة بين أهالي الحيّ من جيرانهم في الطريق الجديدة، أن شقيقهم البكر لم يقتل برصاصة طائشة أو أطلقها قناص في يوميات حروب بيروت، بل قتل في المنزل برصاصة أطلقها عليه من مسدّسه ضابط استخبارات سوري، كان في غرفة النوم مع أمهم، عندما فتح بابها، فجأة، شقيقهم البكر وأبصر أمه والضابط السوري معاً في السرير، من دون أن يتضح ما حدث وحمل الضابط على إطلاق النار على الفتى، ابن الأم التي حملت طوال حياتها عقدة ذنب مريرة جرّاء تسبّبها بمقتل ابنها برصاصة أطلقها عليه عشيقها في غرفة نومها. لذا لم تفوّت، مذذاك، مناسبة أو فرصة، لزيارة قبر ابنها القتيل الذي أطلقت اسمه على طفلها الأخير المولود في سجن وزارة الدفاع اللبنانية عام ١٩٨٤.

أبناء الشتات البيروتي

عارياً ويتيماً ولدت، قال مولود سجن وزارة الدفاع، خالي الذي يصغرني بأربع سنوات. والعبارة هذه استهل بها روايته مقتطفات من

سيرته التي سجلها الصحافي محمد بركات، فكتبها ونشرها في ٧ كانون الثاني ٢٠٠٩، على موقع «لبنان الآن» الإلكتروني على شبكة الإنترنت.

بلا أب وسند عاش طفولته في أوج حروب الشوارع البيروتية. فهو واحد من عشرة إخوة وأخوات، بكرهم مات في الحرب قبل سنوات من ولادته. تلقى تعليمه في مدرسة فلسطينية على أطراف مخيّمي صبرا وشاتيلا الفلسطينيين خلف منطقة الطريق الجديدة في جنوبها الشرقي. فأمه ــ جدتي كانت تعتقد أن المدارس الفلسطينية الخاصة أفضل له ولأخواته وإخوته، من المدارس اللبنانية الرسمية التي يتجنّد تلاميذها في ميليشيات لبنانية مسلحة. لذا علّمت أولادها جميعاً في مدارس «الأونروا ــ وكالة غوث اللاجئين الفلسطينيين» في مخيّماتهم، لكن أياً منهم ومنهن لم يتابع تعليمه، فتركوا المدرسة في المرحلة المتوسطة أو بدايات المرحلة الثانوية، وعملوا في مهن مختلفة. أما هو، خالي الصغير، فعمل في متجر يبيع أشرطة فيديو كاسيت في ساحة محلة أبو شاكر في الطريق الجديدة قبل تركه المدرسة. حتى ساعة متأخرة من الليل كان يعمل في هذا المتجر، بعد انتهاء دوامه المدرسي في الثانية بعد الظهر.

يتمه الأبوي وولادته من أب لا يعرفه ولم يرَهُ، حفزاه ليكون قوياً شرساً في مدرسته ومحيطها الفلسطيني، حيث كان أقرانه الفلسطينيون يستضعفونه لأنه ليس فلسطينياً مثلهم في بيئة البؤس والشقاء والاكتظاظ الفلسطيني المحاصر والغارق في البطالة والعطالة، وفي مشاجرات زمر فتيان الشوارع التي نشأ فيها عارياً، يتيماً، بلا ظهير يحميه. أحياء الطريق الجديدة وشوارعها، حيث

منزل أمه، كانت أيضاً مرتعاً لمثل هذه الزمر من الفتيان وعنفهم. لذا كان عليه أن يعتمد على نفسه وجسمه في بيئة قاسية جرّعته العنف، وجعلته قادراً على تحمّله وردّه واعتماده سلوكاً يومياً فطرياً دفاعاً عن نفسه. حين بلغ العشرين كان قد تنقل حارساً بين أعمال كثيرة متقطعة عمل في، آخرها حارساً لإحدى الصيدليات في بيروت. بنيته الجسمانية القوية التي حصّلها من مداومته اليومية الطويلة على تمارين رياضة رفع الأثقال في نادٍ معروف في الطريق الجديدة، هي التي زكّته إلى هذا العمل ومكنته منه مدة ٤ أشهر، ترك بعدها حراسة الصيدلية إلى العطالة قبل أسبوع واحد من اغتيال رفيق الحريري في ١٤ شباط ٢٠٠٥. حين شاهد صور الاغتيال على الشاشات التلفزيونية، فارت الدماء في قلبه وجسمه، كسائر الفتيان والشبان من أمثاله في الطريق الجديدة وغيرها من الأحياء البيروتية المماثلة. لا يعلم ما الذي أخذ يبكيه كلما تكرّرت مشاهد الاغتيال على الشاشات. ربما فظاعة الجريمة وقوة الانتفاضة الشعبية العارمة، ما أبكاه. لكنه على الأرجح بكى من يتمه وضياعه وشعوره بأنه ملقىً في العراء، ممتلئ بتوق مزمن، متعب ومحموم، إلى أن يكون في حماية أحد ما، يعوّضه عن غياب أبيه الذي لم يبصره.

لم يكن على اهتمام بأيّ من أمور السياسة، إلا إذا كانت هناك صلة ما بين السياسة والنشاط القاسي والعنيف لزمر الفتيان والشبان في شوارع الأحياء وبين الأنشطة الخفية لأجهزة الاستخبارات السورية واللبنانية المشتركة التي كان بعض ضباطها يستقطبون هذه الزمر ويستخدمونها مع مجموعات وجماعات أهلية في هرجات وعراضات ضد الرئيس الحريري وزعامته في بيروت. ثم إنه لم يكن على أي صلة بالجماعات المؤيّدة للحريري الذي لم يلمحه مباشرة

سوى مرة واحدة أثناء أدائه الصلاة في جامع الإمام علي بن أبي طالب في الطريق الجديدة، حينما زار الحريري الجامع وصلى فيه صبيحة أحد الأعياد. لم يصلِّ الفتى في الجامع مع غيره من أمثاله عن تديّن أو إيمان، بل لأن رئيس الحكومة جاء إلى حيّهم ومنطقتهم. في صغره كان يصلي في بعض الأوقات، لكنّ صلاته راحت تتقطع متباعدة إلى أن انقطع عنها تماماً، بعدما شعر بأنه يصلي بلا خشوع، ويشرب الكحول على نحو يومي تقريباً.

بعد مغادرتي حمص إلى بيروت عام ١٩٩٩، وإقامتي في منزل جدتي لأمي في الطريق الجديدة، كثيراً ما تهيّأ لي أن خالي الأصغر هذا الذي أكبره بأربع سنوات، يراوده شعور بأن فجوة غامضة تفصله عن أمه، فتجعلها أقرب إلى أن تكون جدّته المتصابية، أو خالته المفتونة بفتوتها وجمالها. لا أدري إن كنت أسقطت عليه شعوري هذا حيال جدتي، أمه، أم أنني نقلت إليه هذا الشعور أثناء رفقتنا الدائمة في شوارع الطريق الجديدة، كأننا أخوان أكثر منّا خالاً وابن أخت، عدا أن أياً منا لم ينادِ الآخر، مرة، بالصفة القرابية، بل باسمه الشخصي.

قبل سنوات من ولادة خالي هذا، كانت الفجوة نفسها قائمة ما بين جدتي وأولادها الآخرين الذين يتميّز ابنها الأصغر عنهم في أنه ولد من تلك الفجوة التي بدأت بالظهور بعد اختفاء زوج أمه السابق. أما حادثة مقتل ابنها البكر الغامضة، وظنون أولادها بأن ضابط استخبارات سوريةً، كانت أمهم على علاقة به، هو الذي قتل أخاهم في منزلهم، فراحت تملأ تلك الفجوة بتنابذ وأحقاد دفينة وشقاق مكتوم بين جدتي وأولادها الخمسة من زوجها المختفي. شمل

التنابذ والشقاق أيضاً ابنتها البكر (أمي لاحقاً) التي كانت في السنة الثانية من عمرها حين حملتها أمها من سورية إلى بيروت، بعدما أنجبتها من زوجها الأول، السوري، ومطلّقها في قرية حلبكو في جبال العلويين. فجوة التنابذ والأحقاد بينها وبين أولادها هؤلاء، اتسعت بعد زواجها بالرجل الأردني الذي هجرها، تاركاً أولادهما في رعايتها، ومغادراً إلى عمّان، قبل اتهامها بالضلوع في تفجير السفارة العراقية في بيروت عام ١٩٨١، وإدخالها سجن وزارة الدفاع اللبنانية أثناء حملها ــ من علاقتها الغامضة بمحام بيروتي ــ بابنها الأصغر والأخير الذي أنجبته عام ١٩٨٤ في السجن. فأيّ حياة وعلاقات أسرية يمكن أن تقوم ما بين أم هذه حالها، وأبنائها هؤلاء في زمن حربي شمل لبنان كله، بعدما كانت منطقة الطريق الجديدة التي تقيم فيها هذه الأسرة، قد تحوّلت معقلاً لانتشار السلاح ومنظماته الأمنية والعسكرية والأهلية منذ عام ١٩٦٨؟

جدتي السورية حتى الخامسة عشرة من عمرها، الأمية والجميلة والمنحدرة من عائلة عشائرية نافذة في جبال العلويين، والنازلة منذ نهايات خمسينيات القرن العشرين في بيروت في كنف زوجها اللبناني، تقول إن صلاتها وعلاقاتها بضباط من أجهزة الاستخبارات السورية في بيروت، كانت تعويضاً عن فقدها حماية الرجال بعد اختطاف زوجها، ولحماية أولادها من الارتماء في أحضان الميليشيات المسلحة وفي أتون الحرب وفوضاها في منطقة ولد فيها مجتمع الحرب قبل سنوات من انفجارها عام ١٩٧٥. لقد استطاعت أن تحصل على بطاقات تفيد بأن أولادها لاجئون فلسطينيون، لتتمكن من الحصول على إعاشة لهم من «وكالة غوث اللاجئين الفلسطينيين ــ الأنروا» التي علمتهم في مدارسها، رغم

حمل بعضهم جنسية والدهم اللبناني المخطوف والمختفي. هذا كله فاقم الارتجاج والتمزق في الهوية الاجتماعية للأسرة التي ولد أبناؤها العشرة من أربعة رجال غائبين، وقتل أكبرهم في ظروف «غامضة» في غرفة نوم أمه، التي أنجبت أصغرهم في سجن. ارتجاج وتمزق تحت سقف بيت واحد يعيش فيه أولاد من آباء جنسياتهم مختلفة وغائبين، وفي كنف أم قوية الشكيمة، متسلطة واستحواذية، جميلة ومتصابية ومزواجة، إضافة إلى علاقاتها الغامضة بضباط استخبارات سوريين في بيتها الأسري، فيما أولادها يتعلمون، تباعاً، في مدرسة داخل مخيّم فلسطيني قريب، وتلامذتها فلسطينيون كلهم أو في معظمهم في بيئة أهلية من أخلاط لاجئين فلسطينيين ومهجرين لبنانيين نشأت في أحيائهم العشوائية وحطام اجتماعها منظمات عسكرية مسلحة في زمن ومجتمع حربيين.

لكن الارتجاج والتمزق في حياة جدتي وأولادها العشرة وعلاقتها بهم، يتجاوزان تمزق النسيج الاجتماعي، إلى أعماق حياتهم الأسرية، وتكوينهم النفسي، وهوياتهم الشخصية، وانتماءاتهم المضطربة والمفككة والممزقة ما بين أم سورية علوية الولادة والأصل والنشأة حتى الخامسة عشرة من عمرها، وبيروتية الإقامة في بيئة سنيّة أهلية وشعبية منذ أواخر خمسينيات القرن العشرين، وما بين أزواجها الغائبين الذين تركوها وأولادها في معمعة من الاضطراب والتمزق والاحتقان الاجتماعي الحربي بين جماعات ومنظمات عسكرية وأهلية لبنانية وفلسطينية، من دون أن يغيب الجيش السوري عن هذه الحروب.

على إيقاع هذه الحروب، دبّ التنابذ والشقاق وتفاقم ما بين الأم

وأولادها، وخصوصاً الفتيات منهم. كانت المحطة الأبرز في التنابذ والشقاق هذين، فرار ابنتها البكر عام ١٩٧٩ مع شاب سوري حمصي، يعمل منذ سبعينيات القرن العشرين سائق سيارة لنقل الركاب وتجارة التهريب بين حمص وبيروت. عمله هذا مع أخواله النافذين في حمص، هو الذي أدى إلى تعرفه إلى بكر بنات جدتي، أثناء تردّده على بيتها في الطريق الجديدة، ناقلاً من سورية حاجيات وأغراضاً يرسلها إليها أهلها السوريون. كانت ابنتها البكر التي ستصير أمي، تبحث آنذاك عن أيّ سبيل للخلاص من طغيان أمها وحصارها وقسوتها وعلاقاتها برجال يتردّدون إلى بيتها، معظمهم ضباط استخبارات سوريون. لذا سرعان ما استجابت الابنة لسائق السيارة السوري (والدي لاحقاً) الذي أعجب بها، وراح يغويها ويواعدها، ففرّت معه «خطيفة» إلى حمص ليتزوّجا هناك، معاكسة في هذا، لا طغيان أمها وحده، بل قلبها أيضاً وميلها العاطفي وعلاقتها الغرامية بشاب من تنظيم «المرابطون» في الطريق الجديدة، نكّدت عليها أمها حبّها إياه وتعلقها به، فمنعتها من اللقاء والزواج به.

لكن لحادثة هرب أمي مع أبي من بيروت إلى حمص، قصة حربية تُروى، وهي من أمارات مجتمع الحرب في الطريق الجديدة. فمنذ بدايات الحرب في لبنان، راح سائق سيارة نقل الركاب وتهريب السلع، يمضي معظم وقته في بيروت، وله في مواقف سياراتها المتنقلة بين سورية ولبنان، معارف وأصدقاء لبنانيون. حتى إن سيارته التي يعمل عليها كانت مسجلة في دائرة السير في لبنان، ورقمها وأوراقها الثبوتية لبنانية. وحين تنبّهت جدتي لوالدتي المرتقبة أن والدي المرتقب يحوّم حول ابنتها ويرغبها وقد تستجيب له، أوعزت لمسلحين من «المرابطون» تعرفهم في الحيّ، بأن يسرقوا

سيارته التي جلب بها إلى بيتها ذات يوم أغراضاً من أهلها في سورية. قام مسلحو «المرابطون» بسرقة السيارة التي سرعان ما علم صاحبها أنهم خبّأوها في الكاراج الذي يخبئون فيه سيارات يصادرونها أو يسرقونها، فاصطحب إلى الكاراج زمرة من مسلحين فلسطينيين، أصدقائه، وحمل مثلهم بندقية كلاشنيكوف حربية، مستعيداً خبرته القتالية السابقة حينما كان مجنّداً مدة ٤ سنوات في الجيش السوري، لكن مستعيناً أيضاً بميله إلى منظمة «فتح» الفلسطينية بزعامة ياسر عرفات.

اقتحم والدي مع زمرة أصدقائه المسلحين الفلسطينيين كاراج «المرابطون»، فاشتبك المهاجمون مع حراس الكاراج المسلحين، ودارت بين الطرفين معركة جرح فيها أحد المسلحين الفلسطينيين المهاجمين، قبل تمكّنهم من تحرير السيارة التي خرجوا بها من الكاراج وفي داخلها المسلح الجريح. وفور استعادته سيارته، توجّه والدي إلى منزل جدتي في الطريق الجديدة، فلم يجدها في المنزل، ورضيت أمي بالفرار معه إلى حمص في سيارته المحررة. لاحقاً، كثيراً ما سمعت والدي يروي هذه الحادثة متفاخراً، قبل أن ينهي روايته بلعنه الساعة التي تعرّف فيها إلى أمي وجلبها إلى حمص، لأن الذي يتزوّج امرأة من غير الحيّ الذي يقيم فيه، سوف يتعذب طوال عمره، وفقاً لقول راح يردّده بعد شجاراته الكثيرة المتصلة مع أمي التي كانت تغادر حمص عقب كل شجار أو خلاف، وتمكث أسابيع عند أمها في بيروت. لكن حادثة تحرير والدي سيارته وفراره بها مع أمي إلى حمص، لم تنته فصولها عند هذا الحد. فما إن علمت جدتي بأن ابنتها فرت «خطيفة» إلى حمص، حتى بادرت إلى اللحاق بها، وأبلغت الشرطة هناك بأن خاطف ابنتها سرق سيارة

مرسيدس من بيروت وأدخلها خلسة إلى سورية. وحين حضرت الشرطة السورية إلى منزل أهل والدي في حمص لم تجده، إذ كان قد ذهب مع خطيفته وزوجته المرتقبة إلى قرية أهلها، حلبكو، في جبال العلويين، لإحضار والدها إلى حمص وعقد قرانه رسمياً عليها. لم يكن في حيازة أمي بطاقة هوية سورية، فهي مقيمة في بيروت منذ كانت في الثانية من عمرها، ومنذاك لم تزر أهلها في حلبكو، وليس في ذاكرتها أي صورة لوالدها الذي لم تره إلا عندما وصلت إلى القرية ليلاً مع والدي مصطحباً أحد أخواله النافذين الذي استطاع، في صبيحة النهار التالي، استصدار بطاقة هوية سورية لأمي التي تعرّفت في تلك الليلة إلى والدها قبل أن يصطحبه والدي إلى حمص، حيث عقد قرانه على ابنته في السرايا الحكومية. وحين وصلت جدتي لأمي إلى السرايا، أبرز لها والدي وثيقة زواجه بابنتها، لكنها لم تسقط عنه الدعوى التي قدّمتها ضده في المحكمة في حمص، متهمة إيّاه بسرقة سيارة من لبنان وإدخالها خلسة إلى سورية، ثم إنها راحت عبر علاقاتها بضباط الاستخبارات السوريين، تفعّل هذه الدعوى، كلما عادت أمي إلى بيروت، بعد نشوب أي خلاف بينها وبين والدي في حمص. وبعد مضيّ ١٩ سنة على هذه الدعوى، جاء مرة رجال الاستخبارات إلى منزل والدي في حمص واقتادوه إلى مقرهم بتهمة سرقته السيارة، سيارته.

مدينتا النقمة والعنف

أنا المولود في عام ١٩٨٠ بعد سنة أو أقل بقليل من زواج أبي وأمي وإقامتهما سنوات ثلاثاً في منزل عمة والدي في حارة جورة الشياح، إحدى حارات حمص القديمة، أتذكر من الإقامة في هذين البيت

والحارة تخويف أمي لي ومنعها إياي من الخروج إلى فناء الدار الخارجي المكشوف. لاحقاً سمعت من أهلي أخباراً عن أسباب هذا الخوف، فعلمت أن الاشتباكات اليومية المفاجئة بين الجيش السوري ومسلحي «الإخوان المسلمين»، كانت تشل حياة الناس في الحارات وطرقها، وتحجزهم في الدور التي يحاذرون الخروج إلى فناءاتها المكشوفة في وسطها، ويمنعون أطفالهم من اللعب فيها، لئلا تصيبهم طلقات الاشتباكات المفاجئة. إلى ذلك الخوف أتذكر في تلك الدار أيضاً أطياف عمة والدي العاقر وزوجها الحاج البطيء الحركة، وأختها شبه المجنونة وابنها الذي لا أعرف له أباً، وربّته عمة والدي الذي لا أتذكر له حضوراً في الدار. فهو، على ما علمت لاحقاً من أمي بعد شجاراتهما، أخذ يغيب غيبات طويلة متقطعة عن حمص، بعد شهور من زواجه وحمل أمي بي في أيام الخوف تلك. لقد انصرف والدي إلى عمله على سيارته خارج حمص وحرب شوارعها المتقطعة، ممضياً أوقاتا طويلة في بيروت الغارقة في الحرية وفوضى الحرب، وحيث يطيب له العيش مع أصدقائه الكثيرين من أمثاله سائقي السيارات السوريين واللبنانيين المنصرفين إلى أهوائهم بين اللهو والسكر.

وسائقو سيارات نقل الركاب بين سورية ولبنان أعني السوريين منهم،، يعملون أيضاً في تجارة التهريب الحدودية، وأعمالهم هذه تكسبهم نمط عيش عماده التنقل ومحاباة رجال الاستخبارات والجمارك ورشوتهم، وتبادل الخدمات والمنافع معهم. ولا شك في أن العاملين في هذه المهنة والأعمال المتصلة بها، إضافة إلى رجال الاستخبارات والجمارك، يشكلون فئة أو طائفة واسعة متشابكة العلاقات والخيوط، يمكن تسميتها «شطار» المدن المحدثة في

المجتمع السوري وفي مؤسسات الدولة السورية ونظامها الأمني والإداري. طائفة «الشطار» المحدثة هذه وشبكة علاقاتها الواسعة، مرآة نموذجية لنظام العلاقات والعمل والمهن والقيم في المجتمع ومؤسسات الدولة الإدارية والأمنية في «سورية البعث والأسد». نادراً ما تلقى في سورية سائق سيارة لنقل الركاب وتجارة التهريب بين سورية ولبنان، لم يحصّل بعض الثراء في المقاييس الاقتصادية والاجتماعية السورية. أما الصفة التي شاعت بين السوريين لهؤلاء السائقين، فهي «شوفير كدع» أو «قبضاي». ومن الصفات الأخرى الملازمة للسائقين، أنهم «سكرجية» أو «سكيرون»، أو «سكرت» بصيغة المفرد. فطبيعة عملهم وترحالهم وعلاقاتهم وقيمهم وتسلياتهم ومتعهم، تميل بهم إلى محطات وسهرات وصحبة تجمعهم إلى مازات العرق والشواء في حلهم وترحالهم، فيصير معظمهم «شريبة كاس» على ما كانت حال والدي حينما تجاوزت طفولتي الأولى، وأخذت ذاكرتي تسجل صوراً ومشاهد من حياتنا البيتية في حمص. من هذه الصور والمشاهد أكوام من الموز الصومالي وأكياس المكسرات وصناديق التبغ في غرف بيتنا طوال النصف الثاني من ثمانينيات القرن العشرين، عندما كان يقال في سورية إن «الملوك وحدهم يأكلون الموز الصومالي». ففي تلك الحقبة كانت عامة الناس في سورية تقف في طوابير طويلة للحصول على المواد الغذائية الأساسية التي يجري توزيعها كالإعاشة وبمقادير قليلة، على حاملي البطاقات التموينية.

من المشاهد القليلة الباقية في ذاكرة الطفل الذي كنته في دار عمة والدي في حارة جورة الشياح، مشهد متكرّر لأمي تضرب ضرباً قاسياً ابن أخت تلك العمة الذي يكبرني بأربع سنوات. كنت

أخاف من أمي وأمقتها وأشعر بأنها غريبة عني، كلما أبصرتها تضرب ذلك الصبي الذي أشفق عليه شفقة مريرة ضد أمي حين تضربه وتضربه، فيظل صامتاً كأنه جسم لا حياة فيه. غربتي عنها كانت تتضاعف حين أراها تنصرف إلى قراءة كتاب في غرفتها، فور فراغها من صفع الطفل صفعات قوية متلاحقة على وجهه، فيما هو جامد بلا حركة في باحة الدار الخارجية المكشوفة التي كانت أمي تخاف عليّ من المكوث واللعب فيها، لئلا ينهمر عليها رشق من الرصاصات الطائشة جراء الاشتباكات المفاجئة بين الجيش السوري ومسلحي «الإخوان المسلمين» في حارات المدينة قبل أن يدهمها الجيش فجأة لمطاردة مسلحي «الإخوان» وقتلهم أو اعتقالهم وإعدامهم، والقبض على أهلهم وأقاربهم.

تخاف عليّ من باحة الدار، وتنسى ذلك الصبي فيها، كأن لا وجود له إلا حين توجّه إليه ضرباتها القاسية، فأخاف أنا عليه أثناء قعودي صامتاً على بساط عتيق في أرض الغرفة، محدقاً في وجه أمي المقطب وهي تقرأ في كتابها قاعدة على فراش في زاوية الغرفة. كنت أتمنى أن أسمع رشقاً من الطلقات النارية يقترب، لعلها تقوم مذعورة وتخرج إلى باحة الدار، متخيّلاً أن الصبي أصيب قبل وصولها إليه، فحملته والدم ينزف من رأسه. كأنني في تخيّلي هذا المشهد كنت أرغب في أن أرى أمي خائفة هلعة، لا على الصبي فحسب، بل من الدم الذي ينزف منه ويلطخ يديها.

اليوم ــ حين أفكر لماذا كانت تسرح بي مخيّلة الطفل الذي كنته إلى مثل هذا المشهد الأقرب إلى منام أو حلم يقظة، ولماذا كانت أمي تضرب ذلك الصبي المسكين، ومن أين جلبت عادة القراءة

التي كانت نادرة في حارات حمص؟ ـ أعلم أن أمي وأهلها وحياتها في بيروت، وأبي وأهله وحياته في حمص، وأنا من بعدهم، متشابهون في تجرّع إرث المهانة والغضب والنقمة على الحياة والنفس والعالم. وهو إرث يمتلك على متجرّعيه كينونتهم وأشكال تعبيرهم ولغتهم وعلاقتهم بمحيطهم وتواصلهم. لكن هذا الإرث ليس سابقاً على حياة وارثيه، ولا مستقلاً عنها وعنهم، بل هم وارثوه قدر ما يستقبلونه ويستبطنونه في أنفسهم ويتدخلون في صنعه وإخراجه ومنحه شكلاً واتجاهاً، فيتشبّث بهم وبمصيرهم، ولا أحد يعلم أيّ مصادفات في حياتهم يمكن أن تنزع، بطيئاً بطيئاً، جذوة الغضب والنقمة من أنفسهم.

يتهيّأ لي أن أمي، بقوة ما حملته معها من عنف الحرب في بيروت، وبقوة غضبها من تمزق حياتها العائلية والأسرية ونكد علاقتها بأمها السورية المتلبننة ونقمتها عليها، كانت تضرب ذاك الصبي، في باحة الدار في حمص. كأنها بضرباتها تلك كانت تضرب والدي وتضرب نفسها أيضاً، انتقاماً من نفسها ولنفسها من رجل فرّت معه من بيروت وتزوجته في حمص، هرباً من نكد أمها وشجاراتها معها. ربما كانت تعودت في بيروت أن تداري بانصرافها إلى القراءة سورات النقمة والغضب، بعد انفجارها شتائم عائلية مقذعة وعنفاً كلامياً وجسدياً بينها وبين أمها في بيتهم في الطريق الجديدة الذي كان (وظل بعد مغادرتها إياه) مرتعاً لموجات عنف أسري طاحن بين أمها وأخواتها جميعاً. أما في دار عمة والدي في حمص، فوجدت في ذاك الصبي العاري من الأبوّة والأمومة، المهمل كأنه فضلة بشرية في كنف عاقرين هما من سقط عائلة والدي، موضوعاً جاهزاً لاستئناف نوبات غضبها المتجدّد من نفسها ومن والدي

الذي قبلت به زوجاً في حمص، فما لبث أن تركها مهملة غريبة في دار قديمة شبه مهجورة في مدينة خائفة ومحاصرة بفصول حرب سرية تنفجر فجأة في الحارات والأحياء، أين منها فوضى الحروب العلنية في شوارع بيروت!

والدي أيضاً، أقدّر أن حياته لم تكن تخلو من القسوة في حارات حمص القديمة، وفي عمله المبكر وخدمته العسكرية الإجبارية طوال أربع سنوات، ثم في عمله سائق سيارة لنقل ركاب وسلع تجارة التهريب بين سورية ولبنان. فالمشاجرات والصدامات بين أهالي الحارات، وخصوصاً شبابها المنقسمين زمراً وعصبيات عائلية، كانت وجهاً من وجوه الحياة اليومية وعلاقاتها وأشكال تعبيرها في الحارات. هذا ما شهدته وعشته في طفولتي، وشاركت فيه فتىً في حارتنا، عندما كان والدي مسموع الكلمة ومرهوب الجانب في عائلته وبين أهالي الحارة. ويمكن أن نتخيّل كيف كانت الحياة اليومية في حارات المدن السورية التي لم تجد المسلسلات التلفزيونية السورية موضوعاً سواها تعتمده تراثاً فولكلورياً نموذجياً تستلهمه وتصوره، فإذا الرجولة الفائضة وقيمها وقوة الرجال البدنية وعنفهم وشرفهم وعصبياتهم العائلية اللصيقة بالحارة، مدار الاجتماع بين أهالي الحارات. وليس مصادفة أن يكون أشهر المسلسلات الرمضانية وأوسعها صيتاً شعبياً وجماهيرياً في البلدان العربية في السنوات الأخيرة، هو «باب الحارة».

المسلسلات هذه شاهد فولكلوري صادق على ارتسام العنف الجسدي واللفظي وسيلةً تعبيرية أساسية في العلاقة بين الأهالي. فالتهديد والوعيد والعنف اللفظي الذي تجسّده عبارات من أمثال

سلخ الجلد وهرس العظام وطحنها، تسبق دائماً الصفعة التي يستقبل بها رئيس المخفر كل رجل يدخله رجال الأمن إلى مخفر هم في حارة المسلسلات التلفزيونية. وهذا كناية عن أن رجال الأمن والسلطة هم رجال عنف عرفي لا يضبطه ضابط، وعن أن الأمن والإدارة والقضاء والقانون تجتمع في فعل واحد ومباشر هو العنف بوصفه اللغة الوحيدة السائدة والمتعارفة، لا في المخافر وبين العامة ورجال الأمن فحسب، بل في ما بين أهل الحارات أيضاً. والحكايات النمطية التي يرويها الناس في سورية ولبنان عن تعرّضهم للإهانة والعنف على أيدي رجال الاستخبارات السورية، لا تعدّ ولا تحصى، وحوّلها تكرار تراويها فكاهة سوداء أقرب إلى تراث فولكلوري شائع ومغفل الرواة، على منوال القصص الشعبي التي يقدم فيها رجال الاستخبارات السورية على توقيف أشخاص مدنيين على حواجزهم الأمنية فيبادرونهم بالعبارة المهينة المشهورة: «تعا لهون ولاه»، لإذلالهم قبل صفعهم، هكذا، بلا سبب أو لسبب تافه يفتلعه رجال الاستخبارات لممارسة عنفهم العرفي والمجاني على الناس في الشوارع. حتى إن الأمين العام للحزب الخميني وخطيبه في لبنان، السيد حسن نصر الله، حليف النظام السوري، روى في إحدى إطلالاته التلفزيونية التي خصصها في شهر آب ٢٠١٠ لتقديم «أدلة» اتهامه إسرائيل باغتيال رفيق الحريري، أن رجال الاستخبارات السورية في لبنان استدعوا أحد عناصر حزبه إلى مقرهم الرئيسي في عنجر للتحقيق معه، ثم تابع الأمين العام قائلاً: «وما أدراك ما عنجر... لقد طحنوا عظامه»، في إشارة منه إلى أن طحن العظام في عنجر أمر شائع ومعروف ومفروغ منه.

في أحياء حمص الجديدة وشوارعها، كانت الشقاوة والهرب من

المدرسة عنوان مراهقتي مع شلل من تلامذة مدرسة خاصة لأبناء العائلات الميسورة والنافذة في المدينة. والشائع في سورية أن أهل اليسر المادي ومحدثي النعمة، لا يحصّلون يسرهم ونعمتهم إلا من طريق صلاتهم الوثيقة بأصحاب النفوذ الأمني والعسكري وشبكاته في الإدارة العامة التي هيهات أن تُنجز فيها معاملة، مهما صغر شأنها أو كبر، من دون أن يحصل الموظف النافذ في الإدارة على رشوة أو مغنم من صاحب المعاملة. حتى إن سائقي سيارات الأجرة وتهريب السلع من لبنان يستحيل عليهم القيام بأعمالهم هذه، من دون صلة برجال الاستخبارات والجمارك الذين يحصلون منهم على رشى وإتاوات دائمة.

هذا غيض من فيض نسيج تتشابك خيوطه الأخطبوطية في المجتمع والدولة السوريين حتى الاستنقاع والاختناق في الفساد والعنف اللذين يصعب أن ينجو منهما أحد يسعى في تحصيل معاشه وتسيير أمور حياته. هذه حال والدي الذي ما إن تزوج امرأة هربت معه «خطيفة» من نكد أمها وعنفها في بيروت، حتى تركها في دار عمته في حمص، غريبة وحيدة، كئيبة وخائفة من حرب يومية تدور اشتباكاتها مفاجئة في حارات المدينة، وانصرف لتحصيل معاشه من عمله سائقاً عمومياً، هارباً من شلل الحياة اليومية في المدينة في كثير من الأوقات. من هذه حاله من سائقي سيارات الأجرة، غالباً ما يعيش حياته على الطرق، متكسّباً ومغامراً صغيراً تأخذه رحلاته وأهواؤه بعيداً من بيته وزوجته التي يعود إليها في أوقات متقطعة متباعدة. فما بالك اذا كانت زوجته امرأة عاشت في صباها حياة أسرية ممزقة، وتخلو من سلطة أبوية وعائلية تقليدية، وتنطوي على شيء من حرية قلقة ومضطربة في بيروت الساحلية وزمنها الحربي

المنفلت والفوضوي، ثم سرعان ما وجدت نفسها (أمي) مهجورة في مدينة داخلية (حمص) خاوية ومشلولة؟

غالباً ما كانت الشجارات بين أمي وأبي تحمل أمي على مغادرة حمص إلى بيت أمها وأخواتها في بيروت، فتمكث في بيتهن مدة تستشفي وتسلو، حتى إذا جاء والدي لاسترضائها تقبل العودة معه إلى حمص، راسمة في ذلك مسارات تيهها المغلقة بين نقمتين منهما ولدتُ، ومتنقّلاً بينهما نشأت وعشت حياتي، وها أنذا أروي بعضاً من فصولهما، علني أهتدي إلى مفرّ ما يخرجني من هذا التيه المغلق إلى بلاد غريبة.

أمضى والداي السنوات الثلاث أو الأربع الأولى من حياتهما الزوجية ١٩٨٤ ـــ ١٩٨٠ مقيمين على هذه الحال، وأنا معهما، في دار عمة والدي في حارة جورة الشياح. المقبرة المقابلة للدار اتخذها مسلحو «الإخوان المسلمين» مخبأ لهم أو مفراً من حملات الدهم والمطاردة والإعدام الميداني التي يقوم بها الجيش السوري في الحارات، فتدور بين وحدات الجيش والمسلحين المختبئين في المقبرة اشتباكات بين حين وآخر، يمتنع فيها أهالي حارتنا والحارات المجاورة عن الخروج من بيوتهم. سطوح الدور المتقاربة والمتلاصقة في الحارات، كانت بدورها من الأماكن التي يفر إليها المسلحون في أوقات حملات الدهم والمطاردة، فيتخذونها مواقع للحماية والمراقبة والاشتباك مع وحدات الجيش إذا تمكنت من تضييق الخناق عليهم وحصارهم، فيما الأهالي محاصرون في بيوتهم.

بعد وقت من توقف الاشتباكات في الحارة، خرجت أمي مرة من

الدار لتشتري بعض الحاجات المنزلية من دكان قريبة، فسمعت في ناحية من الطريق أنيناً، تبيّن لها أنه أنين رجل مصاب بطلقات نارية ومنطرح أرضاً، وعبثاً يحاول الزحف في الطريق الخالية. ما إن اقتربت منه لعلها تساعده، حتى سمعت صراخ جارها في الدار المقابلة، يحذرها من الاقتراب من الرجل الجريح، ويأمرها بأن تعود إلى بيتها سريعاً، فعادت إلى الدار خائفة، ووقفت خلف زجاج النافذة تراقب ما يحدث في الطريق. ظل الرجل وقتاً طويلاً منطرحاً في مكانه يئن حتى لفظ أنفاسه الأخيرة، من دون أن يجرؤ أيّ من سكان الحارة على الاقتراب منه. فتجارب سكان الحارات في مثل هذه الحالات، علمتهم أن من يؤوي مسلحاً مطارداً من «الإخوان المسلمين»، أو يقترب من مسلح قتيل في الطريق لسحب جثته، أو من جريح لمساعدته وإسعافه، سوف تدهم وحدات من الأمن أو الجيش بيته فوراً، وقد تبادر إلى إعدامه الفوري مع رجال أسرته وأقاربه. مسلحو «الإخوان المسلمين»، وسط حملة الرعب والدّهم والقتل والإعدام الميداني التي تعرّضوا لها مع أهلهم وأقاربهم، قاموا بدورهم بعمليات اغتيال أطباء ومهندسين ومحامين، إضافة إلى بعضٍ من كبار الموظفين، باعتبارهم من موالي السلطة. فالطبيب الحلبي الذي كان أخوال والدي النافذون قد استعانوا به لتطبيب والدي في مستشفى قطنا إثر إصابته على الجبهة السورية ـ الاسرائيلية في حرب تشرين ١٩٧٣، اغتاله «الإخوان» في حلب. وأبو محمود، وهو جار بيت عمة والدي الذي صرخ على أمي محذراً إياها من الاقتراب من الجريح في الحارة، دهمت وحدة من الجيش منزله واعتقلت ابنيه الشابين اللذين يدرسان الطب في الجامعة، لأنهما على صداقة مع طلبة من «الإخوان». والدي بدوره اعتقل في هذه

الحملة من المداهمات مع ابني أبو محمود. حين دخل الجنود إلى دار عمته، كان والدي نائماً، فأيقظه صراخ الضابط الذي أمر جنوده باعتقاله، فقال والدي إنه لا علاقة له بـ«الإخوان المسلمين» وإنه سكير، مشيراً بيده إلى زجاجات الويسكي والعرق المصفوفة على رف في الغرفة. لكن الضابط قال للجنود أن يعتقلوه ويأخذوا زجاجات الخمور.

أبو محمود، والد الشابين، وأخوال والدي النافذون، مكّنهم نفوذهم من إطلاق سراح الشابين ووالدي بعد مدة من اعتقالهم، فحمل أبو محمود ابنيه على الهجرة إلى فرنسا. هناك تابعا دراسة الطب، فتفوقا فيه، وصارا طبيبين مشهورين عالمياً، بعد قيامهما بأولى عمليات زرع الأوعية الدموية في العالم، من دون عودتهما قط، ولا في زيارة واحدة، إلى سورية. المقبرة الكبيرة قبالة دار عمة والدي في جورة الشياح، هدمت في آخر أيام الحرب بين الجيش ومسلحي «الإخوان المسلمين»، وشيّدت في مكانها مدرسة شرعية للتعليم الديني الرسمي. ابن عم والدي الذي كان من محازبي «الإخوان»، اعتقل في آخر أيام الاشتباكات في حمص، واختفى أثره من دون أي خبر عن مصيره منذ أواسط ثمانينيات القرن العشرين.

دار الحروب العائلية

كنت في السادسة من عمري عام ١٩٨٦، حين انتقلنا، أبي وأمي وأنا، للإقامة في غرفة من البناية أو الدار التي كان جدّي لوالدي قد شيّدها تدريجاً في أوقات متباعدة بين شبابه وكهولته، على قطعة أرض يملكها في منطقة على تخوم حارات حمص القديمة. في

السابق كانت المنطقة هذه زراعية، قبل أن تُسمّى الخالدية، نسبة إلى جامع خالد بن الوليد المشيّد على تخومها. من حارة الورشة انتقل جدّي وجدتي، للإقامة في البناية ــ الدار، وهي قيد الإنشاء المتدرّج. كان جدّي كلما شيّد غرفة جديدة يؤجّرها لساكنين كثيرين متعاقبين. أخيراً، في شيخوخته وبعد موت جدّتي، أخذ يخلي غرف بنايته ــ الدار، تباعاً، من المستأجرين، وأسكن فيها أولاده وزوجاتهم وأطفالهم، فجلب هؤلاء بعض أقاربهم وأسكنوهم معهم، وكنّا نحن، أمي وأبي وأنا، آخر الوافدين إلى برج بابل العمارة العشوائية والسكن العائلي الموسع. لكن صرح جدّي هذا، لم يكن إلا نموذجاً أو مثالاً للفوضى العمرانية والسكنية التي شهدتها منطقة الخالدية الناشئة على ذلك التخم الزراعي لحارات حمص القديمة. فجدّي وأمثاله وغيرهم من مشيدي البيوت وتجار البناء الجاهز ــ وهم في معظمهم من فئات عامية في ذوقها ومعاشها ــ مزجوا في البناء مزجاً بدائياً بين ما ظنوا أنه عمارة الدور في الحارات التقليدية القديمة، وما حسبوا أنه عمارة بنايات الاسمنت المحدثة، لكن الرخيصة والمشوّهة. ومع تكاثر البناء على هذا النحو، من دون خطة توجيهية لإدارة التنظيم المدني والعمراني، ومع اكتظاظ المباني بساكنيها من العائلات الموسعة التي تربطها القربى الدموية والمصاهرات، صارت الخالدية، في عمرانها واجتماعها ونمط حياتها اليومية، نسخة جديدة مشوّهة عن الحارات القديمة، لكنها تفوقها بأضعاف في اكتظاظها السكاني.

ما إن وصلت أمي إلى صرح جدّي هذا، ورأت جدرانه الخارجية عارية من الطين والطلاء، حتى التفتت إلى والدي وقالت له إنها لن تسكن في هذه الزريبة. وقفت بعيداً من سيارته المرسيدس البيضاء

التي أخذ يخرج منها بعض الأغراض، ثم رفعت صوتها المتأفف الحرون قائلة إنها ستذهب إلى بيروت ولن تعود، فرمى والدي ما كان يحمله، ثم ركض نحوها وجرّها من شعرها إلى داخل تلك الدار التي لا تزال حتى اليوم تقيم فيها ومعها أختي وأخي الأصغران اللذان أنجبتهما تباعاً في عامي ١٩٨٨ و١٩٩١. أما والدي فاستمر يعمل على سيارته ناقلاً الركاب ما بين حمص وبيروت، مستمراً في غياباته عن البيت، هارباً من نكد أمي وسخطها، ليمضي أياماً متتالية في بيروت مع صحبه من سائقي السيارات العمومية. وكلما عاد بعد هذه الغيابات تستقبله أمي بما خزّنته في نفسها من غضب، فينفجر بينهما الشجار الذي يبدأ بتشاتمهما قبل أن يتضاربا في حضورنا، نحن أولادهما، ولا ينتهي شجارهما إلا بعد بلوغ غضب أبي وضرباته العنيفة وصراخ أمي الأليم تلك الذروة المخيفة التي غالباً ما تؤدّي إلى أن يهرع للفصل بينهما في غرفتنا الحاضرون من سكان المنزل المشترك.

برج بابل العمارة العشوائية والسكن العائلي الموسّع، أو دار جدي في الخالدية، يرتفع مدخلها قليلاً عن الأرض المتربة. الدرجات الاسمنتية التي تصعد إلى مدخلها، عارية من البلاط، كالممر الاسمنتي الخانق الذي في جانب منه بئر تخلفت عن زمن الخالدية الزراعي، ويغطي فوهتها لوح مستدير من معدن الصاج الصدئ. قد يكون جدي ـــ وهو كان يعمل لزمن طويل نجار باطون، على ما يسمّى معلم العمار في لغة مهن البناء المتنوعة، وشيّد داره بنفسه في أوقات متقطعة متباعدة ـــ استعاض عن الفناء الداخلي المكشوف في دور الحارات التقليدية القديمة، بالممر، تاركاً فيه البئر نظير بركة الماء الصغيرة التي تتوسط الفناء المكشوف في دور العائلات

الميسورة. كانت في الممر أيضاً خزانات ماء معدنية رمادية أو رصاصية اللون، يرفع الماء إليها بدلو من البئر، وفي أسفلها حنفيات يتناول منها سكان الدار الماءَ للاستعمالات المنزلية: الغسيل والطبخ والجلي والشرب والاستحمام في حمام صغير، هو بيت الخلاء، أو «الأدب» في اللغة العامية المحكية في حمص. كان الحمام الذي يستعمله أهل الدار جميعاً، في آخر الممر، قريباً من البئر، وتتوسّط أرضيته الاسمنتية الخشنة جورة «بيت الخلاء»، وينقلُ إليه مستعملوه الماءَ في دلوٍ من البئر، وبابه الخشبي العتيق المتروك بلا طلاء، يقفل من الداخل بمسمار معكوف مثبت في عارضته الجانبية. في جدران الممر فتحات تصعد منها أدرا ج عارية من البلاط، غير متناسقة في توزعها وارتفاعاتها وعدد درجاتها، وعلى من يجتازها صاعداً أو نازلاً أن ينحني مطأطئاً رأسه في بعض أقسامها، لئلا يصطدم جبينه بسقفها. تفضي هذه الأدراج المتشعبة إلى غرف الدار الكثيرة، غير المتناسقة بدورها في مواقعها ومساحاتها وارتفاعات أرضها وسقوفها. الكلس الأبيض الذي يترك آثاره على أي موضع من جسم من يلمسه أو يستند إليه، هو طلاء الجدران الداخلية في الغرف كلها، أما من الخارج فإن جدران الدار كلها عارية من الطين والطلاء.

أبناء جدي وزوجاتهم وأولادهم وبعض أقاربهم، توزعوا السكن في غرف الدار هذه. أمي وأبي وأنا كان نصيبنا غرفة واطئة السقف، سمّتها أمي السقيفة، ما إن دخلت إليها ساخطة تتبادل الشتائم مع والدي الذي جرّها من شعرها من أمام مدخل الدار عبر الممر إلى هذه الغرفة. لم تتوقف المشاجرات والشتائم والتضارب بينهما طوال إقامتنا في هذه الدار. كانت شجاراتهما هي الأعنف والأكثر تكراراً من شجارات أعمامي وزوجاتهم وبين أولادهم الكثيرين، وبين

الزوجات في غياب الرجال الذين، بسبب تكايد نسائهم وشجارات أولادهم، كانوا يتشاجرون في ما بينهم بعد عودتهم إلى الدار مساءً من أعمالهم. إن هذا كله كان يجعل دار جدي داراً لحرب عائلية يومية شبه متصلة. لكن أمي كانت تجد بين وقت وآخر منفذاً من هذه الحرب بأن تهرب إلى بيروت وتصطحبني معها إلى بيت أمها، حيث كثيراً ما شهدت في طفولتي فصولاً من النقمة والتنابذ والمشاجرات بين جدتي وبناتها الصبايا في منزلهن، وغالباً ما كانت أمي تشارك في هذه الفصول، بعد أيام من وصولها من حمص.

يصعب عليّ تذكر عدد نزلاء دار جدي في الخالدية. فهم كانوا يتغيّرون ويتبدلون بين مدة وأخرى. يخلي واحد من أعمامي الستة وزوجته وأولاده غرفتهم في الدار، فيحل فيها عمّ آخر مع زوجته وأولاده. لا أعلم إن كانت قسوة حياتهم وشحّ مواردهم كعمّال بناء مياومين في أوقات متقطعة وفق الطلب، من بواعث سخطهم على الدهر والدنيا وأنفسهم، ونقمة زوجاتهم وفوضى حياتهم. السخط والنقمة كانا يلابسان أشكال التعبير والتواصل في ما بينهم، ومع زوجاتهم وأولادهم. اثنان أو ثلاثة من أعمامي كانوا يغيبون عن الدار مدة، فيشتغلون عمال بناء في لبنان ويعودون إلى حمص. أصغرهم سافر مرة للعمل في السعودية، فلم يمكث فيها سوى ٤٨ ساعة، عاد بعدها ليعمل سمساراً أو عاطلاً من العمل. والدي لم يتوقف عن العمل على سيارته في نقل الركاب وسلع تجارة التهريب بين حمص وبيروت، مبذراً الكثير من تحصيله الوفير من عمله في المقاييس السورية. أخيراً استجاب لإلحاح أمي، فشيّد على سطح الدار غرفة واسعة لسكنها بعدما أنجبت أختي وأخي الأصغرين، فانتقلنا من الغرفة الصغيرة أو السقيفة السفلى، إلى غرفة السطح

العالية الواسعة، من دون أن تتوقف بينهما الشجارات المعتادة، ولجوء والدتي إلى بيت أمها في بيروت.

أتذكر جدي في آخر أيامه، بعد وفاة جدتي، وحيداً في غرفته من دار الخالدية، أو في مطبخها المشترك، مستغلاً غياب زوجات أولاده عنه، ليطبخ ما يأكله وحيداً في تلك الغرفة، حيث كثيراً ما حدثني عن امرأة لبنانية تدّعى فضة أحبها أيام اشتغل مدة طويلة في شبابه عامل بناء في بلدة رياق البقاعية. كان ينشد لي أبياتاً من الشعر نظمها في حب فضة، بعدما ملك عليه حبّه القديم ذكرياتِه في الحقبة الأخيرة من انزوائه وحيداً في غرفته وسط الصخب والفوضى في داره. لولا شجاراته مع أهل فضة، لكان وصل إليها وتزوجها وعاش معها في رياق، وهجر زوجته، جدتي، التي تزوجها في الرابعة عشرة من عمرها، من دون أن يكترث بها وبأولادها في حمص، على ما روى لي مرة في غرفته، قبل تناوله مصحفاً كان يتركه إلى جانب فراشه، لينصرف إلى قراءة بعض آياته. فقبل انزوائه وحده في غرفته، أمضى أوقاتاً طويلة من نهاراته في مسجد خالد بن الوليد في الخالدية، حيث ختم القرآن على شيخ في المسجد أخذ يسمح له بأن يؤمّ المصلين في بعض الأيام.

صبي الأوتوكار وصفعات الضباط

أصرّت أمي على تعليمي في مدارس حمص الخاصة. كان إصرارها وليد نشأتها البيروتية ورغبتها الأليمة في الانتقام من بؤس حياتها الزوجية وقسوتها وعنفها، معتقدة بأن المدارس الخاصة تحول دون اختلاطي بأولاد الحارة وصبيتها في الخالدية، وتتكفل تنشئتي على صورة ومثال يخالفان نشأتهم. ففتيان الحارة لم يتلقَّ أيّ منهم

تعليمه في مدرسة خاصة، والمتعلمون منهم تعلموا في مدارس رسمية سرعان ما تركوها في نهاية المرحلة الابتدائية أو بعدها بقليل، وعملوا في مهن وأعمال يدوية مثل آبائهم وإخوتهم في الحارة أو سوق المدينة.

قبل أن يأتي أوتوكار مدرستي الخاصة إلى حارتنا، لأصعد إليه وحدي من صبيتها في الصباحات، ووحدي أعود به وأنزل منه قرب دار جدي في عصاري النهارات، كان صبية الحارة جميعهم، الذين في سني أو يكبرونني بسنوات، يعلمون أن اسمي محمد، وبه ينادونني، لكنني بعد أيام من ذهابي في الأوتوكار إلى مدرستي وإيابي به منها، سمعت أحد صبية الحارة يصرخ، فجأة: «ميشو الأوتوكار، ميشو، ميشو»، وهو يلتفت نحوي محدقاً في وجهي مقهقهاً. فكرت أنه يقصد بنتاً ما تدعى ميشو، يحادث صبياً آخر يقف إلى جانبه. كان الصبيّان أكبر مني سناً وأعرفهما، فعلّقت على وجهي تلك الابتسامة الخجولة الخائفة التي تعوّدت أن أبتسمها صامتاً، كلما سمعت بعض الصبية يتحادثون عن البنات، أو يتحرشون ببعضهن العابرات في الحارة. لكن أحد الصبيين اقترب مني وقال: «شلونِك ميشو، شلونِك ميشتي، شلونِك؟ لمين هالضحكة الحلوي، ميشو، لمين؟». ظللت واقفاً في مكاني لا أدري ماذا أقول وأفعل، فيما صرخ الصبي الآخر قائلاً: «تركها ولوه، تركها اليوم. خليها تروح بالأوتوكار، يسلم لي الأوتوكار». فجأة وصل الأوتوكار، وإذ هممت بالصعود إليه، سمعت الصبي الأول، الذي اقترب مني، يقول: «بكرا حطي كولونيا ميشو. أنا ناطرك هون بكرا الصبح بكير. بدي شم الكولونيا اللي بتجيبها أمِك من بيروت».

لم تمضِ أيام قليلة على حادثة الصبيين قبيل ركوبي الأوتوكار في ذلك الصباح، حتى أخذ كثيرون من صبية الحارة، أفراداً ومجموعات، ينادونني «ميشو»، كلما صادفني أي منهم في أي مكان. «ميشو، شلونِك ميشو، ميشتي دخيلِك، دخيلو الأوتوكار»، صاروا يصرخون كلما أبصروني. بلا هدف ولا غاية يصرخون مردّدين اسمي الأنثوي الجديد الذي أوحى لهم به تميّزي عنهم، فعدم مخالطتي إياهم، وذهابي في أوتوكار إلى مدرسة خاصة، حملاهم على معاملتي كأنني من بنات الحارة اللواتي لم تذهب أيّ منهن إلى مدرسة خاصة، وتعوّد صبية الحارات وفتيانها على إشباع جوعهم الحسي، النهم والمختنق، إلى مشاهدتهن ولمس أجسامهن، بالتلصّص عليهن من خلف نوافذ الدور، وردم الهوة بينهم وبينهن بكلمات يملأونها بتهاويم رغباتهم وأفعال متخيلة وحركات بذيئة يؤدّونها بأجسامهم وأعضائهم. هكذا أخذوا ينادونني باسمي الأنثوي الجديد، في نبرة أصواتهم الممطوطة الماجنة، فيما هم يهزون قبضات أيديهم هزّاً عنيفاً أمام صدورهم وبطونهم، أو يضعون أكفهم بين أفخاذهم ويحركونها، مثلما يفعلون حينما يتبادلون الأحاديث عن بنات الحارة. في الأوتوكار، طوال الطريق إلى مدرستي، راحت حركاتهم تتردد في مخيلتي، وأصواتهم في سمعي. وحين تأخذني غفوات قصيرة، صرت أفيق منها مذعوراً، كأن يداً تصفعني على وجهي. صفعات كتلك التي كانت أمي تهوي بها على وجه الصبي المخبول في دار عمة والدي العاقر في حارة جورة الشياح.

على هذه الحال أمضيت سنواتي المدرسية الابتدائية ما بين الخامسة والتاسعة من عمري (١٩٨٥ ـ ١٩٨٩). كي أتجنّبهم، بعد اشتداد

تحرّشهم الكلامي المقذع بي، نقلت مكان انتظاري أوتوكار المدرسة من أمام الدكان القريب من دار جدي، إلى طرف الحارة. لكنهم صاروا يتبعونني في الطريق وينادونني: «لوين رايحة ميشو، لوين؟ ما بدك تخلينا؟!». أحدهم أخذ يسمّيني «خرنتي»، فأضاف بعضهم حروفاً إلى هذه الكلمة، فصارت «خرنتعي» أو «خرنتيت» أو «خرنتيعة». ثم راحت كلماتهم هذه وغيرها الكثير، تلسعني لسعاً بارداً وقارساً في فخذيّ العاريتين، حين ألبس بنطلون شورت أصرّت أمي على إلباسي إياه كلما مال الطقس إلى الحرّ في أيامي المدرسية. وحدي من صبية الحارة لبست بنطلوناً قصيراً يكشف عن ساقيّ وجزء من فخذي، فألهب عريهما المخيلة الكلامية القذرة للصبية، ودفعهم إلى التحرّش الجسماني بي. اعترض مرة اثنان منهم طريقي الصباحية إلى طرف الحارة، وصرخ أحدهما: «يسلملي شورتِك وفخاذِك، ميشو، يسلمولي»، ثم اقترب مني ومدّ يده إلى فخذي العارية، وانحنى محاولاً تقبيلها، فرفسته بكل ما في رجلي من قوة على فمه، وركضت هارباً إلى دار جدي. على خلاف معظم أيام طفولتي، كان والدي في الدار ذلك الصباح. ما إن دخلت غرفتنا ولمحت أمي، حتى صرخت في وجهها بأنني لن ألبس الشورت بعد اليوم، ورحت أبكي وأصرخ، فأحضر صراخي والدي إلى الغرفة. حين علم ما بي وما حدث لي في الطريق، خرج مسرعاً من الدار. كان حافي القدمين، فتبعته أمي حاملة حذاءه، لكنه حين انتبه إليها خلفه، شتمها وشتم أمها والشورت الذي تلبسني إياه وبيروت التي فيها تعرّف إليها. لم يجد والدي صبية في الطريق، لكنني سمعت صراخه وشتائمه التي صبّها على الحارة وأهلها وأولادها، فيما أعطتني أمي بنطلوناً طويلاً وقالت لي أن ألبسه

بدل الشورت. حين عاد والدي إلى الغرفة، كنت قد ارتديت البنطلون الطويل، فجرّني من يدي إلى خارج الدار، فإذا أتوكار المدرسة ينتظرني قرب الدكان.

بعد عودتي من المدرسة إلى الدار عصر ذاك النهار، قال لي جدي إن والدي وأعمامي تعاركوا وتضاربوا مع رجال في الحارة، وإن والدي أنهى العراك مع الرجال بشجار مع أمي، فضربها وغادر الدار في سيارته، قبل أن تحمل أمي بعض ثيابها وتغادر إلى بيروت، فأيقنت أنها لن تعود إلى حمص إلا إذا ذهب والدي لإحضارها بعد أيام أو أسابيع. حين عاد إلى الدار بعد غيابه عنها يومين أو ثلاثة، علم والدي أنني لم أذهب إلى مدرستي، فأرسلني إلى بيروت مع سائق سيارة عمومية يعرفه ويثق به في حمص، وأوصاه أن يسلمني إلى أمي في بيت أمّها في حيّ اللجا.

في الطريق الطويلة من حمص إلى بيروت، أجلسني السائق وحدي إلى جانبه كما اوصاه والدي، فأخذتني غفوات طويلة، كنت أصحو منها على أحاديث الركاب عن الحرب في لبنان وعن عودة الجيش السوري إلى بيروت، وعن الطريق الجبلية الجديدة التي لا تنتهي منعطفاتها الحادة والمخيفة، وسلكناها على سفوح جبال وفي أودية سمعنا فيها أصداء انفجارات بعيدة. في وادٍ سحيق أوقف السائق سيارته، ظاناً أنه أضاع الطريق. حين مرت سيارة، سأل سائقها عن طريق تدعى «الكرامة»، فابتسم السائق فيما هو يقول متهكماً إننا في «طريق الكرامة والشعب العنيد»، وإننا سنصل إلى بيروت من طريق الأوزاعي، بعد حوالي نصف الساعة. العبارة التي قالها السائق قبل أن ينطلق في سيارته، ذكرتني بأن أمي تحب أغاني فيروز كلها، إلا

الأغنية التي تقول فيها: «لبنان الكرامة والشعب العنيد». لا أعلم لماذا كرِهتْ هذه الأغنية. ربما كانت تحبها، لكنها كرهتها بعدما أخذ أعمامي وزوجاتهم يسألونها ساخرين: «كيف حال الشعب العنيد؟»، كلما عادت إلى حمص التي تكون غادرتها إلى بيروت غاضبة ساخطة، بعد شجاراتها العنيفة مع والدي. والدي بدوره أخذ يقول لها: «سلميلي على الشعب العنيد»، فيما هي تغادر الدار عازمة على الذهاب إلى بيت أمها في بيروت.

وصل السائق عصراً إلى بيت جدتي لأمي في حي اللجا. لكنه وجد بابه مقفلاً، كأنما منذ مدة طويلة. امرأة من الجيران قالت إنها لا تعلم إلى أين غادر أهل البيت قبل أكثر من شهرين، ودلّت السائق إلى مقر للاستخبارات السورية في الحيّ، وقالت إن رجاله يعلمون إلى أين غادرت جدتي وأولادها، وأين يقيمون.

كعادتي في رحلاتي من حمص إلى بيروت، كانت المشاهد والأصوات والكلمات والحركات قد تبدلت إيحاءاتها في حواسي ومخيلتي، بعدما تجاوزت السيارة سهل البقاع وراحت تصعد في المنحنيات الجبلية. بعدما دخلت مع السائق إلى مقر الاستخبارات السورية، بدت لي السن الذهب نافرة وغريبة في فم ضابط الاستخبارات السوري، قبل أن يكلمنا بلهجته السورية في المقر الذي دخلت إليه مع السائق. في حمص لم تكن مثل هذه السن تبدو لي على هذه الصورة في أفواه بعض الرجال والنساء، وخصوصاً البدو الذين ينزلون في حارتنا. لكن حتى لهجة الضابط وقعت موقعاً غريباً في سمعي، وهو يكلم السائق عن بنات جدتي، خالاتي، قائلاً إنهن «حلوات ومزنطرات». هاتان الكلمتان أشعرتاني بلسعة برد مفاجئة،

كتلك التي كثيراً ما أشعرتني بها كلمات الصبية الذين تطاردني صرخاتهم البذيئة في الخالدية. قال الضابط إن جدتي وخالاتي يقمن في شقة صادرها لهن في بناية فخمة في شارع الحمراء، وذهب معنا في سيارة السائق ليدلنا إليها. في الطبقة السادسة من البناية فتحت لنا باب الشقة خالتي الوسطى، آمال، التي انتخبت، بعد مدة، ملكة للجمال في واحدة من مسابقاته البيروتية الكثيرة عام ١٩٩١، غداة توقف الحرب في لبنان. عانقتني حين أبصرتني، ففاحت رائحتها المثيرة في حواسي كلها، ولامس وجهي قماش فستانها البيتي الناعم. لكنها ما إن لمحت السائق والضابط يهمّان بالدخول من الباب، حتى دفعتني عنها جانباً وحدقت في عيني الضابط قائلة له إن أمها ليست في البيت. ابتسم لها الضابط، فبانت لي سنّه الذهب في مقدّم فمه الواسع، قبل أن يلتفت إلى السائق قائلاً له في نبرة آمرة أن يغادر، ويقول لوالدي في حمص إن «الأمانة وصلت إلى أمها في بيروت». حائراً متردّداً ظل السائق واقفاً في الرواق بعد خطوتين من العتبة، فنهره الضابط: «شو باك واقف متل الحيط ولاه؟... العمى... انقبر فل»، ثم صفعه صفعة قوية ارتج جسمه من وقعها المفاجئ على وجهه، وكادت تخرجه من الرواق، قبل أن يستدير ويخرج من الباب، فصرخ الضابط: «لوين ولاه، مين قلك تفل؟ تعا لهون تعا، كول قتلي»، منهياً صراخه هذا بقهقهة أتبعها بقوله: «ليك ولاه... بلاها هلق... روح انقبر فل... حاضرك ناس أوادم، الله نجاك». من مكاني في الرواق سمعت وقع خطوات السائق مسرعة في الممر وعلى درج البناية التي كنا صعدنا بالمصعد إلى طبقتها السادسة، قبل لحظات. لم يقل السائق كلمة واحدة بعد تلك الصفعة الصاعقة التي سمعت في وقعها على وجهه أصداء لا تُحصى لصفعات مثلها في

حكايات وأخبار يتداولها في حمص رجال من أصدقاء والدي ومعارفه، مقهقهين قهقهات قال لي والدي مرة، في واحدة من سهرات شربه الويسكي وحيداً على سطح دار جدي في الخالدية، إنها «ملح الرجال في سورية». لكنني في رواق بيت جدتي الجديد في بيروت، تخيّلت السائق الذي أتى بي من حمص، يشتم أمي ووالدي ويشتمني ويضرب الجدار بقبضته، فيما هو يهبط درج البناية مسرعاً يتآكله الغضب والذل والنقمة التي ستتحول قهقهات أو «ملح الرجال» أثناء روايته الحادثة لوالدي على قنينة ويسكي هرّبها من بيروت. «وين أهل الدار؟ ما في حدا هووون.... وين أهل الدار؟!»، سمعت ضابط السن الذهب ينادي، فيما هو يتجاوزنا، خالتي وأنا، في الرواق، ويدخل إلى الصالون، ويجلس على مقعد، كأنه في بيته. «ما في دار هون، ولا أهل دار، أمي منّا هون»، جاوبته خالتي آمال بلهجتها اللبنانية التي أزاحت، فجأة، عن حواسي وجسمي ووجودي كله ذلك التعب الرصاصي الثقيل، ونقلتني في لحظة واحدة إلى عالم جديد يكتنفه صوتها المائي الشفاف. كرائحتها حين عانقتني، أثارتني لهجتها، وأثارني صوتها، برغم أنها أدخلت جفافاً أو جفاءً حانقاً إلى شفافيته الندية التي تحسّستها في يدي حين أمسكتها وجرّتني من الرواق إلى الصالون الفسيح الذي من باب جانبي فيه أطلت جدتي مفاجأة بي وبالضابط. «أهلا مدام منيرة، كيفك مدام؟»، قال الضابط في صوت ولهجة ونبرة غير تلك التي سمعتها منه قبل هنيهات. «أهلا حمودي، حبيبي»، قالت جدتي، ثم سألتني: «مين جابك؟»، فقال لها الضابط إن والدي أرسلني مع سائق سيارة من حمص، فاكتفت بهذا الجواب، ونادت على أصغر بناتها، خالتي هيفاء، أن تضع ركوة القهوة على النار في المطبخ.

«أين أمي؟»، سألت خالتي آمال، بعدما جرتني من الصالون إلى ممر طويل في آخره غرفة نوم، فلم تجاوبني، وراحت، في صوت أخرجته مختنقاً حانقاً من بين صرير أسنانها البيضاء، تشتم أمها والله والضابط وبلده، فيما هي تسألني بين شتيمة وأخرى، أين التقينا به؟ حين جاوبتها، صبّت شتائمها على حيّ اللجا وبيروت وحمص ووالدي، ومجدداً على أمها، قبل أن تقول إن أمي ذهبت إلى السوق، وإنها ستأخذني إلى البحر.

صالون لضباط الاستخبارات

في إطلالاتي الأولى عليه، فتنني مشهد البحر في بيروت وأخافني ذلك الخوف الغامض والبعيد، وأنا أقترب من شاطئ الرملة البيضاء، يدي في يد خالتي آمال التي من يدها تذوّقت أول كوب من «الشوكولا شو» اشترته لي من مقهى سيّار في سيارة فان واقفة قرب الرصيف البحري. كان الوقت نهاراً، لكن مشاهد رصيف بحر بيروت في ذاكرة الطفل الذي كنته، ليلية كلها، صفراء ومترجرجة، كأنها صور على شاشة بعيدة مغبّشة. مشاة قليلون يتحركون في الغبش الضوئي الأصفر المائل إلى البرتقالي، ويبتعدون كظلال تتلاشى قرب صف الفانات البرتقالية والصفراء.

فجأة، بعد رشفتين أو ثلاث من الشوكولا الساخنة، اندفع القيء من فمي وأخذني الدوار، فوقع الكوب البلاستيكي من يدي مع اندفاع موجة ثانية من القيء إلى بلعومي. رمت خالتي كوب القهوة الصغير من يدها إلى البحر، وقربتني من السياج الحديد، وقالت لي أن أتنشق الهواء عميقاً. حتى اليوم لا أزال أشعر بأنني أتنشّق ذلك الهواء البحري الرطب، كلما وصلت إلى شاطئ الرملة البيضاء،

مخموراً بعد سهراتي البيروتية حتى ساعات متأخرة من الليل، فتندفع في ذاكرتي صور ومشاهد من طفولتي وصباي وفتوتي في حمص، ويعاودني ذلك الخوف الطفلي الغامض من البحر، برغم إلفتي بيروت وبحرها الذي أعشقه بمزيج من اللوعة المُرَاهِقة والمحرّمة المستمدة من عشقي خالتي آمال. كلما اقتربت من شاطئ الرملة البيضاء تدهمني، فجأة، رائحة قيء، أزيلها من أنفي بإشعال سيجارة أعبّ عميقاً دخانها الساخن وأنفثه، محاولاً أن أستبعد من ذاكرتي صورة متكررة لذلك الخبر القديم الذي سمعته كثيراً في طفولتي: امرأة شقراء شوهدت تخرج من السفارة العراقية في بيروت، حاملة بيدها (كروزاً) من التبغ، قبل لحظات من انفجار مبنى السفارة. المرأة الشقراء هذه هي جدتي لأمي، على ما سمعت خالاتي، بناتها، يتراوين في جلساتهن الخاصة المستريبة، في بيتنا في حمص، وفي بيوت أمهن في بيروت، أثناء سجنها سنوات في وزارة الدفاع اللبنانية. لا أعلم لماذا يُهيّأ لي أن خالي حسام وخالتي هند تطوّعا في سلك الدفاع المدني بعد دخول أمهم السجن، كأنما تكفيراً عن شعورهما الدفين بالذنب حيال ما يعتقدان مع إخوتهما وأخواتهما جميعاً، أن أمّهن فعلته بمشاركتها في تفجير السفارة العراقية. ففي الحكايات القاسية والمروّعة التي سمعتها منهما عن مشاركتهما في عملية إسعاف الجرحى ونقل جثث القتلى أثناء حرب بيروت النصف الثاني من ثمانينيات القرن العشرين، كنت أتخيّلهما ينقلان جرحى تفجير السفارة وجثث قتلاه الممزقة والمبعثرة قطعها قرب ركام المبنى. كأنهما بحميّة صوفية اندفعا إلى عملهما هذا، ممتلئين بالكراهية العائلية لأمهم التي، ما إن خرجت من السجن مع عودة الجيش السوري إلى بيروت عام ١٩٨٧، حتى استأنفت صلاتها

وعلاقاتها بضباط الاستخبارات السورية الذين راحوا يتوافدون يومياً إلى البيوت التي صادروها أو احتلوها وأسكنوها فيها.

بعد رحلتي الطويلة الشاقة من حمص إلى بيروت طفولتي، وذهابي مع خالتي آمال إلى البحر، وعودتنا مساءً إلى بيت جدتي في شارع الحمراء، كانوا كثيرين في الصالون: جدتي وأمي واثنان من أخوالي وخالتاي هند وهيفاء، ورجلان لم أرهما من قبل. حتى اليوم يحضرني أحياناً في لحظات مفاجئة متباعدة ولسبب أجهله، وجه أحدهما بلونه القصديري على ضوء الشموع الكثيرة الموزعة في الصالون عندما دخلت إليه خلف خالتي آمال. كانت الكهرباء مقطوعة في البناية والحيّ وفي معظم الشوارع التي مررنا فيها راكبين سيارة سرفيس. فصور بيروت الليلية في ذكريات طفولتي وصباي، شحيحة الإنارة، شبحية، والبشر فيها يعيشون تحت سماء واطئة غير مرئية، كأنهم في هوة كبيرة يملأها هدير المولدات. فيما كنا نصعد درج البناية المظلم لنصل إلى بيت جدتي في الطبقة السادسة، كنت أشعر بأنني أنزل عميقاً في الهوة، فعبقت رائحة دخان التبغ في أنفي وعاودني الغثيان، ما أن دخلنا إلى الصالون.

شو، عاملين محششة؟! قالت آمال. على شرفك يا ست الكل، جاوبها الرجل ذو الوجه القصديري البشع في ضوء الشموع. التفتت إلى أمها القاعدة منفردة وفي ثيابها الرياضية على كنبة، وسألتها: مبيّن عندك وجوه جديدة الليلي، مدام منيرة؟! كنت ولا أزال أعشق نبرة صوتها التهكمية اللئيمة تلك التي تشع مثل الثلج في الضوء مع أسنانها في ذاكرتي. برضو على شرفك يا ستنا، قالت جدتي في لؤمها المطمئن المعتاد، فقام الرجل الغريب الآخر من مكانه على المقعد، وفي حركة استعراضية متباطئة وضع بين شفتيه سيجارة

وأشعلها مقترباً من آمال، ومقدّماً لها السيجارة قائلاً: أعصابك ست آمال، أعصابك، روقي. مين هيدا؟! منين بيعرف اسمي؟! جاوبت آمال من دون أن تنظر إليه ومستمرة في التفاتتها إلى أمها التي قالت إنه العقيد فراس، مردّدة اسمه ورتبته مرتين أو ثلاثاً.

رحت أحدّق إلى العقيد في ثيابه المدنية ووجهه الأشقر مثل شعره، وهو يتراجع نحو المقعد، نافثاً الدخان من فمه وفتحتي أنفه في الضوء الشحيح قبل أن يجلس في مكانه. فجأة أنارت المصابيح الكهربائية الصالون، فعلا الصراخ والصفير والتصفيق في نواحي الشارع، ورفع العقيد يديه إلى أعلى، فقالت آمال: شو عقيد بالمصارعة أو بالملاكمة؟ فيما كان قميصه الزهري يتلامع في الإضاءة الباهرة، ويظهر طرف مسدسه على خصره، قبل أن يتحسّسه بيده قائلاً بلهجة سورية بالغ في مطّ حروفها: عقيد باب السباع من حمص لبيروت... باب السباع. في هذه اللحظة، تلاشى شيئاً فشيئاً هدير المولدات الكهربائية، فركضت أمي نحوي وعانقتني وراحت تقبّلني مردّدة: العمى بعيوني، كيف ما شفتك، العمى بعيوني! ثم سمعتُ خالتي آمال تدعو الله متمنية أن يعمي عيونها كي لا ترى أحداً بعد اليوم في هذا الصالون. وحين توقفت أمي عن عناقي وتقبيلي، التفتُّ لأرى آمال، فإذا بها تسرع في الدخول إلى ممر جانبي يؤدي إلى الغرف الداخلية. كنت أرغب في أن أتبعها، لكن أمي ظلت ممسكة يديّ، لتجلسني إلى جانبها على المقعد. ما إن جلسنا حتى انقطع التيار الكهربائي مجدداً. كانت الشموع لا تزال مشتعلة، فراحت ترسل أضواءها الشبحية في أرجاء الصالون، وعلت صيحات الاستياء متطاولة متباعدة في الشارع.

في ليلة أخرى من لياليّ تلك في بيروت، ربما بعد ثلاثة أشهر أو

خمسة، كنت جالساً بينهن على شرفة الصالون: جدّتي وأمي وخالاتي، وآمال متهيّئة للخروج في فستان السهرة الذي لا يزال ملمس قماشة النيء يلهب يديّ ووجهي وروحي، كبرد الثلج على الجبل في نهار صيفي. وحدي في العتمة الليلية الخفيفة على الشرفة، تخيّلت أني أبصر بريق ما ينحسر عنه ذلك الفستان الأسود من فخذي آمال في الكولون الذي يشف سواده الرقيق عن بشرة ينبعث منها نور قمري أشربه بعينيَّ من عنقها وكتفيها العاريتين، فيما هي تتنقل بين الصالون والشرفة. تسألها جدتي بصوتها اللئيم: شو، بأي بار بدك تسهري الليلي، ومع أي لبناني عكروت؟! مش سامعا القصف نازل ع الأشرفية وعَ جبل لبنان؟! مبسوطة بكلابك اللي عم يقصفوا، ما هيك؟ صرخت خالتي آمال، ودخلت مسرعة إلى الصالون. فجأة وسط شتائمهن المتبادلة مع أمهن صدحت من آلة التسجيل في الصالون أغنية: رح نبقى هون/ مهما العالم قالوا/ ما منترك عون/ وما منرضى بدالو. هبّت جدتي واقفة عن كرسيها بينهن على الشرفة، صارخة: وين نايكن عون، وين، يا شراميط؟! مش أحسن من كلاب مخابراتك اللي فاتحتيلهن كرخاني ببيتك يا مدام منيرة؟! صرخت خالتي هند وسبقت أمها في الدخول إلى الصالون، قافزة إلى كنبة، فنزعت عن الجدار فوقها صورة مؤطرة مزجّجة لحافظ الأسد، ثم قذفتها إلى الأرض، صارخة: خنازير، خنازير. انبعث عن ارتطام الصورة وتناثر شظايا زجاجها دويّ أسكتهن جميعاً عن الصراخ والشتائم، بينما ظلت الأغنية تصدح من آلة التسجيل. هجمت جدتي على المسجلة، ورفعتها عالياً عن الطاولة في زاوية الصالون، ثم قذفتها أرضاً، فتلت هنيهة الصمت الخاطفة صرخات متتالية أقرب إلى عويل أطلقته جدتي مع شعشعة

نور المصابيح الكهربائية، فجأة، في أرجاء الصالون، فإذا بدم ينزف من قدميها ويلطخ البلاط. قبل أن تولول هلعة وتصرخ: خذوني إلى المستشفى... خذوني، دوّى انفجار قذيفة بعيد. في البهو الصغير خلف الباب ربطت أمي وآمال ساقي جدتي بمنديلين، وحملتاها إلى المصعد، فبقيتُ مع خالتي الصغرى هيفاء وحدنا في البيت.

كنستْ هيفاء شظايا الزجاج من أرض الصالون، ومسحت بقع دم أمها عن البلاط بصورة حافظ الأسد، ثمّ رمتها، مع الشظايا، في سلة المهملات. من غرفة النوم جلبت آلة تسجيل وشغلتها، فصدحت لجورج وسوف تلك الأغنية التي، كإيقاع خلفي، تخالط ذكريات طفولتي في بيروت وفي بيت جدتي. كنت أتخيّل خالتي آمال ترقص على ايقاع هذه الاغنية التي يقول مطلعها «الهوا سلطان، الهوا سلطان». في مراهقتي كنت أتخيّل آمال ترقص في مرابع بيروت الليلية، كما رأيتها ترقص مرة أمام المرآة في غرفتها، قبل خروجها إلى إحدى سهراتها تلك، بعد شجارها وتشاتمها مع جدتي.

الجمال والإثم

حتى الآن أحاول، مع كاتب هذه المقتطفات من سيرتي، أن أفهم طبيعة علاقة جدتي ببناتها وشجاراتها العنيفة والمتصلة معهن حتى اليوم. بلغت هذه الشجارات ذروتها في الحقبة الأخيرة من حروب لبنان أواخر ثمانينيات القرن العشرين، في الجولة الطويلة التي سُمّيت «حرب التحرير» ما بين الجيش السوري والجيش اللبناني بقيادة ميشال عون. خالاتي وأخوالي ولدوا جميعاً وتربّوا في بيروت، وذاكرتهم وقيمهم بيروتية، ونشأوا وشبّوا على كراهية بيروتية حائرة

وملتبسة ومكتومة لـ«سورية الأسد» وجيشها واستخباراتها. وهي كراهية هاجعة وملجومة وتتغذى من نفور بيروتي إسلامي وعروبي متوارث من الدولة اللبنانية وجيشها، ومن عداء مستجد لميليشيا «القوات اللبنانية» المسيحية في زمن الحرب. وتخالط الكراهية والعداء هذين مشاعر تضامن وولاء إسلامية وعروبية موروثة حيال الفلسطينيين وميليشياتهم المسلحة، للاحتماء والاستقواء بها ضد الميليشيات المسيحية في معمعة الحروب المتناسلة. لكن غزو الجيش الإسرائيلي لبنان صيف ١٩٨٢، واقتلاعه المسلحين الفلسطينيين من بيروت، ترك أهلها نهباً لشعور بالعراء واليتم والخوف طوال عهد الرئيس أمين الجميّل (١٩٨٢ ــ ١٩٨٨)، فيما احتربت الميليشيات الشيعية والدرزية الأسدية الإمرة والولاء، للسيطرة على «مدينتهم» بيروت.

في معمعة هذه المشاعر والنعرات شبّ أخوالي وخالاتي وعاشت جدتي التي أقامت مع ضباط الاستخبارات السورية علاقات مريبة يختلط الأمني فيها بغوايات الجنس.

دائماً أحدس أن جمال خالتي آمال، وعشقي إياها ذلك العشق المراهق والملتهب، مصدرهما العميق والبعيد هو ما تحمل عليه الإقامة والعيش في بيروت من خفة وتحرّر وانطلاق. وهذه صنيعة نمط حياة لبنانية، تتيح للأشخاص بهذه الدرجة أو تلك، أن يمتلكوا أمزجة وأهواءً يمكنهم مباشرتها واختبارها على مسارح الحياة الاجتماعية. ومن بين خالاتي، آمال هي التي امتلكت أكثر من أخواتها مثل المزاج والهوى هذين، وباشرت اختبارهما في حياتها وعلاقاتها، وضد أمها التي استقوت بشبكة علاقاتها مع ضباط

الاستخبارات. جدّتي «تلبننت» أيضاً، لكن على مثال ما استباحت «سورية الأسد» لبنان وجعلته مسرحاً لتسلطها وآثامها التي نفرت منها آمال وأخواتها نفورهن من أمّهن. غير أن نفور آمال هذا ينطوي على تمرّد هو صنيعة جمالها جمالاً حراً، سافراً ومنطلقاً وغير خائف من سفوره، وتداخله طاقة وإرادة شخصيتان، يمتزج فيهما الواقع بالخيال. الجمال السافر والحر الذي عشقته في آمال قد تكون جدتي تمتلك منه ذلك الجمال البيولوجي أو الطبيعي الذي عشقه فيها رجل الأسفار والموانئ البحرية البيروتي، حينما كانت صبية بعد، والتقاها في اللاذقية، فتزوّجها وجلبها إلى بيروت. وبرغم تقدّمها في السن، بقيت ملامح ذلك الجمال حاضرة في وجهها وجسمها، لكنها لم تضفْ إليه من نفسها سوى طلائه بالمساحيق التي وفرتها لها إقامتها في بيروت، فأخرجته إخراجاً سوقياً، على مثال ما لابست التحوّلات الاجتماعية السلطوية صعود جماعتها الأهلية، صعوداً عشائرياً مافيوياً، إلى سدة الحكم والسلطة في «سورية البعث» التي سمّاها الجهاز الإعلامي لعرّاب المافيا الأمنية، «سورية الأسد». أما نجل هذا العرّاب ووارثه الشاب، فأضاف إلى المافيا الأمنية والعسكرية التي أنشأها والده، مافيا جديدة للنهب الاقتصادي والمالي.

تصدر جدتي عن عائلية معروفة ونافذة ومن مشايخ العلويين في جبلهم خلف الساحل السوري. كان والدها شخصية تقليدية محترمة في وسطه العائلي والأهلي، قبل استيلاء حافظ الأسد على السلطة، فقرّب الأسدُ من رهطه إخوتها الذين أضافوا إلى أملاكهم العائلية المتوارثة نفوذاً وظفوه في جمع الخوّات والإتاوات لقاء تقديمهم خدمات للأهالي وشراء ولائهم الطائفي لنظام الأسد

وعشيرته. فأحد أشقاء جدتي صار سفيراً لسورية في دولة عربية، ثم أستاذاً في إحدى الجامعات السورية. شقيقها الآخر الذي يقال إنه كان محازباً سوريةً قومياً اجتماعياً، صار رجل أعمال وفتح معهداً خاصاً للتعليم. أصغر أشقائها ضابط برتبة عالية في الجيش. أما كبيرهم فكان أحد كبار ضباط الأمن المقربين من باسل الأسد. كنت طفلاً حين اصطحبتني جدتي إلى منزل هذا الضابط في مناسبة عزاء عائلية في اللاذقية. هالني هناك مشهد الرجال المتدفقين في حشد يشبه طابوراً عسكرياً يدخل إلى صالون بيته لمصافحته. كان جالساً بمفرده في صدر الصالون، فأخذ الرجال الداخلون يجلسون تباعاً إلى جانبه، وراحوا يطلبون منه خدمات في إدارات الدولة. ابنه الذي كان يدرس الطب، دخل إلى الصالون حاملاً حذاء والده، فقدّمه له، وانحنى إلى يده وقبّلها.

حرم هؤلاء الرجال النافذون شقيقاتهم من حصصهن من إرث والدهم، فبقين فقيرات معوزات بعد زواجهن. لكن الإقامة الطويلة لجدتي في بيروت، وتطبّعها بشيء من حرية اللبنانيين، حملاها على المطالبة بحقوقها من إخوتها، فهدّدتهم برفع دعاوى قضائية ضدهم، للحصول على حصتها من ميراث والدها. ومن حكايات أمي عن عائلة أمها في سورية، استنتجت، لاحقاً، أن التنابذ والأحقاد متفشية بين رجال العائلة الموسعة التي تظل متماسكة حيال الخارج الاجتماعي والأهلي. يحملني استنتاجي هذا على القول إن جدتي نموذج نسائي من صنائع مجتمع نظام الأسد في لبنان، حيث أخذ ضباط ذلك النظام يترددون إلى بيوتها التي صادروها لها في بيروت، وحاولوا اتخاذ بناتها عشيقات أو محظيات، وإدخالهن في متاهة أمهن.

لكن جدتي، والحق يقال، مانعت بقوة تورّط بناتها في تلك المتاهة، ربما تكفيراً منها عن تلك الفعلة المروّعة التي أدّت إلى مقتل ابنها في بيتها في الطريق الجديدة مطالع الحرب في لبنان. فبعد سنوات، حين حاول ضابط الاستخبارات ذو القميص الزهري استمالة ابنتها هدى وكادت أن تستجيب له، في بيت أمها المصادر في الحمرا، سرعان ما بادرت الأم إلى الحؤول دون تورّط ابنتها مع الضابط، وسعت إلى تزويجها بدركي لبناني كان يعرفه ابنها، ويتردّد إلى بيتها ومعجباً بابنتها هدى. كان هذا الدركي بعلبكياً، وكثيراً ما شاهدته جالساً في صالون بيت الحمرا، مرتدياً الزيّ العسكري، وبندقيته الـ M16 مسندة إلى جدار في زاوية الصالون. استجابت هدى للزواج بالدركي، هرباً وخلاصاً من أمها ومن الإقامة في بيتها. الأم بدورها لم ترضَ بهذا الزواج، إلا لتجنيب ابنتها الوقوع في غواية ضابط الاستخبارات السوري. لكن حياة هدى الزوجية سرعان ما تحوّلت جحيماً لا يطاق في كنف زوجها وعائلته البعلبكية العشائرية، إذ تكشّف الدركي عن مروّج مخدرات ومدمنها. لتخلّص ابنتها من هذا الجحيم، ذهبت جدتي إلى بعلبك، حاملة بندقية كلاشنيكوف على رأس مجموعة مسلحة من رجال الاستخبارات السوريين، واستطاعت أن تخرج ابنتها الحامل من بيت أهل زوجها بالقوة، وتعود بها إلى بيتها في بيروت. وبعد أيام تمكنت من استصدار وثيقة طلاق هدى من المحكمة الشرعية، وأرسلتها إلى زوجها في بعلبك، حيث أرغمه رجال الاستخبارات على توقيع الوثيقة التي تفيد بأنه يتخلى عن حضانة ابنه الذي كان لا يزال جنيناً في رحم أمه. ولد هذا الجنين ونشأ في بيوت جدتي وحضانتها، بلا أب ولأم أهملته وكرهته كثمرة لزواج كريه ومرير،

لم يستمر أكثر من أشهر قليلة. مشاهد ذلك الطفل، ابن خالتي هدى، وهو يحبو في صالون بيت جدتي في الحمرا، لا تزال قوية الحضور في ذاكرتي. كان يحبو إلى الشرفة ويروح يحشو التراب من أصص الزهور، فتنتبه له جدتي، وتطلق سيلاً من شتائمها على أمه المهملة. وحين تقدّر جدتي أن الطفل حثا كمية وفيرة من التراب، كانت تحمله وتركض به إلى الطوارئ في أقرب مستشفى. قبل بلوغه السنة الثانية من عمره، كانت أمه قد غادرت بيت جدتي، هاربة مع رجل استخبارات سوري. لكنها بعد مدة عادت إلى بيت أمها وتزوّجت ثانية برجل بيروتي، ثم ثالثة برجل شيعي. هذا الأخير عاشت معه حتى نشوب الشقاق الأهلي ما بين السنة والشيعة في بيروت بعد اغتيال رفيق الحريري، فاندلعت المشاجرات بين الزوجين، ما أدّى إلى طلاق خالتي وعودتها للإقامة في بيت أمها التي كانت قد أرغمت، غداة جلاء الجيش السوري واستخباراته عن لبنان، على العودة صاغرة مع بناتها وأحفادها، للإقامة في بيتها القديم في الطريق الجديدة.

مثل خالي الصغير الذي وضعته جدتي في سجن وزارة الدفاع، وعاش فتوته مع فتيان الشوارع في الطريق الجديدة، نشأ ابن خالتي هدى، الذي كان يحشو التراب في طفولته، وتفوّق على خاله وليد السجن، في بأسه وضراوة مشاجراته في الحيّ، من دون أن يتورّع عن صفع أمه وسط الشارع، كلما هرعت إليه محاولة ثنيه عن صحبة فتيان الشوارع.

دائماً أشعر بأن أحفاد جدتي من بناتها، ولدوا منها هي، لا من أمهاتهم. هي أيضاً يراودها عميقاً هذا الشعور حيالهم، على خلاف

شعورها حيال أحفادها من أبنائها الذكور، أولئك الذين ولدوا من نساء غريبات، ولا يهمّها أمرهم ونادراً ما تراهم كأن بناتها وأبناءهن الذكور، هم وحدهم أبناؤها. فأرحام النساء، رحمها وأرحام بناتها، هي نواة المافيا العائلية النسائية التي أرادت جدتي أن تشغل دور عرابها، ومحور نسيجها الموصول بأهلها ورهطهم هناك في ديار أهلها وعشيرتها. وما ضباط الاستخبارات الذين تستضيفهم في بيوتها المصادرة في بيروت، إلا خيوط في هذا النسيج الذي تجرأت بناتها، وخصوصاً آمال، على تمزيقه والتمرد عليه. لذا نشبت بين جدتي وبناتها تلك الحرب التي نجا أو فرَّ منها باكراً أولادها الذكور. لكن هؤلاء كان قد نالهم في طفولتهم وفتوتهم قسط وافر من سخط أمهم وغضبها وعنفها الأمومي. كانت تحمّي أسياخ شواء اللحم وتكوي بها أجسامهم قصاصاً لهم وتأديباً. أما بناتها فاستعملت أنابيب الكاوتشوك لضربهن في صغرهن. وهذا ما فعلته أمي كلما أرادت تأديبنا، أنا وأختي وأخي، حينما كنا أطفالاً في حمص. كانت جدتي الرحم الأولى لذلك المزيج من الغضب الأمومي والعنف والتضامن الأسريين اللذين ينفجران حباً وتنابذاً، وقسوة يشوبها حنان أخرس وأليم.

عرين الأسد في بيروت

قبل انتقالها إلى البيوت الثلاثة التي صادرها ضباط الاستخبارات في حي اللجا على طرف منطقة مار الياس وفي شارع الحمرا، وأسكنوها، تباعاً، فيها، كانت لجدتي حظوة ما بين أهالي الحي في محيط بيتها البيروتي الأول القديم، غير المصادر، في محلة الطريق الجديدة. حظوتها تلك كانت مستمدة من لجوء بعض الأهالي

إليها، للاستقواء بنفوذها لدى عناصر مقر الاستخبارات السورية في الحيّ. هؤلاء كانوا يتوسلون أتفه شؤون الأهالي ومنازعاتهم، للتسلط عليهم واستمالة بعضهم، وتأديب هذا أو ذاك منهم، ركلاً وصفعاً في المقر. هذا يجدّد الشقاق ويقوّي الأحقاد بينهم، وكذلك المشاجرات ما بين زمر فتيان الشوارع وشبانها الأشقياء. بعض من هذه الزمر ومن رجال محليين راغبين في النفوذ في شبكات العلاقات الأهلية وهيئاتها المحلية، يصيرون من زبانية مقر الاستخبارات، ويستقوون به على غيرهم وأمثالهم، لقاء تقديمهم خدمات وولاءات «أمنية» لعناصر المقر. من هذه الخدمات استعمال الاستخبارات السورية زبانيتها في الأحياء أرصاداً على ولاءات الأهالي للميليشيات والزعامات المحلية، أو للقيام، في مناسبات «سياسية»، بعراضات تظهر ولاء الشارع البيروتي لـ«سورية الأسد» و«لوحدة المسار والمصير» ما بين سورية ولبنان «إلى الأبد». هذا كله كان يفاقم الشقاق والنعرات بين الأهالي، ويُفرح جدتي كأنها في عرس، حينما تستقبل في بيتها هذا أو ذاك من طالبي خدماتها من أهالي الحي، ولا أحد سواها يعلم إن كانت تحصل على مبالغ مالية لقاء هذه الخدمات.

بعد معرفتي اللاحقة والحميمة بها وبشخصيتها وسلوكها ــ وكنت قد كبرت وصرت شاباً وحاولت إقناعها بأن تروي لي بعضاً من سيرة حياتها كي أستوحي منها كتابة تحقيق صحافي ــ أيقنت بأنها لا تفعل أي شيء من دون مقابل. حين وافقت على طلبي، شرط أن أدفع لها مبلغاً مالياً، قالت إنها في صباها كانت تشبه المطربة صباح، وأرتني صورة قديمة لها بالأسود والأبيض، تعود إلى فتوتها في اللاذقية أواخر خمسينيات القرن العشرين. حدقت طويلاً في

الصورة، وقلت لها: بعدك حلوي كتير كتير، يا ستي. كانت حقاً لا تزال على شيء من الجمال، لكن قناع المساحيق الفاقعة على وجهها، أبداها على خلاف جمالها القديم في الصورة القديمة. كنت موقناً بأنها لن تروي من وقائع حياتها وحوادثها، سوى تلك التي تظهرها معذبة مظلومة. هي كانت كذلك حقاً في وجه من الوجوه، كما أنني كنت مدركاً أنها، تكفيراً عن آثامها، أخذت تصلي، منذ عودتها الأخيرة إلى بيتها القديم في الطريق الجديدة، عقب جلاء الجيش السوري واستخباراته عن لبنان في عام ٢٠٠٥. كأنها بصلواتها أخذت تطرد أشباح تلك الآثام. وحفاظاً منها على صحّتها وجمالها، غالباً ما تنام باكراً، وتستيقظ في حوالى الخامسة فجراً، فتستحم وترتدي سترة وبنطلوناً رياضيين، وتجلس لتناول كوب من الحليب وتفاحة أو اثنتين، فطوراً صباحياً. لا تتناول القهوة والشاي أبداً، ولا تدخن. صلاتها الصباحية تستغرق زهاء الساعة، وغالباً ما تروح تتلو بصوت جهوري آيات قرآنية، قبل شروعها في أدعية وتضرعات إلى الله كي يوفّق أولادها وأحفادها الذين تسمّي بعضهم بأسمائهم. في ختام الطقس الصباحي هذا تطلب الصفح والغفران لنفسها، من دون أن يخلو الأمر من أدعية وتضرّعات أخرى معاكسة تطلب فيها إنزال العقاب الإلهي بأشخاص تسمّيهم، منهم ابنتها آمال، كأن تتمنّى من الله أن يصلها خبر سقوطها مع سيارتها في وادٍ في الجبل.

كانت آمال قد انتخبت قبل سنوات ملكة في إحدى مباريات الجمال البيروتية، الكثيرة عقب الحرب. ثم بدأت تعمل موظفة تسويق في شركة عقارية، واشترت بالتقسيط سيارة جديدة. لكنّ أمها رأت في هذا كله حلقات متتالية من تمرّد ابنتها وانتصاراتها عليها. لذا أكثرت

جدتي من تعليق صور حافظ الأسد وولديه، باسل وبشار، على جدران الصالون. كأنها في تكثيرها صورهم على الجدران، كانت تستنجد بهم في معاركها مع بناتها، وتعوّض خسارتها حضور ضباط الاستخبارات الذين غادروا إلى ديارهم «ليشربوا حليب السباع في عرين الأسد». هذا ما أخذت آمال تردده مقهقهة، فيما هي تقف وسط صالون بيت الطريق الجديدة. رأيتها مرة تحدّق في الصور تكلم أشخاصها، طالبة منهم أن يجاوبوها ولو بكلمة واحدة. ولأن جدتي عطلت في جهاز التلفزيون الكبير في زاوية الصالون، بثّ جميع المحطات الا «المنار» (التابعة لحزب الله)، والتلفزيون الرسمي السوري، اشترت آمال جهاز تلفزيون صغيراً، ووضعته في غرفتها واشتركت بمحطة «ستاليت» في الحيّ، تبثّ للمشتركين جميع الأقنية المحلية والفضائية. لكنّ جدتي عطلت أكثر من مرة البثّ إلى تلفزيون آمال، مما أدى إلى تفاقم المشاجرات في البيت.

مرة بعد صلاتها الصباحية، كانت جدتي تصبغ شعرها أشقر. فجاة دخلت آمال إلى الصالون آتية من غرفتها في ثياب النوم. وإذ أبصرت مذيعة محطة «المنار» على شاشة التلفزيون الكبير، قالت متثائبة في صوت مبحوح من أثر سهرة أمس، إن المذيعة المحجّبة صلعاء ووجهها أصفر محنّط كمومياء، وهي تعاني من فقر في الدم الذي يستنزفه شهداء «حزب الله». لم تجاوبها جدتي، واستمرّت في صبغ شعرها. كنت موقناً بأنني سأشهد شجاراً عنيفاً بينهما، قبل أن تلتفت آمال إلى أمها قائلة لها أن تقوم بحملة تبرّع بالدم لمذيعات تلفزيون «المنار». فجأة قذفت جدتي آمال بمشط كبير كانت تسرّح به شعرها المبلل بمعجون الصباغة. أصاب المشط آمال في عنقها فرشقت أمها بسيل من الشتائم، واندفعت نحو

التلفزيون ورمته أرضاً عن منضدته في زاوية الصالون. لم أكن أتوقع أن يندلع الشجار بهذه القوة، ليبلغ، في بدايته، تحطيم أثاث البيت. ركضت نحو التلفزيون ورفعته عن الأرض وأعدته إلى مكانه، محاولاً تشغيله، لعلي أهدّئ روع جدتي التي سرعان ما رأيتها تندفع من باب المطبخ مسرعة نحو آمال، وفي يدها سكين كبيرة، ومطلقة صرخات تخللتها شتائم يصعب تبيّن كلماتها. آمال بدورها ركضت نحو المطبخ، ثم وقفت، بعد هنيهات، في بابه المؤدي إلى الصالون، ملوّحة بسكين تقطيع اللحم، صارخة بأنها سوف تقتل نفسها. لكنّ جدتي عاجلتها بأن قذفتها بالسكين التي تحملها، فلم تصبها، فما كان من آمال إلا أن شدّت بيديها طرفي فستان نومها من أعلاه، فانمزق كاشفاً عن ثدييها، فيما هي تركض نحو أمها صارخة: خذي، خذي... اقتليني، اقتليني أنت، مقدّمة لها السكين. لكنني في هذه اللحظة كنت قد صرت واقفاً بينهما، فدفعت آمال بقوة، صارخاً شاتماً الأنبياء والدنيا والله الذي خلقني لأعيش بين عائلة مجانين.

نزعت السكين من يد آمال، ودفعتها دفعاً من الصالون إلى غرفتها، ثم أغلقت بابها وأقفلته بالمفتاح من الداخل. كان جسمها يهتز مرتجفاً فاحتضنتها كي تهدأ، لكن ارتجافاتها أخذت تشتد وتشتد حتى بلغت قلبي، وأنا أضع شفتيّ على أذنها مردّداً في صوت حار مختنق: حبيبي آمال، حبيبي، حبيبي. فجأة هدأ جسمها وتوقف عن الارتجاف، ثم أخذت تضحك مقهقهة قائلة لي أن أتركها. تركتها وابتعدت منها خطوات، فرأيت دموعاً في عينيها وعلى وجهها، ورأيت ثدييها عاريين، لكن من دون أن تنتبه لعريهما، كأنها وحدها في الغرفة، برغم أنني لم أقوَ على إشاحة بصري عن ذلك العري

الباهر الذي منه هبّت عليّ أولى رغبات طفولتي ومراهقتي. أعلم أن آمال اختارت أن تربّي رغبتي وعشقي المراهق، لأكون ابن أنوثتها الصاخبة التي أرادت ألا يخمدها الزواج ولا الإنجاب، وأظن أني مثلها سأعيش حياتي كلها مهاجراً غريباً، بلا مستقر أو مطمئن، ولن أقوى على زواج وإنجاب ما حييت.

حين انتبهت آمال إلى أنني أحدّق في عري ثدييها، اضطربت وارتبكت قليلاً، قبل أن تخاطبني بنبرة صوتها نفسه الذي كان تخاطبني به في طفولتي، فقالت: حبيبي، انطرني بالصالون حبيبي، رح البس ثيابي، ونروح سوا مشوار. لكنها في نبرة أخرى، كأنها تخاطب رجلاً، تابعت قائلة: مش رح روح عَ الشغل اليوم، خدني مشوار بالسيارة ع الجبل، ما بدي سوق، انت رح تسوق السيارة.

في الصالون، بعد خروجي من غرفة آمال، كانت جدتي تتهيّأ لمغادرة البيت بثيابها الرياضية البيتية التي ألفت الخروج بها، كأن شوارع الحيّ لبيتها شرفات. ففي هذه الشوارع كانت قد تعوّدت أن تطلق صوتها عالياً، ملقية التحية على العابرين من جيرانها، كأنها في هذا تقول لهم: انتبهوا، انتهبوا، ها هي ذي الست منيرة تمر، فلا يحسبنّ أحد منكم أنها فقدت شيئاً من سطوتها على الرغم من إقفال مقر الاستخبارات السورية في الحيّ. لكن بعد عودتها الأخيرة إلى الحي، من دون أن ينقطع حضورها فيه وترددها عليه في سني إقامتها في البيوت الأخرى المصادرة، أخذ بعض رجال الحيّ وفتيانه ينظرون إليها محدّقين في وجهها، ولا يردون تحيتها. أخذت تعتقد أن نظراتهم هذه تكتم شتائمهم التي يكيلونها لها، ما إن تبتعد منهم. لذا صارت تتمتم شتائمها متابعة سيرها، غاضبة ساخطة.

حتى إنني رحت أتخيّل أن حالها هذه قد تدفعها إلى الخروج من البيت حاملة ذاك المسدس الذي اكتشفنا مصادفة وجوده، آمال وأنا، في خزانة ثيابها. كذلك تخيّلتها أيضاً تطلق النار من مسدسها هذا، في لحظة من لحظات غضبها الجامح من هذا أو ذاك من فتيان الحيّ الذين أخذوا يسخرون منها ويتهكمون عليها ويكيدونها بألفاظ لا تخفى بذاءتها وإشاراتها إلى أفعالها القديمة الشائعة أخبارها في الحي.

إلى جانب المسدس عثرنا على دفتر شيكات مصرفية باسمها. هذا أذهل آمال، فأخذت لحظة عثورنا على الدفتر، تشتم أمها وتصفها بالدنيئة والخسيسة. فآمال كثيراً ما أُرغمت، خجلاً وحفاظاً على سمعتها في الحيّ، على سداد ديون أمها للبقال واللحام وصاحب السوبرماركت المحلي، كلما نشبت بين جدتي وهؤلاء شجارات بعد مماطلاتها في سداد الديون. لذا أحرقت آمال دفتر الشيكات في المرجل القديم لتسخين الماء في الحمام، انتقاماً لنفسها مما أُرغمت على دفعه من مبالغ مالية ثمناً لما تحمله أمها من علب شوكولا وثياب ولُعب وخبز، كلما ذهبت لزيارة أهلها ومعارفها في سورية. كان يشعل غضب أمال ويضاعفه تكديس أمها معظم السلع الغذائية البيتية من معلبات وسكر وبن وسواها في خزانة في المطبخ، تقفلها وتبقي مفتاحها معها. لذا خلعت بناتها الخزانة مرات كثيرة، فأخذت جدتي تخزن أصناف الفاكهة في غرفة نومها.

قبل سنوات من عودتها إلى الطريق الجديدة، كانت حظوتها لدى رجل مقر الاستخبارات السورية قد أطلقت ضدها بين أهالي الحيّ موجة من الاستياء والعداوة. شاع في الحيّ أنها وشت بشبان وفتيان

فدهم عناصر الاستخبارات بيوتهم واعتقلوهم، بتهمة مشاركتهم في ضرب العمال السوريين الذين احتشدوا على مدرجات المدينة الرياضية في بيروت لتشجيع منتخب سورية لكرة القدم في مبارياته مع المنتخب اللبناني. ففي تلك المباريات حصل عراك مشهود بين مشجّعي المنتخبين، سقط فيه جرحى، وحطّم العمال السوريون في بيروت، بعدما حشدتهم استخبارات بلدهم على مدرّجات المدينة الرياضية، تجهيزاتها الجديدة. لذا تصدّى لهم مشجّعو المنتخب اللبناني الذين كانوا في معظمهم من فتيان الشوارع في أحياء الطريق الجديدة. وشاع أن جدتي هي من زوّدت رجال الاستخبارات السورية بأسماء الفتيان والشبان، فدُهِمتْ بيوتهم واعتقلوا. هذا ما حمل أهالي المعتقلين على السعي لدى جدتي لإطلاق سراح أبنائهم. وفي ذلك الوقت كان تفاقم خلافاتها وعداواتها مع أولادها، قد حملها على التقدّم بدعاوى إلى المحاكم لمقاضاة أبنائها الذكور، بغية إرغامهم على دفع نفقة لها، ما دامت أرملة لا معيل لها سواهم. وهي أقدمت على ذلك برغم علمها بسوء أحوالهم المادية. فربحت الدعوى، واستصدرت حكماً قضائياً بمنعهم من السفر إلى خارج الأراضي اللبنانية.

الحرية ومقبرة الذكريات

لم تتوقف الشجارات بين أمي وأبي بعد رحيلي عن حمص إلى بيروت عام ١٩٩٩، وانقطاعي عن أهلي ومدينة طفولتي وفتوتي، إلا في زيارات متباعدة. في نهار من عام ٢٠٠٦، رأيت فجأة سيارة أبي مركونة قرب بيت جدّتي في الطريق الجديدة، فأيقنت أنه جاء من حمص ليسترضي أمي بعد مدة من مغادرتها دار جدّي في

الخالدية، ولجوئها إلى بيت أمها. وقفت هنيهات في الشارع محدقاً في السيارة، ثم سرت من دون أن أفكر قط في أن أعرّج على بيت جدّتي للقاء أمي وأبي اللذين كانت أكثر من سنة قد مضت على لقائي الأخير بهما في زيارتي الأخيرة لحمص. تجاوزت السيارة ومشيت في شوارع الحيّ التي أعرفها وألفتها كما يعرفها زمر فتيان الشوارع الذين عشت بينهم بعد وصولي إلى بيروت وإقامتي أقل من سنة في بيت جدّي، متعوداً على إيقاع الحياة اليومية في تلك الشوارع كما يتعوّد امرؤ على الحياة في بلده ومحلته. هكذا صرت أمشي بين أهل المحلة ناسياً أين أنا ومن أنا ومن أين أتيت.

لكنني، حين رأيت سيارة أبي ذلك النهار، كغريب عن الحيّ والشارع، مشيت مبتعداً، مسرعاً، متوتراً، ولاهثاً، كأنني أبتعد أو أفر من أهلي وماضيَّ البعيد في حمص والأقرب عهداً في بيروت. ابتعدت أو فررت مختنقاً بذلك الماضي الذي انقطعت عنه، وبزحام تلك الشوارع الفوضوية المكتظة كروحي وذاكرتي التي ازدحمت فيها، فجأة، مشاهد من لقائي الأخير بأهلي في بيت الخالدية في حمص. آنذاك ودَّعت أختي وأخي موقناً، أنهما صارا غريبين عني غربة تامة، ومنقطعين كماضيَّ في حمص، ولم تعد تربطني بهما سوى نتفٍ من ذكريات أليمة تجمّدت في الزمن، مع تلك الشفقة المريرة القديمة التي كنت أشفقها على نفسي وأمثالي من بائعي عقود أطباق زهر الغاردينيا في شوارع بيروت أيام إقامتي في بيت جدّتي.

مرّت عشر سنين على شهوري الأولى في بيروت، أيام كنت في موسم تفتّح زهر الغاردينيا أقطف أطباقه عصراً من أمام منزل قديم مهجور قريب من بيت جدّتي، فأخيط الأطباق البيضاء عقوداً، وأدور

بها مساءً أبيعها من العابرين في سياراتهم في الشوارع. لكنني بعد تلك الشهور هجرت بيت جدّتي، وتوقفت عن بيع عقود الغاردينيا، فأخذت رائحتها تذكرني بحمص التي كنت أشم الرائحة نفسها في شوارعها، وصارت ذكرياتي كلها عن مدينة طفولتي وفتوتي مرتبطة حسياً برائحة الغاردينيا. وحين ودّعت أختي وأخي في زيارتي الأخيرة لتلك المدينة، وعدت إلى بيروت، فكرت أن للروائح مقدرة على تخليد الذكريات وتجميدها في الزمن، وأن الأشخاص الذين تتجمّد علاقتنا بهم وتنقطع، يصيرون أقرب إلى الموتى الخالدين، كما هي حالي مع أختي وأخي، لأنني كلما أفكّر في حياتهما في حمص من منظار حياتي في بيروت، يتراءى لي أنهما مقيمان على حياة ثابتة يصعب أن تتغيّر أو تتحوّل كحياتي في سنواتي البيروتية الفوضوية العشر: بائع أزرار غاردينيا في الشوارع. فتىً شرس في زمر فتيان الشوارع. طالب في الجامعة اللبنانية ــ كلية الآداب ــ قسم الفلسفة. كاتب قصائد نشرتها في صحف بيروتية. شاب في مجموعات يسارية مشاكسة مع شبان وفتيات نشأت بينهم علاقات عاطفية متواترة ومتداخلة. عامل ليلي في صيدلية. كاتب متقطع في الصحافة الورقية والإلكترونية. عامل «دليفري» على دراجة نارية في مطعم مأكولات سريعة. مساعد مخرج في مسلسلات تلفزيونية وأفلام سينمائية تجريبية وأشرطة إعلانات مصوّرة. ساهر مداوم في الحانات الليلية في الحمراء والجميزة، حيث أخالط ساهرين وساهرات من فئات اجتماعية وثقافية وأهواء ومشارب متباينة. صاحب صداقاتٍ وعلاقات عابرة وأخرى وثيقة، متشعبة ومتشابكة، فردية وشللية مفتوحة وممتدة على الغارب. هذا كله وغيره في زمن كثيف، متوتر ومتقطع الأوقات والعلاقات: نهارات موصولة بالليل.

نوم نهاري طويل ومتأخر، أصحو منه نصف مخمور ناشف الفم واللسان في غرف لا أعرفها ولا أعلم متى وصلت ومن أوصلني إليها، فغفوت فيها فوراً، أو بعد ساعات من الأرق والقراءة في كتاب مهمل أتابع قراءته بعد يقظتي شبه المبنّجة، المريرة، مستأنساً باستلقائي على سرير أو فراش لا أعلم من سبقني إلى النوم فيه في الليالي الفائتة. أحياناً كثيرة تمر عليَّ ٢٤ ساعة بلا نوم، موزعاً الوقت على مصادفات وعلاقات تأخذني على هواها بلا أي نظام. حياة بلا إيقاع، وأوقات بلا حساب للوقت والزمن، وعلاقات فوضوية بلا حدود، أو تتجاوز الحدود وترتمي في حرية عمياء آسرة أدمنتها مسالماً ومشاكساً وعنيفاً. حرية أنهكت جسمي وروحي في بيروت التي أتيت إليها سوريةً من حمص، فاستقبلتني شريداً عارياً من الأهل، لكن مختزناً إرث الأهل في الحارات القديمة والجديدة. سريعاً تغيّرت لهجتي السورية، فارتميت في أحياء بيروت المكتظّة بزمر فتيان الشوارع والعصبيات الأهلية المنفلتة، من دون أن تنغلق في وجهي أبواب الخروج إلى أحياء وشوارع وعلاقات في منقلب آخر من المدينة.

أخيراً احتفلت مع اللبنانيين في عيدهم الكبير الذي أقاموه لإجلاء الجيش السوري واستخباراته عن بلدهم. كواحد منهم احتفلت بذلك العيد في بلد صار بلدي من دون أن أحمل جنسيته التي صارت لكثيرين من حامليها معبراً للحصول على جنسية أخرى. أما جنسيتي السورية الميتة فأضعتُ بطاقتها من سنين من دون أن أسعى أبداً إلى الحصول على غيرها، مكتفياً منها بذلك العبء الذي لن يريحني منه سوى بلد غير عربي يمنحني جواز سفر للفرار من بيروت كما فررت من حمص قبل عشر سنوات.

هل أقول هنيئاً لجدتي السورية الأصل بجنسيتها اللبنانية؟ وهل أقول لها هنيئاً على عودتها إلى بيتها في الطريق الجديدة، الذي أرغمها على العودة إليه جلاء الجيش السوري عن لبنان؟

لبنان: كلمات أولى

المشاهد الأولى الضبابية والهاربة التي أتذكرها من لبنان وبيروت، تعود إلى طفولتي، حين كنت بين السابعة والثامنة من عمري. فبعد زواجها عاشت أمي متنازعة بين نشأتها وصباها في بيروت وحياتها الزوجية التاعسة في حمص.

بدأتُ رحلاتي الأولى من حمص إلى بيروت، حاملاً في جسمي وروحي حِدادَ أمي الزوجي الأليم بعد شجاراتها العنيفة مع والدي في غرفة كئيبة من دار جدي للسكن العائلي المشترك في حارة الخالدية. أمي سمّت هذه الدار السقيفة، منذ دخولها إليها. أتذكرني جالساً إلى جانبها، صامتين، على مقعد في الحافلة المتجهة من حمص إلى بيروت، وخائفاً من فرحي المكتوم بالرحلة ومشاهدها الغريبة، الصامتة المترامية، والمتسارعة هاربة أمام عينيَّ الذاهلتين. لم أكن أجرؤ على الالتفات إلى وجه أمي الجالسة على المقعد قربي، ساهمة واجمة ومبنّجة الجسم والحواس في الطريق الطويلة. تسند رأسها إلى ظهر المقعد وتطبق جفنيها، فلا أعلم إن كانت تغفو أم تتدارك الدوار والغثيان، خشية أن تتقيّأ كما حدث لها مرة أو مرتين في رحلاتنا الكثيرة التي تستغرق ست ساعات أو سبعاً، من دون أن يغمض لي جفن طوال الطريق. على الحدود السورية ــ اللبنانية في واحدة من هذه الرحلات، نزل الركاب من الحافلة لتخليص معاملات مرورهم الحدودية، فلمحت والدي يصعد، فجأة، إلى

الحافلة التي استبقانا سائقها جالسين وحدنا على مقعد في وسطها، وتكفل تخليص معاملتنا. قبل أمي أبصرتُ والدي يندفع نحونا مسرعاً متوتراً في الممر بين المقاعد الخالية. تلقائياً ومن دون إرادة منّي انتصبت واقفاً، فأجفلت أمي واندفع القيء من فمها، لحظة تشبّث والدي بشعرها وجرها بين المقاعد، من دون أن يكترث بي، كأنني غير موجود. بقيت هنيهات واقفاً في مكاني، فلم تصرخ أمي كعادتها حينما كان والدي يضربها ويضربها في دار جدي ـ السقيفة في الخالدية. على الرغم من تشبّثه بشعرها وإخراجها من باب الحافلة الأمامي، ظلت صامتة وهو يجرها وسط جموع منتشرين في المكان. كثيرون من العابرين التفتوا إليهما، محدّقين في جسم أمّي المنحني ورأسها المطأطئ المنفوش الشعر في قبضة والدي الذي يسحبها خلفه ويسير منتصب القامة وسط سحب خفيفة من غبار أبصرتُ من خلالها، وأنا أخرج من باب الحافلة، سيارة أبي متوقفة، قبل أن يفتح بابها الأمامي ويدفع أمي إلى داخلها، فركضت في اتجاه السيارة، متخيّلا صوراً من حكاية لا أذكر من رواها لي ومتى. تقول الحكاية إن شاباً جرَّ أخته الصبيّة من شعرها إلى مدخل دار أهله في حارة جورة الشياح في حمص، ثم ذبحها كما تذبح خراف عيد الأضحى المبارك على عتبات الدور في الحارات.

في مخيّلتي، وأنا أركض وسط سحب الغبار على الحدود السورية ـ اللبنانية كان الدم ينفر من نحر أمي قبل أن أصل إلى سيارة أبي الذي أمسكني ورماني إلى مقعدها الخلفي، كأنه يرمي صرة ثياب، ثم استدار حول السيارة وصعد خلف مقودها، وشغّل محركها منطلقاً بها في اتجاه حمص. بعدما قطعت السيارة مسافة من دون

أن يقول كلمة واحدة، شغّل الراديو الذي صدحت منه أغنية «يا حجل صنين بالعلالي، يا حجل صنين بالجبل».

كانت هذه الأغنية من الأغاني اللبنانية الأولى التي علقت منها كلمات في ذاكرتي، لكثرة ما سمعتها في أوقات من النهارات تصدح من راديوهات غرف دار جدي في الخالدية. لكن استماعي إليها في راديوهات حافلات رحلاتي من حمص إلى بيروت بعد حادثة جر والدي أمي من شعرها من الحافلة إلى سيارته، رسم لكلمات الأغنية صوراً جديدة في مخيّلتي. من خلف زجاج نافذة الحافلة الصاعدة من شتورا، متمايلة في منحنيات الطريق الجبلية والتفافاتها الحادة، أخذت تتراءى لي طيور قتيلة يبقّع دمها بياض الثلج المترامي على الجبل تحت ضباب خفيف يزحف متباطئاً نحو الأعالي. مذذاك ارتبطت كلمة «العلالي» في الأغنية بمشهد الجبل والثلج مبقعاً بالدم في مخيّلتي، بعدما كانت الكلمة نفسها توحي لي بصورة دار منفرة وبعيدة في سهل فسيح. ثم بدلتْ إقامتي في بيروت منذ عام ١٩٩٩، إيحاء هذه الكلمة وغيرها من إيحاءات كلمات أغاني فيروز وصورها في مخيّلتي، فجعلتها قريبة من حواسّي ومشاعري المستجدة. أما استماعي إلى تسجيلات مسرحيات زياد الرحباني التي سخر في واحدة منها من كلمات أغاني أمه وأبيه وعمه ـــ ومنها كلمة «العلالي» وغيرها من الكلمات التي تساءل الرحباني الابن في نزقه الساخر عن معانيها ودلالاتها وغياب المعادل المادي لألفاظها ـــ فأفرغ من مخيّلتي الصور الأولى لكلمات هذه الأغاني، وجفّف منابع الحنين والعزاء اللذين كانت تبعثهما كلماتُها في نفسي وروحي.

حين أستعيد اليوم صلتي بأغاني فيروز، وأفكر في هذه الصلة

وتحولاتها، أدرك أن التفكير فيها لا ينفصل عن صورها الأولى الجامدة والغامضة، حين كنت أستمع إلى تلك الأغاني في دار جدي في الخالدية. ولا ينفصل أيضاً عن رحلات طفولتي وفتوتي إلى لبنان، ولا عن إقامتي في بيروت. ثم إنني أدرك أن صلتي بالأغاني نفسها لم تكن قابلة للتغيّر والتبدل لولا انتقالي من حمص إلى بيروت. وهذا يحملني على الظن، بأن أشكال تلقّي الجمهور السوري هذه الأغاني، ووقعها عليه وحضورها في مخيّلته وتفاعله معها، تختلف عما هي عليه لدى الجمهور اللبناني.

يعبد الجمهور السوري فيروز وأغانيها، وتتملك أجياله وفئاته، حماسة جماعية وموحدة للأغاني الفيروزية، أقوى من حماسة الجمهور اللبناني للأغاني نفسها. لكن فئات واسعة من الجمهور اللبناني تتباين استجابتها وأشكال تلقيها لهذه الأغاني وتفاعلها معها، تبعاً للأوقات ونوع الأغاني وزمنها التعبيري والدلالي، وتبعاً لأجيال الجمهور ومنابته الاجتماعية ومكوّناته الثقافية. وهذه كلها قابلة للتغيّر والتحول ولا تستقر على حال في لبنان. ففي أحوال وبيئات لبنانية واسعة، يشكل تلقي الأغاني الفيروزية والتفاعل معها في أوقات وأماكن وأزمنة اجتماعية ــ ثقافية، مداراً لــ «التثاقف» والتعارف والتبادل بين أجيال متباينة المنابت والأهواء، وعنصراً فاعلاً في تحول ذائقة الأشخاص الأفراد وتطلبهم. التحول والتطلب هذان يواكبان مسارات الأشخاص وسيرهم، وانتقالهم، بطيئاً بطيئاً، من فضاء اجتماعي ــ ثقافي إلى آخر، ومن حال إلى حال في صلتهم باللغة والتعبير وبناء ذواتهم الفردية والاجتماعية.

يندر هذا كله في أشكال تلقي الجمهور السوري الأغاني الفيروزية وتفاعله معها. فالجمهور هذا يتوحّد أجيالاً وفئات، أهلاً وعائلات

وأشخاصاً، ويذوب ذوباناً شبه صوفي وعلى مثال واحد، في تلقيه هذه الأغاني، فتسري فيه قشعريرة من توق جماعي ثابت، لا يبدله تغير الأوقات والأحوال وتباين أجواء الأغاني وكلماتها وألحانها، كأنها تأتيه من زمن خارجي بعيد، وتسقط عليه سقوطاً واحداً ومتساوياً. وبكل قشعريرة توقه الجماعي الثابت والمنطوي على فرح أليم يشوبه العزاء، ينأى هذا الجمهور، في استجابته للأغاني الفيروزية وتفاعله معها، من وقائع حياته ويخرج من نفسه، ليقيم في ذهول فردوسي من الرغبة في امتلاك ما يتخيّل أن هذه الأغاني تبعثه من صور لخفة الحياة ورشاقتها ورقتها الأنثوية الضبابية في لبنان وحياة اللبنانيين. هذه الخفة تعادل الثقل والقسوة والغلظة التي تكتنف الحياة في المجتمع السوري المغلق الذي يخنقه ركود تسلطٍ مزمن، يحاصر الكلمات والمشاعر والأفكار والصور، ويمنع التفاعل الحر، الشخصي والمتغيّر، معها ومع تجارب العيش. هذا كله يضعف التعبير الحيّ، المباشر والشخصي، عن النفس والعالم والتجارب التي يخنقها كتمان وخوف مزمنان يجثمان في صدور الناس وعلى ألسنتهم، واستوطنا علاقاتهم وحساسياتهم التعبيرية، وأفقراها. هذه حال المجتمع السوري في ظل سلطة ديكتاتورية تسيطر على فضائه العام وتحوّله فضاءً للاختناق والخوف والحذر، فيمتنع التبادل الحر بين الأفراد والجماعات، ويجري إجهاض كل مبادرة للتعبير الحر، مهما صغر شأنها وتضاءلت فاعليتها.

طل الملوحي

من آخر الأمثلة على خنق هذه المبادرات الصغيرة وقتلها، استدعاء «الفرع ٢٧٩ التابع لجهاز أمن الدولة في سورية (على) الطالبة

السورية طل الملوحي (١٩ سنة) للتحقيق معها»، على ما ورد في بيان وزعته منظمة «هيومن رايتس ووتش»، ونشرته صحيفة «النهار» البيروتية في ٢١ أيلول ٢٠١٠، بعد مضيّ «تسعة أشهر» على استدعاء الملوحي و«احتجازها وعزلها عن العالم الخارجي، من دون توجيه أي اتهام إليها». و«السلطات السورية لم تسمح لعائلة (الملوحي) بالاتصال (بابنتها)، ولم تقدّم سبباً للقبض عليها». وذكر بيان المنظمة الدولية أن العائلة تعتقد بأن اعتقال ابنتها متعلق بنشرها «على مدوّنتها الإلكترونية على شبكة الانترنت، قصيدة تنتقد فيها بعض القيود على حرية التعبير في سورية. وتضمّ المدوّنة أشعاراً وتعليقات (عن) قضايا اجتماعية، إلى (جانب) صورة للمهاتما غاندي». المديرة التنفيذية لقسم الشرق الأوسط وشمال أفريقيا في منظمة «هيومن رايتس ووتش»، سارة ليا ويتسن، قالت إن ما جرى للطالبة الملوحي، «نموذج لسلوك الأجهزة الأمنية السورية القاسي والمتعسف، (ولاعتقاد) الحكومة السورية بأنها قادرة على سحق مواطنيها والإفلات من العقاب».

قد تكون الطالبة الملوحي ضحية صغر سنها وما أشاعته شبكة الإنترنت من حرية محدودة في بلدها الذي تحكمه منظومة أمنية مزمنة تخترق الحياة اليومية ومبادلاتها، وعلاقات العمل، وكسب المعاش، وعلاقة الناس بإدارات الدولة ومؤسساتها العامة، وصولاً إلى اللغة وأشكال التعبير، والحراك والارتقاء الاجتماعيين والاقتصاديين. هذا ما خبره السوريون وخبرته أنا نفسي في حياتي العائلية والمدرسية طوال ١٩ سنة في حمص.

المثال الأقرب إليّ في نقل صورة هذه العلاقات، هو حياة والدي

وعملــه منذ ســبعينيات القرن العشرين ســائق سيارة نقل عمومي بين ســـورية ولبـــنان، وفي ما يتصل بهذه المهنة من أعمال «رمادية» متفشية في هذا القطاع، كتجارة التهريب بين البلدين المتجاورين. فهو قام بكثير من عمليات تهريب أسلحة لمنظمة «فتح» الفلسطينية من سورية إلى بيروت وجنوب لبنان، مدفوعاً بنقمته على النظام السوري وعلى تسلط جماعته الحاكمة، لكن بنفوذ أخواله في شــبكات أجهــزة هذا النظــام الذي يمقته ويكرهــه على نحوٍ خائف ومكتوم، ويســتفيد من ولاء أخواله العلني له، ومن عمله معهم وحمايتهم إياه من تسلط النظام وعسفه. ليست تقيّة والدي هذه سوى مثال هامشــي صغير لمــا يسود في ثنايا المجتمع السوري من حضيضه الاجتماعي إلى مراتبه العليا في إدارة الدولة وأجهزتها المتسلطة، حيث تتفشى الضغــائن والنقمة والوشاية والخوف في السر والكتمان والحيــاة الخاصة، تفشي طاعة الناس السلطة ومحاباتها في العلنية العامة، بغية كسب المعاش وتــدارك عسفهما في الحياة اليومية. لذا صارت النقمة المكتومة على السلطة والخوف منها، وتقنيع الخوف والنقمة بالطاعة المســتريبة، ومزج هذا كله بالاستزلام والرشوة والمراءاة، قوام علاقة المجتمع السوري بالدولة ومؤسساتها التي حوّلتها الجماعة الحاكمة أداة عارية للقهر والعنف والتسلط على المجتمع ولتفكيك عراه وروابطه وتحطيمه.

فمنذ أربعة عقود كرّس النظام السوري «سياساته» الأمنية ــ والسياسة عنده أمنية كلها ــ لإذكاء الشِقاق الاهلي والطائفي بين الجماعات السورية واللبنانية، والشِقاق التنظيمي بين المنظمات

الفلسطينية المسلحة، وتأليب بعضها على بعض، وصولاً إلى الحروب الأهلية في ما بينها. في خضم هذه الحروب، وعلى أنقاض الدولة والمجتمع اللبنانيين، وشراذم الشعب الفلسطيني المشتت ومنظماته وجماعاته المسلحة، وخواء المجتمع السوري جعل النظام السوري أتباعه وصنائعه، على صورته ومثاله، وسمّى «سياساته» هذه «نضالاً قومياً عروبياً» لـ«رفع رأس الأمة» في «مواجهة المؤامرات والمشاريع التي أرادت النيل» منها.

العبارات هذه وأمثالها ـ كـ «دعم المقاومة في لبنان وفلسطين» و«جوهر الصراع» الذي «يجب ألا يتوقف إلا بعد تحرير القدس وفلسطين» ـ هي ما تردّده كل يوم وساعة ألسنة صنائع «القيادة السورية الحكيمة»، على ما ردّد السيد وئام وهاب قرب «ضريح سلطان باشا الاطرش في بلدة القريّة بجبل العرب في سورية»، ونقلت عنه صحيفة «النهار» قوله هذا، إلى جانب الخبر عن اعتقال الطالبة السورية طل الملوحي، التي لم يساعدها صغر سنها على إدراك «جوهر الصراع» الأزلي المزعوم. لذا وصمتها «مصادر سورية بـ«العمالة» و«الخيانة» و«التجسّس» و«التآمر، على ما «قالت» هذه المصادر لـ«النهار» (٤ تشرين الأول ٢٠١٠). فبعدما أذاعت منظمة «هيومن رايتس ووتش» بيانها ـ الخبر عن اعتقال الطالبة، اضطرت «المصادر السورية الواسعة الاطلاع» إلى الاعتراف بأن الملوحي معتقلة «في سجن دوما للنساء بمحافظة ريف دمشق». لكن مأساة الملوحي لم تتوقف عند هذا الحد.

فبعدما صرّح أهلها للمنظمة الدولية عن أسباب اعتقالها، استدعت

الأجهزة الأمنية الأسدية والد الطالبة، الحمصي، دوسر الملوحي، فحققت معه على الطريقة المعروفة في مقار أجهزة الأمن السورية. هنا لا بد من جملة اعتراضية: في ثقافتنا وقيمنا الاجتماعية الشائعة، ثقافة الكتمان والخوف وقيمهما، يجب على المنظمة الدولية والصحيفة اللتين أشاعتا خبر اعتقال الملوحي أن تشعرا بتأنيب الضمير، لأنهما عرّضتا والد الطالبة الضحية لما يتعرّض له زائرو مقار الأمن السورية. بعد «التحقيق» الأنيق والبالغ اللطف مع الملوحي الأب، خرج الرجل من المقر الأمني، فـ «أكد ــ وفقاً لخبر «النهار» نقلاً عنه وعن «المصادر السورية» ــ أن ابنته في صحة جيدة (...) وأنه قام بزيارتها في رفقة والدتها عهد الملوحي (...) في سجن دوما للنساء». أما عما «تناقلته التقارير الإعلامية عن وضع ابنته السيّئ وذهاب البعض إلى الإشارة إلى أنها تُوفيت في السجن»، فقال الملوحي الأب «إنه كاذب وغير صحيح». ثم «نفى أن تكون طل قد أوقفت لأنها مُدَوِّنة (على شبكة الإنترنت) أو لأسباب تتعلق بحرية التعبير»، مؤكداً أن «ما نشر في هذا الخصوص مجرد معلومات مغلوطة وغير صحيحة، وأن ابنته موقوفة بسبب ارتكابها أعمالاً تسيء إلى أمن سورية، من خلال اتصالها بجهات خارجية، على ما أخبرته أثناء زيارته» إياها في السجن. هكذا كذّب الأب نفسه بنفسه بعد شيوع خبر اعتقال ابنته الذي عرّضه لزيارة المقر الأمني السوري.

ظلت «معلومات» أهل الطالبة عن اختفاء ابنتهم واعتقالها «مغلوطة» طوال ستة أشهر، ولم تصبح صحيحة لا يرقى إليها الشك، إلا بعد إطلاع والدها عليها في المقر الأمني الذي بدّد شكوكه باليقين.

واليقين هو إقراره بأن ابنته جاسوسة. وفي إقراره هذا، وتكذيبه نفسه بنفسه، تحوّل الأب متآمراً على ابنته، أو واشياً بها. وهو ربما أقنعها أيضاً بأنها جاسوسة، أثناء قيامه بزيارتها في السجن، فأقرت الابنة بذلك واقتنعت. وإلا فلماذا لم تعترف بأنها جاسوسة طوال ستة أشهر من السجن والتحقيق، إلا بعد الزيارة الأبوية المروّعة؟ وكيف يمكن أن يكون أبٌ أقدر على «سحب» الاعترافات الأمنية من ابنته، من إدارة السجون الأمنية ورجالها في «سورية الأسد»؟!

عنف الحارات والعشائر

في فتوّتي، قبل سنوات من رحيلي عن حمص إلى بيروت عام ١٩٩٩، تغلبت على عار التأنيث الذي وصمني به فتيان حارة الخالدية الأشقياء، فسمّوني «ميشو»، لأن أمي أصرّت على تعليمي في مدرسة خاصة تلامذتها من الميسورين في معظمهم، وكنت أذهب إليها وأعود منها في الأوتوكار، مرتدياً، من دون سائر الصبية في حارتنا، بنطلوناً قصيراً (شورت) في فصول الربيع والصيف. بعدما أنهى والدي ارتدائي الشورت بشجار عنيف في الحارة، أصرَّ على تسجيلي في نادي «الوثبة» الرياضي، فبدأت شيئاً فشيئاً أتعرّف إلى صبية الخالدية في ساحة حيّنا التي نسمّيها «السهلة». عبثاً حاولت أمي منعي من معاشرة صبية السهلة وفتيانها، فرحت أجالسهم بعد عودتي من المدرسة وتردّدي إلى نادي «الوثبة». من هؤلاء «الكومجي» (مصلّح دواليب السيارات)، و«الأشكمنجي» (مصلّح عوادمها)، و«الصوّاج» (مصلّح حديدها) المسيحي عبدو بيطار، وسواهم من الفتيان العاملين في بيع قطع غيارها وزينتها التي يملك عرب الفاعور متاجرها في حارتنا. إلى هؤلاء كان في السهلة

أيضاً بائع الفلافل، والعامل في محل بيع البراغي، وجورج العامل في ورشة كسر الحديد. لكن الجلسات في الغروب والأمسيات، غالباً ما كانت تطول أمام محل «الكومجي»، حيث تدور ألعاب ورق الشدة وشرب الشاي والقهوة، قرب صفيحة معدنية تشتعل فيها الأخشاب في الأمسيات الباردة.

هكذا بدأت أكتشف عالم الحارة وأنخرط فيه يوماً بعد يوم. لكن أمي ظلت تأنف هذا العالم وتمقته، كأنها غريبة عنه، وتريد أن تبقيني غريباً عنه مثلها، لأكون على صورة تلامذة مدرستي الخاصة، الإنجيلية، ومثالهم، أولئك الذين بدأت أتعرف إليهم وأعاشر شلة منهم، ما إن صرت فتىً مراهقاً في العام الدراسي الأخير من المرحلة الإعدادية (المتوسّطة)، من دون أن أنقطع عن معاشرة فتيان الحارة ومجالستهم في السهلة. يحضرني الآن من هؤلاء الفتى ياسر خروف، من دون أن أعلم إن كانت كلمة خروف كنيته العائلية، أم لقباً لحق به وحده. أما أياد تركي فكان من أصول بدوية، ويعمل في متجر لزينة السيارات، شأن معظم البدو في حارتنا. وباسم الذي نسيت كنيته العائلية، تذكّرني به أصابع يده المقطوعة من أثر عمله حداداً في محل لصناعة الصوبيات، أي المدافئ التي تعمل على المازوت، قبل أن يصير لاعب كرة قدم محترفاً في فريق نادي الشرطة الحمصي. أبو فؤاد، صاحب ورشة إصلاح كهرباء السيارات في السهلة، تذكرني به شفته السفلى الكبيرة المشرومة، وهو ينفث من فمه سحابة من دخان تبغ نرجيلته المشتعلة دائماً. أحياناً كان ابنه المصاب بلوثة عقلية، يجلس بيننا صامتاً، فيما يحدثنا والده عن رحلاته إلى بيروت التي له فيها أقارب مقيمون. والحق أن بيروت كانت قوية الحضور في حكايات كثيرين من روّاد السهلة في

حارتنا. من هؤلاء الرواد أذكر شاباً لم يكن يتوقف عن تلقين كل جليس جديد وصفته الطبية لوجع الرأس، فيقول إن على المصاب بالصداع أن يحضر غائط قطة يتيمة، ويخلطه مع مسحوق الزنجبيل المذاب بالشاي، ثم يغلي الخلطة حتى تصير معجوناً يلصقه إلى رأسه أثناء نومه في الليل، فيستيقظ في الصباح بلا رأس.

أثناء جلساتنا هذه في الأمسيات، كانت ألعاب ورق الشدة لا تتوقف، كما في بيوت الحارات، وكصوت «الحاجة» ـ وهذا اسم أم كلثوم في حارتنا وسواها في حمص ـ المنبعث من راديو قديم في دكان الكومجي. لكن هذا الراديو غالباً ما كان يتوقف عن البث مع أدنى اهتزاز يصيب إبرته، فيروح صوت «الحاجة» يصلنا من ورشة إصلاح أعطال السيارات القريبة، فيما يكون أحدنا يروي حلقة مسلسل تلفزيوني حضرها ذلك المساء، وآخر يتحدث عن فتاة يقول إنه شاهدها صباحاً في الشارع، فتبعها، والتفتت إليه مبتسمة. الدراجات الهوائية الصينية الصنع، التي نسمّيها «بالون»، كانت كثيفة الاستعمال في حارات حمص المتلاصقة بيوتها جداراً إلى جدار، والمكتظة السكن العائلي الموسع والذي لا يتوقف عن التوسّع بتشييد غرف يبنيها أصحاب البيوت والدور القديمة ويضيفونها عشوائياً إليها، لسكن أولادهم كلما تزوج أحدهم، من دون أن يفد للإقامة في بيوت الحارات ساكن غريب، من خارج دائرة القربى والمصاهرات، إلّا في ما ندر. وإلى المهن والحرف والصنائع في دكاكين السهلة وورشها، كان رجال حارتنا وسواها يعملون عمّارين ونجّاري باطون ومورقين ودهانين وسمكريي تجهيزات صحية وتمديدات كهربائية في ورش البناء في أحياء حمص الجديدة، مثل القصور والوعر والفوطة والمحطة وسواها

الناشئة بعيداً من الحارات التقليدية القديمة التي كان للبدو حضورهم على تخومها، ويشتهر بعضهم بتحصيل ثروات من الاتجار بالسلاح والمخدرات. أما أبو عبدو باكير الأعرج من أثر إصابته في رجله في حرب تشرين ١٩٧٣، فكان يبيع المازوت على عربة حنطور يتنقل بها في الحارات، وعمل ولد من أولاده في ورشة موبيليا لصناعة الأثاث، وعمل آخر في إحدى ورش «الصواجين» لحدادة السيارات ودهنها.

اليوم، لا تحضر في ذاكرتي مشاهد من الحياة اليومية في حارتنا وسواها من حارات حمص الشعبية، إلا وصوت «الحاجة» يصدح في عصارى النهارات وغروبها وأمسياتها، ولا سيما أمسيات الخميس التي تسبق العطلة الأسبوعية نهار الجمعة. ففي كثير من البيوت والمقاهي وعلى جنبات الطرق أمام المتاجر وورش المهن الحرفية والصناعية، حيث يتحلق رجال وشبان مسترسلون في ألعاب ورق الشدة وطاولة الزهر، غالباً ما كانت أغاني أم كلثوم تتمازج في فضاء هذه الجلسات وفي أسماع الجالسين، كأنها إيقاع جلساتهم التي تتكاثر حلقاتها في مقهى الروضة الواسع، الأشهر والأكثر جذباً للرواد من أعمار وفئات مختلفة في أوقات ما بعد الظهر، لقراءة الصحف وشرب الشاي والأحاديث، وألعاب الورق وطاولة الزهر. لكن هذا المقهى كان يخلو تقريباً من المسنين في الأمسيات، ليرتاده الشبان والفتيان، من دون أن تتبدّل أنواع تسلياتهم التي لا تختلف عنها في سهرات البيوت العائلية من دون اختلاط الرجال بالنساء اللواتي يسهرن في الغرف الداخلية يتحادثن ويتناولن المكسرات ويقصقصن بذور اليقطين، فيما هن يشاهدن المسلسلات التلفزيونية.

شيئاً فشيئاً رحت في فتوتي أبذل جهداً مضاعفاً لأثبت لأولاد الحارة أنني لست «ميشو»، فانخرطت في مشاجراتهم مزوّداً ما حصلته من مزاولتي تمارين رياضية في نادي «الوثبة». ولأنني اكتسبت شيئاً من الجسارة في المشاجرات اليومية، أخذ الأولاد في حارتنا ينادونني «أبو الميش»، فيما أنا أنقلب من تلميذ مواظب ومجتهد، إلى تلميذ مهمل وكسول في نهايات المرحلة الإعدادية (المتوسطة)، فالتصق بي ذلك الاسم في الحارة وبين زملائي في المدرسة، ولازمني في فتوتي كلها وطغى على اسمي الأصلي في شبابي، وكلما عدت من بيروت إلى حمص في زيارات متباعدة. كأن «أبو الميش» هو اسمي منذ انقلاب شخصيتي ومسلكي في مراهقتي في الحارة وبيئتها الشعبية الفقيرة، وبعدما توسعت علاقاتي وصلاتي بتلامذة من بيئة ميسورة رافقتهم في مدرستي، الإنجيلية، بحارة باب السباع القديمة. وطوال سنوات المرحلة الثانوية من حياتي المدرسية، كان عليَّ أن أكون ابناً حقيقياً لحارة الخالدية التي لفتيانها رهبة بين أبناء الحارات الأخرى، وفي حمص كلها. وذلك لأعوّض بانتمائي هذا عن فقر أهلي المادي وعريهم من القوة والنفوذ اللذين يحظى بهما أبناءُ بيئتي المدرسية الميسورون مادياً، أولئك الذين كانت توصلهم إلى المدرسة سيارات خاصة يقودها سائقون، وبعضهم يقود بنفسه سيارة والده، أو التي اشتراها له والده. مع هؤلاء التلامذة رحت أهرب من المدرسة في سيارة أحدهم، فنقوم بنزهات قد تتجاوز حمص وتصل إلى حماه، من دون أن تتجرأ إدارة مدرستنا الخاصة على التصدي لأمثالنا ومحاسبتهم على هربهم وتغيبهم، لخشيتها من أبناء العائلات الميسورة والنافذة في أجهزة السلطة. فالشائع في «سورية الأسد» أن أبناء اليسر والنفوذ قادرون

على ما يحلو لهم من أفعال، من دون حسيب ولا رقيب. تلميذ من هؤلاء كان والده رئيس غرفة الصناعة والتجارة في حمص. آخرون كانوا أبناء عائلات أخذت تملك شركات وباصات سياحية، نشأت وتوسعت في تسعينيات القرن العشرين. اثنان كان والدهما سجيناً بتهمة إتجاره بالسلاح. وهذان كنت أذهب في الصباح إلى بيتهما القريب من المدرسة في حارة باب السباع، فنلتقي شلة من التلامذة، ونروح ندخن، قبل أن نركب سيارة أحدهما، فيقودها متجهاً إلى مدرسة غرناطة، كبرى مدارس البنات في حمص. ومن راديو السيارة التي يوقفها صاحبنا قرب بوابة هذه المدرسة، تنطلق الأغاني والموسيقى صخابة، فنروح، نحن الجالسين في داخلها مشرعين نوافذها، وأحياناً أبوابها، ندخن لاهين متضاحكين، ونعاكس التلميذات العابرات، ونرميهن بعبارات لا يخلو غزلها المراهق من بذاءات صبيانية، فيما هن ينزعن عن رؤوسهن وشعرهن حُجُبَهُنَّ المرغمات على نزعها، لأن إدارات المدارس لا تسمح لهن بالدخول إلى ملاعبها وقاعات التدريس فيها إلا سافرات حاسرات. نادراً ما كنا نحظى بابتسامة إحدى التلميذات اللواتي كانت مشاهد سفورهن، تثير مخيلاتنا وتلهب غرائزنا. فما كنَّ يرغمن عليه صاغرات، خجلات ومتذمرات، كان مصدر متعتنا ولذتنا، كأننا ننال منهن ما يشبه اغتصاباً من بعد، يظل يروي ظمأنا ويضاعفه، ويشحذ رغباتنا الحسية الشبقة، فيما نحن ننطلق في السيارة عابرين شوارع المدينة، بحثاً عن فريسة أنثوية، يستحيل وصولنا إليها إلا التهاماً بعيوننا الجائعة وكلماتنا البذيئة. في السيارة أو سيراً على أقدامنا، نروح «نكسدر» في شارع الغوطة الذي تتكاثر على نواصيه تحت شجرات الإكيدنيا زمر من تلامذة «مدرسة ابن

خلدون». هؤلاء كانوا يهربون من مدرستهم أكثر من تلامذة مدرستي الإنجيلية، وصرت منهم في العام الدراسي التالي، بعد رسوبي في الصف الأول من المرحلة الثانوية، ورفض إدارة المدرسة الإنجيلية إعادة تسجيلي، من دون أن تقوى على التخلص من أمثالي من شلة تلامذتها المشاغبين، لأنهم أبناء عائلات ميسورة ونافذة، وينجحون آخر العام الدراسي بقوة نفوذهم، ولديهم في بيوتهم الفخمة، في الأحياء السكنية الجديدة، مدرسون خصوصيون لكل مادة دراسية، حتى لمادة التربية القومية البعثية. إلى هذا كله كان هؤلاء التلامذة يتفوقون عليّ بحيازتهم مصروف جيب يمكّنهم من شراء ما يحلو لهم من حاجيات، هيهات أن أستطيع مجاراتهم في شرائها. لذا أخذت أتقدمهم في المشاكسات والمشاجرات كلما فررنا من المدرسة، ورحنا نصطدم بسوانا وأمثالنا من زمر الفتيان الأشقياء في شارع الغوطة.

في واحدة من هذه المشاجرات ـ «كرمى لفتاة»، أي من أجلها، على ما نقول بلغة الحارات في حمص ـ أقدمت على ما يفعله فتيان الخالدية في مشاجراتهم، فتناولت زجاجة فارغة، وكسرت طرفها بأن ضربتها بحافة الرصيف، ثم هجمت على فتىً وشطبت بها وجهه، فنفر منه الدم، فيما أكيل له الشتائم، صارخاً تلك الصرخة السائرة في مشاجراتنا: «رح طعميك خرا بالملعقة». هكذا أوغلت في الشقاوة وفي الإقدام على الصراخ بالشتائم التي تتناول الأخوات والأمهات بأقذع البذاءات، وبدونها لا يكتمل الإيغال في العنف وإرهاب الخصوم والنيل منهم. وإذا كان وجه من وجوه هذا العنف مصدره الحياة والعلاقات اليومية في الحارات التقليدية القديمة والمشاجرات بين فتواتها، فإن الفتيان والشبان الذين غادر

أهلهم هذه الحارات، ونشأوا في أحياء سكنية جديدة، والذين وفدوا إلى حمص من ريفها القريب، طوّروا هذا العنف وأخرجوه من إطاره وشعائره، وجعلوه «فناً» من فنون عيشهم الشبابي المحدث في الشوارع. هذا «الفن» ابتكر أشكال تعبير جسمانية ولغوية جديدة في عنفها وبذاءتها، وشكّل الوجه الشبابي الشارعي والمديني من ظاهرة «التشبيح» الأمني والمافيوي للتهريب والاتجار بالمخدرات والآثار، في «سورية الأسد». ففي الشوارع المحدثة، حيث المتاجر والمطاعم والمقاهي والسيارات، اختلف الزمن الاجتماعي والمكان واللغة وأساليب اللهو والتسليات والشقاوة ومشاجرات الفتيان، عنها في الحارات القديمة. ذلك أن دورة الحياة اليومية في الشوارع الجديدة، والقدرات الاقتصادية لسكانها ونفوذهم المحدث، بدلت عادات الفتيان والشبان وعلاقاتهم وطبيعة عنفهم ومسرحه وأشكال تعبيره. وبما أنني صرتُ ابن حارة الخالدية ومن فتيانها، فإنني استقويت بصيتهم في شعائر العنف الجديدة في الشوارع، معوّضاً بذلك عن تواضع أحوال أهلي المادية وعريهم من النفوذ، مقارنة بيسر أهل اقراني في شلة الكسدرات في السيارة الخاصة، وارتياد شارع الغوطة، والشارع الذي افتتح فيه فندق «السفير» الفخم في محلة الإنشاءات المحدثة، حيث أخذت تلتقي وتتجمع، قرب الفندق، شلل الفتيان والشبان، بعد ظهيرات الخميس وفي أمسياتها التي تسبق العطلات الأسبوعية نهارات الجمعة. في السيارات أو سيراً على أقدامنا كنا نكسدر في الأمسيات، ذهاباً وإياباً في الشارع، ومحطتنا الرصيف أمام فندق «السفير»، حيث تتكاثر فتيات من الفئات الميسورة، داخلات إلى الكافيتيريا التابعة له، وإلى مطعم «بوباي» للبيتزا، وخارجات منهما. كان يمكن لفتىً منا أن يحظى

بابتسامة أو ضحكة من فتاة ما، لكن من دون أي شيء سواها، كلمة أو وقفة تتبعها. بعض من الشبان كان يقذف لفتاة برسالة غرامية تحوي رقم هاتفه، ونادراً ما تحظى بجواب، لكنها غالباً ما كانت تثير مشاجرات بين قاذفي الرسائل أو كلمات التحرّش وشبانٍ من أهل هذه الفتاة أو تلك وأقاربها.

مرة، أمام فندق «السفير» وعلى رصيفه، حصلت مشاجرة بين فتيان وشبان مسلمين ومسيحيين من حيّ المحطة الجديد والمختلط طائفياً. استمرّت المشاجرة التي اشترك فيها عدد كبير من فتيان الحي وشبانه وقتاً طويلاً في أمسية من أمسيات الخميس. فجُرِح عدد من الشبان في التضارب المتمادي، لكماً ورفساً وبالحجار وأدوات حادة، وشطباً بالزجاجات الفارغة المكسورة، قبل وصول دورية من رجال الأمن السياسي، واعتقالهم عدداً من الفتيان والشبان، واقتيادهم إلى مقرهم. في المقر اتصل أحد الشبان هاتفياً، برجل في القرداحة، صديق لأهله. وسرعان ما ناول الشاب سماعة الهاتف إلى ضابط الأمن الذي أطلق، بعد محادثة قصيرة مع رجل القرداحة، سراح المعتقلين جميعاً، فغادر الشبان والفتيان المقر الأمني إلى بيوتهم، كأن شيئاً لم يكن. لكن بعضاً من هذه المشاجرات التي كانت تحصل مساءً في الشوارع، كانت تنتقل في النهارات التالية إلى المدارس، فتُستكمل مجدداً في قاعات الدروس والملاعب. أذكر هجوماً مفاجئاً لتلامذة مدرسة الإنجيلية المسلمين على تلامذتها المسيحيين في قاعات الدروس. كنت لا أزال في الصف الثاني أو الثالث من المرحلة الإعدادية (المتوسطة)، قبل أن أصير فتىً مشاكساً وعنيفاً. وكان تلامذة صفي من المسيحيين في معظمهم، حينما دخلت إلى الصف، فجأة، جموع من تلامذة الصفوف العليا

المسلمين، وشرعت في ضرب التلامذة المسيحيين وشتمهم، وتحطيم محتويات قاعة الدرس من طاولاتٍ وكراسٍ وغيرها من المستلزمات. وبعدما تمكن نظّار المدرسة ومدرّسوها من وقف الهجوم المسلم على التلامذة المسيحيين في كثير من الصفوف، جمعوا عدداً من التلامذة المسلمين والمسيحيين في إحدى القاعات، فألقى فيهم الناظر محاضرة أخلاقية عن الأمة الواحدة والوطن الواحد، والأخوّة ما بين أبناء الدينين السماويين، ثم أمر التلامذة جميعاً بأن يتعانقوا ويتبادلوا القبل، تمتيناً لتلك الأخوّة، وتعبيراً عن المصالحة، وكأن شيئاً لم يكن. وما لفتني وانتبهت إليه في حياتي المدرسية كلها، هو اختلاف التلامذة المسيحيين عنا نحن التلامذة المسلمين، أكانوا فقراء أم ميسورين أم متوسطي الحال. ويشمل الاختلاف اللباسَ والزيّ وأساليب الكلام والتعبير ونمط الحياة والعلاقات الأسرية التي تتميّز بالوئام لدى المسيحيين. التمايز الأشد وضوحاً بيننا وبينهم، هو عدم إقدامهم على المشاجرات إلا في ما ندر من الحالات التي يُرغمون على التورّط فيها دفاعاً عن النفس، كأن العنف وثقافته غريبان عن حياتهم وعلاقاتهم.

حياتي المدرسية، وصحبتي شلة الفتيان من أبناء «الأكابر»، وهروبنا في سيارة أحدهم من المدرسة، هائمين في الشوارع الجديدة وعلى أبواب مدارس البنات لمعاكستهن، لم تؤدِّ إلى انقطاعي عن دورة الحياة اليومية في حارتنا، الخالدية، برغم نفوري منها ومن فتيانها الذين يقل بينهم عدد من يمكثون أكثر من سنتين أو ثلاث في المدارس، ولا سيما أبناء العشائر. فعلى طرفين من حارتنا ينزل تجمعان سكنيان لعرب الفاعور وعرب بني خالد الذين ينفر من

حضورهم أهل الحارة وسكانها الأصليون. ذلك أن المنازعات والمعارك والثارات ما بين الفواعرة وبني خالد، ما كانت تخمد مدة إلا لتنبعث مجدّداً، طوال سبع سنوات، فاشتهرت في حمص كلها، وسمّيت معارك أو حروب الأوراس، نسبة إلى المنطقة الزراعية التي كان أبناء العشيرتين يتكامنون فيها على طرف المدينة، فيتربّص بعضهم ببعض ويتبادلون إطلاق نيران ثاراتهم الدامية. والأوراس كانت مشهورة بزراعتها ونواعيرها الكثيرة على نهر العاصي، قبل أن تشيّد فيها فيلّات للأثرياء الجدد. وقد يكون هذا ما حمل وزير الداخلية السوري ــ وكان من بني خالد ــ على إحياء مصالحة عشائرية بين عشيرته والفواعرة. وإلى الوزير كان لبني خالد عضو في مجلس الشعب السوري، هو أحمد نزال الشيخ الذي كان طياراً مدنياً. أما عرب الفاعور، فكان لهم أيضاً عضو في مجلس الشعب، هو محمد الفدعوس الذي لم يكن متعلماً، على خلاف طيار عشيرة بني خالد التي كان أبناؤها يتفاخرون بنسبهم القبلي، ويقولون إن الفواعرة قبيلة حديثة ولا أصل لها في سلّم النسب القبلي، خلافاً لقبيلتهم التي يقولون إنها ضاربة الجذور في الجزيرة العربية، ولها في الديار السعودية مشايخ وأنساب تتلقى العشيرة منهم مالاً ومساعدات. هذا إضافة إلى قولهم إن حارة الخالدية سمّيت باسم عشيرتهم التي وفدت من الجزيرة وتوطنت على تخم من تخوم حارات حمص القديمة. لكن العشيرتين تساوتا في الاتجار بالسلاح والمخدرات وتهريب الآثار، وفي تجارةِ قطع السيارات وزينتها، فحصَّل العاملون في هذه التجارات ثراءً لا يستهان به، ما كان ليتحصل لهم من تلك الأعمال السوداء لولا صلاتهم الوثيقة بالأجهزة الأمنية وشراكتهم مع كبار ضباطها وولاؤهم لها. وهذا ما

مكّن مقدمي بني خالد والفواعرة من الحظوة والنفوذ في أجهزة دولة البعث الأسدية، ومكّن أهالي العشيرتين ــ إضافة إلى قوة عصبيتيهما العشائرية وكثرتهما العددية ــ من أن تكون لهم سطوة على أهالي الخالدية، الذين ظلوا ينظرون إليهم، بالرغم من نفوذهم وسطوتهم، نظرة دونية، بوصفهم من البدو. لكن هذه النظرة لم تكن تقلل من تهيّب أهالي الحارة أبناءَ العشيرتين، وتجنّب النزاع معهم، خوفاً من تناجدهم وتجييشهم العصبية العشائرية، ومن قوة شكيمتهم في المنازعات والمشاجرات التي يستسهلون الإقدام عليها واستعمال السلاح الأبيض والناري فيها. لذا لم يكن الأولاد من أبناء عائلات الحارة يجرؤون على اللعب في ساحتها، إذا كان أولاد من بني خالد أو الفواعرة يلعبون في الساحة. أما إذا كان أولاد من أبناء عائلات الحارة يلعبون بطابتهم، فعليهم إخلاء الساحة، إذا رغب أن يلعب فيها فتيان من أبناء هذه العشيرة أو تلك، وإلا فإن طابة الأولاد اللاعبين سوف تتعرّض للتمزيق، ولن ينجو اللاعبون أنفسهم من الضرب في حال امتناعهم عن إخلاء الساحة. لكن سطوة الفواعرة وبني خالد في الحارة لم تكن مطلقة، إذ لم تكن لتحول دون تجاسر أبناء العائلات من سكانها على التصدي لأبناء العشيرتين والاشتباك معهم. فلأبناء الحارات إرث مديد وتقاليد حيّة في الذود عن الشرف والكرامة، اعتماداً على الرجولة والنخوة والنجدة، لم يكن اختلافها عن تقاليد أبناء العشائر وعاداتهم ليدفعهم إلى التراخي والتهاون والسكوت على الضيم في أوقات الشدة والتعرّض للإهانة. وبرغم مطاولتهم وحلمهم، فإن التباهي بالقوة العضلية وبالخشونة الذكورية والصوت الجهوري من شيم أبناء الحارات، وتلازم أشكال التعبير والتواصل في ما بينهم. ففي الأحياء

السكنية، لا في مجتمع الحارات، سمعت الناس يتخاطبون في أصوات ولهجة ليّنة غير قاسية، كأن يقول واحدهم للآخر: صباح الخير، كيفك؟ إذا بتأمر، إذا بتريد، فيما يتخاطب أبناء الحارات تخاطباً جهورياً خشناً لا تخفى نبرته الاستعراضية: شلون الشباب؟ أهلين وسهلين، الله حيّو، كيف الهمة خيّو، كيف العيال؟ وفي الحارات لا مهرب ولا خيار لأبنائها من أن ينشأوا قساة وينخرطوا في عراضاتها ومشاجراتها اللصيقة بدورة حياتها اليومية وقيمها ولغتها السائرة. وللمشاجرات في الحارات أصنافها ومراتبها. فالتي تبدأ بالصراخ والشتائم تسمّى «فاشوش»، أي فارغة وتافهة ولا معنى لها، لأن الصراخ يؤدّي إلى تجمع الناس واحتشادهم، سريعاً، فيتمكنون من الحؤول دون اشتباك المتصارخين وتضاربهم. لذا فإن المشاجرة الحقيقية التي تفصح عن أن من يقدم عليها صاحب باعٍ وخبرة فيها، يجب أن تبدأ بالضرب من دون صياح ولا صراخ، يمكن أن يليا الضربة الأولى. ومن يسبق خصمه في الوصول إليه وضربه، قبل أن يحتشد الناس ويفصلوا بينهما، يُقال إنه «علَّم عليه» (على خصمه)، أي أهانه وأذلّه. وهذا يحتّم على من لحق به الذل والمهانة، أن يبادر لاحقاً إلى ترصّد فرصة سانحة كي يمحو ما لحقه بالإقدام على إذلال غريمه بضربة مباغتة في شجار مرتقب. ومن الخبرات والتقنيات المتحصّلة عن المشاجرات في الحارات، التي ذهبت أمثلة سائرة أو دليلاً في بابها، يُنصح بعدم الإقدام على التشاجر مع من ينتعل «شحاطة» في الطريق، لأن هذا يعني أنه في حارته وبين أهله الذين يسارعون إلى نجدته. أما إذا بدأ أحدهم الشجار مع شخص يجلس في سيارة، فعلى الواقف في الطريق أن يحول دون خروج خصمه من السيارة، قبل مبادرته بضربةٍ سريعة

على «زلعومه» (حنجرته) تقطع نفسه لثوان معدودات. لكن الضربة الأولى بين متشاجرين في الطريق، يجب أن تكون رفسة على الخصيتين، لأنها كفيلة بأن تُذهب صواب الخصم وتُلاشي قوته، إن لم توقعه أرضاً مغشياً عليه. والبند الأخير في دليل المشاجرات هذا، هو ضرورة أن يهرب من استطاع أن يدمي خصمه، لأن الدم الذي تسيله شطبة موسى أو طعنة سكين مخيف، ويحتم إنهاء الشجار بفرار مسيله.

هذا كله لا يعني أن أبناء حارات حمص وحدهم كانت علاقاتهم سيئة بأبناء العشائر. فعلاقة هؤلاء بسكان الأحياء الجديدة خارج الحارات كانت سيئة ولا تخلو من الريبة والحذر والنفور والنظرة المستعلية على أبناء العشائر. هذا برغم أن أهالي الحارات، أكثر من سكان الأحياء الجديدة، هم من يحتكّون مباشرة بأبناء العشائر، بحكم الجوار والتداخل السكني. فقبالة بيتنا بدار جدي للسكن العائلي الموسع في الخالدية، كان ينزل بدوي فاعوري يدعى أبو عطية، وأذكر من أولاده، إلى عطية، مرهف وأيمن وأبو عرب وأحمد الملقب «كحموش» لأنه كان شديد السمنة، نهماً في تناول الأطعمة، شأن والده الذي كان يمشي بصعوبة من ثقل كرشه الضخم، من دون أن يمنعه لهاثه من إطلاق غضبه الدائم صراخاً وشتائم في الحارة، بلا سبب واضح أو معلوم. كانت سنوات قد مضت على مغادرتي حمص التي عدت إليها من بيروت في زيارة استغرقت أياماً، لما شاركت في مشاجرة دامية نشبت بين عائلتنا وأولاد أبو عطية في الخالدية، قبل أن يهبّ الفواعرة لنجدتهم. كان سبب الشجار تحرُّش واحد من أبناء أبو عطية بابنة عمي. ولما أخرجني صراخ النساء إلى شرفة بيتنا، أبصرت في الطريق عشرات

الرجال والشبان والفتيان الفواعرة يطبقون على أعمامي وأولادهم، في مشهد من العراك والتضارب بالأيدي والأرجل والعصيّ، وسط تصايح النسوة على شرفات الحارة وتشاتم المتعاركين. فركضت إلى الطريق حاملاً عصاً عاجلت بها أول فاعوري رأيته أمامي، بضربة على رأسه رمته قوّتها إلى الأرض مغشياً عليه. لكنني، بعد ذلك، لم أعد أميّز من أين تأتيني الضربات واللكمات ولا أشعر بوقعها على جسمي، كأنها تصيب جسم شخص سواي، وسط تدافع جموع من رجال الحارة وشبانها الذين أنجدونا وحاولوا الفصل بيننا وبين الفواعرة المطبقين علينا، ويفوق عددهم عددنا أضعافاً. بعد وقت لم أستطع تقديره، هدأ العراك فجأة، فبان لي، وسط تبعثر حشد من الرجال، ابن أحد أعمامي ينفر الدم غزيراً من رقبته، فيما أخوه يضغط بيده على موضع تدفق الدم، فأيقنت أن ضربة موسى قد بضعت رقبته، وأن العراك بلغ نهايته.

فالدم في معارك الحارات وسواها، إذ يبعث الخوف والجزع في قلوب المتعاركين وسواهم من الجموع التي تحاول تهدئتهم والفصل بينهم، يؤدي أيضاً إلى فرار الجميع واختفائهم المفاجئ، سوى الجريح وأهله وأقاربه الذين يتحلقون حوله لنجدته وحمله إلى حيث يمكن إسعافه. وما يحمل المتعاركين على الهرب وتوقف العراك هو أيضاً إطلاق النار في الهواء إرهاباً في معظم الحالات، أو إصابة أحد المتعاركين في ما ندر. فالرصاص والسلاح والدم تبعث الرعب في المشاجرات ومعارك الحارات. وهذه يتواضع أهلها ويتواطأون، فيما هم يتضاربون ويسيل دمهم في معاركهم، على ألا يطلب أحد منهم تدخّل رجال الشرطة التي يؤدي حضورها إلى توريطهم في ما هو أقسى وأشد مضاضة عليهم مما ينزله بعضهم بالآخرين من قسوة

وعنف. وهم يتواطأون أيضاً على فض العراك الدامي والهرب والتواري، قبل حضور رجال الشرطة أو الأمن، إذا صودف حضورهم تلقائياً. أما من يُجرَح ويسيل دمه في هذه المعارك، فعلى أهله وأقاربه أن يسارعوا إلى حمله والتواري به، متجنّبين أخذه إلى أيّ من المستشفيات لإسعافه. فإدارة المستشفيات تضطر إلى استدعاء رجال الأمن الذين يتدخلون في الحادثة التي سقط فيها الجريح. لكن الأهالي الذين ليسوا من أهل الحظوة والسطوة في سورية البعث والأسد، خبروا طويلاً أن القسوة والعنف الأهليين اللذين يتبادلونهما أرحم عليهم من قسوة أجهزة الدولة الأسدية، وعنفها وسجونها، في حال تدخلها في منازعاتهم ومعاركهم.

في سيارة سوزوكي حملنا ابن عمي الجريح جرحاً بالغاً في رقبته، فأحسست ــ أنا من ضغطت جرحه بيدي، وأرعبني منظر الدم الذي راح ينفر غزيراً من بين أصابعي ــ بأن دمه الحي والساخن يتدفق راعفاً على إيقاع النبض في قلبه. حين وصلنا إلى منزل المطهر، كان قميصي وذراعي ملطخين بسيل من الدم، فأرعب مشهدنا المطهِّر في صالون بيته. وما إن كشف على رقبة ابن عمي، حتى تضاعف رعبه، ورجانا، أنا وشقيقه الذي قاد السيارة، أن نحمل الجريح إلى أقرب مستشفى، لإسعافه، لأنه هو، المطهِّر، يعجز عن تقطيب جرحه الفاغر، ويخاف من أن يكون شريان أو وريد داخلي في رقبته يحتاج إلى رتق في عملية جراحية. في هذه اللحظة استل ابن عمي غير الجريح، موسى من جيبه، وهجم على المطهِّر، ووضع الموسى على عنقه، وهدّده بالذبح ونزع حنجرته، إذا لم يبدأ فوراً بإسعاف أخيه وتقطيب جرحه الذي سارع المطهِّر إلى تقطيبه، بعدما أحضر محفظة أدواته وبسطها على طاولة في

الصالون. في صمت، ومرتجف اليدين والشفتين باشر المطهِّر عملية العلاج والتقطيب، فانتبهت، فجأة، إلى أنه هو نفسه الذي أجرى لي، بموسى الحلاقة، عملية الختان نهار جمعة في دار جدي قبل سنوات كثيرة.

كلام التاريخ الصامت

في واحد من المنامات التي أخذت تتدافع محمومة في رأسي أثناء نومي الصباحي العسير في غرفة صغيرة أقمتُ وحدي فيها ببيروت بعد أقل من أسبوعين على اندلاع الثورة السورية، أبصرتُ المطهّر إياه يحزُّ عنقي بالموسى، فأفقتُ مرتاعاً شبه مبنّج، ورحت أتحسّس عنقي في عتمة غرفتي الشبحية. على منضدة صغيرة قرب سريري كانت شاشة اللابتوب ترسل ضوءها الفوسفوري، فتهيّأ لي، للحظات قليلة، أنني أرقد في سرير مستشفى مجهول، قبل أن أستعيد وعيي المكاني بالغرفة وأشيائها من حولي. حدستُ أن دماغي كان يعمل في أثناء غفوتي الكابوسية، كالجهاز الإلكتروني الذي رحت أمضي أوقات يقظتي كلها في غرفتي الجديدة محدقاً في شاشته، وكسائح محموم أقلّب صفحاته للتواصل والتراسل والتدوين وتبادل الأخبار والأشرطة المصوّرة عن يوميات الانتفاضة وتظاهراتها المتناسلة في مدن المحافظات السورية وأريافها.

بعدما أيقظني منام المطهّر، عبثاً حاولت أن أغفو من جديد. صوت رؤى، الناشطة في الهلال الأحمر في حمص، التي لم أعرفها ولا عرفتني قبل تواصلنا عبر الـ«سكايب» والـ«فايسبوك»، بعد أيام من انتقالي إلى غرفتي الجديدة، أخذ يهوّم في عتمة رأسي بأصداء

ممغنطة من كلماتها. مذ شرعنا نتواصل، أخذ صوتها وكلماتها يوقفان الزمن بي، في لحظات من تواصلنا، فلا أعود أميّز في أيّ وقت ومكان أعيش. من دون إرادة منّي ولا قرار، راحت ترتسم في مخيّلتي ملامح وجهها، فألفته كما آلف وجهي وصوتي وأستغربهما حينما أضيّع تلك الألفة العميقة والحميمة في لحظات وأحوال ومواقف مفاجئة لا أدرك كنهها وبواعثها وسياقها، إلا بذلك الحدس الضبابي الشبيه بأحلام اليقظة. أدمنت ذلك الهوى الغامض الذي ملأني به وجهها من دون أن أراه، فيما هي تروي لي وقائع من يوميات التظاهرات في حمص، وتبثّ ما صوّرته من مشاهدها بكاميرا هاتفها المحمول. حتى إنني صرت أتخيّل أصابع يدها الصغيرة مهتزّة خلف كل صورة أشاهدها على الشاشة الصغيرة أمامي، فأسألها عن أماكنها في الشوارع والحارات والأحياء التي كنت موقناً أنني أعرفها، وبدت لي غريبة وجديدة تماماً في الصور المهتزة، كأنني لم أعرفها وما مشيتُ فيها قط في حياتي. كلما تذكر لي أسماء شهداء أو جرحى سقطوا في التظاهرات، أروح أذكر لها أسماء أشخاص امّحت في ذاكرتي ملامح وجوههم، وأقول لها أين يقيمون، فتروح تصف لي الأماكن والشوارع التي أسمّيها. نبرة صوتها المتقطع، أوحت لي بأن شغفاً وهوىً يطيران بها ويُشعرانها، فيما هي تروي، بأنها غريبة عن نفسها غربتها عن الأماكن التي تصفها لي وتتجول بي فيها، من شارع إلى شارع، ومن ساحة إلى ساحة. حين عبرت بي، مرةً، من أمام بيت المطهِّر، تذكرتُهُ، فسألتُها عنه، فقالت، بعدما سألت أمّها، إنه توفي قبل سنين كثيرة، فأبصرتُهُ في منامي الكابوسي بعدما غفوت غفوتي الصباحية العسيرة.

□□□

ربما كنت في الرابعة عشرة عندما ختنني المطهّر في ذلك النهار المشهود بدار جدّي في الخالدية. كان نهار جمعة على الأرجح، لأن شعائر ختان الأولاد كانت تُقام في الحارات نهارات الجمعة، فيجتمع في البيوت أبناء العائلة والأقارب والجيران، للمشاركة في إحياء تلك المناسبة الدينية والعائلية الموعودة. أذكر رجال عائلتنا، والدي وأعمامي وكثيرين سواهم، متحلقين حولي وقوفاً في صحن الدار الواسع، وأنا مربوط إلى كرسي، وعمّي ممسك بكتفيّ، يشدّني إلى ظهرها، كي لا أقوى على الحركة. العصائر والحلويات والكؤوس والصحون مصفوفة على طاولات في زاوية من صحن الدار، فيما النسوة والأولاد في الغرف الداخلية ينتظرون بدء الاحتفال بصراخي الذي ـــ حينما اقترب المطهّر مني حاملاً محفظته الجلدية، وجثا أمام جسمي العاري نصفه الأسفل، والموثق الرجلين إلى قوائم الكرسي ـــ أطلقته قوياً عالياً وعلى دفعات متمادية وصلت أصداؤها إلى نواحي الحارة، فكمَّ عمّي فمي بكفّه. في هذه اللحظة انطلقت أصوات منشدين يجلسون في زاوية من الدار، بمدائح وأناشيد دينية: اللهم صلّ وسلّم وبارك على سيدنا محمد وآله وصحبه... إلخ، فختنني المطهّر، بأن أدخَلَ صنّارة معدنية إلى الزائدة اللحمية في مقدّم عضوي، ثم بترها سريعاً وخطفاً بالموسى. مجدداً أطلقتُ صراخي الذي علا أصوات المنشدين، قبل أن يتراجع بطيئاً ويخفت، فيما المطهّر يضمد عضوي بالقطن المشرب بماء اليود ويلفّه بالشاش الأبيض، فبدأ أشخاص برشّ ماء الزهر عليّ وعلى الحاضرين من مزاهر يحملونها، وبدأ آخرون، بينهم أمّي وعمّاتي، بصبّ العصائر في الكؤوس وصفّها، مع الحلوى، على صوانٍ معدنية، وأخذن يقدّمنها ويوزّعنها على الرجال في الدار،

وحملن صواني أخرى إلى غرف النساء والأولاد في الداخل.

احتفالات الختان وسواها من مناسبات وشعائر دينية ــ عائلية، كالموالد والأعراس وحلقات الذكر الصوفية، كان الأهالي يحيونها شريطة ألا تعلو أصوات الأناشيد والمدائح والأدعية وتتجاوز بيوت المحتفلين. أما إذا علت الأصوات في احتفال ما وبلغت نواحي الحارة، فيحضر رجال الأمن إلى بيت المحتفلين، مستطلعين من هو صاحبه، ولماذا يحيي الاحتفال، ويتحققون من حصوله على إذنٍ أو تصريح مسبق من أحد المقار الأمنية في الحارة. فإقدام عائلة على إحياء احتفال مشهود في مناسبة ما، وإحضارها جوقة منشدين أو مغنّياً تعلو أناشيدهم وغناؤهم في الحارة عبر مكبرات الصوت، كانا يتطلبان إعلام أحد المقار الأمنية، والحصول منه على إذن أو تصريح مسبق، وإلا تعرّض الاحتفال للتوقيف، قبل أن تجري مساءلة المحتفلين وملاحقتهم والتحقيق معهم في مقر أمني يُساق إليه أهل البيت الذي يقام فيه الاحتفال، وأحياناً مع سواهم من الحاضرين. غير أن السوريين جميعاً علموا وخبروا ما يحدث في مقار أجهزة الأمن الأسدية، أو سمعوا عنه أخباراً مروّعة جيلاً بعد جيل، منذ ما قبل مقتلة حماه الكبرى في عام ١٩٨٢، وتوابعها من المطاردات والاعتقالات والمقاتل الصغرى والإعدامات الميدانية في سواها من المدن والأرياف السورية. الحملات الأمنية المتعاقبة هذه لم تتوقف عن تخيير المجتمع السوري ما بين أن يعيش سجين الصمت والخوف والكتمان والكذب والتسليم بجبروت دولة أمنية تقدّس «الأب القائد» وتعبده وذريته ورهطه، في العلانية العامة ومواكبها وحشودها، وما بين أن يتعرّض كل من لا يسلّم بهذا كله للاجتثاث

والسجن الأبدي، أو الاختفاء الإرادي والتشرّد في البلاد، أو الفرار منها إلى ديار الله الواسعة.

□ □ □

ها أنذا في غرفتي البيروتية أنقّل بصري ما بين شاشتَي التلفزيون واللابتوب. أمس دهمني فجأةً تساؤل لا أدري كيف تسلل إلى وعيي: ما الذي يقودني إلى التورّط في ما يحدث في بلد هجرته وأحسب أنني انفصلت عنه منذ أكثر من عشر سنين، حالماً بهجرة أبعد وأشد انفصالاً تأخذني إلى أيّ مدينة في أوروبا؟ فقبل أشهر قليلة من اندلاع الثورات العربية، وفيما كنت أروي سيرة حياتي هذه ما بين حمص وبيروت، تقدّمتُ بطلب لجوء إلى إحدى المفوضيات الأوروبية للاجئين في بيروت، فطلب مني موظف المفوضية أن أحصل على جواز سفر سوري، كي يُنظر في طلبي. جمعتُ من أصدقاء لي ومعارف لبنانيين مبلغ ثلاثة آلاف دولار، وبعثتها إلى والدي في حمص كي يقدّمها رشوة لضابط أمني سوري يعرفه، لقاء أن يحصل لي على جواز سفر مزوّر. لم يصلني جواز السفر، ثم نسيته في غمرة تواصلي مع ناشطين سوريين عبر الإنترنت. بعد أيام على انتقالي إلى غرفتي البيروتية الصغيرة، صرت كلما حضرتني مسألة جواز السفر وفكرة الهجرة، أستبعدهما أو أنحّيهما، كأنهما فصل ختامي لما رويته من سيرتي الحمصية والبيروتية. لكنني خلف مشاهد التظاهرات في ساحات حمص، وخصوصاً المسائية والليلية منها في الخالدية وباب السباع وبابا عمرو، أخذتُ ألمح، فجأةً، صوراً ضبابية لموالد وأعراس أتخيّل أنها استدراك لما لم تعشه حمص في أعياد طفولتي وصباي، أيام كان

يُحظر على أهالي الحارات أن يحتفلوا بأعيادهم وسواها من مناسبات، ويُمنَعون من تزيين الساحات وإضاءتها بالمصابيح الكهربائية ووضع مكبّرات للصوت في جنباتها. أحدّق في الشاشات أمامي، ومذهولاً ألتهم بعينيَّ ما أبصره من مشاهد في الساحات نفسها، غير مصدِّق أنني أرى ما أراه، ثم أفكر أن ما يصوّره شبان التظاهرات بكاميرات هواتفهم، ويبثّونه على الشبكة الإلكترونية، ينقل مشاهد لعالم وبشر سابقين على اكتشاف التصوير، لكن هذه المشاهد ليست إلا من صنيع الصور والتصوير. كأن الأجيال الشابة في سورية تتدارك ما فاتها في خمسين سنة عاشتها خارج الزمن والعالم والصور. الصور التي تنبعث منها أو يبعث الشبان فيها قوة بدائية، عارية ومتقشفة، اندفعت، فجأة، من قلوبهم وأجسامهم، ومن أعماق سورية المتجمّدة والصامتة منذ أجيال في صور الأسد وأبنائه وأنصابهم وكلماتهم الأشد جموداً وخواءً من تلك الأنصاب والتماثيل التي انتصبت كالقدر في الشوارع والساحات.

مذهولاً أحدّق في صور التظاهرات، فأتذكر ساحات الحارات شبه خالية وخاوية حينما كانت الأعياد مناسبات لانكفاء الأهالي وانزوائهم في البيوت، ولتبادلهم الزيارات والتهاني، منكسرين، بعد زيارتهم مقابر موتاهم وقتلى حملات الاجتثاث والترويع والتشريد التي حوّلت سورية سجناً كبيراً، فتعوّد أهلنا على إقصائنا، نحن أطفال الحارات وأولادها، عن أوقات تزاورهم الصامت الكئيب في الأعياد، وعلى إرسالنا لتوزيع النوغا والبسكويت وراحة الحلقوم عن روح النبي على أبواب المساجد. أحدّق الآن في الشاشات أمامي، وأسأل نفسي: هل هذه التظاهرات أعياد متأخرة ودامية في

الساحات؟! مرة، فيما أخذت رؤى تذكر لي أسماء شهداء تظاهرات إحدى الجمع في حمص، كدت أقول لها إن هؤلاء الشهداء هم شهداء الصحوة المتأخرة من سنوات الصمت والتسليم والموات التي أطبقت على جيلها وجيلي، وورثناها عن أهلنا وأجيال سابقة في السجن الأسدي الكبير. هل كنت سأصبح من شهداء هذا السجن، الذين أحصي اليوم أسماءهم في بيروت، لو لم تقدني الأقدار إليها عندما كان رجال الاستخبارات يوقفون سياراتهم «البيجو» البيضاء قرب مداخل المساجد لمراقبة رجال الحارات؟

آنذاك، في طفولتي وصباي، كنت أسمع في الحارة أن من يربّي لحيته ويطيلها على نحوٍ يُسمّى «عرف»، يُعرّض نفسه لتهمة أنه من «الإخوان» أو من مؤيديهم وأتباعهم، فيتعرض لمساءلات ومضايقات ترغمه على الإقلاع عن إطالة لحيته التي تنكّد عليه حياته اليومية. والذين كانوا يسمّون «دسّاسين» في الحارات، لم يكن أحد يعلم من يكونون، ويقال إنهم يكتبون يومياً تقارير يرفعونها إلى المقار الأمنية لرجال الاستخبارات. و«سياسة» الدسائس هذه كان رجال الأمن يحرصون على إشاعتها بين الأهالي، ليظل حضورها الافتراضي الغامض أقوى وأشد سطوة من حضورها الفعلي أو الحقيقي، كي تبقى الريبة والشك متفشيين في الحياة اليومية وعلاقات الأهالي، فلا يأمن هذا على نفسه من ذاك، ويقول هذا لذاك إن شخصاً ثالثاً «خطّه حلو» أو إنه «رفيق»، كناية عن أنه دسّاس يكتب التقارير، فيهيمن صمت على الجميع، ويفسد الحذرُ العلاقات والكلمات بين الأفراد والجماعات، وخصوصاً ما بين السنّة والعلويين. فالعلويون كانت تنزل جماعات منهم في أحياء

يغلبون على سكانها ونسيجها الاجتماعي غلبتهم في الإدارات والمؤسسات الحكومية، وفي أجهزة الأمن الكثيرة الأسماء والمقار في أحياء المدينة وحاراتها.

□□□

لم أكن على معرفة بأيّ كردي سوري أو غير سوري، قبل أن يعرّفني كاتب سيرتي هذه إلى شاب كردي من القامشلي، فرّ في الشهر السابع من الثورة إلى بيروت هارباً من دمشق، حيث كان يقيم ويعمل وينشط في إحدى تنسيقياتها، فاستضفته أسبوعين في غرفتي البيروتية. حمله على الفرار تهديد رجال الأمن أهله في القامشلي بقتل أخيه المجند في الجيش، إن لم يكفّ هو عن نشاطه في التنسيقية الدمشقية. أثناء نزوله في ضيافتي أرسل إليه أهله جواز سفر مزوّراً، لقاء ٥ آلاف دولار دفعها والده لضابط في الاستخبارات العسكرية. طوال ليلة أمضيناها منفردين في غرفتي، روى لي ما لا أعلمه عن تاريخ مدينتي الاجتماعي وموقعها الجغرافي الفريد في سورية.

فجأةً فكرتُ وأنا أستمع إليه أن رغبته في الرواية، وما يرويه عن حمص، مستجدان، كعزوفي التلقائي عن رغبتي في الهجرة إلى أوروبا، وكالهوى الغامض الذي ملأني به صوت رؤى ووجهها المتخيّل، فيما هي تجول بي، عبر الـ«سكايب»، في شوارع حمص وحاراتها وأحيائها، وأنا جالس في غرفتي البيروتية. لذا غادرتني دهشتي من أن يكون شاب كردي غريب عن مدينة طفولتي وصباي وفتوتي ويصغرني بسنوات خمس، على معرفة أكثر مني بتاريخها الاجتماعي والسكاني المكتوم والصامت والممحوّ في السجن

الأسدي الكبير. فحمص، في روايته، سوريةُ المزاج والهوى أكثر من مدن سورية الكبرى الأخرى. وداخليتها ليست كداخلية حلب المشدودة، تاريخياً، إلى الأناضول العثماني فوق انشدادها إلى سورية، وذلك بفعل اتساع الجاليات التركمانية والأرمنية والكردية فيها، إلى جانب الجالية العربية. كما أن حمص تختلف عن دمشق الداخلية، المغلقة والمحافظة، التي يشدّها، تاريخياً، إلى الداخل، هوىً أو ميل حجازي. بالمقارنة مع حماه، يخفف موقع حمص الجغرافي من داخليتها. فهي وحدها من المدن السورية الداخلية في الشمال والوسط الغربيين، لا تقف الجبال حاجزاً بينها وبين البحر المتوسط الذي لا يبعد منها أكثر من ٤٠ كلم من السهول المنبسطة التي تسمّى «فتحة حمص» الممتدة من الساحل المتوسطي إلى الداخل السوري، ما بين جبال العلويين ــ التي تقع خلفها حماه وإدلب الداخليتان ــ وسلسلة جبال لبنان الشرقية الداخلية التي تقع دمشق خلفها في الداخل. «فتحة حمص» المنبسطة هذه، تجعل المدينة في مهب الرياح البحرية المحمّلة الرطوبة الحارة صيفاً، يحوّلها هبوبها السريع على السهل المفتوح بين الجبلين، صقيعاً في الشتاء. إلى هذه الميزات الجغرافية والطبيعية، تتميز حمص أيضاً بتوسطها شبكات المواصلات السورية، ما بين الساحل السوري ومدنه، وحلب الداخلية شمالاً، ودمشق في الوسط الداخلي، ودرعا على الحدود الأردنية جنوباً، وما بين سورية الغربية هذه وسورية الشرقية في الداخل. الانفتاح الطبيعي والجغرافي هذا، يجعل حمص مدينة غير داخلية، أو بحرية في بعض ميزاتها التي تتجلى في عدم انغلاقها الاجتماعي، واستقبال عائلاتها المدينية وسكانها موجات التفتح والتحديث، أكثر من عائلات دمشق وحلب وحماه.

المجتمع السياسي السوري ما بين الحربين العالميتين وفي حقبة الاستقلال وما بعدها بسنوات قليلة، كانت عائلات حمص، كالأتاسي والدواليبي والترك والسواح وسواها، حاضرة فيه حضوراً بارزاً وقوياً. وهذا أسهم في تفتح المدينة السياسي، وفي احتضانها الهوية الوطنية السورية وتمثيلها، قبل أن تخنق الانقلابات العسكرية المجتمع السوري، وتحوّل السياسة نشاطاً أمنياً. ومن علامات الانفتاح الاجتماعي في حمص، أن عائلاتها وأهلها لا يمتنعون عن تزويج بناتهم للعلويين والكرد، على خلاف الدمشقيين والحلبيين. وقد يكون هذا من بواعث اعتبار النساء الحمصيات مميزات بجمالهن، وبواعث القول السوري الشائع بأن حلب مميزة بمطبخها ودمشق بمائها، وحمص بنسائها أو بناتها. في هذا السياق تبرز أيضاً النكتة الحمصية التي تتميّز المدينة بها وتشتهر. فالمعروف أن التهكم والسخرية يزدهران في مجتمعات مدينية منفتحة. والحماصنة المشهورون بتهكمهم على أنفسهم، يستعملون النكتة سلاحاً ضد البداوة الاجتماعية والاستبداد السياسي اللذين عرفتهما المدينة وسواها من المدن السورية في الحقبتين البعثية والأسدية المتصلتين.

فيما كنت أستمع إلى الشاب الكردي، أخذت صورة جديدة لحمص ترتسم في وعيي ومخيلتي، تختلف عن صورتها في ذكرياتي، كأنه في ما رواه أراد أن يقول إن «سورية الأسد» التي توقّف الزمن والتاريخ بها، ليست قدراً، وإنها لن تبقى محميّة أمنية خرساء، وامّحى تاريخها الحي واختُصِر برفع الابتهالات وآيات التقديس لحارس الأمة والتاريخ، بوصفه معجزتهما الوحيدة. لذا تهيّأ لي أنني أسمع في رواية الشاب عن حمص، أصداءً من هتافات شبّان سورية وشاباتها وأهلها، مذ فاجأوا أنفسهم والعالم بخروجهم

إلى الشوارع والساحات، محاولين إخراج مدنهم وبلداتهم وأريافهم والجغرافيا البشرية والاجتماعية لبلدهم وتاريخه، من ذلك السجن الكبير الذي أُرغموا على العيش فيه مقهورين خائفين. فكل تظاهرة في شوارع سورية وساحاتها، وكل كلمة يهتف بها المتظاهرون، وكل صورة يصوّرونها ويبثّونها على شاشات العالم الافتراضي الأشد واقعية وحقيقة من كل ما عاشوه طوال أكثر من نصف قرن، هي فعل خروج على القهر والخوف. كأنهم في هذا يقولون إن في سورية بشراً سوى ذلك الصنم الكئيب المنتصبة تماثيله في الساحات الخاوية قبل خروجهم إليها. وليقولوا أيضاً إن في صدورهم كلمات سوى كلماته الجوفاء، وسوى كلمات وارثه المهذارة الشبيهة بكلمات مدرّس بعثي، على ما قال محدّثي الكردي الشاب، قبل أن يروي لي شذرات مما ألحقه نظام الأسد من تغيّرات في تركيب حمص السكاني، غداة استيلائه على السلطة في سورية عام ١٩٧٠.

في عشايا ذلك الاستيلاء كانت الغالبية السكانية سنّية في حارات المدينة التقليدية القديمة، كباب السباع، وبابا عمرو، وباب الدريب، والبياضة، والمقبرة، إلى جانب حضور بارز للروم الأرثوذكس الذين كان وادي النصارى، إلى الجنوب الغربي القريب من حمص، معقلهم التاريخي القديم في سورية. أما الخالدية، أقدم الأحياء المحدثة في المدينة، فنشأ في ستينيات القرن العشرين على تخوم الحارات، وتشبّه بها عمرانه العشوائي، بعد توسّعه ونزوح جماعات من البدو للإقامة على أطرافه. كان حضور العلويين طفيفاً في حمص. لكن النظام الأسدي استعمل العلويين النازحين من ريفها الجنوبي الشرقي، ركيزة أمنية لسيطرته على المدينة. فمن ذلك

الريف شبه الصحراوي المسمّى المخرّم التحتا والمخرّم الفوقا اللتين لا تبعدان من حمص أكثر من ٤٠ كلم، كان العلويون قد نزحوا إلى المدينة. وبعدما كان علويّو منطقتَي المخرّم يعتاشون على الرعي والقليل من الزراعة في قراهم الصغيرة حول ما يسمّى سبخات (مستنقعات) قليلة الماء والكلأ ـ ويعمل بعض رجالهم وشبانهم مياومين في أعمال يدوية وجسمانية متعبة في حمص ـ جعلهم النظام الأسدي عناصر في أجهزته الأمنية، فوقع تجبّرهم وتزمّتهم، إلى قسوة طباعهم، وقوعاً ثقيلاً على أهل المدينة وحياتهم الاجتماعية. من الريف الغربي السني في تلكلخ وسهل القصير المتاخم لحمص والقريب من الحدود اللبنانية، وفدت إلى حمص أقلية شيعية اثنا عشرية، فتوطنت إلى جانب العلويين، في أحياء جديدة، مثل النزهة، و٨ آذار، ومساكن الشرطة، وحول جامعة «البعث» في حمص التي تقع هذه الأحياء في جنوبها الشرقي، وبلغ عدد سكانها العلويين، في العقد الأول من الألفية الثالثة، زهاء ١٥٠ ألف نسمة. أي ما نسبته من ١٠ إلى ١٢ في المئة من سكان المدينة. ولتوسيع القاعدة الاجتماعية لسيطرته، عمل النظام الأسدي على استقطاب مسيحيّي حمص، فخصَّ جماعات وعائلات منهم بوظائف في جهاز الدولة الإداري البيروقراطي المحلي، إلى جانب العلويين الذين جعل الأجهزة الأمنية، وخصوصاً مراتبها العليا المحلية، وقفاً عليهم تقريباً، وقوّى حضورهم ونفوذهم في الجهاز الحكومي، من إدارات التموين والتعليم، إلى دوائر تخليص المعاملات، فاستغلّوا هذا النفوذ واستعملوه في الاستيلاء على إتاوات ومداخيل مهمة، غيّرت أوضاعهم الاجتماعية والاقتصادية، في مقابل تراجع أحوال سكان المدينة «الأصليين» وانكفائهم على أعمال

«حرة»، مهنية وتجارية، إلى جانب تحصيلهم بعض المداخيل من أملاكهم العقارية. لكن هذه الأعمال وغيرها لم تكن في منأى من ابتزاز الأجهزة الأمنية والإدارية، ومن دبيب فسادها المستشري. أما اليد العاملة الرخيصة في المدينة، كورش البناء والحدادة والنجارة وميكانيك السيارات، فهي من نصيب العامة من أهالي الحارات والبدو الذين توطّنوا على تخومها في الأحياء الجديدة. فهجرة البدو إلى حمص بدأت في منتصف الثمانينيات من القرن العشرين، مشكِّلةً، بعد هجرة العلويين، الموجة الثانية الكبرى من الهجرات التي استوطن مهاجروها في الأحياء الناشئة شرق المدينة. إلى نزول عشائر بدوية في الخالدية، فإن دير بعلبة هو الحيّ العشوائي الأكبر الذي نزلت فيه هذه العشائر، وتوطنت. تقدّر نسبة أصحاب الأصول البدوية من سكان حمص في مطالع الألفية الثالثة بحوالى ٣٠ في المئة. حضور هذه العشائر واتساعه في المدينة، إلى جانب حضور العلويين، أشعرا أهلها «الأصليين» بالاختناق في وسطها التقليدي وأحيائها الجديدة، فانكفأوا على حياتهم الاجتماعية متوجّسين خائفين. قبل مقتلة حماه في عام ١٩٨٢ وبعدها، شنّ النظام الأسدي حملات مطاردة واعتقال وتنكيل وقتل ضد جماعات «الإخوان المسلمين» وأهلهم وأقاربهم، وعلى من يشتبه شبهة طائفية أو مذهبية في أنهم من أنصارهم ومعارفهم، فتكفلت هذه الحملات مضاعفة التوجس والخوف والترويع في أوساط الأهالي السنّة وسواهم من أصحاب النشاط اليساري المعارض. لكن الظاهرة الاجتماعية الأبرز التي نجمت عن هذا كله، تجلت في انطواء الحمصيين السنّة على اجتماعهم الأهلي التقليدي المحافظ، مرتدّين إلى ما يمكن تسميته «محافظة جديدة أو محدثة»، توسّلت بإحياء

ثقافة وشعائر وطقوس وتقاليد دينية إسلامية وبعثها، للتحصّن بها في وجه العسف والترويع الأمنيين. كان إقبال النساء المتزايد على التحجب وستر وجوههن بالنقاب الأسود من مظاهر هذه المحافظة المحدثة، بعدما كان الإقبال على السفور قد شهد موجات متلاحقة في أوساط نساء العائلات الحمصية وبناتها في الربع الثالث من القرن العشرين.

□□□

حين ذكر محدّثي الكردي الشاب مقتلة حماه وذيولها على هذا النحو، تدافعت في ذاكرتي صور ومشاهد كثيرة. منها مشهد إعدام ميداني صباحي لرجال في أحد شوارع حلب، أبصره، مصادفة، رجل سوري من منبت حلبي، ومن منكوبي ذيول تلك المقتلة وحملاتها المتلاحقة، حينما كان لا يزال شاباً يدرس في جامعة دمشق، وذهب إلى حلب لزيارة أهله فيها. في بيروت عام ٢٠٠٧ روى الرجل وقائع المشهد المروّع لكاتب سيرتي الذي أتى به إلى غرفتي البيروتية في كانون الأول ٢٠١١، طالباً منّي أن أسعى لدى منظمة إنسانية غير حكومية كي تساعده ليتداوى من مرض السرطان، بعدما أمضى عشر سنين في سجون الأسد الأب والابن. كانت الأيام المجيدة التي عاشتها بيروت ولبنان احتفالاً بتحرّرهما من الاحتلال السوري الأسدي، ما بعد اغتيال رفيق الحريري في شباط ٢٠٠٥، هي التي حملت الرجل المنكوب ــ كما حملتني من بعده ــ على الاستشفاء من ذكريات الآلام السورية، بفتح ملفاتها ورواية سيرتها. بعد روايته وقائع مشهد الإعدام الحلبي، صرخ: أين أنت يا إسبانيا؟! ذلك أنه كان يسعى جاهداً آنذاك

لاستصدار جواز سفر سوري يمكّنه من الهجرة إلى إسبانيا التي كان قد أنهى دراساته العليا في إحدى جامعاتها في ثمانينيات القرن العشرين. لكنه حين صرخ صرخته تلك، لم يكن يمتلك شيئاً من مبلغ الـ ١٥٠٠ دولار الذي طلبه منه ضابط استخبارات سوري، لقاء منحه جواز السفر. وبعدما تبرّعت له بالمبلغ سيدة لبنانية قرأت سيرة عذاباته وآلامه في إحدى الصحف البيروتية، وأقدمت على فعلتها هذه في غمرة استشفاء اللبنانيين الاحتفالي من «سورية الأسد»، حصل الرجل على جواز سفره الموعود، لكنه اكتشف أن مدة صلاحيته لا تتجاوز شهرين اثنين، انقضيا قبل تمكنه من الحصول على تأشيرة سفر من السفارة الإسبانية في بيروت. وبدل أن يفرَّ إلى أرض الأحلام الموعودة، أخذ يصرخ مجدداً: أين أنت يا إسبانيا؟! وذلك في غمرة خوفه من سجون الأسد على ابنه البكر الذي أُرغم في بداية الثورة في ٢٠١١ على الالتحاق بالجيش السوري لأداء خدمته العسكرية الإجبارية. أما حين جاء مع كاتب سيرتي وسيرته إلى غرفتي البيروتية، طالباً المساعدة للتداوي من السرطان، فأخبرني أنه خائف على ابنه، وأنه رشا ضابط استخبارات سوريةً بألف دولار، كي يؤدّي الابن خدمته في دمشق، لأنها أقل خطراً عليه من المدن والمحافظات السورية الأخرى.

لم أرو شيئاً من هذا كله لضيفي ومحدّثي الكردي الشاب. لكن كلامه على ما سمّاه «المحافظة المحدثة» في حمص ثمانينيات القرن العشرين، ذكّرني بمشاهد لعمّاتي المنقّبات في الخالدية أيام طفولتي وفتوتي، فأخذت أروي لمحدّثي بعضاً من تلك المشاهد، حينما كان الناس في حمص يسمّون المرأة التي تخرج سافرة إلى الشارع «فرجة»، فيقول أحدهم لآخر: «شفت فرجة، ومرقت حدّي

فرجة». ذلك لأن العابرين في الشوارع كانوا يتوقفون عن السير ملتفتين نحو المرأة السافرة، مندهشين من سفورها، ويروحون يتفرجون عليها. لكن شغف محدّثي الكردي بفقه اللغة العربية، أدهشني في تلك اللحظة، إذ علّق متسائلاً عن الصلة اللغوية الاشتقاقية ما بين الفرجة والفرج والانفراج. فما كان منّي إلا أن سألته عما إذا كان يدري لماذا يسمّى النقاب «فيشة» وما هي الدلالة اللغوية لهذه الكلمة؟ قبل أن يجاوبني: حضرتني مشاهد قديمة لنساء شركسيات سافرات في شوارع الخالدية، فسألته متعجباً: هل الشركس مسيحيون، مثل الأرمن الذين كانوا في حارات حمص؟! بدل أن يجيبني عن سؤالي هذا، قال إن الأرمن كانوا موزعين في سكنهم على الحارات، شأن الشراكس الذين كان الفقر والعوز يغلبان على أحوالهم المعيشية. لكن مشهد مرور البنات الأرمنيات والشركسيات سافرات في شوارع الحارات، كان غالباً ما يثير «هرجة» ما بين شبّانها وفتيانها الذين كانوا من النوافذ يتلصصون على الفتيات المحجّبات في بيوتهن، وإذا ما بادلت إحداهن شاباً أو فتى، نظرة خرساء أو إيماءة، كان يقول إنها أحبّته، وصارت له ومن نصيبه.

أما في أوقات إحياء الموالد وحلقات الذكر، فكنت ترى نساء الحارة في حجاباتهن على سطوح البيوت، أو مزدحمات خلف نوافذها المشرعة، للفرجة على الرجال والشبان المتحلّقين في صفوف وسط الساحة، استعداداً لبدء الاحتفال بتمايل أجسامهم ورؤوسهم البطيء، فيما شيخ وفرقته ينشدان المدائح النبوية على قرع الدفوف. يتسارع تمايل الأجسام والرؤوس في وتيرة متصاعدة تسمّى «التحماية» التي تبعث الحرارة والحميّة في أجسام المشاركين

في حلقات الذكر، كلما علا صوت الشيخ وفرقته بالمدائح والتواشيح على إيقاعات الدفوف، فتتعالى أيضاً أصوات المتمايلين المتشابكي الأيدي وكتفاً إلى كتف، ويستغرقون في ترداد اسم الله ترداداً إيقاعياً متتالياً، متباطئاً في البداية، ثم يتسارع مع المتمايل الجمعي المتسارع. حماوة الإيقاع والإنشاد وحركة الأجسام في تمايلها جيئة وذهاباً مردّدة: الله، الله، الله، الله... تزيد أعداد النساء على السطوح وخلف النوافذ، فيروح الرجال والشبان المتمايلون في صفوفهم المتراصة، يتعرّقون ويتعرّقون حتى تلتمع بالعرق جباههم وأعناقهم، وتزوغ أبصار بعضهم وتصفرُّ وجوههم إيذاناً بإشراف أحدهم على الإشراق أو الانخطاف الذي يسلّمه إلى غيبوبة مرتعشة. في هذه اللحظة ــ إذا كان المولد مناسبة ختان حصل صاحبها على إذن مسبق من مقر جهاز الأمن لإحيائها ــ يطلق والد الابن المحتفى بختنه، الرصاص من مسدسه في الهواء، كأنما الطلقات هذه وحالات الانخطاف والإغماء التي تصيب هذا وذاك من المشاركين في حلقة الذكر، تعلن أن الاحتفال انطلقت وتيرته التصاعدية نحو ذروتها التي تدوم وقتاً تتوالى فيه حالات الغيبوبة وتتكاثر بين رجال الحلقة وشبانها. في هذا الوقت، غالباً ما يُحضِرُ إطلاق النار رجال الأمن إلى ساحة الاحتفال الذي لا يعني حصول صاحبه على إذن أمني مسبق لإحيائه، أنه يستطيع إطلاق النار، لكنه يطلقه موقناً أن مئتي ليرة سورية حضّرها في جيبه إلى جانب المسدس، كافية لشراء سكوت رجال الأمن عند حضورهم. فالموالد وحلقات الذكر والأعراس في الحارات، تظل من دون إطلاق النار من المسدسات ناقصة وعديمة «الطعم» و«ناكتة» (أي بلا قيمة وتثير السخرية) على ما سمعت رجالاً يردّدون في حارتنا.

ثم إن «الطعم» والقيمة هذين ضاعفهما الكبت الأمني في «سورية الأسد». هكذا اتخذ إحياء الموالد وحلقات الذكر وطقوس التصوّف الشعبي والأعراس، طابع «مقاومة» أهلية واجتماعية، تكرّس أو تستعيد أشكال تنظيم العراضات التقليدية القديمة في الحارات التي يصل رجال الأمن إلى ساحاتها، فيرشوهم صاحب الاحتفال ومطلق النار من مسدسه، كي يستمر الرجال والشبان في انكفائهم، وصولاً إلى ذروة الانخطاف والغيبة الصوفيين، فيسقطون إلى الأرض واحداً تلو آخر، ويتفصّد عرق غزير من أجسامهم المرتجفة عنيفاً ارتجاف نعاج ذبيحة، ظانّين أنهم في هذا يثأرون لكرامتهم المهانة أو الجريحة، ويخرجون من سجن الكتمان والعزلة، غير مدركين، وربما مدركين عميقاً، أن إغماءاتهم المرتجفة هذه، تذهب بهم بعيداً في العزلة والغيبة، حتى الانفصال عن الزمن والعالم، قبل أن يعيدهم من غيبتهم بلل ثيابهم وأجسامهم بمياه غزيرة يدلقها المتفرجون عليهم، ممزوجة بماء الزهر.

كانت أمي تمقت هذه الطقوس وتنفر منها. وهي ظلت على هذه الحال برغم تحجبها بعد مدة من إقامتنا في الخالدية، من دون أن يرغمها أحد على ذلك، بل أقدمت عليه تلقائياً، كي لا يُقال إنها «فرجة». أما والدي فسكت عن الأمر وتفهّمه إلى أن طلب منها خلع حجابها في عرس عمّي الأصغر، فلم تستجب طلبه، هو الذي أراد إحياء عرس مشهود لأخيه الأصغر. وإذا كانت الأعراس كلها مشهودة في الحارات، فإن عرس عمي كان على خلاف معظمها في عزوف والدي عن إحياء شعائر دينية فيه، كالموالد والأوراد. فوالدي تُستجاب كلمته ورغباته في عائلتنا، لأنه بكر إخوته،

واستمد حظوة من أخواله النافذين، ومن عمله سائق سيارة عمومية في محطتهم للتسفير ونقل الركاب ما بين حمص وبيروت. كغيره من سائقي السيارات العمومية والعاملين في قطاع النقل، كان والدي ولا يزال ينفر من الطقوس والشعائر الدينية، ومن المشايخ والمتدينين والحجاج، ويُقبِل على شرب الكحول. فنمط حياة العاملين في هذا القطاع ومعيشتهم القائمان على التنقل، واتساع علاقاتهم وسيولتها وتشابكها، وكثرة الأوقات التي يمضونها خارج البيوت، وانخراطهم في أعمال التهريب وشبكاتها، وتعاملاتهم مع رجال الأمن والجمارك الحدودية ورشوتهم، تطبع شخصياتهم وسلوكهم وقيمهم ومزاجهم وعلاقاتهم بميزات شبه سلكية، من مظاهرها عدم امتثالهم للعادات والتقاليد الاجتماعية، ومكرهم بها وتحايلهم عليها، وإقبالهم على السهر والشرب وحفلات الطرب، وإقامتهم إفطارات رمضانية من دون أن يكونوا صائمين. لذا أبى والدي ـ وهو تولّى عرس عمي وتكفله ـ إلا أن يتضمّن العرس سهرة طربية مشهودة تكثر فيها المآكل ومازات العرق وشربه، فأحضر لذلك مطرباً حمصياً معروفاً، أعرج، طويل الشعر، وكثيف الشاربين. طوال الحفلة فيما هو يغني، لم يتوقف المطرب هذا عن شرب الماء المحلى بالسكر. حفلات الأعراس هذه التي يكثر فيها الغناء والسكر والأكل، وتستمر حتى أوقات متأخرة من الليل، كانت تسمّى «أعراس الشوفيرية». ولأن دار جدي للسكن العائلي المشترك في الخالدية، كانت مكتظة وضيقة، أحيا والدي العرس في دار صديقه الواسعة وغير المسكونة بعد. وبرغم الطابع غير الديني للحفلة، لم يتغيّب عن حضورها أيٌّ من أهالي حارتنا، حتى المتديّنون الذين جلسوا إلى جانب معارف والدي وأصدقائه «الشوفيرية» الموصوفين

بـ«السكرجية». فأهالي الحارات لا مهرب لهم من القيام بالواجب في الأعراس والمآتم والموالد ومناسبات الختان. لكن «عرس الشوفيرية» الذي أحياه والدي لعمي، وتميّز بالسهرة الطربية الرجالية الطويلة والصاخبة حول طاولات المآكل والشرب حتى السكر، بديلاً من المولد والأوراد الدينية، لم يختلف في شعائره الأخرى عن الأعراس التقليدية في الحارات. بدأ التمهيد للعرس بشعائر نقل جهاز العروس من بيت أهل العريس، أي من دار جدي، إلى بيت أهلها، حيث أقيم ما يسمّى «عرس النسوان». رجال من عائلتنا، نقلوا الجهاز ـــ أي ثياب العروس الجديدة الموضّبة، على أنواعها المختلفة، في صُرَر كبيرة ـــ بسياراتهم إلى بيت أهلها. نسوة من عائلتنا، ترجّلن من السيارات وحملن الصرر على رؤوسهن، وسرن في الشارع الذي يؤدي إلى بيت أهل العروس في حارتهم، لأن تقاليد نقل الجهاز تحتّم ألا يتجاوز الرجال من أهل العريس حدود الحارة أو الشارع الذي يقيم فيه أهل العروس الذين ما إن دخلت إلى بيتهم النساء حاملات الصرر، حتى بدأ «عرس النسوان» باستعراض الجهاز وفساتينه الكثيرة التي سترتدي العروس فستاناً منها في كل ليلة من ليالي عرسها في بيتنا، نحن أهل العريس. من أهل العروس لم يحضر «عرس النسوان» سوى النساء اللواتي رحن يطلقن زغردات حزينة تكاد تبعث على البكاء، فيما نساء عائلتنا وصديقات العروس انشغلن باستعراض الفساتين وغيرها من ثياب الجهاز، متباهيات وغير آبهات بالزغردات الحزينة التي وصلت إلى أسماع الرجال من أهل العروس، الجالسين في الدار الواسعة، مكسوري الخاطر وصامتين، كأنما على رؤوسهم الطير. وسرعان ما تعالت الزغردات، فصارت أكثر حزناً وبكائية في وداع العروس، بعد

ارتدائها فستان رحيلها من بيت أهلها الذين وقف رجالهم في مدخله لوداع ابنتهم الوداع الأخير. فالمرأة، وفقاً للقول الشائع والمأثور، تنتقل من بيت أهلها إلى بيت زوجها أو رجلها، ومنه إلى القبر. لكن قبل ارتدائها فستان الرحيل، ارتدت العروس فساتين الجهاز، واحداً بعد آخر، وأدّت في كل منها «فتلة»، أي رقصة استعراضية وسط زغردات يختلط فيها الحزن بالفرح. الطقس النسوي هذا تكرّر فِرحاً من دون حزن في بيت صديق والدي، بعد وصول العروس إليه، بوصفه بيت أهل العريس، الذي أقيم فيه ــ في وقت «عرس النسوان» ببيت أهل العروس ــ طقس ذكوري استُعرضت فيه بذلة العريس وحذاؤه وقميصه وربطة عنقه وصولاً إلى ثيابه الداخلية التي سيرتديها في ليلة عرسه الأولى. ثياب ليلة الدخلة هذه، صُرَّت في شرشف يسمّى «بقجة» حملها شبّان من أقارب العريس وأصدقائه، وأخذوها إلى بيت أهل العروس، حيث سلّموها للرجال الجالسين واجمين في الدار الواسعة، فحملها رجل منهم إلى غرفة «عرس النسوان» اللواتي رقصن بها ورحن يقربنها ويبعدنها من العروس، فيما هي تخلع فستاناً وترتدي آخر. لكن الطقس الذكوري هذا لم يبلغ ذروته، إلا بعدما أُعيدت «البقجة» إلى بيت أهل العريس، حيث حملها شبّان من أقاربنا وأصدقاء العريس، عمي، وراحوا يرقصون بها رقصة اعتزاز وتباهٍ، فيما انشغل شبان آخرون ــ كنت بينهم ــ بخلع الثياب عن العريس، قطعة قطعة، وأخذوا يخِزون جسمه بالدبابيس، كناية عن إيقاظهم حواسه ورغبته وشهوته، وسط إنشاد الشبان جميعاً مدائح نبوية، يقول مطلعها: اللهم صلِّ وسلّم وبارك عريسنا، عريس الزين. هذا قبل أن ينتهي هذا الطقس بإلباس العريس ثياب ليلة دخلته المرتقبة على عروسه.

وما قام به الشبان في هذا الفصل من شعائر العرس التمهيدية، صار مصدر اعتزازهم وتباهيهم في أحاديثهم اللاحقة، كأن يقول أحدهم للآخرين: أنا رفعت «بقجة» ثياب العريس ورقصت بها، فيجاوبه شاب آخر: أنا الذي ألبسته تلك الثياب التي دخل بها على عروسه، ليقول ثالث: أنا أنشدت المدائح النبوية، أو: أنا وخزته بالدبوس.

ثم بدأت الزّفة، وهي فصل انتقال العروس من بيت أهلها إلى بيت العريس. يستمد هذا الفصل شعائره من العراضة التقليدية في الحارات، ويستعيد بعض أشكالها على نحو مسرحي أو ممسرح. وإذا كانت العراضة تستنهض اللحمة أو العصبيات العائلية والأهلية في الحارة، وتثير حميّة رجالها، فتعبّئهم وتجيّشهم في مواجهة حارة أخرى، فإن الوظيفة الرمزية والإجرائية للزفّة تنطوي، في الدرجة الأولى، على توكيد عذرية العروس وبكارتها، أي شرفها وشرف أهلها، وهما واحد لا تنفصم عراهما، كما أنها تنطوي، في الدرجة الثانية، على توكيد فحولة العريس الذكورية والتباهي بها. لكن التوكيد الثاني يستمد معناه وحضوره من توافر الشرط الأول، أي بكارة العروس، التي يشكل فضّها مختبر فحولة العريس وتباهيه مع أهله بإسالة دمها البكر في ليلة دخوله الأولى على عروسه، وذلك برهاناً على عذريتها أولاً، وعلى رجولته ثانياً. لذا يكاد العرس كله، في شعائره وأدواره، أن يكون للطرفين ــ للعروس وأهلها، وللعريس وأهله بدرجة أقل ــ اختباراً شبه ملحمي، يتخذ شكل عرض مسرحي حيّ في العلانية العامة الأهلية، مستحضراً تراث الحارات وثقافتها وقيمها وشبكة علاقاتها وتنظيمها ومراتبها الاجتماعية في بوتقة مدارها الشرف العائلي.

العرض المسرحي لزفة عمي بدأ بخروج العروس الأخير من بين أهلها في صحبة رجالهم ونسائهم وفتيانهم وأطفالهم، فسار موكبهم هذا في شوارع حارتهم، وصولاً إلى حدودها التي التزم رجال الموكب عدم تجاوزها، وعادوا إلى بيوتهم واجمين منكسرين بعدما سلّموا ابنتهم التسليم الأخير لعريسها وأهله المنتظرين عند حدود حارتهم. في هذه اللحظة بدأ فصل جديد من عرض الزفة المسرحي، ينطوي رمزياً وشكلياً على اعتبار العروس كناية عن غنيمة غنمها أهل العريس الذين راحوا يستعرضونها في طقس يسمّى «الجاهة». الكلمة هذه مصدرها الجاه والوجاهة، وتعني اعتزاز أهل العريس وتباهيهم بغنيمتهم. توسّط عمي العريس وعروسه الصف الأول من موكب «الجاهة» ــ أحاط بهما من الميمنة والدي شابكاً ذراعه بذراع أخيه، وإلى جانبه أعمامي الآخرون. تصدّر والدي هذا الموقع في «الجاهة» بوصفه مقدّم عائلتنا في غياب جدي المتوفى الذي تقتضي أعراف «الجاهات»، لو كان حياً، أن يتوسّط، في الضرورة، الصف الأول، إلى يمين ابنه العريس الذي أحاط به من الميسرة رجال من أقاربنا. خلف الصف الأول انتظمت صفوف أخرى من الرجال والشبان، أقارب وجيران من حارتنا وسواها من الحارات. أما النساء فمكانهن في الموكب وراء صفوف الرجال، تقدّمتهن أم العريس وأخواته إلى جانب أم العروس وأخواتها، وخلفهن قريباتهن وسائر النساء من الجيران والمعارف في حارتنا وسواها، تليهنّ جميعاً مجموعات الأولاد والأطفال في مؤخرة الموكب الذي تقدّم صفه الأول شبّان راحوا يؤدّون رقصة السيف والترس بأزيائهم التقليدية المزركشة، وإلى جانبهم ضاربو الطبل والدفوف وحدّاؤون يردّدون الأغاني الشائعة والمعروفة ترحيباً

بالعروس وقدومها: «وإن هلّيتي وهلّ هلالك (إن بزغتِ كالهلال) دزّينا البارودة قبالك (رفعنا البنادق قبالتك ذوداً عن شرفك). وإن هلّيتي يا عمّتنا (كلمة عمّتنا هنا تعني إدخال العروس في مراتب القرابة الدموية) نحنا الشباب بلمّتنا (واللمة تعني تحلّق شبان عائلة العريس، وتكوكبهم على مثال عصبي، استقبالاً للعروس). نحنا شباب الخالدية/ الواحد منا يقابل ميّة». في نهاية كل ردّة من أمثال هذه الحوربات، كانت النسوة يطلقن من وسط موكب «الجاهة» زغردات متتالية، مع اشتعال قرع الطبل والدفوف، وتصاعد وتيرة رقصة السيف والترس. من الحداءات الشائعة في «الجاهة» أيضاً: «شنك ليلي شنك ليلي/ ألله يعينو عَ هالليلة (يعني العريس). من هالليلة صرلو عيلة (أي صار للعريس عائلة وذرية) الله يعينو عَ هالليلة»، وهي ليلة دخوله على عروسه. لكن هذه الردة التي تطلب للعريس العون من ربّ العالمين، كي يمنحه عزم الرجولة والفحولة في ليلته الأولى الموعودة، سرعان ما تليها ردّة جوابية، غالباً ما يطلقها شُبّان من أقاربه، تؤكد رجولته وفحولته: «من عاداتو (عاداته) يحارب عسكر/ يهجم عَ الدبابة بخنجر». ويقال في حمص إن هذه الردة تستعيد تراث عراضات الحارات القديمة في المدينة، أيام انتفاضاتها ضد الاحتلال الفرنسي في عشرينيات القرن الماضي وثلاثينياته. ومن خرافات عائلتنا وسواها من العائلات الحمصية، رواية تقول إن والد جدّي هجم، في واحدة من تلك الانتفاضات، على دبابة فرنسية، فذبح بخنجره أربعين جندياً فرنسياً، وفرَّ هارباً، بعدما سلب الجنود المذبوحين بنادقهم الحربية.

□ □ □

في كتاب مذكّراته الموسوم «بين مدينتين: من حمص إلى الشام» (دار رياض الريس للكتب والنشر، البيروتية، ١٩٨٨) يروي عدنان الملوحي، الحمصي، شهادة حيّة تتناول فصلاً من تلك الانتفاضات في حمص، يعود إلى عام ١٩٣٦. لكنه يستبق شهادته هذه، بوصفه مشاجرة عنيفة شهدها في العام نفسه، ما بين شبّان من حارات حمص وفتواتها، عندما كان فتى صغيراً، وخرج في صحبة والده «الشيخ الإمام من الجامع الكبير، بعد صلاة العشاء». فلما «وصلنا ــ يكتب الراوي ــ إلى الطريق قبالة الجامع، انهالت علينا الحجارة من كل ناحية. نظرنا، فإذا فئة من شبان أحد الأحياء تقتتل مع فئة من حيّ آخر. كانت كل منهما تحاول التغلب على الأخرى وطردها وإلحاق الهزيمة بها، مستخدمة السكاكين والأمواس والعصي والحجارة والحبال وأسلاك الحديد. كان الجميع يلبسون الشراويل السوداء العريضة والصداري ويلفّون شالات مطرزة حول بطونهم. (ظل صراخهم) يتعالى ويشتد قتالهم (... حتى) تقدم نحوهم الشيخ الإمام، وصرخ في وجوههم يزجرهم ويلوّح بعصاه، فتفرقوا ولم يعد يظهر لهم أثر».

إذا كانت واقعة توقف الشبان عن العراك وتفرّقهم، تكشف مكانة الشيخ، إمام المسجد، ودالّته على شبّان الحارات وفتيانها، فإن دالته هذه مقرونة أيضاً بإدراكه لأوضاعهم الاجتماعية التي تدفعهم إلى العراك العنيف، الذي أطلق عليه صفة «الظاهرة»، لكثرة تكراره وتفشّيه في الحارات، على ما يبدو. في تفسيره هذه «لظاهرة» لابنه الفتى، يرى الشيخ أن «هؤلاء الشبّان الجُهّال أفسدتهم البطالة ومزّقهم البؤس والفراغ، ونزل الفقر والجوع بساحتهم، فتشردوا في

الأسواق والدروب، ولم يجدوا ما يعبّرون به عن سخطهم على هذه الحياة الشقيّة، غير هذا التصرف الأرعن الذي يعود بهم إلى أيام الجاهلية الأولى (السابقة على) الإسلام. وهم يعبّرون بهذا السلوك عن (...) نقمتهم على هذا المجتمع البائس الشقي، وعلى النظام الاستعماري الظالم». أما الراوي، ابن الشيخ، فيضيف مستنتجاً ومهتدياً بكلام والده، أن هؤلاء الشبّان يقدّمون في عراكهم «صورة شوهاء» عن حقيقة مجتمعهم في حمص وسورية كلها في تلك الحقبة. الحقيقة هذه تشي صورتها في رواية الراوي، بأنها بطولية وملحمية، وعلى الضد والنقيض من «الصورة الشوهاء (التي) لم تكن لتمحو الصورة الناصعة الرائعة والمشرقة والنقية لنضال شعبنا وأمتنا، ضد فرنسا والاحتلال الفرنسي (...) في كل مدينة وقرية ومزرعة وحي وشارع وطريق من بلادنا». الصورة هذه عايش الراوي بنفسه وقائعها، بالتزامن مع الصورة الأولى «الشوهاء»، عندما شهد «معارك ضارية» و«ثورات وطنية وشعبية لاهبة ضد الفرنسيين المحتلين الغاصبين». وإذا كان «سلاح الثورات الوطنية» هو نفسه سلاح شبّان الحارات في صورتهم «الشوهاء»، أي «الحجارة والعصي والمقاليع»، فإن ما يحلّ محلّ السكاكين والأمواس والحبال وأسلاك الحديد في هذه الصورة، هو «بعض البنادق الطويلة والبطيئة الحركة التي كان ينتزعها الثوار من أيدي (الجنود) الفرنسيين في المعارك». لكن ما يجعل صورة معارك الثورات الوطنية بطولية وملحمية في رواية الراوي، ليس هذه البنادق، بل «الوحدة الوطنية المتراصة (التي) كنا نقاتل» بها المحتلين، حاملين «الأعلام العربية السورية» استعداداً للسير في «تظاهرة وطنية كبرى تخترق الشارع الرئيسي المؤدي إلى دار الحكومة» في حمص. فمن «حزيران ١٩٣٦، استمر الإضراب

العام (في سورية الانتدابية الكولونيالية) ستة أشهر». الملوحي يصف واحدة من تظاهرات ذلك الإضراب في مدينته، انطلقت من المكان نفسه الذي شهد فيه العراك العنيف ما بين شبان الحارات قرب المسجد، حيث تجمعت للتظاهر ضد الاحتلال الفرنسي «حشود هائلة من أبناء حمص البطلة وشبّانها».

في هذا الدور البطولي للتظاهر الوطني المرصوص، غادر شبّان الحارات صورتهم «الشوهاء» و«الجاهلية» ــ التي ذكّرت الشيخ الإمام، والد الراوي، «بما كنا عليه قبل الإسلام» ــ لينصرفوا «إلى مقاتلة المستعمر والتصدي له». اللافت في هذا السياق أن لغة الشيخ وابنه، هذه التي يعود زمنها ومرجعها إلى حقبة ما بين الحربين العالميتين وبعدها، لا تختلف عن اللغة البعثية الوليدة في الحقبة نفسها، إلا في تشديد الشيخ على الهوية والهوى الإسلاميين، وتقديمهما على الهوية والهوى العربيين. فابنه ينقل عنه قوله إن «الإسلام وحّد العرب وجعل منهم أمة ذات رسالة إنسانية كريمة، بعد تفرّقهم قبائل وشيعاً» في الجاهلية. أما رطانة «البعث» وأستاذه الإسكندروني زكي الأرسوزي فجعلت من العروبة القومية ما يشبه ديناً لــ"أمة عربية واحدة ذات رسالة خالدة»، مُسقطةً الإسلام ذا الرسالة الإنسانية الكريمة في لغة الشيخ الملوحي وابنه. وفي رطانة زعيم قومية أخرى ولدت في الحقبة نفسها أيضاً، استُبدلت العروبة والإسلام بدين آخر، هو «السورية القومية الاجتماعية». الديانتان القوميتان، العروبية البعثية، والسورية القومية الاجتماعية، وحّدهما «الأب القائد» حافظ الأسد، بعد استيلائه على السلطة البعثية السورية، في إطار ذي وجه «سياسي» صفيق سمّاه «الجبهة الوطنية

التقدمية»، لم يبق من هاتين الديانتين الرساليتين سوى الصفافة الأمنية والاستخباراتية القاتلة في «سورية الأسد» الأب والابن، والمصفِّقة في لبنان للقتل اليومي في سورية.

لم يولد البعث وأمّته ورسالته الخالدة من عدم، بل من تاريخ المجتمع السوري وإحباطاته المديدة في خضمّ انتفاضاته الوطنية والشعبية المجهضة التي عاش الملوحي الفتى وشهد بعض فصولها في حمص، وروى وقائع إحدى تظاهراتها الدامية. وهو، أي حزب البعث، لم يحكم سورية ويتسلط عليها، إلا لأنه ولد من رحم تلك الإحباطات والإجهاضات المتتالية التي صوّر نفسه وللشعب السوري أنه المخلّص منها. ولصناعة صورته الخلاصية هذه، أسكت البعثُ التاريخَ والمجتمع السوريين، أمّمهما وجعلهما من فضلات تراثه، على مثال كل دعوة رسالية خلاصية لا تلبث أن تتحول نصباً أو صنماً. وها هو ذا المجتمع السوري يحاول منذ آذار ٢٠١١ الخروج من كهوف البعث الأسدية، منتفضاً على مثال الانتفاضات التي وصف الملوحي بعض مشاهدها في حمص عام ١٩٣٦: «لما اشتد بأس المتظاهرين وخاف الفرنسيون (من إقدامهم على) اقتحام دار الحكومة (...) لعلع صوت الرصاص، ودبّت الفوضى في صفوف المتظاهرين فتراجعوا في غير نظام، ولحق بهم (الجنود) الفرنسيون، ولكنهم توقفوا عند (بداية) طريق حماه، وأخذتُ أركض نحو منعطف الطريق المؤدية إلى حارتنا، وسمعت الجماهير تهلل وتكبر، ثم رأيت شبّاناً من المتظاهرين يحملون على أكفّهم عدداً من الشهداء والجرحى، ويضعون على الأرض بجانب جدار جثتين لاثنين منهم، سقطا للتو. وسمعتُ الناس يقولون: هذا عبد الرزاق الفرّان، وذاك أمين الشمالي. كان أولهما من حارتنا ويعمل أجيراً في

فرن قريب، والثاني من حارة الخالدية القريبة. ولما اقتربتُ من الفرّان المسجّى على الأرض، تمنيتُ لو أمسح بيدي الصغيرة دماءه [الذكية] التي لا تزال تسيل حارّة من فمه وأنفه (...) وفي ذاك اليوم المشهود شيّعت سورية عدداً من الشهداء».

لكن الفرق كبير ما بين أيام انتفاضات سورية على الاحتلال الفرنسي الخارجي في عام ١٩٣٦، وانتفاضاتها على الاحتلال البعثي الأسدي الداخلي في عام ٢٠١١. فشهداء الانتفاضات الأخيرة «إرهابيون» و«خونة» و«مندسّون» و«عملاء»، على ما تصفهم كهوف أجهزة الإعلام الأسدية. أما شهداء انتفاضة عام ١٩٣٦، فأخذ شقيق الراوي الملوحي، يقرأ أسماءهم مساءً في صحيفة «القبس» الدمشقية، وهو جالس في بيته، من دون أن تدهم البيت أجهزة الأمن الفرنسية، فتروّعه مع أهله وتقودهم إلى معتقلات جماعية، بعد تحطيم أثاثات المنزل ونهب ما خفّ حمله منها وغلا ثمنه. وبعدما فرغ الأخ من قراءة أسماء الشهداء جهاراً من دون خوف، أخذ يقرأ مقالة الصحيفة الافتتاحية التي اشتهر بها صاحبها الأستاذ نجيب الريس، الذي كان «من رجال النضال ضد الاستعمار الفرنسي»، وأسّس نجله، رياض الريس داراً للنشر، أصدرت في عام ١٩٨٨ مذكرات عدنان الملوحي وسيرته الحمصية، بعد ما يزيد بسنين على نصف قرن على ما شاهده في حمص من تظاهرات واحتجاجات دامية ضد الاحتلال الفرنسي. أما أنا فقد قرأتُ في غرفتي البيروتية شهادته بعد ٧٥ سنة على حوادثها ووقائعها، محاولاً التبصّر فيها واستنطاقها في ضوء الانتفاضة السورية على ديكتاتورية حافظ الأسد وابنه بشار الأسد، فتساءلتُ عن مصير الفتاة طل الملوحي، ابنة التسعة عشر ربيعاً،

بعدما أدّت بضع كلمات على مدوّنتها الإلكترونية إلى تغييبها عام ٢٠٠٩ في السجن، وترويع أهلها، فأقنعوا ابنتهم بأنها كانت «تتجسّس لحساب دولة أجنبية» في «قلعة الممانعة» الأسدية وحزبها «المقاوم» في لبنان.

□ □ □

بعد أيام من فرار ناشط سوري شاب من بانياس إلى بيروت، عرّفته إلى كاتب سيرتي، فروى له وقائع الانتفاضة ويومياتها في مدينته. أمضى الشاب حوالى شهر في بيروت، ثم غادرها إلى طرابلس مع ناشطَين اثنين آخرين فرّا بعده من بانياس. ففي الأيام الأخيرة من إقامته البيروتية تكاثر تلقّي الشاب تهديدات هاتفية مجهولة، قبل تعرّضه لمحاولة اختطاف ليلية في أحد متفرّعات شارع الحمراء، فنجا منها، مثلما نجا من محاولة مماثلة، بعد زهاء شهرين، ناشط سوري فرّ من حمص عقب اعتقاله وتعذيبه وإطلاق سراحه.

في الساعة الحادية عشرة والنصف ليلاً، كنا مجموعة شبان لبنانيين وسوريين نقف على الرصيف قرب مطعم «بربر» في الحمراء. فجأة لمحتُ عدداً من الشبان يخرجون سريعاً من سيارتين توقفتا أمام المطعم. تركوا أبواب السيارتين مشرعة وتقدموا منا بخطوات ثابتة وسريعة، فأيقنتُ أننا هدف لهجومهم. قبل أن أصرخ كان اثنان منهم قد باغتا الشاب الحمصي الواقف بيننا، فطوّقا بأذرعهم جذعه، وأخذا يدفعانه نحو إحدى السيارتين. كانت صرختي قد أجفلت أصدقائي فتباعدوا خطوات إلى الوراء، قبل اندفاعنا جميعاً وإحاطتنا الشبّان المهاجمين الذين لم نستطع تخليص صديقنا الحمصي

منهم. لكن صراخنا حمل عدداً من زبائن المطعم الواقفين على الرصيف، على نجدتنا، فلم يقوَ المهاجمون على خطف الشاب، وأُرغموا على تركه متدافعين إلى السيارتين من طراز مرسيدس ــ شبح سوداوين، انطلقتا سريعاً في اتجاه شارع الحمراء مطلقتين زمامير متصلة. محاولة اختطاف صديقنا الحمصي الفاشلة هذه، ضاعفت مخاوف الشاب الكردي السوري الذي لم يكن معنا في تلك الليلة، لكنه علم بها من كاتب سيرتي، فبدّل مكان مبيته في غرفة بمخيّم شاتيلا ينزل فيها عشرة عمال أكراد سوريين يعرفهم من مدينته القامشلي، بعدما استضفته أسبوعين في غرفتي. أما الضابط في جهاز الأمن العسكري السوري في حمص، المتعاون مع شبّان في انتفاضتها، فقد اتصل بنا وأخبرنا بأن رئيس الجهاز في حمص أوفده إلى بيروت لتولي مهمة إدارة مجموعة أمنية لبنانية ــ سورية مشتركة تخطط لاغتيال ١٥ ناشطاً سوريةً في لبنان، زوّده رئيسه الأمني لائحة بأسمائهم. وهذا حمل أربعة من هؤلاء الناشطين على مغادرة لبنان إلى بلدان أوروبية حصلوا على تأشيرات لجوء إليها، فيما ينتظر الباقون الحصول على تأشيرات مماثلة تتيح لهم المغادرة. أما الضباط الأمني فقد غادر لبنان أيضاً بعدما انكشف تعاونه مع ناشطي الانتفاضة في حمص وبيروت.

ومما رواه الضابط أن السلطات السورية منعت الصيادلة وأصحاب الصيدليات من بيع أكياس المصل والحقن المضادة للتسمّم (الكزاز) والجعب الطبية البلاستيكية الفارغة الخاصة بحفظ الدم، لأيٍّ من الأشخاص، إلا إذا كان في حوزته تصريح من أجهزة الأمن يسمح له بشرائها. فالمستحضرات الطبية هذه وسواها، عمل ناشطو الانتفاضة

على شرائها من الصيدليات، لإسعاف المتظاهرين المصابين برصاص رجال الأمن والجيش والشبّيحة، قبل نقلهم إلى المستشفيات الميدانية السرية التي أنشأتها التنسيقيات في بيوت من أحياء حمص. البيوت هذه هُدمت جدرانها الداخلية ووُسِّعت لتستوعب التجهيزات الطبية اللازمة لإجراء العمليات الجراحية. وإذا كان رجال الأمن والشبيحة قد أقدموا على قتل كثيرين من جرحى الانتفاضة، أو تعذيبهم حتى الموت، بعد نقلهم إلى المستشفيات الحكومية، فإن الإجراء الذي نفذته الأجهزة الأمنية على الصيدليات، استهدف أيضاً قتل جرحى الانتفاضة بالحؤول دون قيام شبّان التنسيقيات بشراء المستحضرات الطبية من الصيدليات، لتزويد المستشفيات الميدانية السرية بها. لذا قام شبان سوريون ناشطون في لبنان، تساعدهم جمعيات مدنية لبنانية ومنظمات دولية غير حكومية ناشطة في مجال المساعدات الإنسانية والطبية، بتزويد المستشفيات الميدانية في حمص مستحضرات ومعدات طبية جرى شراؤها من لبنان ونقلها إلى سورية عبر طرق التهريب الحدودية. أما جرحى الانتفاضة الذين يتعذر وصولهم إلى المستشفيات الميدانية في حمص وريفها، فينتقل بعضهم إلى لبنان عبر الطرق الحدودية نفسها. وهذا يفسّر إقدام وحدات من الجيش والأمن السورية على اجتياز الحدود اللبنانية ومطاردة ناقلي المعدات والمستحضرات الطبية والجرحى، وإطلاقها النار عليهم وعلى من ينجدونهم من السكان اللبنانيين المحليين في وادي خالد وعرسال، حيث سقط قتلى وجرحى لبنانيون. أحد رجال الأعمال السوريين من داعمي الانتفاضة ومزوّديها مواد عينية طبية وغذائية، اعتقله جهاز الأمن اللبناني في مطار رفيق الحريري، وهو على أهبة السفر في تموز ٢٠١١.

غداة العملية العسكرية التي شنّتها قوات الجيش وأجهزة الأمن السورية على حارة بابا عمرو في شهر تشرين الثاني ٢٠١١، فحاصرتها وقصفتها قصفاً عنيفاً بالمدافع ثم اقتحمتها لمطاردة ناشطي التظاهرات والمنشقّين عن الجيش المنضوين في «الجيش السوري الحر» ــ روت لي رؤى، العاملة في الهلال الأحمر، أن منظمات دولية غير حكومية كانت قد استطاعت تجهيز حوالى ١٥ مستشفى ميدانياً في حارات حمص وأحيائها. المستشفيات هذه أُنشئت في بيوت الحارات الداخلية أو في المساجد، وزوّدتها المنظمات سراً المستحضرات والآلات الطبية التي نُقِلَ بعضها من لبنان. لكن الوحدات العسكرية والأمنية التي اقتحمت بابا عمرو، استطاعت الوصول إلى المستشفى الميداني فيها، فحطمت تجهيزاته، واعتقلت منه خمسين جريحاً وأربعة أطباء، لم يعلم أحدٌ شيئاً عن مصيرهم الذي: ماذا يمكن أن يكون سوى التعذيب والقتل؟، قالت رؤى في معرض وصفها ما حصل في بابا عمرو: كل شهيد سقط من الأهالي في عملية الاقتحام، واستطاعوا خطف جثته والتعرّف إلى اسمه وأهله، دهموا بيته واعتقلوا أباه وإخوته. أما بعض الشهداء، ومنهم شاب من آل زغيب، فاعتقلوا أمهاتهم، واقتادوا المعتقلين جميعاً إلى شاحنات عسكرية كدّسوهم فيها مع أثاثات بيوتهم التي نهبوها، فيما القنّاصون منتشرون على سطوح البيوت التي سيطر الرعب على سكانها، فاختبأوا في غرفها الداخلية، منتظرين دورهم في عمليات الدهم والترويع والاعتقال والنهب. ثم توسّعت المداهمات، فشملت منطقتي عدوية وكرم الزيتون، بعد حصارهما أياماً بالحواجز العسكرية والأمنية، وبالقصف والقنص المتواصلين على شوارعهما وبيوتهما، مما منع سكانهما من الخروج

من منازلهم التي نُهبت أثاثاتها وحُمّلت في شاحنات عسكرية، لم تعد تتسع للمعتقلين، فاحتجزهم رجال الأمن في المساجد، حيث قاموا بتعذيبهم في انتظار عودة الشاحنات فارغة من الأثاثات المنهوبة، فكُدّس المعتقلون فيها ونُقلوا كالماشية، إما إلى المقار الأمنية وسجونها، وإما إلى السجون القديمة الكبرى المشهورة في «سورية الأسد»، وإما إلى المعتقلات الجماعية الجديدة في الملاعب الرياضية. أما معتقلو منطقة الوعر فجرى تجميعهم في مباني المدارس ومبنى الإطفائية، حيث دارت عمليات التعذيب، قبل نقلهم إلى مقار أمن الدولة والأمن العسكري. وبسبب أعمال القنص المتواصلة على شوارع الأحياء المحاصرة، صار تنقّل مسعفات الهلال الأحمر صعباً وخطراً جداً. وحين حاولن القيام بحملة إسعافات أولية وإغاثة للأهالي في باب السباع، اعترضتهن حواجز رجال الأمن وأوقفتهن وهدّدتهن بالاعتقال، إذا لم يعدن إلى بيوتهن، بعدما كان حاجز أمني قد اعتقل طبيباً وممرضاً في منطقة دير بعلبة، فاقتاد رجال الأمن المعتقلين إلى دبابة تابعة للجيش الذي كثّفت وحداته عمليات القنص والقصف والحصار على باب السباع والخالدية والبياضة، لشل الحركة في أحيائها الداخلية، لا سيما في محيط المستشفيات الميدانية، بعدما استطاع رجال الاستخبارات تحديد أماكنها، فعملت وحدات الجيش على قصفها قصفاً مركزاً وعنيفاً، لتخريبها وقتل الجرحى والطواقم الطبّية فيها، مما أدى إلى تعذر وصول المصابين اليها، وبقاء بعضهم ينزف حتى الموت في البيوت أو الشوارع. هذا ما حصل لجريحين في منطقة تدعى عشيرة، حيث خطف حاجز أمني جرحى آخرين مع مسعفيهم. لذا درّبت مسعفات الهلال الأحمر الناشطات بعض الأهالي في

الحارات والأحياء المحاصرة، على عمليات بدائية لبتر أعضاء الجرحى، تداركاً لالتهاب أطرافهم المصابة، وللمحافظة على حياتهم، إذا ما تعذّر نقلهم إلى المستشفى، وبقوا أوقاتاً طويلة في البيوت. بعض حواجز الجيش يغضّ جنودها طرفهم عن نقل الجرحى إلى المستشفيات الميدانية، لكن هيهات أن ينجو جريح من القتل أو الخطف على حواجز الأجهزة الأمنية التي، إذا علم رجالها بأن هذا الجندي أو ذاك سمح لجريح باجتياز الحاجز، يعتقلونه ويقتادونه إلى مقر الأمن العسكري للتحقيق معه. وهذا ما تعرّضت له المسعفات في مقر الهلال الأحمر، قبل أن تقف أمام مدخله مدرّعة تابعة للأمن العسكري، أخذ طاقمها يهدّد كل مسعفة تخرج من المقر، باعتقالها في حال عودتها إليه. أما اللواتي مكثن في المقر، فدخل عليهن آمر الطاقم الأمني صارخاً: شو عم تعملوا هني؟! (ماذا تفعلن هنا؟!) يا شراميط... يالله انقبروا فلّوا (هيا انقبرن وغادرنَ) ع بيوتكن من هني، يا قرد شو؟! بدكن حرية مثل هـــ الكلاب الخنازير؟!

أخيراً قالت رؤى إن والدها أخبرها بأن الأجهزة الأمنية أعادت قبل مدة تجنيد رجالها من قدامى المتقاعدين المسنّين، ونبّهها إلى أن هؤلاء شديدو البأس والقسوة، وقاموا بأعمال إجرامية وشاركوا في مذابح عندما كانوا شباباً في ثمانينيات القرن الماضي، أيام مقتلة حماه وتوابعها في المدن الأخرى. وبعد قولها إنها لم تعد تتحمّل ما تعرّضت له من مذلة وإهانات، ولا ما شهدته من عمليات قتل المتظاهرين السلميين والجرحى في ساحات حمص وشوارعها، انفجرت باكية ثم صرخت: أتمنى أن أحمل السلاح، نعم السلاح،

رداً على القهر والتعذيب والتنكيل والقتل. في هذه اللحظة توقفت رؤى عن الكلام، فلم أقوَ على إجابتها بأيّ كلمة، فانقطع الاتصال بيننا عبر السكايب.

□□□

استطالت يقظاتي في ليالي غرفتي البيروتية، فلم تعد تأتيني الغفوة إلا قبيل الفجر. خلف أصداء صوت رؤى وكلماتها وظلال وجهها، تتدافع في وعيي الشارد ــ وأنا مستلقٍ على الكنبة ــ مشاهد لشوارع وساحات في حمص. مشاهد نهارية ومسائية تتداخل أزمنتها القديمة والراهنة، وبلا صوت تتباعد وتقترب متباطئة ومتسارعة، فلا أقوى على توقيف تدفقها وحركتها كمتاهة تعمل تلقائياً وفي انفصال تام عن إرادتي. أحاول أن أتناساها بأن أنقِّل بصري على مدوّنات الـ«فايسبوك» ومواقع إلكترونية، ثم ألتفت بين وقت وآخر إلى صور على شاشة التلفزيون التي، بلا صوت، أترك ضوءها الفوسفوري ينير الغرفة إنارة شبحية. منذ انتقالي إلى غرفتي هذه أحببت أضواء الشاشات. بياضها الماصل يشعرني بفجر رحمي دائم يخدِّرني خارج الوقت، كأنما العالم بعيد ومنفصل، وأبصره كما في منامات تتدافع صورها كالصور والكلمات الصامتة على الشاشات.

أمس أطفأت شاشة التلفزيون، وعلى الشاشة الإلكترونية رحت أتصفَّح مدوّنات وأقرأ على مواقع كتابات لأشخاص لم أسمع بأسمائهم قبل انتقالي إلى غرفتي. لمحت اسم فدوى سليمان على مدوّنة، ففكرت بأن ما تكتبه ويكتبه كثيرون من الناشطات

والناشطين السوريين المختفين منذ بدايات الانتفاضة ــ كرزان زيتونة وياسين الحاج صالح وسمر يزبك قبل فرارها إلى باريس ــ يكسِبُه اختفاؤهم قوة مضاعفة وسطوعاً باهراً. تخيّلت أن هؤلاء الأشخاص الذين أدمنت أسماءهم وألفتها ألفةً محيّرة وغامضة، يعيشون تحت أسمائهم المجرّدة منهم، ويغرقون في لجة عميقة منبهرين باختفائهم وبضوء الشاشات. سحرتني فكرة أن الانتفاضة في سورية جعلتني في بيروت شخصاً شبيهاً بهم، مجهولاً، نائياً، ومنعزلاً في غرفتي. لكنهم يختلفون عني في إدمانهم الخوف ــ فكرتُ ــ ثم تخيّلتهم يختفون في مدينة، ويظهرون فجأة في تظاهرة في مدينة أخرى. بين اختفائهم وظهورهم رحلات ومشقات وأهوال مجهولة لا ينتقل من صورها ووقائعها شيء إلى الفضاء الإلكتروني الافتراضي الذي يبثُّ أسماءهم وكلماتهم في متاهته اللامتناهية. لماذا لا يكتبون مشاهداتهم ويصفون حوادث ووقائع عاشوها أو سمعوا أخبارها في شهور اختفائهم وتنقلاتهم وظهوراتهم المفاجئة؟ تساءلت. أليست الثورة السورية ثورة على ما تعرّض له المجتمع والتاريخ السوريةن من الكتمان والمحق في أزمنة البعث والأسد؟ هذا ما أحدس به كلما أبصرت على الشاشات مشاهد التظاهرات التي انكفأت أخيراً إلى الساحات والشوارع الداخلية في أحياء المدن السورية وحاراتها. أما ما يحييه المتظاهرون في أشكال تجمّعهم وحلقاتهم وحركات أجسامهم وأناشيدهم وهتافاتهم، رغم زخات الرصاص المفاجئة لفرق القتل، فليس أقل من طقوس آلام مخاض شعب يتهيّأ للولادة بعد أكثر من نصف قرن من الصمت والاستكانة والتسليم واللاتاريخ التي انتفض السوريون عليها، مستعيدين أشكالاً وألواناً من ثقافتهم وتراثهم. لذا يردد المتظاهرون ذلك الهتاف

القاسي والمروّع: «يلعن روحك يا حافظ»، الذي يلعنون فيه تلك الإرادة الشريرة التي دمّرتهم، تراثاً وثقافة ومجتمعاً وجماعات وأهلاً وعائلات وأفراداً، ومزّقت أرواحهم.

في قلب ذلك الحطام السوري الكبير والمزمن، اختفى قدامى الناشطات والناشطين من المثقفين والفنانين الناقمين بعدما ذاق كثيرون منهم ــ وذاق أهلهم قبلهم ــ المرارة والشقاء في السجون. كان هؤلاء في معظمهم يقيمون ويعملون في دمشق التي تظاهروا في شوارعها، ثم فروا منها مختارين أو اختفوا فيها بعد انتفاضة أهالي درعا في ١٨ آذار.

□ □ □

قبل أيام بهرتني فدوى سليمان في ظهورها بين متظاهري ساحة البياضة في شريط شاهدته مرات كثيرة على الشاشات، فرحت أقتفي أثرها ونتفاً من سيرتها في مدوّنات وأشرطة مصوّرة منشورة على مواقع إلكترونية. قرأت في مدوّنة تحقيقاً عنها نقلته صحيفة «القدس العربي» اللندنية عن صحيفة «يديعوت أحرونوت» الإسرائيلية. عنوان التحقيق جملة وجهتها الممثلة الناشطة المنتفضة إلى الشعب في صيغة نداء: «إما أن تموتوا وإما أن تحرروا سورية». هي في السادسة والثلاثين من عمرها. ولدت في اللاذقية. «عائلتها ثرية». أسرتها ثمانية أشقاء وشقيقات. مطلقة، وأم لطفل واحد، على ما ورد في التحقيق الذي يشير إلى أن نقمتها على مساوئ النظام السوري، لم تحملها على أي انتماء أو نشاط سياسي قبل «الربيع العربي». عقب تخرجها من المعهد العالي للفنون المسرحية في دمشق، اختارت العمل في المسرح «محاولة الهرب من الواقع ــ

تقول ــ لا لأنسى ما يحدث حولي من ظلم وقهر وفساد في القيادة العليا وأجهزة الأمن». إلى جانب أدوارها المسرحية الكثيرة، ظهرت في ١٣ مسلسلاً تلفزيونياً.

في بدايات الاحتجاجات في سورية، شاركت في تظاهرات كتاب وصحافيين وفنانين وناشطين سياسيين في دمشق، تأثراً بالانتفاضات العربية وتضامناً معها. لكنها «اعتقدتْ (أن الاحتجاجات في سورية) ستكون قصيرة (الأمد) وتمر»، معوّلةً على الصورة الإصلاحية للرئيس السوري الشاب، بشار الأسد، في بدايات وراثته الرئاسة عن والده الراحل. «ما حطمني طوال شهرين ــ تقول ــ هو صور أفلام قصيرة شاهدتُها (على شبكة الإنترنت) لأطفال حطم الشبيحة جماجمهم أمام أنظار (ذويهم الذين) تحدثوا عن عائلة أبيدت بوحشية مزعزعة، وعن فتيات وفتيان اغتُصبوا في مراكز الاعتقال». إنها صور ما حدث في درعا عشية انتفاضتها في ١٨ آذار ٢٠١١، بعد اعتقال رجال الأمن تلامذة كتبوا على جدران مدرستهم «لشعب يريد إسقاط النظام»، لاهين ومقلّدين ما سمعوه وشاهدوه في شوارع مصر، عبر الشاشات، فاقتلع رجال الأمن أظافر الأطفال. حين زار وفد من وجهاء عشائر المدينة وعائلاتها، مقر إدارة المحافظة، مطالبين بإطلاق سراح أطفالهم، قابلهم المحافظ عاطف نجيب ــ وهو ضابط أمن من أنسباء الرئيس الأسد ــ فقال لهم: انسوا الأطفال، وانصرفوا إلى إنجاب غيرهم، وإذا عجزتم أحضروا إليّ نساءكم. غادر الرجال مكتب المحافظ، وفي الأيام التالية انطلقت تظاهرات الاحتجاج في درعا.

□ □ □

بصعوبة وبطءٍ وعسر بدأت الانتفاضة في سورية. إرهاصاتها الأولى غير المباشرة، بدأت بصرخات شبان ورجال تجمهروا في أحد أسواق دمشق، وهتفوا «الشعب السوري ما بينذلّ»، رداً منهم على رجل أمن أو شرطي ضرب شاباً ضرباً مبرّحاً، جرياً على عادة عرفية، لأيّ من الأسباب وأتفهها، في «سورية الأسد». الجديد والمفاجئ في الحادثة التي وقعت بعد أيام من انتصار الثورة المصرية في ١١ شباط ٢٠١١، أن جمهرة الشبان والرجال الذين نجدوا الشاب المعتدى عليه، استطاعوا جبه رجال الأمن وآمرهم الضابط، ومنعهم من اعتقاله ورميه في سيارتهم، كالعادة السائدة في مثل هذه الحالات. الانتفاضات العربية الزاحفة ضاعفت دلالة الحادثة وأبرزتها، فتناقلت الخبر عنها وسائل إعلام أوروبية وعربية، بعد أخبار عن دعوات كثيرة فاشلة للتظاهر في دمشق، وجّهت عبر الـ«فايسبوك» بالتزامن مع دعوات جزائرية مماثلة، لم تستقطب سوى عدد ضئيل من المتظاهرين في إحدى ساحات الجزائر العاصمة.

الوقفات والتظاهرات الاحتجاجية الأولى، وتلك الداعمة لثورات «الربيع العربي» بدأت في دمشق، ودعا إليها وشارك فيها ناشطون وكتّاب وصحافيون وفنانون من الجنسين، ومن بقايا ما سُمي «ربيع دمشق» الصغير الذابل في عام ٢٠٠٠. لكن هذه البداية لم تكن مشجعة ولا باعثة على الأمل، بل على شعور بالعسر، على ما أشارت فدوى سليمان التي شاركت في بعض تلك الوقفات والتظاهرات الدمشقية. هو ما حدث في درعا ـــ بعد لهو أطفالها بكلمات «الربيع العربي» واعتقالهم وتعذيبهم، وخروج أهاليها إلى

الشوارع متظاهرين محتجين، وسقوط بعضهم جرحى وقتلى برصاص رجال الأمن، وتكرار المقاتل يومياً في المدينة ــ ما أدى إلى تكوّن جسم أو بؤرة اجتماعية أهلية ومحلية متجددة للانتفاضة في سورية، وأدى تالياً إلى تكوّن بؤر أخرى مماثلة في مدن وبلدات وأرياف سورية خرج أهلها متظاهرين محتجين وهاتفين «يا درعا حنّا (نحن) معاكِ للموت».

تكرار المقاتل يومياً في هذه البؤر المنتفضة، أحيا في ذكريات السوريين وروعهم المقتلة الأسدية الكبرى في حماه وسواها من مقاتل صغرى أو جزئية تناسلت في الديار السورية ما بين عامي ١٩٧٩ و١٩٨٥. لكن هذه المقاتل لم تكن منسيّة أو مندملة، بل حاضرة حضوراً راعفاً ومروّعاً في ذاكرة السوريين الجمعية، حتى في ذاكرة الأجيال الشابة التي ولدت ما بعد عام ١٩٨٢. فما فعله حافظ الأسد وأخوه رفعت ورهطهما الأمني والعسكري في حماه، رُفع أمثولة ــ معلماً في تاريخ سورية. هذا يفسّر من أيّ عمق هتف الشعب السوري المنتفض على جمهورية الطغيان والصمت، صارخاً تلك الصرخة «يلعن روحك يا حافظ» التي تبدو صرخة «الربيع العربي» المشتركة والعامة «الشعب يريد إسقاط النظام»، أهزوجة أطفال مقارنة بها. فسورية العميقة، المشتتة والمتباعدة جغرافياً على الأقل، بدأت غالبية جماعاتها تعثر على صورتها ووحدتها في هذه اللعنة، بعدما عثرت، في سياق «الربيع العربي» على بؤر عميقة لانتفاضتها في الأجسام الأهلية الداخلية المتناثرة والمحتلة أمنياً، والمستغرقة في عزلاتها الصامتة الكئيبة. في هذا المعنى صنعت الديار السورية المتباعدة انتفاضاتها بطيئاً بطيئاً وتدريجاً، على

خلاف الانتفاضة الثورية المصرية العاصفة التي أخرجت الملايين من الشعب المصري دفعة واحدة تقريباً إلى الشوارع والساحات ابتداءً من «جمعة الغضب» في ٢٨ كانون الثاني ٢٠١١، وحتى إخراج الرئيس حسني مبارك من سدة الرئاسة بعد أيام مشهودة متسارعة لا يتجاوز عددها العشرين.

□ □ □

بعد مشاركتها في الوقفات والتظاهرات الاحتجاجية لكتّاب وصحافيين وناشطين وفنانين من الجنسين في دمشق، وغداة انتفاضة درعا، اختفت فدوى سليمان، وباشرت نشاطاً سرياً متنقلاً في الديار السورية، قبل ظهورها، أخيراً، في حمص، متصدرة المتظاهرين في ساحة البياضة، إلى جانب الشاب عبد الباسط الساروت، حارس مرمى منتخب سورية للشباب في كرة القدم. ابتداءً من تشرين الثاني ٢٠١١، تكاثرت الأشرطة التي تصوّرها توجّه نداءات تدعو فيها السوريين، وخصوصاً تجار مدينة حلب، إلى المشاركة في الانتفاضة السلمية، مشددةً على نبذ العنف والنعرات الطائفية. في نداءاتها المصوّرة هذه، استلهمت ما سبق أن فعله ناشطون وناشطات في مصر، أمثال أسماء محفوظ، عشية الثورة المصرية. جرياً على عادتها في تقصّي الحوادث الدولية وثورات «الربيع العربي» والتعريف بأعلامه وناشطيه الشبّان والشابات، قامت وسائل الإعلام الغربية، المرئية والمسموعة، إلى جانب الفضائيات التلفزيونية العربية، باقتفاء أثر فدوى سليمان وسيرتها ونشاطها، وتناقل أخبارها، بوصفها نموذجاً من ناشطات الثورات العربية المعروفات والمميزات. ومما أوردته عنها مواقع ومدوّنات إلكترونية كثيرة، تحقيق «القدس

العربي» اللندنية، منقولاً عن صحيفة «يديعوت أحرونوت» الإسرائيلية، فوجد إعلام النظام السوري ضالته في هذا التحقيق، واتخذه برهاناً دامغاً على عمالة الممثلة الناشطة، وارتباطها بالمؤامرة الدولية على «سورية الأسد». أما مضمون التقرير الذي يروي وقائع من تجربة سليمان في الاختفاء والتظاهر، ومن مشاهداتها المروّعة في بعض المدن السورية، فلا حساب له في أجهزة الإعلام الأمني الأسدي المتخصص في صناعة الخونة والعملاء، ومطاردتهم أينما حلّوا. يكفي أن ترد أسماؤهم في وسائل الإعلام الغربية أو الإسرائيلية بوصفهم ضحايا العسف الأمني في بلدهم، ليصيروا من المتآمرين. فالإعلام الأمني الأسدي وقرينه الصدّامي الراحل، لا يتصوّر أيّ منهما أن للإعلام والثقافة والسياسة عملاً ووظيفة ودوراً تختلف عما يقومان به من عبادة القائد ونظامه، ومطاردة الخارجين على طاعته وعبادته لقتلهم. في هذه الحال، كل من ليس من حاشية القائد والنظام وأبواقه، خائن وعميل. هذه حال أسماء محفوظ وإسراء عبد الفتاح ووائل غنيم (في مصر، ومعهم نوارة أحمد فؤاد نجم) وسمير قصير ومي شدياق (وضمناً جبران تويني وسواه من شهداء «ثورة الأرز» في لبنان، وتوكل كرمان في اليمن) وسائر النشطاء السوريين من فدوى سليمان إلى رزان زيتونة وسمر يزبك وياسين الحاج صالح وغيرهم. فالإعلام الأسدي أورد معظم هذه الأسماء في سياق تعليقه على ما نشرته «القدس العربي» نقلاً عن الصحيفة الإسرائيلية، ثم تساءل عن سر ما حظي به أصحابها من اهتمام وتقصٍّ ــ يسمّيهما «دعاية» ــ في الإعلام الغربي والعالمي. الجواب البديهي والتلقائي: جواسيس ومتآمرون. والدليل أن أساطين الإعلام الأمني البعثي وحاشيته الأسدية، من أمثال عماد

فواز شعيبي (ناصر قنديل سورية) وأحمد الحاج علي وبثينة شعبان وأمثالهم، لم يشملهم الإعلام الغربي باهتمامه و«دعايته». فالإعلام في عرف الديكتاتوريات، وكذلك الثقافة والفن والسياسة، دعاية وأمن وعبادة للقيادة.

أما من رفعوا أصواتهم وأقلامهم ومدوّناتهم ونزلوا إلى الشارع احتجاجاً على الجنّات الأمنية، الآمنة والرخية، في تونس زين العابدين بن علي، ومصر حسني مبارك، وليبيا معمّر القذافي، ويمن علي عبد الله صالح، ولبنان وسورية حافظ وبشار الأسد، فهم جاحدون مارقون، وصنيعة الإعلام الغربي والصهيوني ورعايته. وإلا فلماذا «يسوّق» هذا الإعلام أخبار هؤلاء ويقتفي أثرهم؟! في تعليقه على حالة فدوى سليمان، يخاطب الإعلام الأسدي من بقي حياً في جنّته الدموية، على النحو الآتي: «صحيفة إسرائيلية تسوّق لممثلة سورية تسعى لمساعدة من لو اعتقلوها في حمص، لقطعوا رأسها، لأنها مختلفة عنهم طائفياً بالولادة»، أي علوية بين أهل حمص التي فرّت إليها هاربة من المطاردة الأمنية. كل من يخرج على طاعة النظام الأسدي، ويحاول إقامة جسور ما بين جماعات النسيج الوطني السوري خائن وعميل، بعدما عمل ذلك النظام على تمزيق هذا النسيج وتدميره واحتجاز أهله وترويعهم ومحقهم ومحو ثقافتهم طوال عقود من تسليط أجهزته الأمنية عليهم، فتحولوا مجتمعاً مكتوماً محطماً وصامتاً، إلا في طقوس عبادة الأسد التي جعلها أخيراً، في ظل الانتفاضات العربية الزاحفة، عبادة دموية. تجربة اللبنانيين في زمن الاحتلال الأمني الأسدي لبلدهم، مريرة ومدمرة في هذا المجال. فكل من حاول في لبنان أن يقيم جسوراً ما بين جماعاته، إما اتهم بالعمالة والخيانة، وإما اغتيل. الشاهد الأسطع

على ذلك اغتيال رفيق الحريري وسواه من شهداء «ثورة الأرز» التي أعقبت اغتياله. ولأن أجهزة الأمن الأسدية عجزت عن قتل فدوى سليمان، أوكلت المهمة إلى التحريض الطائفي، قائلةً لأهالي حمص: علوية في دياركم، اقتلوها.

قبل اختفائها شاركت في وقفات وتظاهرات في دمشق. مساءً، بعد إحدى هذه التظاهرات اعتقل رسّام الكاريكاتور علي فرزات. بعد ساعتين «عثر عليه في زقاق مظلم». على مثال ما اقتلعت أظفار أطفال درعا، وذوِّبت بالأسيد يد الصحافي اللبناني سليم اللوزي قبل عقود، واجتثّت حنجرة هتّاف الانتفاضة في حماه، إبراهيم القاشوش، حُطِّمت أصابع علي فرزات الذي، بعد العثور عليه، فرّت فدوى سليمان إلى اللاذقية. أما بعد ظهورها في حمص، فقد ظهر شقيقها على شاشة تلفزيون «الدنيا» الدمشقي، معلناً «تبرّؤ العائلة» منها. قال إنها «غادرت البيت قبل سبع سنين، وعلمتُ بأنها تتصل بأمي فقط بواسطة أرقام هاتفية سرية. وعندما رأيتها تقود التظاهرة في حمص، صُدمتُ. لقد نسيت القيم التي تربّت عليها، وهي أن المال ليس كل شيء. أنا أعلم أنها حصلت على الكثير من المال من خارج البلاد».

من حمص جاء جواب فدوى سليمان محاكياً وصيّةً منها إلى الشعب السوري. في ليلة سبت «قرّرت» التخلص من العلامة الفارقة التي تميّزها، فأخذت مقصاً وجزّت شعرها الأسود الطويل، بلا رحمة، ثم أطلقت وصيّتها المصوّرة: «من المهم أن تعلموا، إذا أرغموني على الاعتراف على قناة «الدنيا»، فتلك علامة على أنني اعتُقلت وأُرغمت على ما قلت، فلا تصدّقوا أي كلمة. ولا تصدّقوا

أبناء عائلتي أو أصدقائي الذين ستجبرهم ألوان التعذيب على القول إنني فاسدة وخائنة. هذه هي طريقة بشار الأسد». تعقيباً على هذه الوصية كتب عمار ديّوب على صفحته في الــ«فايسبوك»، واصفاً حال حمص: «مدافع تدكّ، ورقص لا يتوقف. شهداء يشيّعون، وأحياء ينتفضون من جديد. يتوقف القنص، فيتنادى الشبان لإحصاء الأحياء وسحب الشهداء (...) في سورية من الصعب أن يفهم العالم ما يجري، لأن سورية للأسف، لم تدخل العالم». لكن قارئ هذه الكلمات لا بد أن يضيف أن سورية دخلت العالم والتاريخ منذ ١٨ آذار ٢٠١١. هذا ما حمل فدوى سليمان على الاعتراض على ما قالته لها إحدى صديقاتها من أنها «أصبحت رمزاً للثائرة العلوية الفنانة، ويجب أن تنتبه لتصرفاتها»، فكتبت على صفحتها: «لست صنماً، ولا علوية ولا سنية. فالشعب السوري يُسقط الأصنام في بلده. لديَّ حبيب كباقي الناس. أصوم وأصلّي، لكن على طريقتي، وقد أشرب كأس نبيذ من الذي صنعه جدّي... ومن نبيذه سأشرب نخب النصر».

□ □ □

كنت أوقّع كتابي الشعري الأول في «معرض بيروت للكتاب العربي والدولي» في كانون الأول ٢٠١١، حين اقتربت مني شابة قائلة أن أوقّع لها نسختين من الكتاب، واحدة باسمها وأخرى باسم فدوى سليمان. للحظة لم أصدّق ما سمعت، فانتصبت عن الكرسي، كأنني أصحو من منام في غرفتي، وأمامي فدوى سليمان نفسها، قائلاً لها في ذهول: من أين أتيت؟ من دمشق، وأنا شاميّة، قالت الشابة، فيما ظلال ضبابية من ملامح وجه فدوى سليمان بشعرها

الصبياني القصير في مشهد ظهورها في البياضة، تتراءى لي في وجه الشابة الواقفة أمامي بشعرها الأسود الطويل، وهي تقول إنها تزور بيروت ليومين أو ثلاثة في مناسبة المعرض، واستوقفها عنوان كتابي فاشترت منه نسختين، تريد إهداء إحداهما لصديقتها فدوى سليمان. أين هي؟ هل ترينها؟ سألتها، فيما يدي، بل روحي ترتجف على صفحة الكتاب الأولى البيضاء، وأنا أكتب عليها اسمها، كأنني للمرة الأولى أمسك قلماً وأكتب، بينما الكلمات تتدافع في ذهني هاربة بلا توقف، فلا أقوى على التقاط كلمة واحدة منها لتدوينها. حين لاحظت الشابة حيرتي واضطرابي، قالت إنها لم ترَ فدوى منذ حملة تشجير الشوارع في دوما، التي قام بها مع شبانها ناشطون وناشطات جاؤوا من دمشق في بدايات الانتفاضة، فوزعوا في أثناء حملة التشجير وروداً على رجال الأمن والجيش. لكن الشابة أضافت مستدركة: بلى، بلى رأيتها قبل أيام في المشاهد المصوّرة لظهورها الأخير في تظاهرة البياضة. ما إن لفظت الشابة اسم هذه الحارة، حتى قلت لها إنني من الحارة المجاورة لها، الخالدية، التي انتبهت إلى أنني للمرة الأولى ألفظ اسمها تلقائياً وبلا تردّد ولا خجل، وإلى أن الشابة الواقفة أمامي أخذها، مثلي، شعور بذهول المصادفات الغريبة. ما كان لمثل هذه المصادفات من معنى قبل الثورة السورية ــ فكرت. فقبلها كل شيء في سورية كان غارقاً في المحو، حتى أسماء الأشخاص والأماكن والحوادث. فجأة أخذني شعور بالخوف، عندما قالت الشابة إنها ستغادر غداً صباحاً إلى دمشق. فكرتُ أنها ستختفي مع المختفين، مثل الشاب عبد الباسط الساروت الذي شاهدته في شريط ظهور فدوى سليمان، يقف إلى جانبها في ساحة الخالدية، مردّداً هتافاته في تلك التظاهرة المسائية.

أعلم أن عائلة الساروت من أصول بدوية، قبل وفادتها إلى حيّ البياضة الحمصي، وتوطنها فيه، حيث منزل أهل عبد الباسط الذي حاول رجل من فرق القتل اغتياله، بعد ظهوره إلى جانب فدوى سليمان، ففر من بيت أهله ليبيت في غرفة منعزلة من بيت لا يعلم من هم أهله قبل دخوله إليه. طويلة ليالي المختفين، ومثلي في غرفتي لا يحلُّ في حواسهم وأوصالهم خدرُ الغفوة، قبيل الفجر. حين يفيقون لا يفكرون في أيّ من الغرف الغريبة والمجهولة سيبيتون ليلتهم التالية. فدوى سليمان في معطفها الشتوي وشعرها الصبياني، بدت لي في شريط ساحة البياضة أصغر من عمرها، كأنها طالعة من أفلام سينمائية قديمة بالأسود والأبيض عن مناضلات ضد الفاشية في بلدان أوروبية أو أميركية لاتينية، ولا أذكر متى وأين شاهدتها. بعدما قرأتُ ما كتبته عن نفورها من أن تُغدقَ عليها هالات النجومية التي صنعها اختفاؤها وظهوراتها المفاجئة، ورفضها أن تتحوّل «رمزاً» للثورة، لأنها «علوية» وممثلة معروفة، تساءلت إن كانت حقاً قد عشقت اختفاءها وقوة الحضور المضاعف لذلك الاختفاء؟ والموت المروّع الذي يموته المتظاهرون السوريون في كل يوم، هل يجعله قابلاً للاحتمال، بل ساحراً، يقينُ المقبلين على التظاهر بأن قوة حضورهم في الشوارع والساحات، وقوة صورهم المتقشفة وهم يتظاهرون، وكذلك قوة صور جنازاتهم، هي ما يمكن أن تحررهم وتحرر سورية من الاختفاء الذي أراده لها ولهم السلطان الأسدي المؤبد؟

□ □ □

في غرفتي، بعد أمسية توقيع كتابي الشعري، كان طيف الشابة

«الشامية» لا يزال يهوّم في وعيي الليلي الشادر، مختلطاً بأطياف وجه رؤى ووجه فدوى سليمان، حينما بدأت أقرأ على أحد المواقع الإلكترونية شهادة لرزان زيتونة، تصف تظاهرة ليلية شاركت فيها بزملكا قرب دمشق، فكتبتْ أن «الخطوات الفاصلة بين صمت الطرق المقفلة ومكان التظاهرة، تشبه الانتقال عبر آلة الزمن. لا أذكر ما يشبه تلك اللحظات في إثارتها، إلا لحظة دخول باص رحلتنا المدرسية مدينة اللاذقية، فالتصقت عيوننا بزجاج نوافذه، محملقة باحثة عن خط الأفق الأزرق البعيد». ما إن قرأتُ هذه العبارات، حتى نقلتني آلة الزمن ثلاثين سنة إلى الوراء، فأبصرتُ ـ أنا السوري المتلبنن منذ عشر سنوات ـ أول مشهد لثلج لبنان من خلف زجاج نافذة باص آتٍ بي من حمص، والى جانبي أمي، فيما صوت فيروز السماوي يشرق كشمس قمرية على طفولتي الكئيبة، منشداً «يا ثلج صنين». برغم أنني من سنين لم أعد أستمع إلى أغاني فيروز، من طفولتي البعيدة ارتعشتُ رعشة خجل الثلج في الضوء، ثم أبصرتني في مشهد إطلالتي الأولى على البحر في بيروت، يدي في يد خالتي آمال التي اختفت بلا أثر منذ عيد رأس سنة ٢٠١٠. في غمرة تنقلي المحموم بين صفحات الـ«فايسبوك»، استوقفتني مرة صورة لها على إحدى الصفحات، لكن باسم غير اسمها، وبتعريف يقول إنها تعمل في شركة إعلانات في دبي. لمرات كثيرة طلبت صداقتها، لكن طلبي لم يُستجب قط، فنسيتُ الأمر حتى ذكرتني به شهادة رزان زيتونة، ثم صرفني مجدداً عنه ما كتبته من أن صبية من المتظاهرات إلى جانبها «أخذت تهتف: «شاميّة... شاميّة... شاميّة»، لتعلّق الكاتبة على هذا الهتاف: «مَن قال إن استعادة كلماتنا الأولى ليست مبهجة؟! ما أجمل الهتاف

للشام وصباياها»، فتخيلتُ أن شابة المصادفة الغريبة في معرض الكتاب، هي التي هتفت «شاميّة... شاميّة» في تظاهرة زملكا، وخطر لي فجأة أن أذهب إلى حمص في رحلة سرية عبر الحدود اللبنانية ــ السورية.

حين صحوت في العاشرة من صبيحة النهار التالي، رحت، مع أول سيجارة وكوب من النسكافيه، أدوّن ما أبصرته في منام الليلة الفائتة:

عرق غزير يتصبّب من جلدي حاراً ومختلطاً بدماء أشد حرارة تسيل من أكوام أجساد بشرية تطلع منها صرخات سوداء مكتومة تختلط بنباح بعيد. جدتي لأمي في ثياب عسكرية إلى جانب رجال مسلحين يطلقون رشقات من بنادقهم في ساحة فسيحة، كأنها ملعب لكرة القدم. المشهد في الملعب نصفه نهاري، ونصفه الآخر، حيث الأكوام البشرية، ليلي معتم. في خلاء الناحية النهارية الكلسي أجلسُ وحدي عارياً على كرسي إلى جانب طاولة عليها رزم من كتابي. والدي يقوم من بين كومة أجساد، وبلا صوت يصرخ راكضاً نحوي، كأن في ساحة الخالدية. أرى جدتي تصوّب بندقيتها في اتجاهه، فيهوي إلى الارض. فجأة تعاجلها خالتي آمال بضربة عصا على رأسها من الخلف، ثم تركض نحوي، فيهجم عليها المسلحون، يمزقون ثيابها ويرمونها أرضاً. عبثاً تستطيع جدتي الوصول إليها. مشهد ليلي لقلعة بعلبك تضيئه بروجكترات كاشفة. وآمال تمشي عارية بين نساء منقبات منهن أمي، قرب أعمدة القلعة. غابة من الكاميرات التلفزيونية تصوّر المشهد. شبان يسلطون عدسات هواتفهم المحمولة على النصف المظلم من ساحة الخالدية، حيث أكوام الأجساد البشرية تهتف: سورية بدا حرية... حرية... حرية. خيط من دم يتوهّج على جبل يكسوه الثلج. فجأة

يتحول خيط الدم على الثلج نهراً من الماء أخوّضُ فيه مع شبان يحملون جريحاً عند الغروب. دبابة تطلق رشقات نارية من الجهة الأخرى من النهر. على ضفة النهر تهجم جدتي عليّ وتمزق خريطة في يدي. أسمع الجريح يناديني بصوت هو صوت أبي. أنا ورؤى ومغني الانتفاضة في حماه، إبراهيم القاشوش، مدفونة أجسامنا حتى الكتفين في رمل صحراوي متوهج بالضوء، وثلاثة مسلحين يصرخون: الله وسورية وبشار وبس، فيما هم يضعون حراب بنادقهم المسلولة على أعناقنا. الدم ينوفر من عنق إبراهيم القاشوش... على أرض غرفتي قرب السرير، أفقتُ صارخاً مرتجفاً، مبلل الجسم بعرق أخذ يبرد بطيئاً بطيئاً، وأنا أتحسس عنقي بكفيَّ المثلجتين.

قبل أن أبدأ بتدوين هذا المنام، عبثاً حاولت الاتصال برؤى بواسطة السكايب، فاتصلت بوالدي عبر شبكة الهاتف الخلوي. لما جاوبني قال إنه في سيارته العمومية موشك على اجتياز الحدود السورية ــ اللبنانية، متوجهاً إلى بيروت. كدت أقول له إنني سأذهب غداً إلى حمص، لكنني في اللحظة الأخيرة مرتجفاً ابتلعت كلماتي، وسألته عن أمي. أمس أبصرتك في منامها قتيلاً في ساحة الخالدية ــ أجابني ــ وعبثاً حاولت الاتصال بك في الصباح. طوال ساعة أصرّت على منعي من الخروج من البيت، فلم أستجب لها. اتصل بها وطمئنها. قل لها إنك لم تمت، وإنني وصلتُ إلى بيروت. لكنني بعدما أنهيت مكالمتي معه، لا أدري لماذا لم أتصل بأمي، وانصرفت إلى تدوين منامي المروّع، عازماً على تدبير رحلتي السرية إلى حمص.

□□□

بعد ظهر نهار أحد صقيعي ركبت سيارة فان من طرابلس. إلى جانبي على المقعد الخلفي، جلس مندوب لصحيفة «واشنطن بوست» ومصوّرة أفلام وثائقية فرنسية. كلما اقتربنا من الحدود اللبنانية ــ السورية في منطقة وادي خالد المنبسطة المقفرة، كان يتسارع نبضي، فأكاد أسمع لهاثي، كأنني أتنفس من أذني. غبش رمادي في عينيّ الساخنتين، وجسمي عميق وبعيد داخل ثيابي. وحشة وصقيع في الخارج، وفي روحي. المصوّرة والصحافي يتبادلان كلمات إنكليزية قليلة. لا أعلم إن كانا يشعران مثلي بدبق الوحشة والخواء في الحواس وفي مشاهد الطبيعة. من أين لهما هذه المقدرة على التوحّد والغياب عما حولهما، والاستسلام لطمأنينة واسترخاء يفصلانهما عن الزمن والعالم والحال؟! لقد جلبا هذا كله معهما من أوروبا، فكرت. على المقاعد الأمامية ثلاثة رجال صامتين، كأنهم عاشوا ويعيشون حياتهم بلا كلام، وبلا سأم كبئر في صحراء. صور تتطاير خطفاً في وعيي الشارد. أصوات وكلمات منفصلة عن متاهة الصور، وتتأخر عنها. منها عبارة متكررة لوالدي يقول إنهم يشنقون المعتقلين من الخصيتين. تخيّلت رجالاً مسلحين على حاجز في قفر، ويخرجونني من الفان شاتمين، ثم ينهالون عليَّ بأقدامهم والعصيّ وأعقاب البنادق، فأبكي بلا دموع ولا صوت. كلما تقدم الفان في اتجاه الحدود، ازداد شعوري بأنني أفقد صوتي، وأكاد أتجمّد وأغيب. أغمض عيني، وعبثاً أحاول أن أغفو.

عندما قال السائق إننا وصلنا، وعلينا النزول من الفان لنسير حتى ضفة النهر، فكرت أن أقول له إنني سأعود معه، لكنني شعرت بأن لا صوت في صدري. كنت آخر الخارجين من الفان، فانتبه السائق إلى حيرتي واضطرابي. سألني إن كنت أريد شيئاً ما. بصوت غير

صوتي قلت كلمات، أنا نفسي لم أتأكد من أنني لفظتها وسمعها السائق. حين وصلنا إلى ضفة النهر، لم أستطع تقدير كم من الوقت مشينا، كأنني لست أنا من كان يمشي، ولا من أخذ يخوض في مياه النهر العكرة، وغمرت المياه نصف جسمه الأسفل، ومدَّ له يده الرجل الواقف على الضفة وانتشله من الماء.

لا أتذكر كيف وصلت إلى الفان الذي جلست على مقعد منفرد من مقاعده، وانطلق على طريق مستقيمة داخل الأراضي السورية. كمن لم ينم منذ دهور غفوت، ولم أصحُ إلا على طلقات نارية، تبعها صوت السائق يشتم الشبيحة والقناصين الذين قال إنهم يتمركزون بعيداً على سطوح البنايات العالية، ويطلقون الرصاص في اتجاه أحياء حمص وحاراتها الداخلية التي يتجمع المتظاهرون في ساحاتها.

لم أشعر بأنني استعدت وعيي الكامل، إلا مساءً، عندما رحت أخلع ثيابي المبللة وأرتدي غيرها في منزل أحد أعضاء تنسيقيات الثورة في الخالدية، قبل أن يجلب لي إبريقاً من الشاي ورغيفين وصحناً من الجبن والزيتون. وأنا آكل مطمئناً في رخاء متقشف لم أعرفه قط في حياتي السابقة، سألني عن الرحلة، ثم أخذ يعمل على جهازي كمبيوتر، ويروي لي أخباراً مشتتة عما حدث ويحدث في حمص. استمرت جلستنا زهاء ساعتين من دون أن أنتبه أين أنا وفي أي وقت. شيئاً فشيئاً ارتسم لما يرويه مشتتاً متناثراً، سياق تنتظم حلقات حوادثه في حركة تصاعدية تبدأ بتظاهرة أولى في الخالدية، متزامنة مع انتفاضة درعا في ١٨ آذار ٢٠١١، وصولاً إلى التظاهرة الكبرى الجامعة التي حشدت في ١٧ ــ ١٨ نيسان، ما يزيد على

٥٠٠ ألف نسمة في ساحة حمص المركزية، المعروفة بساحة الساعة.

بدأت حلقات حركة التظاهرات التصاعدية هذه، بخروج نحو مئتي شخص من جامع خالد بن الوليد، بعد صلاة ظهر الجمعة ١٨ آذار، فساروا في تظاهرة، سرعان ما بادرها رجال الأمن بالقنابل المسيلة للدموع ورشقات الرصاص في الهواء إرهاباً، قبل هجومهم على المتظاهرين وضربهم بالعصيّ والهراوات وأعقاب البنادق، وسحل كثيرين منهم واعتقال بعضهم. كان معظم المشاركين في التظاهرة من الشبان، وفي ظهيرة الجمعة التالية، ٢٥ آذار، تزايد عدد المتظاهرين في الخالدية، وخرجت أولى التظاهرات في حارة باب السباع التي قتل رجال الأمن شابين من متظاهريها. بعد تشييع الشهيدين الأولين إلى مثواهما الأخير، اعتصم أهالي باب السباع في ساحة المريجة، وصارت التظاهرات يومية في أحيائها وفي الخالدية. أثناء هذه التظاهرات وبعدها، أخذ رجال الأمن والشبيحة يغيرون على الأحياء السكنية في الحارات، فيقتلون متظاهرين ويعتقلون شباناً ورجالاً من بيوتهم ويدمرون أثاثاتها، وينهبون منها ما خفَّ حمله وغلا ثمنه. شبان حارات حمص الأخرى وأحيائها، كباب الدريب وبابا عمرو والبياضة وباب تدمر ويربعلبة، هبوا إلى التظاهر، فسقط منهم جرحى وقتلى برصاص رجال الأمن الذين تتابعت حملات دهمهم البيوت وتخريبها ونهبها، واعتقال شبان ورجال من أصحابها.

□ □ □

قرأ لي الراوي، موثق يوميات الانتفاضة في حمص، مقتطفات من

شهادة نشرها الكاتب الصحافي باسل محمد في صحيفة «الحياة» ١٨ تشرين الثاني ٢٠١١، في عنوان «ناشطو ثورة حمص العلويون والمسيحيون جيل جديد يرث معارضة أمضت حياتها في السجون». فمجموعة من أبناء المعارضين هؤلاء، لم تغب قط عن التظاهرات طوال الشهر الذي سبق تظاهرة حمص الكبرى، الجامعة والحاشدة، في ساحة الساعة، ما بعد ظهيرة ١٧ نيسان، ولا عن هذه التظاهرة نفسها، بعدما استحال على الشبان العلويين والمسيحيين التظاهر في أحيائهم السكنية التي سرعان ما تحولت كانتونات طائفية، مغلقة ومعزولة، تنتشر فيها وتحاصرها حواجز رجال الأمن والشبيحة. حيّ الزهراء شرق المدينة، ذو الغالبية العلوية، يقيم فيه عدد كبير من قدامى «المعارضين التقليديين» من معتقلي رابطة العمل الشيوعي السابقين، أو معتقلي البعث العراقي والسوري، أو من الحزب الشيوعي ـــ المكتب السياسي سابقاً. على رغم كثرة أعداد هؤلاء، فإن (الشيخوخة) والمرارة التي كابدوها في السجون طوال عقدي الثمانينيات والتسعينيات من القرن الماضي، حيّدتاهم عن حراك الشارع المنتفض، مما كرّس حال انفصال» ما بين حي الزهراء وسواه من أحياء الغالبية السكنية العلوية والمسيحية التي سميت «موالية»، وبين أحياء الغالبية السكنية السنية، التي سميت «معارضة» أو منتفضة. لكن هذا «الانفصال» المفروض أمنياً، منذ الأيام الأولى للانتفاضة في حمص، لم يلغِ بوادر الاختلاط الشبابي في انتفاضة انطلقت في منأى من التأطير الحزبي والطائفي. فشبان مسرحيون وصحافيون وموسيقيون من سائر الطوائف، شاركوا في التظاهرات الأولى. لم تكن الأحياء العلوية والمسيحية تعارض بشدة مشاركة شبان منها في التظاهر، قبل قيام رجال الأمن

بحملات تخويف وترويع منظمة لأهالي هذه الأحياء. سيارات مجهولة أخذت تعبر سريعاً في أحياء النزهة وعكرمة والزهراء والأرمن، وتطلق النار في الشوارع إرهاباً، وسط غياب كامل لرجال الأمن والشرطة طوال الشهر الأول من الاحتجاجات. في الأثناء حصلت حوادث خطف مجهولة، ذهب ضحيتها شبان علويون تنكيلاً وقتلاً. حيال عمليات الخطف والتهديد والترويع التي قام بها شبيحة الحارات، بات الشبان العلويون والمسيحيون أمام خيارين: إما التخلي عن المشاركة في الاحتجاجات، وإما الطرد والتنكيل والاغتيال، مما حمل كثيرين منهم على مغادرة أحيائهم السكنية والتواري في أحياء أخرى، لمواصلة عملهم في الثورة.

□□□

نهار ١٦ نيسان ٢٠١١، سقط في تظاهرات حمص سبعة شهداء من أحياء مختلفة، قال الراوي مضيفي في حمص. وحّد المصاب السخط والغضب أهالي المدينة، فهبوا لتشييع شهدائهم في جنازة مشتركة تنطلق من الجامع الكبير قرب برج الساعة في الساحة الكبرى وسط السوق المركزي الجديد، ومن جامع النور في الخالدية، وصولاً إلى مقبرة تل النصر على أحد تخوم المدينة. المعارض الحمصي البارز والناشط الحقوقي المعروف، نجاتي طيارة، اتفق مع تنسيقيات الشبان (بينهم علويون) في الأحياء والحارات على تنظيم حشد كبير في ساحة الساعة بعد دفن الشهداء السبعة. اتصالات عبر الفضاء الإلكتروني والهواتف المحمولة لم تتوقف منذ صبيحة التشييع، داعية الأهالي إلى التجمع في الساحة، قبل الدفن وبعده. شبان التنسيقيات جابوا الشوارع في سيارات منادين الناس

جميعاً إلى المشاركة في الجنازة. عند الظهر تجمهر ما يزيد على ٥٠٠ ألف نسمة في ساحة الساعة. عدد غير كبير منهم سار في موكب الشهداء إلى المقبرة، ومكث الحشد الكبير في الساحة حتى عودة المشيّعين إليها، هاتفين «الشعب يريد إسقاط النظام».

أنا الذي رأيت المشهد ذاك على شاشة التلفزيون في بيروت، وسمعت تلك الهتافات الهادرة تتصاعد من حشد هائل يكرر مشاهد ميدان التحرير في القاهرة، لم أصدق ما أرى، وقلت إن كان حقيقياً ما أراه، فإن النظام السوري سقط وانتهى. خطباء الحشد ـ نجاتي طيارة، والشيخ سهل جنيد نجل الشيخ محمود جنيد المحبوب في حمص، وشخصية علوية لا أتذكر اسمها، وشاب من التنسيقيات ـ دعوا جميعاً إلى إسقاط النظام، وسط الهتافات المتصلة بإسقاطه. عدد المتظاهرين تزايد عند صلاة العصر في الساحة. وبعد صلاة المغرب، تصاعدت الدعوات إلى عدم مغادرة الساحة والاعتصام فيها. نجاتي طيارة ونجله الناشط الحقوقي ناجي، وشبان التنسيقيات ومنهم عمر إدلبي، هم الذين دعوا إلى الاعتصام المفتوح. في الساعة الثامنة مساءً أنذر أحد كبار ضباط الأمن في حمص الشيخ سهل جنيد بإخلاء الساحة في وقت لا يتجاوز منتصف الليل، فبلّغ الشيخ المعتصمين بالأمر. الساعة العاشرة تناقص عدد المحتشدين إلى ٥٠ ألف شخص، معظمهم من الشبان المصرّين على الاعتصام المفتوح، برغم انهمار الرصاص غزيراً على نواحٍ من الساحة في الساعة العاشرة والنصف، فدب الذعر في الجموع التي راحت أعداد كبيرة منها تتراكض هلعة في شوارع اختلط فيها الصراخ بالنداءات والهتافات الداعية إلى المكوث في الساحة. رويت لمحدثي أنني رأيت هذه المشاهد على شاشات

البث التلفزيوني المباشر في غرفتي البيروتية، فاتصلت هاتفياً بوالدي في بيتنا في الخالدية. ما إن سمعت صوته يقول لي إنه وإخوتي وأمي بألف خير، حتى دوّت في أذنيّ، عبر سماعة الهاتف ومن التلفزيون أمامي، أصوات رشقات الرصاص المنهمر على الساحة المشعة بالأضواء الكاشفة، وحيث كان لا يزال معتصماً نحو خمسة آلاف شاب في الساعة الثانية عشرة، قال محدثي ومضيفي. فصليات الرصاص المتقطعة والذعر والصراخ وهروب كثيرين قبل منتصف تلك الليلة، لم تقضِ على إصرار مجموعات من الشبان على مواصلة الاعتصام، وسط انطلاق التكبير من مساجد في المدينة وفي شوارعها التي خرج إليها أهالي الأحياء والحارات من بيوتهم مذعورين هلعين، وحاملين ما توافر من عصيّ وخناجر وسيوف وفؤوس وقضبان حديد. ومن يملك منهم بندقية حربية قديمة خرج بها إلى حيث أقفلت الطرق المؤدية إلى الحارات بالحجار والمهملات من المعادن والأخشاب، وسط سريان شائعات وأقاويل عن هجوم الشبيحة في الأحياء العلوية على الحارات والأحياء المنتفضة، بعد الإجهاز على كثيرين من المتظاهرين في الساحة الكبرى المركزية. هتافات التكبير اختلطت بدعوات إلى الجهاد يؤكد شبان التنسيقيات أن سيارات رجال الأمن راحت تجوب الشوارع وتطلقها، فإحدى سيارات الإطفاء سُمعت مكبرات الصوت فيها تدعو إلى الجهاد، لبث الرعب من «السلفية الجهادية» في أحياء العلويين والمسيحيين.

في الساعة الرابعة والنصف من فجر تلك الليلة المجيدة المرعبة في تاريخ حمص، خلت ساحة الساعة تماماً من جثث القتلى التي رماها رجال الأمن كالمهملات إلى شاحنات، ونقلوها إلى أماكن

مجهولة، ثم قاموا بشطف برك الدماء بمضخات سيارة الأطفاء، فيما كانت مجموعة منهم تطلق الرصاص في الهواء ابتهاجاً من على سطوح البنايات المحيطة بالساحة، وسط هتافات، «الله وسورية وبشار وبس». أعداد مفقودي تلك الليلة تراوحت ما بين ٢٠٠ و٥٠٠ شخص، لم يتسلم أهالي حمص منهم في النهارات التالية، سوى ٣٥ جثة، من دون أن يعلم أحد إن كان الباقون قتلوا وأخفيت جثثهم أم خطفوا ولا يزالون قيد الاعتقال والتعذيب، وبينهم عدد من العلويين والمسيحيين.

جُنَّ جنون أهالي حمص بعد تلك الليلة ــ قال محدثي ــ ثم انتشرت وحدات من الجيش والأمن وأقامت الحواجز الثابتة في الشوارع ما بين الأحياء والحارات التي انفصلت وتباعدت وتقطعت أوصالها، وسكنها الخوف والرعب. الناشط الحقوقي المعارض نجاتي طيارة اعتقل، وفر نجله ناجي إلى دبي. أما الاحتجاجات والتظاهرات فتغيّرت أشكالها ووجهتها. فبعد بدئها وانطلاقها طوال شهر من الأحياء والحارات وتوجهها إلى الشوارع والساحات الكبرى المشتركة، أذنت مقتلة ليلة ١٧ ــ ١٨ نيسان في ساحة الساعة، بانكفاء الناشطين والمتظاهرين إلى الشوارع والساحات الداخلية، حيث أخذوا يقومون بتظاهرات طيارة خاطفة في مواقيت محددة من النهارات والأمسيات. قبل انشقاقات مجموعات وأفراد عن الجيش، ولجوئهم إلى التحصن في الحارات الداخلية، وقيام «الجيش السوري الحر» بحماية بعضها، كبابا عمرو، كان يتعذر على رجال الأمن والجيش الدخول إلى تلك الحارات، إلا بأعداد كبيرة وفي عمليات دهم سريعة، خشية من المقاومة المدنية التي يبديها الأهالي في الأزقة والمسالك الداخلية المكتظة والضيقة. لذا

أخذ رجال الأمن يستعملون سيارات التاكسي والإسعاف في هجماتهم الخاطفة على الحارات وساحاتها لاعتقال الناشطين وقتل المتظاهرين. بعد هذه الهجمات، تتوغل سريعاً مصفحة أمنية في الشوارع والساحات، مطلقة رشقات غزيرة من مدفعها الرشاش على البيوت، ثم يخرج من المصفحة رجال أمن، فيخطفون ما تخلف عن الهجمة السابقة من جثث القتلى، حتى إذا حضر أهلهم إلى المقار الأمنية والمستشفيات المتحولة معاقل أمنية، يُرغمون على توقيع مستندات تفيد بأن عصابات مسلحة، سلفية جهادية، هي من قتلت أبناءهم، وعليهم تشييعهم ودفنهم في جنازات سريعة تقتصر على العائلة والأقارب. لكن أجهزة الأمن لم تكن تكتفي بهذه التدابير، فأخذت مجموعات منها ترابط على مداخل المساجد لإطلاق النار على المشيّعين في حال خروجهم في جنازة ـــ تظاهرة حاشدة، بعد الصلاة على الميت. ولأن بعض ذوي الشهداء أخذوا يستجيبون مرتاعين لتشييع قتلاهم في جنازات تقتصر عليهم وحدهم، عمد أهالي الأحياء والحارات والناشطون إلى التجمع التلقائي في المساجد في صباحات التشييع، لتحويل جنازات الشهداء تظاهرة حاشدة. لذا اجتازت مرة مصفحة الأمن الباحة الخارجية لمسجد خالد بن الوليد، وأخذت تطلق النار على المحتشدين في داخل المسجد. هذا ما حمل الناشطين والأهالي على التجمع في حشدين منفصلين كلما سقط شهيد في الحارات، حشد أمام منزل الشهيد، وآخر في المسجد، للخروج في تظاهرتين تلتقيان في المقبرة.

في أحياء العلويين أنشات أجهزة الأمن والشبيحة، ما سُمّي «اللجان الشعبية» بذريعة حماية هذه الأحياء من هجمات «العصابات

المسلحة»، ومن عمليات الخطف المزعومة التي تنفذها، فانتشرت المخاوف الطائفية في نسيج الحياة اليومية المضطرب. تفاقمت هذه المخاوف وبلغت ذروتها مع تعرّض فتيات محجبات للخطف من الشوارع في الأحياء «الراقية» للفئات المتوسطة، مثل الحمراء والإنشاءات والغوطة والوعر. على نحو منهجي منظم أخذت تُخطفُ في كل يوم فتاة محجبة من شوارع هذه الأحياء، حتى بلغ عدد المخطوفات، أخيراً، ٢٥ فتاة، منهن قريبة لرئيس «المجلس الوطني السوري» الدكتور برهان غليون. رداً على عمليات الخطف هذه، جرت عمليات خطف مضاد لعلويين وعلويات، تبعتها مفاوضات بين وسطاء رماديين أو شبه سريين، وشاعت أحاديث عن دفع أموال وخوّات لتبادل إطلاق سراح المخطوفين والمخطوفات اللواتي لم يطلق سراح سوى ١٣ فتاة منهن، وبقي مجهولاً مصير الأخريات.

بعد مقتلة ساحة الساعة، وانكفاء الاحتجاجات والتظاهرات إلى الساحات والشوارع الداخلية في الحارات والأحياء، في مواقيت نهارية ومسائية مفاجئة وخاطفة، وغير متزامنة في انتقالها من حارة إلى أخرى، برزت التظاهرات الكبرى الحاشدة في حماه، على غرار تظاهرات حمص التي بلغت ذروتها في تظاهرة ساحة الساعة ومقتلتها. في تظاهرات حماه الحاشدة هذه، ظهرت أناشيد هتَّاف الثورة السورية الأشهر، الشاب إبراهيم القاشوش، الذي أنشد أغنية «سكابا يا دموع العين سكابا/ على شهدا سورية وشبابا»، ثم أتبعها بأغنية «يا الله إرحل يا بشار» التي انتشرت واشتهرت وتردّدت في كل الديار السورية المنتفضة. وفي غمرة انتفاضة حماه وتظاهراتها الكبرى، اختطف القاشوش وقتل واستؤصلت حنجرته ورميت جثته في نهر العاصي. قبل هتافاته وأغانيه، كان هتافو التظاهرات في

حمص ــ ومنهم حارس مرمى «منتخب سورية للشباب» في كرة القدم، عبد الباسط الساروت ــ ينشدون هتافات جمهور مشجعي الفرق في الملاعب: «هاي يا الله/ هاي يا الله/ منصورين بعون الله منصورين». لكن أغاني القاشوش سرعان ما انتقلت إلى حمص، فأخذ هتافو ساحات الحارات الداخلية ومتظاهروها يردّدونها في تظاهراتهم السريعة المفاجئة التي لا تتجاوز مدة الواحدة منها ١٥ دقيقة، ونُسيت هتافات ملاعب كرة القدم. قبل ذلك حاول ناشطون في حمص إشاعة أغانٍ وهتافات كتبوها ونشروها على مواقع الإنترنت، لكن عدم شعبية لغتها وإيقاعاتها وكلماتها، أبقتها ضعيفة التردّد على ألسنة المتظاهرين. أما الهتافات والأناشيد التي ظهرت وشاعت في درعا، فلم تنتقل إلى الديار السورية الأخرى، لأن الكلمات واللهجة الدرعاوية بدوية ثقيلة على اللسان الشعبي السوري المتوسط أو المشترك، على خلاف هتافات القاشوش وأناشيده.

□□□

فجأة توقف الراوي مضيفي عن الكلام، وصرخ ملتفتاً نحوي: اسمع، اسمع... ما أروع هذا الصوت الآتي من موكب تشييع الشهداء في دوما قبل أيام. ما إن طلع من جهاز الكمبيوتر صوت رجل منشداً «هاي هاي يا سجاني/ هاي هاي يا عتم الزنزاني»، حتى انتزعني الصوت من كياني وغمرني كموج مظلم، ورماني في ليل الأزمنة والمعابد القديمة التي تتردّد فيها أصداء تراتيل النائحات في التراجيديا اليونانية. كأن سورية الطبيعية والبشر تقوم من بين الأموات وتتجسّد في هذا الصوت الجمهوري الهادر من عمق ألف عام: «عتمك رايح/ بعثك رايح/ ظلمك رايح/ شمسي بكرا بتستنّاني/ هاي هاي يا سجاني». صوت رجولي، أبرش، بدائي،

عار، منه تنبثق الكلمات وتولّده الكلمات من عراء سورية التي اهتدت إلى صوتها بعد صمت ألف عام.

اقتربت من شاشة الكمبيوتر، فلم أرَ رجلاً ينشد أو يغنّي، بل جثامين محمولة على أكف رجال يخترقون حشوداً في بهو مسجد دوما، والصوت يردّد «لا إله إلا الله، لا إله إلا الله، لا إله إلا الله». تلك الــ«لا» الطويلة الممدودة المتضرّعة النائحة، كأنها تطلع من صمت الجثامين المرفوعة على الأكف، فينادي الصوت «يا يما عسكر بيني وبينك»، ثم ينتهي الشريط المصور على موقع «يوتيوب»، فيملأ الغرفة سكون كانقطاع في الزمن جمّدني في مكاني هنيهات، قبل أن أتراجع خطوات إلى حيث كنت أجلس على المقعد. لكن مضيفي لم يتركني في شرودي مع أصداء ذلك الصوت وكلماته، إذ سرعان ما ناداني: تعال اقرأ هذه الكلمات، تعال. لم أتحرك من مكاني، فالتفت إليَّ قائلاً: بدأت الانتفاضة في سورية لتعلن موت الربّ. إنها ثورة على الربوبية المتجسّدة في شخص حافظ الأسد. قبل أن أقوم وأقترب منه لأتبيّن ما الذي يقرأه على شاشة الكمبيوتر أمامه، هبّ عن الكرسي واقفاً، وأخذ يهتف: يلعن روحك يا حافظ، يلعن روحك يا حافظ. ما إن اقتربت من الشاشة، حتى سمعت من خارج البيت صوتاً يصدح هاتفاً: جنّة، جنّة يا وطنا/ يا وطنا يا حبيب/ يا بو القلب الطيب يا وطنا/ حتى نارك جنّة.

من أين يتدفق هذا السيل الآتي من الأخبار والروايات والكلمات والهتافات والأناشيد على إيقاع الرعب والقتل اليومي في سورية؟! تساءلت. وذلك الصوت الطالع من عتمات الليل هاتفاً، أفقدني حس الزمان والمكان، فلم أعد أدرك أين أنا وفي أي وقت ومَن

أكون، قبل أن أسمع مضيفي يقول إن التجمع والتظاهرة الليلية سيبدآن بعد قليل في ساحة الخالدية، ثم سألني إن كنت أريد الخروج معه إلى الساحة. يلعن روحك يا حافظ، هتفتُ، فأيقن أنني سأخرج. جلستُ مكانه على الكرسي أمام شاشة الكومبيوتر، كي أستطلع مصدر كلماته عن موت الرب الذي ثارت سورية على ربوبيته وتلعن روحه، فإذا بها مقالة للكاتب السوري عمر قدور في صحيفة «المستقبل» البيروتية، في عددها الصادر صبيحة نهار اجتيازي الحدود اللبنانية ــ السورية، الأحد ٢٩ كانون الثاني ٢٠١١. ومما كتبه قدور في مقالته أن أجهزة الإعلام والدعاية والأمن السورية، أضفت على شخصية القائد الرئيس حافظ الأسد هالات من القداسة، تتويجاً لمقاتله في النصف الأول من ثمانينيات القرن العشرين، فرفعته تلك الهالات الموشاة بالدم والرعب إلى مرتبة الألوهة، وكرّست عبادته التي تجاوزت مبايعته قائداً ورئيساً مدى الحياة، إلى قائد ورئيس خالد على مر الزمن، ولن يجرؤ الموت على النيل من شخصه. لذا صُدم كثيرون بموت «الأبد»، حين تُوفي الأسد. لكن مشروع التوريث، سرعان ما تكفل بهذه الصدمة التي ألمّت بالمؤمنين حقيقة، قولاً وفعلاً، بأن القائد مقدّس وخالد ولن يفنى، أسوة بالبشر الفانين. المشروع هذا لم يكن في حقيقته مشروعاً سياسياً، بل من قبيل قهر الموت والفناء البيولوجي والزمن، والنقض على السياسة، بنقل روح الميت الخالدة من جسده الفاني إلى جسد آخر من صلبه وذريته. شعائر الانتقال وطقوسه، كرّست مرة أخرى إخراج السياسة من دائرة الحياة الدنيا، إلى دائرة المقدس، فالتأم سريعاً جرح المؤمنين المذهولين والمصدومين، لأن روح القائد ظلت على تجليها ولم تتزحزح عن جوهرها الألوهي الخالد، إذ

انتقلت في أيام معدودة، وحلت في بشارته أو بشاره. لذا لا إهانة في أن يرغم رجال أمن بشار الأسد معتقلي الانتفاضة الكافرين بألوهيته، على الركوع وتقبيل صورته مردّدين أنه الرب، فيما هم يضربون وتُداس رقابهم بالأقدام والأحذية، قبل تكديسهم في المعتقلات أو قتلهم، فما يتعرّض له الكفرة في هذه الحال، هو بالضبط شعائر وطقوس للتكفير عن خروجهم على طاعة الرب وعبادته، وعن طلبهم الحرية، وهتافهم «الله وسورية وحرية، وبس». وما يتعرّض له المنتفضون على ألوهة الأسد أو ربوبيته، لا ينطوي على عبودية سياسية أو طبقية أو قومية، بل هو عبودية مطلقة، كما هو الرب مطلق. أما ما نرى فيه إهانة وتعذيباً وسحلاً وقتلاً، فلا يرى فيه أبناء الرب وسدنته ورهطه، سوى تصويب لخطأ أو اختلال عابر طرأ على نفوس العبيد. فأرواح العبيد وأجسامهم ملك الرب أصلاً، فما الضير في أن يستردّها متى شاء؟!

ليست الثورة السورية، إذاً، ثورة على الحاكم، بل هي خروج على عبادة الوثن الواحد المتجدّد، إلى التعدّدية الإنسانية التي لا يفاضل فيها ما بين البشر المختلفين الذين يريدون العيش متساوين في حياة دنيوية خالية من ذلك الإله المتجسّد في وثن مقدس، انتقلت روحه الخالدة إلى وثن يماثله في القداسة والخلود. وحين يلعن السوريون المنتفضون روح حافظ الأسد، إنما يلعنون مؤسّس «سياسة» رفع القائد إلى مرتبة الألوهة والحط بالبشر إلى مرتبة العبيد، ويعلنون أنهم لم يعودوا عبيداً وعبدة أصنام مقدسة خالدة.

□□□

في طريق معتمة ضيقة، مشيت في صحبة مضيفي من منزله إلى

ساحة الخالدية. هتافات تتعالى متباعدة وتقترب، تخترقها أصداء أزيز رصاص بعيد. صقيع حمص الشتوي يكاد يجمّد دمي وذاكرتي، وينفذ إلى عظامي. ظلال بشرية تعبر قربي على دراجات هوائية وتختفي سريعاً في الظلام، مخلفة في سمعي لهاثاً وكلمات شبحية. بعد دقائق قليلة، وجدتني فجأة في الساحة، فلم يذكرني أي شيء فيها بأنها ساحة الخالدية. أضواء المصابيح المعلقة في جنباتها تنير حشداً من مئات المتظاهرين المقرفصين في صفوف منتظمة، مردّدين «سورية بدا (تريد) حرية»، رداً على شاب يقف قبالة الحشد هاتفاً متسائلاً عبر ميكروفون يمسكه بيده: «سورية شو بدا؟». إلى جانب مضيفي قرفصت في طرف أحد الصفوف، وبدأت أردّد الهتاف الجوابي مع مردّديه في أصوات تتبدل إيقاعاتها، تبعاً لأداء الهتّاف الذي يغيّر مكان وقوفه قبالة المحتشدين المقرفصين المتمايلة أجسامهم بطيئاً بطيئاً. الرؤوس والوجوه المتلفعة بشالات ملوّنة، لا يظهر منها سوى العيون والأفواه. بعد وقت من تبدل إيقاعات الهتاف وتمايل الأجسام، هبَّ المحتشدون هبّة واحدة واقفين ومصفقين صارخين: «سورية بدا حرية... حرية، حرية، حرية»، ثم تشابكت الأيدي وانتظمت الأجسام في صفوف وحلقات راقصة اشتدت وتيرة حركتها وهتافاتها. استمر الرقص دقائق، حتى تقدم مضيفي من الشاب حامل الميكروفون، وتناوله من يده، منشداً قسم الثورة الذي ردّده من بعده المحتشدون جملة تلو جملة:

أقسم بالله العظيم/ أن نبقى مناضلين/ وفي طريق الثورة سائرين/ وبالحرية مطالبين/ وللحوار رافضين/ وعن إخواننا مدافعين/ وعلى أرواح الشهداء أمينين/ حتى سقوط هذا النظام اللعين/ والله على ما نقول شهيد.

الفصل الخامس

شبّان بانياس: من التصوّف إلى الثورة

تقع مدينتي(*) بانياس بين مدينتَي اللاذقية شمالاً وطرطوس جنوباً، على الساحل السوري المتوسطي. غير بعيد منها إلى الشمال، تقع جبلة بينها وبين اللاذقية. وعلى مسافة تراوح بين كيلومتر واحد في بانياس وما يزيد على عشرة كيلومترات في غيرها من المدن والمناطق الساحلية، يمتد السهل الساحلي السوري الذي يرتفع خلفه جبل النصيرية، أو العلويين، كحاجز طبيعي بين السهل الساحلي ومدنه، وسهل الغاب الداخلي الذي يجري فيه نهر العاصي، عابراً مدينتي حمص وحماه الداخليتين، قبل أن ينحرف قليلاً إلى الغرب ليجري في سهل بين جبل العلويين وجبل الزاوية. والى الشمال القريب من جبل الزاوية تقع مدينة إدلب الداخلية، إلى الشمال الشرقي منها تقع مدينة حلب الداخلية، وثانية كبريات المدن السورية.

(*) في حزيران ٢٠١١ سجّلت هذه الشهادة في بيروت. ورواها الشاب محمد البانياسي الناشط في انتفاضة مدينة بانياس، قبل اعتقاله وتعذيبه وفراره إلى لبنان.

إدارياً، كلٌ من بانياس وجبلة وحدهما من بين هذه المدن الساحلية والداخلية في شمال سورية الغربي، ليست مركزاً لمحافظة تسمّى باسمها. فبانياس تتبع محافظة طرطوس، فيما تتبع جبلة محافظة اللاذقية. أما ديموغرافياً، فإن سورية الشمالية الغربية هذه، بمدنها وأريافها التابعة لها، الساحلية منها والداخلية، تتميّز باختلاط وتنوّع دينيّين ومذهبيين. فجبل العلويين القريب من الساحل ومدنه، هو موطن الطائفة العلوية الأساسي في سورية، قبل أن يصير لأبنائها حضورهم السكاني والأمني في المدن الساحلية، وفي مدن حمص وإدلب وحماه وريفها. والمسيحيون لهم حضورهم التاريخي، منذ القدم وحتى اليوم، في الساحل السوري وفي حلب المعروفة بجاليتها الأرمنية. والأقلية الإسماعيلية حاضرة أيضاً في بعض من هذه المناطق. أما الأكثرية السنيّة، فيتوزع حضورها على المدن الساحلية والداخلية وأريافها.

يبلغ عدد سكان بانياس اليوم حوالى ٥٠ ألف نسمة. وهي كانت قليلة السكان قبل قيام الدولة السورية الحديثة. ومن أقدم معالمها العمرانية، الخان وجامع البحر وميناء صيد الأسماك. وعلى مدى سني القرن العشرين، لا سيما في عقوده الخمسة الأخيرة، توافد إليها معظم سكانها من البلدات والقرى في ريفها الذي تبلغ مساحته مع المدينة حوالى ٧٢٠ كلم٢. من تلك البلدات والقرى ـــ كالبساتين والبيضا وبستان النجار والمرقب، وقلعة المرقب الأثرية الضخمة على تلة لا تبعد من بانياس أكثر من ٥ كلم، وكان يقيم فيها عدد وافر من السكان ـــ هاجر إلى بانياس سكانها السنّة الجدد، وأقاموا فيها، من دون أن ينقطعوا عن بلداتهم وقراهم، شأن العلويين الذين نزلوا إلى بانياس من قرى جبلهم القريب. وإذ كان

السكان السنّة هم الغالبية في بانياس، فإن نسبتهم تتدنى إلى ٤٠ في المئة من مجموع سكان المدينة وريفها المشدود إليها أو المتصل بها، والبالغ ٢٥٠ ألف نسمة، ٦٠ في المئة منهم علويون. أما الأقلية المسيحية، فكثيفة الحضور نسبياً في القدموس والخراب وظهر صفرا. ولا تعود وفادة أبناء الطائفة العلوية إلى بانياس وإقامتهم فيها، إلى ما يزيد على ٤٠ سنة، فشيّدوا بيوتهم قريباً من مصفاة النفط في المدينة، حيث نشأ لسكنهم حيّا القصور والمساكن ـ لسكنهم حيا ـ القصور والمساكن.

الأمن والبحر والبندورة

ولدت عام ١٩٨٥ في حيّ ابن خلدون الشعبي، الذي يستقطب الثقل السكاني الكثيف في بانياس، ومعظم المقيمين والعاملين فيه، أصحاب متاجر ومهن وحرف، كالحدادة والنجارة وميكانيك السيارات، وقلة من الموظفين وصغار التجار في المحال والدكاكين. والدي موظف متقاعد من عمله في الشركة السورية لنقل النفط، ويملك في سوق الحي وفي سوق بانياس المركزي متجرين يتقاسم العمل فيهما مع إخوتي الكبار الذين يعملون أيضاً في مهن أخرى. ووفقاً للمعايير السورية، أسرتنا متوسّطة الدخل في بانياس التي تشكل في موقعها حلقة من حلقات الاقتصاد السوري وطرق مواصلاته.

في غمرة منعطف كبير في حياة سورية والسوريين، ولدت. فدبيب الرعب والكتمان الذي عاشه السوريون في أيام مقتلة حماه المروّعة عام ١٩٨٢، وبعدها، لابست أخباره طفولتي، وظلت أصداؤه ومفاعيله تتردّد في أحاديث سمعتها في فتوتي، وعشت حياتي كلها

تحت سطوة ذلك الحدث وآثاره. وأقدم ما سجلته ذاكرتي من مرويات أهلي عن المقتلة وتبعاتها ــ وهي وقعت قبل سنتين من ولادتي ــ تلك الرواية عن اعتقال والدي، لأنه أقفل متجره في السوق، أيام الإضراب الذي نفذه أهالي بانياس احتجاجاً على ما تعرّضت له حماه، وتضامناً مع أهلها. فالأجهزة الأمنية اعتقلت كثيرين من أصحاب المتاجر المقفلة في المدينة، فلم تفرج عن والدي إلا بعدما قدّم رجل بعثي يعمل سائقاً لجرّاره الزراعي، شهادة كاذبة لرجال الأمن، أفاد فيها بأن الجرّار الذي كان يقوده صدم سيارة على الطريق، فاضطر والدي، صاحب الجرار، إلى إقفال متجره في نهار الإضراب، ليذهب إلى مكان الحادثة. لاحقاً، بعد سنوات كثيرة، أخبرني ابن عمي الذي يكبرني بـــ١٨ سنة، بأن رفيقاً له على مقاعد الدراسة اعتقل في طريق عودته إلى بيته، لأن زميلاً له وشى به بعدما سمعه يقول إن الجيش السوري ذبح السنّة في حماه، ويتابع ذبحهم في لبنان. وقعت حادثة الاعتقال تلك عام ١٩٨٤، حينما كانت الحرب دائرة في طرابلس بين «حركة التوحيد الإسلامي» والجيش السوري الذي دخل لبنان منذ عام ١٩٧٥. دام اعتقال الطالب أو اختفاؤه أكثر من سنة ونصف السنة. وبعد إطلاق سراحه اضطر إلى أداء خدمته العسكرية الإجبارية، لكنه بعد تسريحه من الجيش، لم يتابع تحصيله الدراسي، بل ذهب إلى طرطوس وعمل بحاراً في باخرة شحن، ثم انقطعت أخباره.

على أمثال هذه الأخبار والروايات، وعلى مشاعر أهالي بانياس السنّة، المكتومة والممضّة، حيال استبعادهم من الوظائف الرسمية والعامة في مدينتهم، تفتحت ووعيت وكبرت. فإلى مينائها النفطي ومصفاته اللذين تُشحن منهما مشتقات النفط عبر محطة قطارات

توزع المحروقات إلى أنحاء سورية الساحلية والداخلية، تشكل بانياس منعقداً لشبكة طرق حديثة تُنقل عليها السلع من مرفأي اللاذقية وطرطوس إلى الداخل السوري. لكن ٩٠ في المئة من موظفي هذه المنشآت الحكومية وغيرها من الإدارات، هم من أبناء الطائفة العلوية. فالمحطة الحرارية لتوليد الطاقة الكهربائية في المدينة، مديرها ومعظم موظفيها من العلويين. ومن بين حوالى عشرة آلاف موظف يعملون في ميناء النفط ومصفاته وشركة نقل المحروقات، يندر الموظفون السنّة. والعلويون العاملون في هذه المنشآت، في غالبيتهم الساحقة من ريف بانياس ومن طرطوس. والمقيمون منهم في بانياس ينزلون في حيّ القصور العلوي. لذا تغلب على أعمال أهالي بانياس السنّة، المهن الحرة والحرف وأعمال البناء، إلى التجارة الصغيرة في السوق، وصيد الأسماك في الميناء. والشبان الذين يحصّلون تعليماً جامعياً يهاجرون للعمل في دول الخليج العربية، وقلة ضئيلة منهم تعمل في التدريس. فقبل مطلع الألفية الثالثة، إبان حكم الرئيس الأسد الأب، كان من الصعب على السوري أن يحظى بوظيفة حكومية إن لم يكن بعثياً، أو على ولاء لحزب البعث، وصلةٍ ما قرابية أو أهلية بأعضائه. ثم إن أبناء العائلات التي تُصنّف بأنها من أصحاب «السوابق»، يحرمون من الوظائف العامة. فمن سبق أن قام قريب له بنشاط سياسي، وخصوصاً في صفوف «الإخوان المسلمين»، فاعتقل أو قتل أو فرّ إلى الخارج، يقفل في وجهه باب الوظيفة العامة بجريرة قريبه، أخاً كان هذا القريب أو أباً أو عماً أو خالاً أو ابناً لعمٍ أو لخال أو لعمة أو لأخت. أما متصدرو الوظائف الإدارية، فيحوّلون مواقعهم في الإدارة ملكاً لهم، ويفرضون خوّات وإتاوات على أصحاب

المعاملات في إداراتهم. وإذا لم يكن متصدّر هذه الدائرة الإدارية أو تلك علوياً أو صاحب حظوة حزبية أو في جهاز أمني، فغالباً ما يصير موظف علوي أو حزبي أدنى منه مرتبة في دائرته، صاحب النفوذ الأقوى في الدائرة. ورجال الأجهزة الأمنية ــ وهذه يبلغ عددها ١٥ جهازاً في سورية الأسد، منها الأمن السياسي والأمن العسكري وأمن الدولة والأمن المركزي والأمن الجوي... إلخ ــ يتدخلون في كل شاردة وواردة من حياة الناس وشؤونهم وأعمالهم. فإحياء حفلة عرس، مثلاً، يتطلب الحصول على موافقة أمنية مسبقة من «مفرزة» الحيّ أو الحارة أو المنطقة. ورجال الأجهزة الأمنية يرتدون أزياءً مدنية ولا تفارق المسدسات خصورهم في حلهم وتجوالهم في المدينة. أما الذين يحرسون المقار الأمنية فيقفون أو يجلسون أمام أبوابها حاملين بنادقهم الحربية الرشاشة. والمقار الأمنية بيوت عادية يُستولى عليها منفردة ومنعزلة على طرف الأحياء والحارات، من دون وضع علامات أو إشارات فارقة تدل إليها أو تميّزها. لكن الناس في المدينة يعلمون إلى أي جهاز أمني يتبع هذا المقر أو ذاك. وإذا اعتَقَلَ جهاز أمني ما شخصاً من الأهالي، ثم حقق معه وأطلق سراحه بعد أيام أو أسابيع أو شهور من الاحتجاز العرفي وفقاً لقانون الطوارئ، فإن المعتقل الذي أُخلي سبيله، يدخل في متاهة إجراءات وملاحقات أمنية تقوم بها الأجهزة الأخرى. وإذا لم يعتقله مجدداً هذا الجهاز أو ذاك، يصير ملزماً أن يحضر دورياً إلى المقار الأمنية، لإثبات وجوده أو للتحقيق معه، كي يشعر بأنه خاضع للمراقبة الدائمة. وفي محافظة طرطوس البالغ عدد سكانها حوالى ٨٠٠ ألف نسمة من ضمنهم سكان بانياس، يقدّر عدد عناصر الأجهزة الأمنية بما بين ٣ و٤ آلاف رجل من النظاميين

الذين يضاف إليهم عدد غير معروف ولا ثابت من المخبرين المتعاقدين.

هذه الحال من التمييز والحصار الأمني وعسر الحصول على وظيفة، لا تُبقي لمعظم شبان بانياس السنّة سوى البحر ملاذاً للأمان والعمل وتحصيل المعاش. فإلى عمل بعضهم في ميناء صيد الأسماك، يندر أن تلقى أسرة سنيّة في بانياس لم يستجب شاب منها نداء البحر والسفر للعمل بحاراً في السفن التي ترسو في مرفأي طرطوس واللاذقية، وتبحر منهما إلى المرافئ العالمية. وكثيرة هي الأسر التي يغادر شابان أو ثلاثة من أبنائها ديارهم في رحلات بحرية تستغرق سنين من العمل في البواخر. بعضهم تنقطع أخباره، قبل أن يعلم أهله أنه نزل في أحد مرافئ العالم، ولن يعود. أما العائدون إلى ديارهم بعد غيبات بحرية طويلة، فيشيّدون بما حصلوه في رحلاتهم بيوتاً فوق منازل أهلهم أو إلى جانبها، ثم يتزوجون وينجبون.

لكن بانياس وريفها عرفا، منذ مطلع الألفية الثالثة، ظاهرة اقتصادية جديدة، هي: زراعة البندورة في خيم البلاستيك التي حسَّنت أحوال الأهالي المعيشية، وخصوصاً السنّة، وزادت مداخيلهم. فتوسع هذه الزراعة وانتشارها في ما يزيد على ٢٠٠ ألف خيمة، جعلا منطقتنا، من أهم مناطق الشرق الأوسط في زراعة البندورة وإنتاجها في أراضي وطى البيضا وسهم البحر والقرير والخراب. هذه الأراضي سهلية ساحلية، ترتفع بطيئاً بطيئاً على جبل العلويين الذي استصلح الأهالي سفوحه وأقاموا عليها الخيم لإنتاج البندورة، ولا سيما في منطقة حريصون العلوية. فالعلويون عملوا أيضاً في هذه الزراعة، وحسّنوا مداخيلهم. ذلك أن الخيمة الواحدة تنتج من البندورة

كميات تؤمن دخلاً يبلغ حوالى خمسين ألف ليرة سورية في السنة على الأقل. والعائلة الموسعة التي تملك عشر خيم، يدخل منها نحو نصف مليون ليرة سورية سنوياً، أي عشرة آلاف دولار. وهذا، في معايير المداخيل السورية، مبلغ كبير أتاح تحسين المستوى الاقتصادي والمعيشي للأهالي. لذا شرع من لا يملك أرضاً زراعية لإقامة الخيم عليها، يضمن، سنوياً، أرضاً مجهزة بالخيم، ويقوم بزراعة البندورة فيها. أنا مثلاً، عندما كنت طالباً في جامعة «تشرين» في اللاذقية (تبعد حوالى ٥٠ كلم عن بانياس) ما بين عامي ٢٠٠٤ و٢٠٠٨، استصلحت أرضاً زراعية وأقمت الخيم عليها وزرعتها بشتول البندورة. لكنني حين عزمت على مغادرة بانياس لمتابعة دراساتي العليا في بيروت، ضمّنت الخيم من أحد المزارعين.

الاختلاط والسفور بعد المقتلة

في بانياس تمثّل المظهر الأبرز للمنعطف الذي نجم عن مقتلة حماه، بفرض الاختلاط بين الجنسين في مدارس المدينة، وبإرغام تلميذاتها على نزع حجاباتهن على بوابات المدارس، ومنعهن من دخولها إلا سافرات. والإجراء هذا لم يشمل من المدن السورية كلها سوى بانياس ذات الأغلبية السكانية السنيّة، والأقلية العلوية. وفي المدينة مدارس ثلاث للمرحلة الإعدادية والثانوية: مدرسة عماد عرنوق (أحد شهداء حرب تشرين الأول ١٩٧٣) الواقعة على طرف المدينة، وتلامذتها في أغلبيتهم الساحقة من السنّة. ومدرسة جلال خدام (شهيد طيّار في الحرب نفسها) تقع في وسط المدينة، وتلامذتها خليط من السنّة والعلويين والمسيحيين، من أبناء بانياس

ومن الوافدين من قراها القريبة. أما المدرسة المعروفة بمدرسة فهيم محمد، فتقع على طرف المدينة الآخر، وتلامذتها جميعهم من العلويين النازلين في حيّ القصور العلوي، ومن القرى العلوية القريبة.

أهالي بانياس السنّة متدينون ومحافظون في أغلبيتهم الساحقة، فامتنع البعض منهم عن إرسال بناتهم إلى المدارس، وتلقى الجميع الإجراء الإداري، كعقاب جماعي حكومي، وبناءً على رغبة الأقلية العلوية في المدينة، والأكثرية في المحافظة، طرطوس، ذات الأغلبية العلوية، والأقلية الكبرى السنيّة. وبما أن العلويين على وجه العموم غير محافظين في عاداتهم وتقاليدهم المتعلقة بالنساء وملبسهن ومخالطتهن الرجال، ويرتدن الأماكن العامة سافرات، نزل فرض الاختلاط ومنع الحجاب في المدارس نزول النقمة والنكاية على الأهالي السنّة، فرأوا فيه انتقاماً طائفياً منهم، وهتكاً لأعراضهم وشرفهم وتقاليدهم الدينية. وهذا ما صوّر لهم أن استعادة الفصل بين الجنسين، وارتداء البنات، بناتهم، الحجاب في المدارس، مهمة أخلاقية ودينية، لرفع الضيم والكيد الحكوميين عنهم، وجَعَلَ هذه المهمة رسالة تتعلق بالشرف والفضيلة. ونتيجة لهذا كله، تزايد التشدد والمحافظة في أوساط الأهالي السنّة وبناتهم في بانياس، على خلاف ما هي عليه الحال في حيّ العلويين في المدينة، حيث يشيع سفور النساء والبنات واختلاطهن بالرجال والشبان في الأماكن العامة والخاصة. أما في الأحياء والحارات السنيّة، فيندر أن تصادف امرأة سافرة، وفتاة تكلم شاباً أو تلتفت إليه في الطريق. والسفور والاختلاط المفروضين في المدارس، عمّقا الهوة أو سمّكا الجدار النفسي ورفعا مداميكه عالياً بين الإناث والذكور، فصار من الصعب أن تلقى فتاة ترتضي محادثة زميل لها في ملعب المدرسة، كأن

السفور والاختلاط المفروضين عليها، جعلا من حجابها المنزوع عنوة عن رأسها، حجاباً إرادياً صلباً في نفسها ومسلكها. والحال هذه أدت إلى اعتبار كل فتاة سنيّة تحادث شاباً في أي مكان عام، سيئة السمعة.

رداً على فرض الاختلاط والسفور، بادرت كثرة من الفتيات السنيّات إلى ارتداء سترة طويلة حتى القدمين فوق الزي المدرسي الموحد، فأخذ مديرو المدارس في بانياس يُرغمن التلميذات على خلع هذه السترة، كي يظهر زيّهن المدرسي الموحد. وبعد رفض عدد من الفتيات أمر المديرين، تدخل الأمن السياسي في الأمر، فحضر مسؤول منه مع مجموعة من عناصره إلى إحدى المدارس، واستدعى الأهالي وجمعهم. توصّل المجتمعون إلى اتفاق أو تسوية تتخلى الفتيات بموجبها عن ارتداء السترات الطويلة، على أن يلبسن الزيّ المدرسي طويلاً إلى ما فوق القدمين بقليل. أما مسألة الاختلاط المدرسي بين الجنسين، فظلت مدار تذمّر الأهالي السنّة واحتجاجهم لدى الإدارات المدرسية والمحلية في المدينة، من دون أن تلقى آذاناً صاغية من أحد. وفي عام ٢٠٠٠ اتفقت مجموعة من تلميذات في مدارس بانياس، على الدخول إلى مدارسهن من دون نزع حجاباتهن على مداخلها. بعد وصولهن إلى الملاعب محجبات في الصباح الموعود، طردتهن الإدارات المدرسية، فحصل لغط بين أهالي المدينة، وحضرت جماعات منها إلى المدارس حيث جرت مواجهات كلامية احتجاجية مع المديرين الذين استدعوا رجال الأمن. وفي ذلك النهار استمر تجمع الأهالي على بوابات بعض المدارس، فأجرى المسؤول الأمني اتصالات بهيئات حكومية نافذة، أدّت إلى السماح للتلميذات بارتداء الحجاب في مدارس بانياس.

أما الاختلاط بين الجنسين فظل سريانه يثير حنق الأهالي السنّة وغضبهم.

الأمن سقف التعليم

لم يقتصر شعور أهالي بانياس السنّة بالقهر على فرض الاختلاط بين الجنسين والسفور على بناتهم في المدارس التي مُنع تلامذتها الذكور من أداء فرائض الصلاة فيها، فأخذ بعضهم يفر من مدرسته لأدائها في أي مكان خارجها، رغم تعرّضه للقصاص. الحياة المدرسية للتلامذة في مدينتنا لم تخلُ من تسلط البعث وأجهزته. فالمدرّس ـ الموظف الأقوى نفوذاً إدارياً وتربوياً في كل مدرسة، هو «الموجّه» الحزبي البعثي الذي غالباً ما صار علوياً بعد ما سُمّي «حركة» حافظ الأسد «التصحيحية» عام ١٩٧٠. وازدادت هذه الظاهرة رسوخاً وقوة ما بعد مقتلة حماه عام ١٩٨٢. وفي بدايات كل عام دراسي يوزّع «الموجّه» استمارات أو طلبات انتساب إلى حزب البعث، على تلامذة الصف الأول من المرحلة الثانوية، فيُلزَم كل منهم تدوين المعلومات المطلوبة في الاستمارة، ليصير تلميذاً من فتيان البعث.

لكن منذ عام ٢٠٠٠ أخذ بعض التلامذة السنة يتجرّأون على التملص من تعبئة الاستمارة، من دون أن يعمد «الموجّه» إلى استدعاء رجال الأمن إلى المدرسة لتأديبهم وإرغامهم على تعبئتها، ودفع ٢٥ ليرة سورية، هي قيمة الاشتراك الحزبي السنوي. غير أن جميع التلامذة أدركوا أن الاستمارة الحزبية ليست أكثر من إجراء شكلي لا تكلفهم، إلى الاشتراك السنوي، سوى حضور اجتماعين

حزبيين أو ثلاثة يعقدها «الموجّه» للتلامذة في قاعة بإحدى المدارس، في بدايات العام الدراسي. بعد هذه الاجتماعات التي يدلي فيها «الموجّه» ببعض من مداخلات أو مطالعات بعثية، خشبية الكلمات والمعاني، غالباً ما تصير الاجتماعات نسياً منسياً. هذا فيما لا يتوقف الجهاز الإعلامي والتعبوي للحزب والدولة عن التباهي بشعار «المليونَي بعثي»، وفقاً لاستمارات الانتساب المدرسية وغيرها، إلى الحزب.

لكن شكلية الانتساب هذه، وتداعي الحياة والأطر الحزبية وتكلسها، وتخشب الدعاية والدعاوى الببغائية البعثية، لا تعني أبداً تحرّر التلامذة من التسلط والكتمان اللذين يلابسان حياتهم المدرسية، وحياة الطلبة الجامعيين، وكلماتهم وعلاقاتهم. فانحلال الحزب وأطره حصل في سورية الأسد الأب والابن، لمصلحة سيطرة الأجهزة الأمنية على الحياة العامة، من دون أن تخفى قوة العصبية الأهلية العلوية في مفاصل هذه الأجهزة وقيادتها. وكلما حصلت مشكلة ما بين تلميذ ومدرّس، أو وقع شجار بين تلميذين، ليس ناظر المدرسة أو مديرها من يتولى التصدّي لمثل هذه المشكلات ومعالجتها، بل «الموجّه» المرتبط بجهاز أمني ما في المدينة. من الأمثلة التي تبيّن كيف تُعالج المشكلات في المدارس السورية، حادثة حصلت عام ٢٠٠١ في مدرستنا. وهي ما كان لها أن تحدث لولا منعطف عام ٢٠٠٠ الذي بدأ يظهر في صفوف مجموعات من التلامذة والطلبة في مدارس بانياس، وتجلى بخروجهم من الانتماء إلى الحلقات الصوفية، وبدئهم نشاطاً إسلامياً ثقافياً وتعبوياً يميلُ إلى سلفية عامية. فبعد إهانات كثيرة تعرّض لها

تلميذ سنّي من موجّه مدرستنا العلوي، فقد التلميذ المقهور السيطرة على نفسه، وجرّأه إسلامه الدعوي الجديد على شتم «الموجّه» ورئيسه، فسارع موجّهنا إلى استدعاء رجال الأمن إلى المدرسة، حيث ضربوا التلميذ عازمين على اقتياده إلى مقرهم. لكن المدير تدخل قائلاً إن من يعنيه التلميذ في شتيمته ليس الرئيس الأسد، بل رئيس الموجّه الإداري في المدرسة، أي المدير، الذي لم يبتكر هذا المخرج بقوله إن الشتيمة موجهة إليه، لأنه أراد التضامن مع التلميذ السنّي مثله، بل حفاظاً منه على عدم تعريض مدرسته ومنصبه فيها لمشكلة قابلة للاتساع. هذا فضلاً عن أنه، أي المدير، ما كان قيّض له الوصول إلى منصبه، من دون صلته الوثيقة بالجهاز الإداري البعثي. لكن رجال الأمن لم يعزفوا عن اقتياد التلميذ إلى مقرهم، إلا بعد رجاءات المدير الذليلة لهم، لإدراكه أن أهل التلميذ وزملاءه الإسلاميين في المدرسة، لن يسكتوا عن احتجازه. وفي اللحظة الأخيرة التي سبقت مغادرتهم مكتب المدير، صفع أحد رجال الأمن التلميذ صفعة أخيرة مرفقة بأقذع الشتائم لأهله ومدرسته.

في جامعة «تشرين» في اللاذقية التي تبعد حوالى ٥٠ كلم من بانياس شمالاً، وحيث درست العلوم السياسية ما بين عامي ٢٠٠٤ و٢٠٠٨، يتضاعف وقوع أمثال هذه الحادثة عنه في المدارس. والجامعة هذه جديدة، إذ بُدئ بتشييد بنائها الجامعي الموحد في عام ١٩٧٥، وفتحت أبوابها لاستقبال الطلبة والطالبات في عام ١٩٨٠. وبسبب الاختلاط بين الجنسين في الجامعات السورية، إضافة إلى أن الجامعة الأقرب إلى مدينتنا هي جامعة «تشرين» في اللاذقية المعتبرة عاصمة العلويين، تعزف عائلات من بانياس عن

السماح لبناتها بمتابعة تحصيلهن الجامعي، لئلا «يفسدهن» الاختلاط.

أما أكاديمياً فلا تختلف جامعة «تشرين» عن غيرها من جامعات المدن السورية، التي ينصبُّ اهتمام طلبتها جميعاً على نيل الشهادة، كيفما اتفق وبأهون السبل. فالشعار الشائع في سورية يقول إن «التعليم لمن يريد ويرغب، والشهادة للجميع». لكن الراغب والمريد، أي من يبذل جهداً ويتعب على نفسه في تحصيله الجامعي، لن يتميّز عن غيره من الحاصلين على الشهادة كيفما اتفق، وسوف يذهب جهده وتعبه وإرادته سدى، في نهاية المطاف، إن لم يكن من أصحاب الولاء والحظوة في هذا الجهاز أو ذاك، أو على صلة بشبكة من العلاقات والولاءات الأهلية المتصلة بالإدارة العامة وأجهزتها المرتبطة بجهاز أمني ما. وفي كل كلية من كليات الجامعة مقر خاص بمفرزة أمنية ثقيلة الوطأة على الحياة الطالبية وعلاقاتها اليومية التي تعاني من النعرات الطائفية المتفاقمة في اللاذقية وجامعتها. فالموظفون والمدرّسون في جامعة «تشرين»، بعثيون أو علويون في معظمهم. والمناقشات بين الطلبة والمدرسين في ساعات التدريس، معدومة وتبعث على الخوف الذي يساور أي طالب راغب في المناقشة. مرة تجرأت على مناقشة أحد الدكاترة في مسألة تتعلق بالتاريخ الإسلامي في حقبة الفتنة والصحابة والخلفاء الراشدين، فدافعت عن موقف معاوية بن أبي سفيان، معتبراً أنه لم يكن على خطأ، مما أغضب الدكتور الذي بادرني قائلاً: «إذا بتحكي بعد (أكثر) بدي خليهن يسحبوك»، أي إنه سوف يستدعي رجال مفرزة الأمن في الكلية لإخراجي من قاعة التدريس، واعتقالي،

فابتلعت كلماتي وعزفت عن متابعة المناقشة. وحين كتب مرة طلبة بعثيون في الجامعة تقريراً يفيد بأن أستاذهم ينتقد حزب البعث في محاضراته، شاع في الجامعة أن الأستاذ لم يُعتقل بل اكتُفي بنقله إلى جامعة دمشق، لأنه علوي وصاحب نفوذ قوي في الدولة.

الجيش، الأمن، الإدارة

كانت مدة الخدمة الإلزامية في الجيش السوري سنتين ونصف السنة، فجرى تقصيرها إلى سنتين، ثم إلى سنة وتسعة أشهر. والمعروف في سورية أن السنّة يشكلون الخزان البشري الأساسي والأكبر للجيش الذي تتكاثر فيه أعدادهم من المراتب العسكرية الدنيا إلى مرتبة عقيد، فتبلغ نسبتهم ما يزيد على ٦٠ في المئة من عديد الجيش الذي يتصدر الضباط العلويون مراتبه القيادية العليا التي ترتقي إليها أقلية ضئيلة جداً من الضباط السنة. وحتى هؤلاء غالباً ما تكون أدوارهم القيادية هامشية ويخضعون لرقابة أمنية، ما لم يكن ولاؤهم للأجهزة الأمنية العليا في الجيش أكيداً وواضحاً ومضموناً. فالنفوذ الأساسي والأكبر في وحدات الجيش السوري وقطعاته المختلفة يكون لضباط الاستخبارات العسكرية العلويين وتابعيهم في الجهاز.

والفوضى والمحسوبية والولاءات الأهلية والفساد، مستشرية في الجيش على نطاق واسع. وهذه كلها تشكل مصادر دخل وفير لكبار الضباط الذين تتراوح مرتباتهم الشهرية ما بين ١٦ و١٨ ألف ليرة سورية، تعادل ما بين ٣٠٠ و٤٠٠ دولار، لا تساوي شيئاً يُذكر من مداخيل الفساد المنظم التي يبلغ ما يحصّله الضباط منها

ما بين ٤ و٥ آلاف دولار في الشهر. المصدر الأساسي لهذه المداخيل هو مرتبات الجنود وصغار الرتباء التي يتخلى عنها هؤلاء لأمرائهم من الضباط، لقاء سماحهم للجنود بترك الثكن والمعسكرات والمواقع العسكرية في أوقات الخدمة، للذهاب إلى بيوتهم وعائلاتهم، حيث يقومون بشتى أنواع الأعمال الخاصة التي تؤمن لهم مداخيل تقيهم العوز في حال اعتمادهم على مرتباتهم العسكرية وحدها. والعملية هذه التي يتواطأ عليها الجنود والرتباء وضباطهم، لها تسمية شائعة ومشهورة في سورية، هي «التفييش»، وتعني أن كل ضابط يسمح لمجموعة من جنوده بالتغيب عن مراكز خدمتهم العسكرية، ليقوم الضابط نفسه بتغطية تغيّبهم، أي بـ«تفييشهم» (تسجيلهم) في سجلات الدوام اليومي. والضباط الذين يملكون مزارع يرسلون جنودهم للعمل فيها، أو عمال بناء وبلاطين ومورّقين ودهّانين في بنايات وفيلات يشيدها الضباط بأموال يحصلونها من «التفييش» أو من النهب والفساد. فالضباط غالباً ما يستولون على جزء من مؤونة وحداتهم العسكرية وتجهيزاتها، إضافة إلى كميات من المحروقات، ويبيعونها. ومن هذه الأعمال السوداء المتفشية في الجيش يحصّل كبار الضباط ثروات ترفع من مستواهم المعيشي والاجتماعي. أما كبار الضباط العلويين، فكل منهم يملك فيلا أو قصراً منيفاً، إلى جانب يسره المادي المنظور. لكن الثروات الكبيرة غالباً ما تكون من نصيب المحظيّين من كبار ضباط الجمارك والأمن العسكري.

لأجهزة الأمن وضباطها صولات وجولات في ابتزاز التجار، صغاراً وكباراً ومتوسطي الحال في السوق، وصولاً إلى أصحاب الشركات والمصالح والأعمال الذين غالباً ما يكونون من بطانة أجهزة الحكم،

ويصعب عليهم تسيير أعمالهم من دون ولائهم للنظام. فما من تاجر وصاحب شركة ومصلحة، ينجو من تسلط ضباط الأمن الذين يفرض كل منهم إتاوة على مجموعة محددة من التجار في السوق، ومن أصحاب الأعمال والشركات في المنطقة والمدينة. وهذا ما أدّى إلى نشوء شبكة من الحمايات والمصالح المتبادلة بين التجار ورجال الأعمال وضباط الأمن الذين أخذوا يشغّلون أموالهم لدى التجار وأصحاب الشركات الذين يقيمون الولائم ويقدمون الهدايا للضباط، لقاء ما يقدمه هؤلاء لأولئك من حمايات تسهّل أعمالهم.

وفي مكاتب الإدارات العامة، يصعب أن تُنجز معاملة أو يخرج منها مستند وإفادة من دون حصول هذا الموظف أو ذاك على رشوة. والأجهزة الأمنية لها حضورها في تخليص المعاملات الإدارية، ونصيبها من الرشى التي يحصّلها الموظفون الإداريون الذين يحميهم ضباط الأمن ويمكّنونهم من فرض الإتاوات على الأهالي.

تصوّف ما بعد المقتلة

«الحركة التصحيحية» الأسدية في عام ١٩٧٠، والمنعطف الكبير الذي أذنت به مقتلة حماه عام ١٩٨٢، حوّلا سورية شبه معتقل تديره الأجهزة الأمنية المتشعبة. لكن عام ٢٠٠٠ الذي شهد وفاة الأسد الأب وتوريث ابنه الرئاسة السورية، أرهص ببدايات منعطف معاكس، خافت وبطيء، وبيّنت الأسطر أعلاه بعضاً من ملامحه السريعة المختلفة. في بانياس، قد تكون الظاهرة الأبرز في سياق هذا المنعطف المعاكس والبطيء، هي خروج مجموعات من شبان المدينة وفتيانها السنّة، على الدعوة الصوفية وطرقها وحلقاتها. وإذا كان حضور التصوّف في مجتمعات اللاذقية وحمص ودمشق

وحماه وحلب، قديماً وتقليدياً، فإن حضوره كان ضيقاً في بانياس، لكنه توسّع وتجدد نشاطه، ليستقطب فئات من الفتيان والأجيال الشابة، بعد منعطف ثمانينيات الرعب والانكفاء والكتمان التي أدّت إلى ازدهار التصوف وانبعاثه طوال حوالى عقدين من السنين.

في هذه السنين ــ وهي معظم عمري، أنا ومجايليّ المولودين في عشيّات منعطف مطلع الثمانينيات المرعب، أو في أثنائه، أو بعده بسنة أو اثنتين أو أكثر بقليل ــ ماذا كان يسعنا أن نفعل حين يبلغ الطفل منا الحِلم، وتتفتح مداركه وحاجاته ورغباته؟ أشباح المقتلة الكبرى وصورها المتخيّلة وأخبارها المكتومة، تملأ طفولتنا وحياتنا العائلية: هذا والده اعتقل وسجن أو اختفى. وذاك أخوه الأكبر هارب ومطارد، أو هاجر وانقطعت أخباره. وذلك من أصحاب «السوابق» لا يُسمح له بالتقدّم إلى الوظائف العامة، وعليه أن يزور مقار الأمن مرة في كل شهر، أو يأتي رجال الأمن لزيارته وتفقده في بيته، ولا يُسمح له بالسفر. والهاربون الفارون إلى خارج البلاد، يأتي رجال الأمن أيضاً إلى بيوت أهلهم، فيسألون من يجدونهم في البيوت: أين ابنكم أو أخوكم، هل عاد إلى الديار؟

في هذه الديار، حين كان الفتى مثلي يتوق إلى متنفّس ما لتواصل وتعارف وصحبة ونشاط تفاعلي مع أقران له وأمثال، يبادلهم ويبادلونه المدارك والرغبات الجديدة، في حيّز خارج الفضاء البيتي والعائلي الضيق، لم يكن يعثر على ذلك في مجتمع خنقته منذ عقود «جمهورية الخوف» البعثية والأسدية، وحطمته، فانكفأ أهله على أنفسهم وعلاقاتهم وتقاليدهم القديمة المحافظة، للاحتماء بها كملاذ في ما يشبه معتقل جماعي كبير.

وحدها حلقات الدروشة الصوفية، بمشايخها وتكاياها ومساجدها، كانت متاحة لي ولأمثالي من الفتيان والشبان. فهي، من وجه أول، كان لها تراثها الضيق في مجتمع بانياس المديني، وكانت حلقاتها تستقطب مريدين من الكهول، للطرق الصوفية حضورها المتوارث في عائلاتهم. وهي، من وجه آخر، غير محظورة ولا تمنع الأجهزة الأمنية نشاطاتها، بل تركت لها الحرية في إحياء شعائرها وحلقاتها، كي تجذب المريدين وتستقطبهم، حتى من الفئات العمرية الفتية والشابة، فتصرفهم عن احتمال الانخراط في نشاط سياسي ولا سيما الإسلامي الدعوي الإخواني. فهذا ليس محظوراً فحسب، بل قد يؤدي بناشطيه ومؤيّديه المكتومين والسريين، إلى إعدام ميداني في أثناء المطاردة، أو إلى معتقلات وسجون يُمضي الداخلون إليها معظم أعمارهم فيها. ومن يُكتب له البقاء على قيد حياة منسيّة، ينزع عنها التعذيب المروّع في المعتقلات السورية كل صفة إنسانية أو بشرية، فغالباً ما يخرج منها حطام كهل أو عجوز، ليمضي فضلة من حياة وعمر، مبتئساً خاوياً وغريباً عن نفسه وأهله ومجتمعه المكتوم والخاوي، فيذوي سريعاً وبطيئاً، قبل أن يشيّعه أهله وقلة من قدامى أصدقائه المحطمين، إلى مثواه الأخير. أما من تظل تضج نطفة من قوة الحياة في جسمه المحطم وروحه الذاوية ما بعد عتمة المعتقلات وعذاباتها، فستحمله هذه النطفة على استئناف نشاطه السياسي المعارض، أو على الخروج من سورية البعث والأسد، إلى وحشة ووحدة رضيتين في ديار البرد والصقيع والحرية. والحق أن هذه العناوين السريعة تلخص سير عدد كبير من الإسلاميين السوريين، وغيرهم من الليبيراليين واليساريين والناصريين وقدامى البعثيين والوزراء ورؤساء الجمهورية السابقين، إضافة إلى كبار

الضباط في شلة حافظ الأسد ورفاقه ورهطه، في سورية البعث و«الحركة التصحيحة» وما بعد المقتلة الكبرى في حماه، والصغرى في غيرها من الديار السورية.

في هذه الحال، كيف لا يكون التصوّف الاسلامي ملاذاً لجيل فتي وشاب، هو جيلي الذي تفتحت عيناه على الدنيا في مجتمع يتعرض لمثل هذه الأهوال التي قد يكون التصوّف، بدفء حلقاته وأوراده وحلقات ذكره المسكرة، محاولة للشفاء السلبي منها، عبر الغيبة عنها بالخدر أو الوجد الإلهي، وباعتزال الفعل والمجتمع والناس؟

هكذا وجدتني، منذ الثانية عشرة من عمري، بين حوالى ٣٠ فتى وشاباً في بانياس في واحدة من الحلقات الصوفية التي تكاثر انتشارها بين فتيان مدينتنا وشبانها، في ثمانينيات القرن العشرين وتسعينياته. فالنظام الأمني السوري يعمل على أن يعيش الناس والمجتمع، على مثال ما يعيش مريدو الطرق الصوفية حياتهم وعلاقاتهم منكفئين ومنعزلين ومنقطعين عن العالم، كي يستغرقوا في صرف طاقاتهم في حلقات الذكر والحضرة التي يتصدرها شيخ الطريقة. فالصوفية، على خلاف الحركات الإسلامية الدعوية، لا تدعو إلى القيام على الظلم والحكام، بل تحضُّ على احترام أولي الأمر وأصحاب السلطان، وعلى ذوبان المريدين في حضرة شيخهم، وصولاً إلى الخدر والسكينة والتواصل مع الحضرة الإلهية في الملأ الأعلى، خارج هذا العالم الفاني. وفي الحلقة الصوفية التي كنت من مريديها في بانياس، كنا نحن الفتيان والشبان نختلط برجال مكتهلين مسنّين وفي أعمار آبائنا، فنقيم شعائرنا وأذكارنا وأورادنا وأحاديثنا الروحانية في حضرة شيخنا مرتين في الأسبوع: مرّة مساءَ الأربعاء، في بيت الشيخ أو بيت شخص غيره من

المريدين المتقدمين في معارج الصوفية. والحلقة هذه يحضرها من نسمّيهم الخواص. والمرّة الثانية في مساء الخميس، عشية العطلة الأسبوعية، ليتسنّى لكثيرين حضورها حيث تقام في مسجد الرحمن، ويكون مريدوها من العوام والمبتدئين، فننتحي زاوية من صحن الجامع الفسيح، منشئين ما يشبه تكية صوفية.

في بانياس كانت الطريقة الشاذلية الدرقاوية هي الأقوى والأنشط في جمعها الأتباع والمريدين في حلقة الخواص، وفي حلقة العوام الموسعة في جامع الرحمن. أما الطريقة النقشبندية فكانت ضعيفة ومعروفة بقلة مريديها. لكن مشايخ التصوّف وطرقه في بانياس يتبعون مشايخه الكبار في مدينة حلب المعروفة بانتشار التصوّف على نطاق واسع وعميق بين عائلات كثيرة من أهلها، فتستقطب حلقاتها الكثيرة والمتجذرة هناك، أعداداً كبرى من الفتيان والشبان والمسنين الحلبيين. وفي بعض المناسبات الصوفية المشهودة في بانياس، كان مشايخ الطرق الكبار يأتون من حلب لحضورها وتصدّرها في مدينتنا غير العريقة في نشاطها الصوفي، قياساً إلى حلب.

الخروج على الصوفية

ما بين عشيات بداية الألفية الثالثة وغداتها بدأت تظهر علامات ضجر أو سأم من التصوّف ومشايخه وحلقاته في أوساط شبان في بانياس. وكان للمنعطف الألفي بظواهره المعولمة تأثير بارز في تململ أولئك الشبان وسأمهم، من طريق تواصلهم المستجد مع العالم الواسع وحوادثه، عبر الشاشات التلفزيونية وبث محطاتها

الفضائية، وفي طليعتها «الجزيرة» و«اللبنانية للإرسال L.B.C» و«المستقبل» البيروتية، و«العربية»، والمحطات الإسلامية الدعوية والتربوية كـ «إقرأ» و«الرحمة» و«الحكمة» و«الناس». وساهم البث الإلكتروني عبر الإنترنت في هذا التواصل وفي تداول المعلومات والأخبار والرأي. أما مادة هذين التواصل والتداول وموضوعاتهما، فكانت سلسلة مترابطة ومتزامنة من الحوادث التي ملأت أصداؤها الحارّة الفضاء العام العربي والإسلامي: «الجهاد» في أفغانستان، و«الأفغان العرب» العائدون إلى ديارهم من هجرات جهادية هناك، وتفجيرات «قاعدة» أسامة بن لادن الكبرى في نيويورك وواشنطن في ١١ أيلول ٢٠٠١، وصورها الحية المهولة، ثم الحرب الأميركية والدولية على أفغانستان الحركة الطالبانية و«القاعدة»، وسرعان ما أعقبت هذا كله الحرب الأميركية على العراق في عام ٢٠٠٣، فكان لهذه الحرب حضورها في أسئلتنا ومداولاتنا.

هذه السلسلة من الظواهر والحوادث المتزامنة والمترابطة، تدافعت صورها وأخبارها وكلماتها وأصداؤها إلى عزلات حلقات التصوف وسكينة طقوسها وشعائرها وأورادها وأذكارها، ففتحت مدارك الفتيان والشبان من مريديها، على التفاعل مع هذه الحوادث العالمية والمعلومة، وعلى أفكار وممارسات ودعوات إسلامية جديدة، على النقيض من الممارسات الصوفية المنكفئة.

أنا من تزامن خروجي على الصوفية مع الحرب الأميركية على العراق في عام ٢٠٠٣، بعد مضيّ ثلاث سنوات على انضمامي إلى حلقاتها، رحت أهتم بأفكار الجماعات الإسلامية ودعواتها المنشورة على مواقع شبكة الانترنت. في جامعة «تشرين» في اللاذقية، بعد

انتسابي إليها في عام ٢٠٠٤، جعلت أحاذر مناقشة أحد في ما يدور في رأسي من أفكار، على خلاف ما كنت أفعله في بانياس التي أعرف معظم أهلها ويعرفونني، وتجمعني صحبة وصداقات مع كثيرين من شبانها ورجالها من متعلمين ومدرسين ومثقفين، فنتحاور في شؤون الفكر الإسلامي والجماعات الإسلامية، مستعرضين معنى الصوفية وجدواها، قياساً على إسلام الحضور والفعل الذي تراءت لنا صوره وعباراته وأفعاله عبر التلفزيون والانترنت والبث الإذاعي. كنا نتناقش متسائلين إن كانت «القاعدة» على حق أم على باطل في نهجها وأفعالها، وعن أسباب عدائها أميركا وحربها عليها، وعن أسباب تراجع المسلمين وبواعثه، وشيئاً فشيئاً أخذت مداولاتنا تستقر على اعتبار الصوفية وحلقاتها قعوداً أو غياباً عن الفعل، واستغراقاً في الغفلة والخرافات التي أسهمت في ذلك التراجع وأدّت إليه، لأنها تعزلنا عن حيوية المجتمع ومنابع القوة فيه وفي أنفسنا. وفي خضم ذلك، كانت الفضائيات التلفزيونية الإسلامية، الدعوية والفقهية والتربوية، تبثّ دعاوى متنوّعة، منها السلفية التي توافد من دمشق وحلب دعاة لنشرها في بانياس، وخصوصاً في أوساط مريدي التصوّف من الفتيان والشبان. لكن السلفية هذه لم تكن جهادية ولا تحضّ على الجهاد، بل تدعو إلى إسلام اجتماعي وتربوي ينشّط التفكير في شؤون الناس وأحوال المجتمع والأمة، من دون تأطير أو تنظيم محدّدين.

غالباً ما كانت مناقشاتنا تدور في البيوت، أو على رصيف الكورنيش البحري في مدينتنا، متحلقين حول شخص يكبرنا سناً وتجاوز الخامسة والأربعين. كان واسع الثقافة، وأمضى سنوات سجيناً سياسياً لمرات ثلاث أو أربع، مما حرمه من متابعة تحصيله

الدراسي، وصرفه، بعد خروجه من السجن، إلى القراءة والمطالعة، مستغنياً عن أي عمل. وهو في هذا كله نموذج لكثيرين من أمثاله في بانياس وسواها من المدن السورية. غالباً ما يكون هؤلاء من أصحاب «السوابق» السياسية، والثقافة الإسلامية الفقهية أو اليسارية والقومية العروبية الناصرية، وأدى إطلاق سراحهم من السجون إلى اعتكافهم في بيوتهم واستمرارهم في تثقيف أنفسهم وغيرهم من الشبان والفتيان، وتُغنيهم عن العمل وتحصيل المعاش عوائد مالية تعادل ما بين ٤٠٠ و٦٠٠ دولار أميركي في الشهر، مصدرها بدلات إيجار قطع أرض زراعية أو بيوت أو متاجر آل إليهم ملكها بالتوريث عن أهلهم وعائلاتهم. لكن أصحاب الأفكار والتوجهات اليسارية بين هذا النوع من الأشخاص، كانوا قلة في بانياس التي كانت تخلو تقريباً من النشاط الدعوي غير الصوفي الذي أخذنا، نحن شبانها وفتيانها، نخرج عليه. هذا بعدما تعرّض الإسلاميون القدامى للمطاردة والقتل والاعتقال، ولجأ بعضهم مع قلة نادرة من السوريين القوميين الاجتماعيين إلى الانتساب إلى حزب البعث، طلباً لملاذٍ آمن جلب لهم الضجر واليأس، إذ كان يستحيل عليهم الانخراط والارتقاء في مراتبه وشبكات ولاءاته والاستفادة منها، فظلوا على هامشها، خارج دوائر الحظوة والمحسوبية في أجهزة الحزب المترهلة والمهمشة أصلاً.

في أحاديثنا ومناقشاتنا، وفي حلقات التثقيف الديني البيتية على أحد قدامى الإسلاميين، كان الخوف جليسنا الدائم، بعد اشتداد حملات الأجهزة الأمنية ودهمها بعضاً من تلك الحلقات في البيوت، حينما كان حلمنا البعيد المنال أن ينفتح في جدران الكبت والكتمان والصمت في سورية الأسد باب أو نافذة للحرية وتبادل

الرأي في العلنية العامة. كان مثل هذا الحلم قد عبر كطيف مع تولي بشار الأسد رئاسة الجمهورية خلفاً لوالده في عام ٢٠٠٠. آنذاك تكاثر لغط ولغو حول الإصلاح السياسي ومكافحة الفساد. لكن ذلك الطيف انجلى عن صدمة حملتنا مجدداً وسريعاً على الانكفاء، قائلين إن علينا الانصراف إلى المطالعة وتحصيل الثقافة والعلم، في انتظار فرصة مناسبة قد تأتي في المقبل من الأيام، فيما راح معظم الناس في بانياس وغيرها من مدن سورية، يسمّون الرئيس الجديد «الزرافة»، تهكماً على طول عنقه، وبناءً على انطباع شاع على نطاق واسع، يقول إن ماهر الأسد، شقيق الرئيس الأصغر، وآصف شوكت، صهره، وضابطاً أمنياً كبيراً من آل مخلوف إسمه حافظ، ورجل الأعمال الشاب الناشئ، رامي مخلوف، إضافة إلى علي مملوك (شاعت تسميته منيوك)، رئيس الاستخبارات العامة الموروث عن أيام حافظ الأسد الأب ـ هم حكام سورية الفعليون، وليس الرئيس الوريث، بشار الأسد.

في هذه الأجواء أخذت ثقافتنا الإسلامية تتفاعل وتنمو في حلقات ولقاءات التصوّف فأخذنا نستقطب سوانا من خارج تلك الحلقات، وفي سياق خروجنا وانقلابنا على الصوفية. لكن إسلاميتنا لم ترَ في الإسلام الجهادي وأعماله مثالاً علينا الاقتداء به والنسج على منواله. فإلى أن مجتمع الكتمان والخوف والقبضة الأمنية المشددة في سورية الأسد، كان يحول دون ذلك، فإننا لم نعتبر العنف والقتل الجهاديين صائبين إسلامياً، بل يشوّهان صورة الإسلام في العالم، ولا يقدّمان حلاً لمشكلته. كنا نقول إن الجهاديين على خطأ في أفعالهم، لكنهم فعلوا شيئاً ما، أما نحن فمستنكفون عن كل فعل، وعلينا أن نعثر على سبيل ما يخرجنا من حال الاستنكاف والقعود.

غير أن خروجنا وانقلابنا المتدرّجين على الصوفية طوال سني العقد الأول من الألفية الثالثة، لم يحدثا من دون مجابهات دعوية ودعائية قام بها ضد إسلاميتنا، قدامى أقطاب التصوّف ودعاته ومشايخه الكهول المسنون الذين استقدموا من حلب كبار مشايخ الطرق ودعاتها لمساعدتهم ومؤازرتهم في المجابهة. فدارت في بانياس حرب دعوية على السلفية، تعرّضت وغيري في سياقها لمحاولات اعتداء متكررة في عام ٢٠٠٥، بعد بروزنا كدعاة للخروج على الصوفية التي راح حضورها يتداعى ويتضاءل عدد مريديها في مدينتنا. وهذا ما أدّى، أخيراً، إلى انقطاع صلة متصوّفي حلب ببانياس التي انقلب معظم الصوفيين الشبان فيها إلى سلفيين عاميين غير جهاديين، فيما ظل الانقلاب إلى السلفية في حلب محدوداً وطفيفاً في حلقاتها الصوفية القوية، الواسعة والمتجذرة.

إبان هذا الانقلاب، نشطت أجهزة الأمن في مطاردة الإسلاميين الجدد وحلقاتهم البيتية. في عام ٢٠٠٧، بعد أيام من بث القناة التلفزيونية الفضائية، «العربية»، مقابلة جرت في باريس مع نائب الرئيس السوري المنشق، عبد الحليم خدام، أقيم في بانياس مجلس عزاء لرجل توفاه الله، فقرأ شيخ في المجلس آيات من الذكر الحكيم، تضمّنت آية «اقتربت الساعة وانشق القمر»، فقام رجال الامن باعتقال الشيخ من بيته، واقتادوه إلى مقرهم، حيث حققوا معه، وأطلقوا سراحه بعد أيام.

وفي عام ٢٠٠٧ اعتقل رجال الأمن حوالى ٢٠ شاباً في مدينتنا بتهمة نشاطهم السلفي غير الحركي، فاقتادوا المعتقلين إلى أحد مقار دمشق الأمنية، حيث سُجنوا قرابة أربعة أشهر، قبل إطلاق

سراحهم. ذلك أن أجهزة الأمن السورية تصنّف السلفيين فئتين: فئة السلفيين العاديين وغير الحركيين الذين يقتصر نشاطهم على المناقشة والدعوة في ما بينهم، مثل أصدقائي الشبان الذين اعتقلوا وأطلق سراحهم، وفئة السلفيين الحركيين والجهاديين. وهذه الفئة تنقسم بدورها فئتين في عرف أجهزة الأمن: فئة غير مرتبطة بهذه الأجهزة، ومن تعتقلهم من ناشطيها هيهات أن يخرجوا من السجون ومعتقلات التعذيب إلا في حال تحويلهم جهاديين احتياطيين تستعملهم الأجهزة الأمنية السورية في أعمالها الخاصة في لبنان والعراق. أما الفئة الأخرى من السلفية الجهادية المرتبطة، أصلاً، بأجهزة الأمن، فلا يختلف استعمالها عن الفئة الأولى. ففي أيام حرب العراق سمحت الأجهزة الأمنية السورية لسلفيين عاميين دعويين بالخروج إلى الجهاد في بلاد الرافدين، بغية الخلاص منهم. وهي سمحت أيضاً لجهاديين من بلدان مختلفة بالعبور إلى العراق للجهاد فيه. ومن سلفيّي بانياس أخذت الموجة الجهادية حوالى ٢٥ شاباً إلى العراق في بدايات الحملة الأميركية عليه، فلم يبقَ منهم هناك سوى سبعة شبان بعد سقوط بغداد، وعاد الباقون إلى ديارهم وأهلهم، فاعتقلتهم أجهزة الأمن، واختفى أثر بعضهم، والأرجح أنها استعملتهم في عملياتها الأمنية الخاصة.

وكان لاغتيال رفيق الحريري في بيروت عام ٢٠٠٥، تأثير في الأوساط السنية في بانياس أثناء خروج شبانها على الصوفية. قبل حادثة الاغتيال بسنوات، كان أخي الأكبر قد أدى خدمته العسكرية الإلزامية في عاليه وبيروت، فروى لي أخباراً وحكايات عن الظلم والاضطهاد اللذين تمارسهما القوات الخاصة وأجهزة الأمن السورية

على اللبنانيين، فأضفت مع أمثالي من الشبان هذه المظالم كمادة جديدة في مناقشاتنا حول ما ينزله بنا النظام السوري منذ سنين كثيرة. ثم أيقظت فينا انتفاضة اللبنانيين على تسلط النظام السوري على بلادهم، بعد اغتيال الحريري، شعوراً جديداً بالفرح والحسرة حيال ما نحن فيه، وسرعان ما غمرنا الشعور نفسه حيال حرب تموز ٢٠٠٦ بين «حزب الله» وإسرائيل، حينما استضاف الشعب السوري النازحين اللبنانيين، وخصوصاً الشيعة منهم، في أيام تلك الحرب. لكن بعيد هجوم «حزب الله» على بيروت وترويع مسلحيه أهلها في ٧ أيار ٢٠٠٨، انقلبت نظرتنا، ونظرة السوريين عموماً، إلى «حزب الله» ومقاومته في لبنان. وفي هذه الأثناء كان يتنامى لدينا أيضاً الشعور نفسه حيال مواقف الشيعة العراقيين وارتباطهم بإيران. فبعدما كان ٩٠ في المئة من السوريين يؤيّدون مواقف حسن نصر الله ويهللون لخطبه في إطلالاته التلفزيونية، تدنت هذه النسبة من مؤيّديه إلى حوالى ١٠ في المئة، غالبيتهم الساحقة من العلويين. والسنّة السوريون صاروا ينظرون إلى الشيعة كفئة تريد السيطرة على الدولة في كل من العراق ولبنان، إلى جانب سيطرة فئة متسلطة من العلويين وأتباعها ومواليها، على الدولة في سورية التي كان إسلاميوها على حدس يقيني بأن النظام السوري ضالع في اغتيال الحريري، معتبرين أن اغتياله أفقدهم زعيماً وسنداً يتجاوز دوره ونفوذه لبنان. أما نحن، شباب الخروج على الصوفية، فغالباً ما كانت المناقشات في حلقاتنا تنصب على النماذج المحتملة للتغيير الذي نحلم به في سورية: تارة كنا نقول إن نموذجنا هو الإسلام التركي، إسلام «العدالة والتنمية»، أو الإسلام الماليزي، وطوراً نقول إن علينا عدم طرح فكرة الدولة الإسلامية كخيار للتغيير، بل يجب

أن نرتضي الآن ولحقبة طويلة، بشعار الدولة المدنية. وذلك لشعورنا بالخوف من نموذج الدولة الطالبانية وتسلطها الأصولي القمعي على المجتمع في أفغانستان، ومن العقيدة الجهادية الدموية لـ«القاعدة» وبن لادن. فتجربة الإسلاميين الإخوانيين الدموية والمرعبة في سورية الأسد، والميول والتوجّهات الإسلامية التي كانت تجمعنا وتشكل دليل تفكيرنا في مناقشاتنا حينما كان معظمنا طلبة جامعيين آنذاك، كانت تجعلنا شديدي الحساسية إزاء القمع والعنف، وتدفعنا إلى القبول بدولة مدنية، آملين أن نسعى وننشط ونجذب الناس إلى تحويلها، لاحقاً، دولة إسلامية. وفي أحيان كثيرة كانت أنظارنا وأفكارنا تتجه إلى مصر، متمنين لو تصير سورية على صورتها ومثالها في عهد الرئيس حسني مبارك الذي سمح للأحزاب والصحف بالظهور وممارسة نشاط علني في المجتمع. وفي هذا السياق كنا نستعيد ما سمعناه من أشخاص مسنّين عن سورية ما قبل البعث، فلا نصدّق أنها عرفت شيئاً من الديموقراطية والانتخابات البرلمانية، ونتساءل عمّا أدى بها وبشعبها إلى هذه الحال المزرية من الانسحاق والخوف، وشرّد طاقاتها؟! بعضنا، في غمرة هذه الدوامة من الأسئلة وتقليب الخيارات ومناقشتها، كان يغلبه اليأس، فيقول إنه سوف ينهي دراسته الجامعية ويهاجر، لأن العيش في سورية يفوق طاقته على الصبر في انتظار تغيير يكاد يكون مستحيلاً. لكن الهجرة ليست حلاً، كان يجيبه آخرون، فيطلق هذا أو ذاك حسرته وخيبته من تعليق فئات واسعة من السوريين آمالها في التغيير على بشار الأسد في بدايات توريثه مقاليد الرئاسة والسلطة والحكم في سورية. فالأسد الابن الشاب، أذهل الناس بسلوكه في مطالع عهده الرئاسي، حينما كان يشاهد يمشي بينهم في السوق،

ويدخل مع زوجته إلى المطاعم. لذا أخذ كثيرون يردّون سلوكه إلى السنين التي أمضاها في بريطانيا يدرس طب العيون، معتبرين أنه في حلّ من صورة والده وتراثه المرعبين، ومن ولوغه في دم السوريين. وهذا ما أوهم الناس بأن الرئيس الجديد سوف يقود عملية التغيير والإصلاح المنشودة، والتي لم يتوقف عن وعدهم بها، كلما ألقى خطاباً وأجريت معه مقابلة صحافية أو تلفزيونية.

على هذه الحال من تدافع القلق والأمل واليأس، أمضينا العقد الأول من الألفية الثالثة، فيما كنا نخرج على الصوفية إلى إسلام دعوي متنازع في حلقاتنا في بانياس التي أخذ أهلها يعتبروننا سلفيين، من دون أن يدري هذا الشاب أو ذاك من الخارجين على التصوّف، ولا الأهالي أنفسهم، ما هي السلفية فعلاً. والدعاية التي أخذ يبثها ضد الصوفية رجال وشبان صوفيون ذهبوا إلى أداء مناسبك الحج في مكة، وعادوا إلى بانياس معتبرين التصوّف من البدع وخروجاً عن العقيدة الإسلامية، أسهمت في إشاعة تسمية الخارجين على الصوفية سلفيين، وفي اعتقاد الأهالي بأن التصوف يخالف تعاليم الدين. وكان لأجهزة الأمن إسهامها في حمل الناس على النفور من الصوفية ومريديها المتضائلين. فكلما اعتقل رجال الأمن شاباً أو رجلاً بتهمة نشاطه الإسلامي، أخذوا، في أثناء التحقيق معه وضربه وتعذيبه، يقولون له: «لماذا لا تنتمي إلى حلقة صوفية؟ الصوفيون جماعة أوادم، كويسين وطيبين، لماذا أنت لست معهم؟!». والحق أن النظام الأمني السوري يكافح لترويع السوريين للحيلولة بينهم وبين أي نشاط اجتماعي أو ثقافي أو سياسي في العلنية العامة الممتنعة والمستحيلة أصلاً، مما يجعل الحلقات الصوفية ملاذاً نموذجياً يرغب النظام في أن يعيش المجتمع على صورته ومثاله.

التظاهرة الأولى: فلتسقط الصوفية والخوف

ما إن خرجت التظاهرة الاحتجاجية الأولى من جامع الرحمن إلى شوارع بانياس، بعد صلاة ظهر نهار الجمعة الواقع فيه ١٨ آذار ٢٠١١، بالتزامن مع التظاهرة الأولى في درعا، حتى راح بعض الشبان المتظاهرين في مدينتنا، يهتفون: فلتسقط الصوفية، فلتسقط الصوفية. كنت بين هؤلاء الشبان آنذاك، فسمعت رجلاً يسير إلى جانبي يقول: هي سبب البلاء، هي سبب البلاء. ومن الهتافات الأخرى التي تردّدت أيضاً في تلك التظاهرة: فليسقط الأمن، فليسقط الأمن. لكن قبل حوالى ١٥ يوماً أو عشرين من تلك التظاهرة، كانت قد حصلت في بانياس حادثة فجرت غضب أهاليها المزمن من فرض الاختلاط المزمن بين الجنسين في مدارسها. فبعدما قبض على فتيات ثلاث يختلي بهنّ شبان في حمامات إحدى المدارس، أثارت الحادثة لغطاً واسعاً في المدينة. وعقب استدعاء إدارة المدرسة أهالي التلميذات الثلاث اللواتي ألحقن الإهانة والخزي والعار بشرف أهلهن، أطلق هؤلاء ــ مع سائر العائلات السنية في المدينة ــ العنان لاستيائهم وغضبهم من فرض الاختلاط في المدارس. وإذ احتشد جمع من الأهالي أمام المدرسة احتجاجاً، استدعت إدارتها رجال الأمن، فحصلت نقاشات حادة بين الأهالي ورجال الأمن والمسؤولين التربويين.

قبيل خروج التظاهرة الأولى من مسجد الرحمن، تكلم خطيب المسجد، فأشار إلى الحادثة قائلاً: إلامَ تستمر هذه الحال من القهر في مدينتنا؟ لن نسكت بعد اليوم عن فرض الاختلاط على أبنائنا وبناتنا في المدارس، ونطالب بالفصل بين الجنسين، فلماذا يفرض

هذا علينا، ما دام ليس من اختلاط في اللاذقية ولا في القرداحة؟!
أما بعدما تجمهر ألوف المتظاهرين المحتجين من أهالي بانياس أمام مقر جهاز أمن الدولة في المدينة، وطلب منهم إمام المسجد وخطيبه تقديم لائحة بمطالبهم لقادة الأجهزة الأمنية القادمين من اللاذقية وطرطوس، فتضمّنت اللائحة ١١ مطلباً، تصدرت المحلية منها ثمانية مطالب، منها:

١ ــ الفصل بين الجنسين في المدارس، وفتح مدرسة شرعية للتعليم الديني.

٢ ــ الكف عن التلاعب بقيمة فواتير الطاقة الكهربائية المستحقة على أهالي بانياس، وعن تحميلهم وحدهم مصاريف هذه الطاقة التي يستهلكها أهالي ريف المدينة من العلويين، وأهالي حيّ القصور العلوي في مدينتهم.

٣ ــ إرساء العدالة في توزيع الوظائف العامة والحكومية في المدينة، وعزل مدير الموانئ فيها من منصبه.

أما المطالب العامة فهي ثلاثة:

١ ــ السماح بعودة المهاجرين الممنوعين من العودة إلى بلادهم.

٢ ــ إلغاء قانون الطوارئ.

٣ ــ إطلاق سراح المعتقلين السياسيين.

بعد أيام علمنا أن أحد قادة الأمن الكبار في دمشق سأل أحد مقدّمي جهازه في بانياس مستغرباً، إن كان أهل المدينة المحتجون يريدون الفصل بين السنة والعلويين؟! فأخبره المقدم الأمني أن مطلبهم هو الفصل بين الجنسين في المدارس. لكن قائد الجهاز

الأمني الدمشقي ظل على استغرابه متسائلاً: هل هنالك من مدارس يختلط فيها الجنسان في سورية؟

غريزة الأجهزة الأمنية

تنطوي دهشتا قائد الجهاز الأمني في دمشق على حقيقتين تلابسان واقع النظام الأمني الأسدي وتركيبه الداخلي. فالدهشة أو المفاجأة الأولى ليست وليدة السمع السيئ للقائد أو زلة في سمعه، قدر ما هي صنيعة انضوائه وعمله ومسيرته وممارساته في جهازه الأمني طوال سنين كثيرة جعلته يحيا مسلط السمع والحس إلى ما رسّخته في وعيه وسلوكه غريزة الجهاز أو عقيدته، ويسهم هو أيضاً في ترسيخها. الغريزة ــ العقيدة هذه، السارية سرياناً مكتوماً ومعلناً في الأجهزة الأمنية وفي المجتمع السوري، ركنها وقوامها الداخليان عصبية عشائرية ــ بيروقراطية سندها الأهلي الطائفة العلوية. والعصبية هذه تخترق البنيان الداخلي للأجهزة الحكومية، الأمنية والعسكرية والإدارية، وتشكل لحمتها، وتتربّع في سدتها عشيرة الأسد ورهطها وأحلافها. لذا انقلبت في سمع القائد الأمني عبارة الفصل بين الجنسين التي رفعها محتجو بانياس مطلباً لهم، إلى الفصل الطائفي بين السنّة والعلويين. والباعث على هذا الانقلاب، هو أن الغريزة أو العقيدة الأمنية للقائد وجهازه، قوامها انكفاء رهطها وأهله وأنسابه على جماعتهم والتحامهم بها، مع مواليهم وأتباعهم من الجماعات الأخرى، التحاماً عضوياً، جهازياً وبيروقراطياً. والانكفاء والالتحام العصبيان والعصوبيان هذان، لا يقومان إلا بانفصال الأجهزة الأمنية عن الدولة والمجتمع انفصالاً حاداً وعدائياً،

وتسلطها عليهما تسلطاً أمنياً عدائياً وحاداً، مصدره حق طبيعي أزلي أو سرمدي، وينطوي على ثأر أهلي وطبقي عميق من الجماعات الأهلية الأخرى، ومن المجتمع كله، الذي لا وجود له أصلاً في ممارسات الأجهزة السلطوية، إلا بوصفه كتلاً أهلية صمّاء ومكتومة ومطيعة ومتذررة وظيفتها العلنية، العامة والجمعية، عبادة الحزب القائد الذي يختصره قائده المقدس حافظ الأسد وأبناؤه. فحزب البعث الذي انحل وذاب ذوباناً أهلياً وعضوياً في جماعة أهلية وعصبية التحمت بالأجهزة الأمنية في الحقبة الأسدية الطويلة، هو وحده قائد الأمة والدولة والمجتمع في سورية. وهذا هو مصدر الحق الطبيعي، الأزلي أو السرمدي، في السلطان البعثي والأسدي، المسكون بقوة وجبروت فائضين وعاتيين حتى الصلف، ومن دون حد ولا وازع، لا من نفسه وداخله، ولا من غيره وخارجه، لكنه مسكون ومهجوس بالقدر نفسه، بريبة وخوف مستطيرين من العالم كله. ومركب القوة السلطانية العاتية والخوف المستطير والانفصال والعزلة، يولد عنفاً غريزياً جهازياً وعصبياً منفلتاً على الغارب وحتى الإجرام، كما في مقتلة عام ١٩٨٢ وتوابعها في الديار السورية. والسلطان الذي يتأسس ويقيم على هذا المركب، يتصور أصحابه المنكفئون والمنعزلون في قلعتهم الأمنية، المافيوية والعشائرية والبيروقراطية، أن العالم كله خائف منهم ويتربص بهم، قدر خوفهم منه وتربصهم به. وهذا ما يجعل الاغتيال والقتل والدهم والاعتقال والترويع لغة العالم الوحيدة في عرفهم، بل في غريزتهم وعقيدتهم. وهذا هو أصل كل من السياسة والدبلوماسية وفصلها في الدولة البعثية الأسدية المسوّرة بالعزلة والخوف والتربص، وبث دبيب الحرب الأهلية في المجتمع السوري وفي المجتمعات المجاورة.

أما دهشة قائد الجهاز الأمني الثانية، من وجود مدارس يختلط فيها الجنسان في سورية، فمردّها إلى أن الإجراء العقابي الذي فُرض على أهالي بانياس في ثمانينيات القرن العشرين، نُسي وظل على حاله بلا هدف ولا غاية، شأن الإجراءات الكيدية والثأرية التي تسلطها أجهزة النظام الأسدي على المجتمع السوري الذي تتربص به، ولا تنظر إليه إلا من خلال مركب غريزتها أو عقيدتها الأمنية، بعدما أمعنت في تفكيك عراه ولحماته، وفي تحطيمه وترويعه، وتركه في العراء أقرب إلى جثة هامدة افترسها الخوف، وتتناهشها أجهزة «دولة» خاوية إلا من العنف الأمني العاري.

لكن ذلك الإجراء العقابي الذي نسيته أجهزة الدولة الأمنية، ظل يبعث المقاومة في جثة المجتمع المحلي في بانياس. ومصدر تلك المقاومة هو انكفاء أهل المدينة على تقاليدهم الدينية والاجتماعية المحافظة، وبثها في جيل أبنائهم الشبان والفتيان والفتيات من تلامذة المدارس. وهؤلاء أضافوا نقمتهم إلى نقمة أهلهم، برغم أن إجراء النكاية، لم يكن، في الحقيقة والواقع، يثير نقمة التلامذة الذكور، إلا لأن مصدره أجهزة الأمن وتسلطها المهين، ولأن التلامذة أنفسهم وجدوا في المحافظة الدينية والاجتماعية ظهيراً لهم في وجه تسلط الأجهزة الأمنية. فعندما كان أهالي بانياس يحتجون على الاختلاط، قائلين إنه علة فشل أبنائهم الدراسي، كانوا يُجبهون بحقيقة مفادها أن نسبة نجاح التلامذة في مدارس مدينتهم وفي محافظة طرطوس إجمالاً، هي الأعلى في مدارس سورية. لكن هذه الحقيقة لم تكن تهدّئ من نقمتهم على الاختلاط، ليس لأنه حمل بعض العائلات المتشددة على منع بناتها من متابعة تعليمهن في

المدارس فحسب، بل لأنه نزل عليهم وعلى أبنائهم وبناتهم نزول المذلة والقهر والنقمة الدينية والطائفية.

هذا ما حملني، أنا الذي عملت مدرّساً في واحدة من مدارس بانياس، على أن أرى في الاختلاط مساوئ تربوية وتعليمية، أكدها لي فتى سرت إلى جانبه في واحدة من التظاهرات التي سارت في شوارع المدينة، بعد استجابة السلطات، عقب التظاهرة الأولى، مطلب الفصل بين الجنسين في المدارس. كان الفتى من تلامذتي، وقال لي إن الفصل أفضل، لأنه يبعث على الارتياح والطمأنينة في نفوس التلامذة الذكور الذين كان اختلاط الجنسين يحفّزهم على الانشغال بثيابهم ومظهرهم، وبتصفيف شعرهم بمستحضرات الجل، مستجيبين رغبتهم في لفت أنظار الفتيات في قاعات الدرس، وممعنين في إطلاق نكات والقيام بحركات تهريجية، لإضحاكهن ونيل حظوتهن. ومما قاله لي التلميذ أيضاً، أنه لم يعد يهتم كثيراً بملبسه وهندامه، وبدل انشغاله بمحاولته التحدث مع هذه التلميذة أو تلك في الصف، أخذت صور بنات وأطيافهن تهوّم في مخيلته، فيسرح مع هذه الصور والأطياف، شارد الذهن عن نفسه وعما يدور حوله في الصف.

لكن ما الذي ألهم مجموعات من شبان بانياس، وشجّعهم على التعبير عن احتجاجهم بالخروج إلى التظاهر في شوارع المدينة؟

سحر الثورة المصرية

نحن الذين فاتنا الانتباه إلى الثورة التونسية ومتابعة أخبارها، عشنا يوميات الثورة المصرية الشبابية، وتتبعنا مشاهدها يوماً بعد يوم،

ولحظة بلحظة، مسمّرين أمام شاشات التلفزيون والكمبيوتر، متواصلين ومتحادثين في ما بيننا، وجاهياً أو حضورياً، أو عبر مواقع التواصل الاجتماعي عبر الإنترنت، عما يحدث في مصر، معتبرين أن نجاح ثورتها سيغيّر وجه المنطقة العربية، لأن مصر مركز الثقل العربي وقطبه ورافعته. هذا ما دفعنا إلى التفكير في ما يمكن أن نفعله في سورية، مستلهمين ما بثته مشاهد الثورة المصرية من حمية ومشاعر وصور في حواسنا وجوارحنا وكلماتنا. وفي ظهيرة نهار الجمعة ١١ آذار، حين وقف إمام جامع الرحمن، الشيخ أنس عيروط، خطيباً في جموع المصلين، وقال إن الظلم الواقع على مدينة بانياس يجب أن يتوقف، وإن أهاليها ما عادوا يرضون بالاختلاط في مدارسها، ولا بتحمّل نفقات الطاقة الكهربائية التي يصرفها غيرهم في القرى المجاورة (العلوية ضمناً) جاوبه المصلون هاتفين الله أكبر، الله أكبر. كانت حماسة الشبان هي الأقوى في ترداد الهتاف، من دون أن يفكر أحد منهم في الخروج في تظاهرة. لكن بعضهم تحادثوا في ما بينهم، فيما هم يخرجون من المسجد، عن ضرورة التظاهر نهار الجمعة المقبل، لتحقيق المطالب التي ذكرها الشيخ. تنحّي الرئيس حسني مبارك ومشاهد سكرة المصريين الاحتفالية في شوارع مدنهم ليلة تنحّيه، أذهلتنا وأسكرتنا في تلك الأيام المشهودة في العالم كله، فارتفعت وتائر التحادث والمناقشات في ما بيننا عن ضرورة التظاهر التي كانت قد ضُربت له مواعيد كثيرة سابقة في سورية عبر مواقع التواصل على شبكة الإنترنت، وكان موعد ١٥ آذار، أكثرها تداولاً.

في ظهيرة ١٨ آذار، بلغ عدد المصلين في جامع الرحمن في بانياس حوالى ٣ آلاف شخص، معظمهم من الشبان الذين قدموا من أحياء

المدينة وقراها القريبة، بناءً على ما جرى من أحاديث مباشرة في لقاءات يومية، وعبر الإنترنت. وهذا ما أدّى إلى مضاعفة عدد المصلين في الجامع الذي لا يتسع لأكثر من ألف شخص، ولم يكن يتوافد إلى الصلاة فيه أكثر من ٧٠٠ شخص في نهارات الجمع السابقة. لكن الشيخ عيروط لم يدعُ إلى التظاهر في خطبته التي قال فيها إن الناس لم يأتوا بهذه الكثافة إلى المسجد لأنه دعاهم إلى المجيء، بل استجابة منهم لصوت الحق. في محيط الجامع كان رجال الأمن منتشرين، حين خرج منه المصلون من دون أن تنصرف جموعهم إلى بيوتها وأشغالها، على جاري العادة، فيما وقف الشبان متحلقين في مجموعات، حائرين ماذا يفعلون. أنا الذي رحت أتنقل ما بين داخل المسجد وخارجه، مترقباً ما سيحدث، كنت في الداخل حين سمعت في الخارج صوتاً يعلو هاتفاً: «الله أكبر، الله وسورية وحرية، وبس... حرية، حرية، حرية». مسرعاً خرجت من المسجد، فأبصرت الشاب أنس الشغري محمولاً على الأكتاف، يهتف ويشجع الناس على الهتاف قائلاً لجموع الشبان من حوله: ما بكم. قولوا الله أكبر، اهتفوا: الله وحرية وسورية وبس، فاشتعل الهتاف، وبعد وقت قليل بدأت الجموع تسير بطيئاً بطيئاً، في اتجاه دوار محطة البلدية على مسافة ٣٠٠ متر من جامع الرحمن. الهتافات أخذت تصدح عالياً، جاذبة جموعاً إضافية من الناس، فيما انتشر رجال الأمن المسلحون على أطراف التظاهرة التي استمر سيرها نحو الساحة واحتشدت فيها طوال ساعة سبقت وصول تعزيزات أمنية كثيفة من اللاذقية وطرطوس، وانتشارها في الشوارع المحيطة بالساحة من دون أن تقترب منها. وحين اقترب مدير جهاز الشرطة في بانياس من بعض

المتظاهرين، محاولاً التحادث إليهم، لم يستجب أحد له. سيارة الأمن العسكري التي اقتربت من الساحة، جابهها بعض الشبان، وصعدوا إلى سطحها هاتفين، لكن شباناً آخرين سارعوا إلى إنزالهم عن سطح السيارة، وتركوا سائقها يقودها ويبتعد من الساحة. بعد مضيّ أكثر من ساعة احتار المتظاهرون ماذا يفعلون، وإلى أين يذهبون. وفي الأثناء اعتقل رجال الأمن شاباً كان يقف على طرف الساحة، واقتادوه إلى كاراج سيارات السرفيس (الفانات). جموع من الشبان هاجمت الكاراج، وحطمت ثلاثة فانات، اثنان يملكهما علويان، وثالث لرجل سني. شبان التظاهرة الواعون منعوا الآخرين من استكمال هجومهم على الفانات، مردّدين شعار «سلمية، سلمية، سلمية». وحين وصل رئيس البلدية والشيخ عيروط وغيره من المشايخ، وحاولوا تهدئة المتظاهرين الغاضبين، لم تُستجب محاولتهم، إلا بعدما أطلق رجال الأمن سراح الشاب الذي اعتقلوه، متداركين تهديد المتظاهرين بمهاجمة مقر الشرطة. أخيراً دعا شبان إلى السير نحو مقر جهاز أمن الدولة، فاستُجيبت دعوتهم، وبادرت مجموعات إلى دخول المقر الذي كان يغص بمئات من رجال الأمن المسلحين. وبين الساعة الثالثة والنصف والرابعة والنصف تكاثرت أعداد المتظاهرين أمام المقر الأمني وفي ساحة محطة البلدية. رؤساء الفروع الأمنية الذين وصلوا من طرطوس واللاذقية، حملوا الشيخ عيروط على الدخول إلى مقر أمن الدولة لإخراج المتظاهرين منه. في المقر أقنع الشيخ الشبان الذين دخلوه بأن يدوّنوا مطالبهم على ورقة. بعد أخذ وردّ، توصل المتظاهرون إلى صوغ المطالب وتدوينها، فقرأها الشيخ على الجموع من على شرفة مقر أمن الدولة. تضمّنت الورقة ١١ مطلباً، ٨ منها محلية وخدمية،

وتناولت الاختلاط وفواتير الطاقة الكهربائية والعدالة في توزيع الوظائف الحكومية وعزل مدير الموانئ، وغيرها. أما المطالب الوطنية العامة، فكانت: إلغاء قانون الطوارئ، إطلاق سراح المعتقلين السياسيين في سورية، والسماح لمن يسمّون «أصحاب السوابق» الفارين إلى خارج البلاد والمحظور عليهم دخولها، بالعودة إلى ديارهم.

بعدما أعلن الشيخ هذه المطالب، دعا المتظاهرين إلى الانصراف من أمام مقر أمن الدولة ومن ساحة محطة البلدية، والعودة إلى بيوتهم، ووعدهم بالتظاهر في نهار الجمعة المقبل، إذا لم تتحقق مطالبهم. كان عدد المتظاهرين ما بين ٤ و٥ آلاف شخص، فأقاموا صلاة العصر في الساحة، ثم غادروها، بعدما قام جمع من الشبان بجمع مبالغ مالية من الناس، ودفعوها تعويضاً لأصحاب الفانات المتضررة، ثم قمنا بتنظيف الساحة.

في تلك الظهيرة وحتى منتصف الليل، استمر تحميل صور التظاهرة التي التقطها شبان بكاميرات هواتفهم المحمولة، على موقع يوتيوب، وبثها منه.

ليلة الشبيحة الأولى

في حوالى الساعة العاشرة من مساء السبت، ١٩ آذار، شاع بين أهالي بانياس خبر عن سيارات مدنية وأمنية تمر مسرعة على أوتوستراد المدينة البحري، وتطلق من مكبّرات للصوت عبارات موتورة تأمر الناس بمغادرة المقاهي وإقفالها. دب الخوف في نفوس الأهالي وكلماتهم، إذ كانت قد وصلتهم في النهار أخبار من

مدينتي جبلة واللاذقية، تفيد بأن رجالاً من الشبيحة قاموا طوال ما بعد ظهر الجمعة، ١٨ آذار، بالتجول في سيارات في شوارع المدينتين الساحليتين، وأطلقوا عشوائياً نيران بنادقهم الرشاشة، مردّدين من مكبرات الصوت هتافات «الله وبشار وسورية وبس»، فروّعوا الأهالي كي لا يخرجوا في تظاهرة على منوال ما فعل أهالي بانياس.

مديدة ومريرة هي تجارب السوريين مع ما تعارفوا على تسميتهم الشبيحة الذين ينتسبون جميعاً إلى مدن الساحل السوري، إلى الطائفة العلوية، بل إلى بطانة عشيرة الأسد ورهطها. في البداية كانوا يعملون في إمرة نافذين في العشيرة، كفواز ومحمد وجميل الأسد. وبعدما خنق الرئيس الراحل حافظ الأسد نفوذ أخيه رفعت، وفكّك «سرايا الدفاع» وميليشيا «الفرسان الحمر» اللتين كان يقودهما، انخرطت مجموعات من رجالهما في عصابات الشبيحة التي تمكن نجل الرئيس، باسل الأسد، بعد تسلمه قيادة لواء الحرس الجمهوري، من تصفية نفوذهم، قبل مقتله في حادث سير. وفي عهد بشار الأسد الرئاسي استعاد الشبيحة نشاطهم، لكنهم قللوا من تعدياتهم وتسلطهم على الناس، وانصرفوا إلى أعمال تهريب المخدرات والسلاح والأدوات المنزلية والتبغ والآثار، ما بين سورية وتركيا والعراق ولبنان.

ليلة السبت، ١٩ آذار، ما إن علم أهالي أحياء بانياس السنيّة الخائفون، بأن رجالاً من الشبيحة تجمعوا في حيّ القصور العلوي، مستعملين حوالى ٢٥ سيارة، استعداداً للهجوم على أحيائهم، حتى حملهم خوفهم على الخروج مذعورين من بيوتهم، للدفاع عن

عائلاتهم وأحيائهم، حاملين ما توافر لديهم من العصيّ والخناجر والسيوف وقضبان الحديد (شنتيانة وفقاً للتسمية المحلية العامية)، إضافة إلى القليل من بنادق الصيد والبومب أكشن. في مشهد خروجهم الليلي المذعور، كانت تمتزج مشاهد قديمة من عاميات أهلية، ومشاهد من عراضات أهالي الأحياء والحارات، إضافة إلى مشهد تظاهرهم الحاشد ما بعد ظهيرة أمس، غير المسبوق في ما عاشوه وخبروه طوال تاريخ سورية الأسد. جماعات جماعات اندفعوا من بيوتهم وأحيائهم، واتجهوا نحو مقر جهاز أمن الدولة في المدينة، حيث بلغت أعداد حشدهم الليلي بضعة آلاف. جذوة شجاعتهم وتجاسرهم في تظاهرة أمس، كانت لا تزال حية راعفة في أجسامهم وأرواحهم المعجونة بمهانة ذلك التاريخ المديد وذله وخوفه. قوة جديدة استفاقت في تلك الأجسام والأرواح العزلاء، المكتومة والخرساء، منذ سنين، فانطلقت منها صرخات الخوف والترويع تهديداً ووعيداً للشبيحة ولآل الأسد. رجال الأمن الذين سربلتهم تلك الصرخات وأذهلتهم، حذروا الشبيحة من الاقتراب من الأحياء السنيّة، ودعوهم إلى البقاء في حيّ القصور العلوي، ثم استدعوا الشيخ أنس عيروط ورئيس البلدية لتهدئة غضب الأهالي وسخطهم. لكن الشيخ ورئيس البلدية لم يقويا على تهدئتهم وإقناعهم بالانصراف إلى بيوتهم، إلا بعد منتصف الليل الذي أمضوا نصفه الثاني ساهرين جماعات جماعات، ومتحادثين في البيوت، كما لم يفعلوا مرة من قبل.

لم يشارك علويون في تظاهرة ١٨ آذار. وبعد ليلة شبيحة السبت، امتنع علويو حي القصور وغيرهم من أهالي القرى القريبة، عن التوافد إلى سوق بانياس، برغم أن الحياة اليومية في المدينة استمرت

على حالها تقريباً، حتى نهار الجمعة التالي، ٢٥ آذار. طوال أيام الأسبوع السابقة على ذاك النهار، دار في أوساط الأهالي لغط محموم، فانقسمت آراؤهم بين من يريد التظاهر مجدداً، ومن لا يريده في انتظار تحقيق المطالب التي سرعان ما استُجيب منها مطلب الفصل بين الجنسين في مدارس المدينة التي توافد إليها مقدمون من أجهزة الأمن في اللاذقية وطرطوس، لحمل الشيخ عيروط، المسموع الكلمة بين الأهالي، على الحؤول دون خروج الناس إلى التظاهر، ودعوتهم إلى الامتناع عنه. وفي الأثناء وفد من حلب بعض من مشايخ التصوّف لثني أهالي بانياس عن التظاهر مجدداً، قائلين لهم إن الخروج على طاعة الحاكم وأولي الأمر من أفعال الفتنة، فحصلت بين أولئك المشايخ وجماعات من أهالي المدينة وشبانها الخارجين على الصوفية، ملاسنات غاضبة أدّت إلى طرد المشايخ، فيما اتصل بعض من مشايخ التصوّف الحلبيين والدمشقيين بالشيخ عيروط هاتفياً، وطلبوا منه الحؤول دون خروج المصلين في مسجد الرحمن إلى التظاهر.

مساجد وعائلات وأشخاص

جامع الرحمن وجامع القبيات يجذبان العدد الأكبر من المصلين في مدينتنا، لأنهما يقعان في حيين شعبيين أكثف سكاناً بين أحياء بانياس. والتعارف والتواصل بين أهالي هذين الحيين يتميزان بالسيولة والحيوية، والعلاقة ما بين إمامي مسجديهما والأهالي وثيقة أيضاً. وإلى هذين المسجدين هناك في بانياس ما يزيد على سبعة مساجد، منها البحر والنور والرضوان والتقوى وأبو بكر الصديق. وقبل مستهل الألفية الثالثة، كان لحلقات التصوف ولمريديها الكثيرين حضور في

جامع الرحمن، فتعرّض الخارجون منهم على الدعوة الصوفية وحلقاتها للنبذ والإقصاء في بدايات ذلك الخروج الذي أخذ يتسع طوال العقد الأول من هذه الألفية التي شارفت الصوفية في نهايتها على خسارة الغالبية الساحقة من مريديها، لكن من دون أن يزول أثر النبذ والإقصاء الاجتماعيين من نفوس أوائل من تعرضوا لهما في بدايات الخروج على التصوف. والشيخ أنس عيروط الذي لا يتجاوز السابعة والثلاثين من العمر، هو الذي تصدر دعوات الخروج تلك، وخصوصاً في بدايات الانتفاضة، بعدما كان دعاة التصوف وحلقاته على نشاط قوي بين رجال عائلته وشبانها الذين قاموا بإعلان حرب دعوية عائلية على الشيخ الشاب، إمام مسجد الرحمن وخطيبه. فعائلة عيروط دينية ويتكاثر التصوّف على الطريقة الشاذلية الدرقاوية بين رجالها، على خلاف عائلة الأعسر التي يتكاثر التصوّف بين نسوتها اللواتي تصدّرن حلقات تصوّف النساء في بانياس. أما عائلة الترك في مدينتنا ــ وهي غير الدمشقية التي منها الشيوعي المشهور رياض الترك ــ فكانت معروفة بكثرة الإخوان المسلمين بين أبنائها، شأن عائلة الشغري. لكن حملة النظام السوري الدموية لاقتلاع الإخوان المسلمين من المدن السورية بعد مقتلة حماه (١٩٨٢)، أدّت إلى قتل بعض من إخوانيي بانياس، وإلى اعتقال كثيرين، فيما فرّ رجال منهم إلى خارج الديار السورية. وفي أيام التظاهرات المتلاحقة التي خرجت في مدينتنا منذ ١٨ آذار ٢٠١١، اعتبر رجال الأجهزة الأمنية أن الشيخ أنس عيروط هو الرأس المدبر للتظاهرات والداعي إليها والمحرض عليها، مما حمله على التواري والاختفاء مع اشتداد الحملات الأمنية والعسكرية على المدينة، من دون أن يعلم أحد مصيره، والأرجح أنه لم يتعرّض للاعتقال.

إذا كان الخروج على الصوفية قد دفع كثيرين من عائلة عيروط الدينية والصوفية، وشجعهم على المشاركة في التظاهرات، فإن نقمة العائلات «الإخوانية» التي نجمت عن تعرض كثيرين من أبنائها للقتل والاعتقال والتشريد، هي التي حفّزت أبناء هذه العائلات على التظاهر. فالشاب الجامعي أنس الشغري الذي لا يتجاوز عمره ٢٣ سنة، هو من صرخ الصرخة الأولى هاتفاً بجموع الحائرين أمام مسجد الرحمن في ظهيرة ١٨ آذار، فجاوب الشبان صرخته وهتافه بمثلهما: «الله وسورية وحرية وبس»، فانطلقت في شوارع بانياس تظاهرات الحرية والكرامة، وبرز الشغري الشاب لولباً فاعلاً فيها. أما عائلة الصهيوني، صاحبة النفوذ المادي والاجتماعي المرموق في مدينتنا، لأن كثيرين من أبنائها يعملون أعمالاً حرة في تجارة السيارات والأدوات الكهربائية والإلكترونية، فقد أسهم شبانها في التحريض على التظاهر وشاركوا فيه، وكان دورهم أساسياً في الإعلام والاتصالات عبر أجهزة الكومبيوتر والهواتف المحمولة.

الجمعة الثانية: علويون في التظاهرة

ظهيرة الجمعة ٢٥ آذار، وقف الشيخ أنس عيروط خطيباً في جموع المصلين في مسجد الرحمن، فدعا إلى عدم التظاهر، مما أغضب كثيرين من المصلين الشبان الذين أخذوا يتهامسون في المسجد متأففين من موقف الشيخ في خطبته. وقبيل خروجنا من المسجد، وصلتنا أخبار تفيد بأن إمام مسجد القبيات وخطيبه المعروف بولائه لأجهزة الأمن التي عيّنته في منصبه، تحدث في خطبته ضد متظاهري نهار الجمعة السابق، فقال إنهم عملاء ومخرّبون، فتصدى له، من بين المصلين، شبّان من آل عيروط، وأنزلوه عن منبر الخطابة

في الجامع، فخلّصه منهم جمع من المصلين، ومنعوهم من ضربه. لكنّ شبان آل عيروط سرعان ما بادروا مع غيرهم من الشبان، إلى الخروج في تظاهرة حاشدة من مسجد القبيات، وهذا ما شجّعنا نحن المتأففين من موقف الشيخ عيروط في خطبته بمسجد الرحمن، على إعلان تذمّرنا من موقفه، فور خروجنا من المسجد بعد الصلاة، ووقوفنا أمامه جماعات جماعات، مسترسلين في مداولات حامية، ومحرّضين المصلين على التظاهر الذي سبقنا إليه مصلو مسجد القبيات. وما إن نادى الشيخ عيروط بمكبر الصوت من داخل المسجد، مجدداً دعوته إلى عدم التظاهر، حتى انبرى كثيرون منا، نحن الواقفين خارج المسجد، قائلين إن الشيخ مغلوب على أمره، ولولا التهديد والوعيد اللذان تلقاهما من رجال الأمن، لدعا إلى التظاهر، وهو في سره ودخيلته يقول: تظاهروا، تظاهروا، على خلاف ما يعلن. وبعد قليل من المناقشات ما بين الشبان، بادر أحدهم إلى اعتلاء كتفي شاب آخر، وأخذ يصرخ في الجموع هاتفاً: «حرية، حرية، حرية. الله وسورية وحرية وبس»، فدبت حماسة نزعت الحيرة والتردد من نفوس الواقفين أمام مسجد الرحمن، ودفعتهم إلى الانطلاق في التظاهرة الثانية، سائرين نحو ساحة السنتر التي سبقهم إليها متظاهرو جامع القبيات، لا إلى ساحة دوار البلدية التي تجمّع فيها متظاهرو جامع الرحمن ظهيرة الجمعة السابقة. فساحة دوار البلدية مفتوحة من جهات كثيرة، وتدخل إليها وتخرج منها ستة شوارع وجادات موصولة بنواحي بانياس كلها، وهي على خلاف ساحة السنتر شبه المغلقة، مما يسهل حمايتها، إذ هي متصلة بشارعين اثنين فقط، وهذا يجعل المتظاهرين المحتشدين فيها أقل تعرّضاً لمداهمات رجال الأمن الذين تتضاءل

مقدرتهم على مهاجمة المتظاهرين وتفريقهم. لذا تحولت ساحة السنتر مصباً لتظاهرات بانياس اللاحقة، ومركزها الأساسي.

كانت الهتافات مشتعلة في الساحة حين وصلنا إليها، قادمين من مسجد الرحمن، واختلطنا بمتظاهري مسجد القبيات الذين سبقونا، فاتحدت وتضاعفت قوة اشتعال الحناجر بالهتاف لله ولسورية وللحرية. للمرة الثانية في حياتنا تعلو أصواتنا وتتحد، هكذا، صارخة مندفعة ومجلجلة في مكان مفتوح. كأننا كنا في خرس، وفجأة اكتشفنا أصواتنا ومقدرتنا على الصراخ بأصوات كانت ميتة طوال أعمارنا. لا لم تكن هذه الكلمات الثلاث وحدها تدوّي غريبة في أسماعنا، بل إن أصواتنا العارية والصادحة كانت أشد غربة عنا من تلك الكلمات، كأنها ليست أصواتنا، أو أنها أصواتنا المسروقة منا منذ الولادة. كل شيء كان غريباً في تلك اللحظات، كأن الوقت والزمن توقفا عن الجريان، أو أننا نندفع خارج الوقت والزمن. ينظر واحدنا إلى وجه الآخر، كأنما ليتعرف إليه وإلى نفسه، للمرة الأولى، كما يتعرف إلى صوته جديداً ويتفجر حيوية في خروجه من أقاصي روحه وصدره، ويمتزج بأصوات الجموع الهادرة في الساحة التي أخذ يصل إليها شبان فرادى ومجموعات صغيرة من أحياء بانياس ومساجدها الكثيرة الأخرى، ومن القرى المجاورة، فيما رجال الأمن يقفون مندهشين مستريبين بعيداً في جنبات الساحة، حائرين ماذا يفعلون، ومحاذرين الاقتراب من جموع المتظاهرين المتكاثرين. كنا نلتفت إليهم، فنبصرهم بعيدين بعيدين، كأنهم في عالم آخر ومن عالم آخر غير عالمنا. كيف ولماذا عشنا مختنقين ومكتومين وتحت رحمة سطوتهم التي ضيّقت علينا الدنيا وسدّت

منافذها، طوال سني أعمارنا؟! فكرت في لحظة من تلك اللحظات. وحين أطلقت مآذن المساجد أذان العصر، واصطف المحتشدون ليقيموا الصلاة في الهواء الطلق، رأيت أن مشهدنا أشد غرابة من أصواتنا وهتافاتنا. وإذ شرعنا نصلي، تهيّأ لي أننا للمرة الأولى نقيم، هكذا، صلاة الحضور، ممتلئين بقوة حضورنا، كأنما صلواتنا السابقة كلها كانت صلوات الغياب، كحلقات تصوّفنا وارتجافات أجسامنا المتمايلة في الحضرة الصوفية. أجسام كانت تروح تتصلب وتتصلب، ثم ترتخي وتتلاشى وتخور في غيبة الحضرة التي تكتنف حياتنا المنكفئة والمصمّتة والمحاصرة بذلك الخوف المديد.

بعد فراغنا من تلك الصلاة في ساحة السنتر، أخذت جموعنا تتفرق في اتجاه أحياء المدينة، من دون أن تتوقف أصداء الهتافات عن التردّد في أسماعنا، وظلت حيّة نابضة في جوارحنا حتى عصر اليوم التالي، السبت ٢٦ آذار، ونحن نصلي العصر، زهاء ٤٠٠ أو ٥٠٠ شخص في قاعة مسجد الرحمن، وما يوازي عددنا هذا في مسجد القبيات. كان معظمنا من الشبان في المسجدين اللذين انطلقت من كل منهما تظاهرة اتجهت إلى ساحة السنتر، وفقاً لما كنا قد اتفقنا عليه، نحن مجموعات الشبان الناشطين، طوال ما قبل عصر ذلك السبت. بعد وقت قصير من التقاء التظاهرتين في الساحة، فوجئنا بمجموعة من الشبان العلويين المنتمين إلى بقايا «رابطة العمل الشيوعي» في بانياس وقراها، تصل إلى الساحة وتنضم إلى المتظاهرين فيها، وتهتف معهم، قبل أن ينبري شابان من المجموعة ويتناوبا على إلقاء كلمة دعوَا فيها إلى الاستمرار في التظاهر حتى إسقاط النظام. كانت دعوتهما هذه تُعلن وتسمع للمرة الأولى في

تظاهرات بانياس. فرحة المحتشدين في الساحة بأن علويين يتظاهرون مثلهم، ويدعون إلى إسقاط النظام، شجعتهم على الصراخ عالياً بشعار الثورتين، التونسية والمصرية بعدها: «الشعب يريد إسقاط النظام»، فألهب الهتاف هذا حماسة جديدة في المتظاهرين، وأخذت الحناجر كلها تصدح به، فإذا الساحة تتسع وتتمدّد، مستلهمة روح ميدان التحرير في القاهرة، بل كأنها تتصل به. لذا سرعان ما سمّينا ساحة السنتر في بانياس، ساحة التحرير، بعدما احتشد فيها أكثر من عشرة آلاف متظاهر يوم الجمعة التالي، الأول من نيسان، وهو النهار المشهود والمنعطف في انتفاضة بانياس.

لكنني لا أدري الآن لماذا يحضرني وجه ذلك الشاب الذي لا أتذكر في أي من التظاهرات صادفته ولم أسأله عن اسمه، فيما كنا نسير متقاربين في التظاهرة. كنت خائفاً من طلقات نارية مفاجئة كتلك التي راحت تنهمر على المتظاهرين في درعا. لكن الشاب المجهول التفت إليَّ فجأة وقال، هكذا، بلا مقدمات، إنه لن يكف عن التظاهر، مهما أطلقوا نيران بنادقهم على المتظاهرين، وإنه لا يهاب الموت، قبل أن يتساءل: «ليش نحنا عايشين؟!». وها أنذا الآن أكمل كلماته المتقطعة وأنقلها إلى لغتي: أي حياة هذه التي نعيشها؟! لا عمل، والزواج والحصول على عمل ضرب في المستحيل... كالحصول على بيت، كالكلام في شؤون حياتنا. حياتنا؟! نحن ميتون كالكلمات التي كانت تنطفئ وتموت في صدورنا قبل أن تصل إلى حناجرنا وألسنتنا... قبل أن تصير كلمات.

خائفاً كنت أمشي إلى جانبه، وما إن قال إن الشهادة أحلى من هذه

الحياة، حتى سمعت أزيز الرصاص. كأنما كلماته الأخيرة هذه المستلهمة من صرخات حناجر المتظاهرين: «ع الجنة رايحين: شهدا بالملايين» ــ بعدما صرخت بها حناجر المصريين قبلنا ــ كانت أشد وقعاً في صرخاتنا نحن السوريين، وأقرب إلى الحقيقة التي أصابت ذلك الشاب المجهول، برصاصة في صدره، بينما كنا نسير متقاربين في تلك التظاهرة صارخين: «شهادة، شهادة، شهادة» على وزن «حرية، حرية، حرية».

الجمعة الثالثة: ساحة التحرير

بعد تظاهرة السبت ٢٦ آذار، وهتافها «الشعب يريد إسقاط النظام»، واحتدام التظاهرات وقتل متظاهرين في درعا، عزمنا على الاستمرار في التظاهر وتنشيطه، نحن شبان بانياس وريفها، فاتفقنا على تكثيف التواصل في ما بيننا وتوسيعه ليشمل جميع من نعرفهم في المدينة وقراها، كي ينشطوا في دعوة الأهالي إلى الاحتشاد في مساجد بانياس ظهيرة الجمعة، الأول من نيسان، للخروج في تظاهرات تلتقي في ساحة السنتر، بعد الصلاة. طوال نهارات الأسبوع استغرقنا في اتصالات ولقاءات وأحاديث في ما بيننا ومع الناس عما يحدث في درعا، وعما حدث في مصر، مشدّدين على أن سورية لا يمكن أن تبقى على حالها، صامتة خرساء إلى الأبد. في حميّة لا سابق لها في حياتنا، عشنا تلك الأيام، نسابق الوقت إلى ظهيرة الجمعة الموعودة، فراح العالم، عالمنا الضيق، المغلق والكسول ما قبل ١٨ آذار، يتسع وتتهاوى جدرانه من حولنا. عبر عدسات الهواتف المحمولة وشاشات المحطات التلفزيونية الفضائية وأجهزة الكمبيوتر، نتلقى الصور والأخبار عما يحدث في درعا واللاذقية

وحمص وحماه، وعن الانتفاضات في بنغازي وطرابلس الغرب وصنعاء وتعز وعدن، من دون أن يتوقف رنين هواتفنا المحمولة وتبادلنا الرسائل الإلكترونية عبرها، والمدوّنات والأشرطة المصوّرة عبر شبكة الفايسبوك.

صبيحة الجمعة، الأول من نيسان، التقينا عشرات من شبان بانياس وريفها في ساحة السنتر، فشرعنا نقيم منصّة في جانب منها، ونصبنا مكبرات للصوت في زواياها، غير عابئين بقدوم رجال الأمن وتهديداتهم ووعيدهم، فأحضروا رئيس البلدية وبعض الوجهاء الذين حاولوا عبثاً ثنينا عن تجهيز المنصة التي ما إن انتهينا من تجهيزها حتى أعلنّا من على خشبتها عبر مكبرات الصوت أن اسمها سيصير، منذ اليوم، ساحة التحرير في بانياس، فعلا التصفيق والهتاف والتكبير باسم الله وسورية والحرية. حتى موعد صلاة الظهر، لم نتوقف عن التنقل ما بين المساجد والساحة، مستطلعين، تهيّؤاً لخروجنا مع جموع المصلين في تظاهرات تلتقي في ساحة السنتر ـ التحرير. كان رجال الأمن يترصدوننا ويرصدون تحركاتنا، لكن خوفنا منهم راح يتلاشى في قوة شعورنا الغامر بكثافة الزمن، زمننا الآني والآتي، وسيولته في الأماكن التي نتنقل بينها، كأننا للمرة الأولى نكتشفها ونشعر بحضورنا فيها. كلما كان الوقت يقترب من موعد صلاة الظهر، كانت تتكاثف حركة الناس في توجههم إلى المساجد، سيراً على أقدامهم وفي السيارات، قادمين من أحياء المدينة وقراها القريبة والبعيدة. نحن الشبان الناشطين توزعنا ما بين الساحة والمساجد التي راحت تكتظ بالمصلين، قبل خروجهم مصمّمين على التظاهر وصولاً إلى الساحة التي بلغ عدد المحتشدين فيها ما لا يقل عن ١٥ ألفاً مصفقين عالياً بأيديهم المتراقصة، فيما هم يهتفون للحرية

ولوحدة الشعب السوري الذي يريد إسقاط النظام. ثم تتالت كلمات الشبان الناشطين من على المنصة، معلنة سلسلة جديدة من الشعارات والمطالب مختلفة عن تلك المحلية التي أُعلنت في تظاهرة الجمعة الأولى، في ساحة دوار البلدية، وأمام مقر جهاز أمن الدولة. كلمة الحرية والهتاف المتواصل لها ولوحدة الشعب السوري، تصدّرت سلسلة المطالب الجديدة: إلغاء قانون الطوارئ، وسيطرة الحزب الواحد، وتسلط الأجهزة الأمنية على الدولة والمجتمع، وإطلاق التعدّدية الحزبية.

بعد إعلان المطالب، صعد إلى المنصة شاب من منظمي التظاهرات ومتصدّريها في بانياس ــ وهو في السادسة والعشرين من العمر، وصار شيخاً معمّماً وخطيب مسجد، بعد خروجه على الصوفية، ودراسته علوم الشريعة والاقتصاد الإسلامي في أحد المعاهد الدينية ــ فأذاع نشرة أو تقريراً عن التظاهرات التي خرجت في المدن والمناطق السورية. حماسته ورغبته في إشعال حماسة المتظاهرين المحتشدين في الساحة، حملتاه على تضخيم أحجام التظاهرات وشمولها سائر المدن والمحافظات، معلناً أن المتظاهرين قرروا عدم إخلاء الساحات والشوارع، والاعتصام الدائم فيها، حتى إسقاط النظام، وأن علينا في بانياس أن نفعل مثلهم، فنعتصم في ساحة التحرير، فتعالت الهتافات صاخبة في أرجاء الساحة، مردّدة شعار: اعتصام، اعتصام، حتى إسقاط النظام. ولأن الاتصالات الهاتفية ما بين المدن والمحافظات السورية، كانت قد قُطعت وفُصلت شبكة كل محافظة عن الأخرى، غادرتُ الساحة متجهاً إلى بيتي، لأتحقق مما أعلنه الشيخ الشاب من نشرات الأخبار في الفضائيات التلفزيونية. خفت وحرت في أمري لمّا تبيّن لي أن أخبار الفضائيات

تُجمع على أن التظاهرات اقتصرت على مدينتنا ومدن درعا واللاذقية وحمص ونواحٍ من ريف دمشق، وليست في الأحجام الهائلة التي ذكرها الشاب، وما من ذكر أبداً للاعتصام الدائم في الساحات. في طريق عودتي مسرعاً إلى الساحة، فوجئت بمصادفتي في الشوارع جموعاً من الناس حاملين مستلزمات الاعتصام، من حصر وفرش وأغطية ومآكل. لكن مفاجأتي تحولت دهشة حين وصلت إلى الساحة ورأيت عدداً من الخيم والشوادر منصوبة في وسطها. أدهشتني سرعة الناس في إحضار هذه المستلزمات كلها من بيوتهم. وقبل أن أفكر في سهولة استجابتهم لأمر يدركون خطورته، هالني المشهد في حيويته الاحتفالية التي لم أرَ وما شعرت أبداً بمثلها طوال حياتي، كأنني في بلد آخر وحياة أخرى: ألوف من الأهالي يموجون في الساحة والشوارع حاملين الأمتعة، وجموع تنصب الخيم، وأخرى تفترش الأرض، ومنصة وخطباء ومكبرات صوت تنطلق منها هتافات وأهازيج، في عصر يوم ربيعي، ولا خوف في سورية «القسوة والصمت» البعثيين والأسديين، منذ وعيت على الدنيا في بانياس، بل ورثتهما عن أهلي وسائر الناس في مدينتي. كأن ما كان يستحيل تخيّله في سورية هذه، ولا يخطر في المنامات وأحلام اليقظة، تجسّد فجأة وبلمح البصر في ساحة عامة مستلهماً صور ما حصل قبل شهرين في ميدان التحرير في القاهرة، وساحة التغيير في صنعاء.

فجأة اقترب مني صديقي الناشط أنس الشغري، فسألني عما سمعته في نشرات الأخبار التلفزيونية عن حجم التظاهرات في المدن والمحافظات السورية، وعن حقيقة الدعوة إلى الاعتصام الدائم في الساحات، فأطلعته على ما سمعت. قال لي إن شكوكه في ما أعلنه

ودعا إليه صاحبنا من على المنصة، قد تأكدت، وأوكل إليّ مهمة الصعود إلى المنصة، وإيجاد طريقة مناسبة لدعوة الناس إلى عدم الاعتصام في الساحة. كنت خائفاً وحائراً ماذا أقول. وحين أمسكت الميكروفون، بدأت كلامي قائلاً إن علينا أن نكون حكماء، فلا ننساق خلف عواطفنا التي قد تفضي بنا إلى تهوّر يجرنا إلى مأساة في حال إصرارنا على اعتصام مفتوح لم يحن وقته بعد، فدرعا التي يبلغ عدد سكانها مليوناً ومئتي ألف نسمة، وكذلك اللاذقية التي يبلغ عدد سكانها مع ريفها مليوني نسمة، لم يعتصم أهلهما في الساحات، فكيف نقدم نحن في بانياس على الاعتصام في هذه الساحة، بينما لا يتجاوز عدد سكان مدينتنا ما نسبته ٠،٥ في المئة من سكان سورية؟! قبل أن أنهي كلمتي، هجم جمع من الشبان على المنصة وأنزلوني عنها، وحاولوا ضربي، بعدما انتزع أحدهم الميكروفون من يدي وأخذ يؤكد ضرورة الاعتصام ويشجع المتظاهرين ويحمّسهم عليه. وهذا ما أدّى إلى انقسام في الرأي بين المحتشدين، فدار لغط ومناقشات حامية ما بين الشبان الناشطين، وفي حلقات الذين أحضروا أمتعتهم وباشروا الاعتصام، وغيرهم من الحائرين المترددين. على هذه الحال استمرت أوضاع الناس ومواقفهم حتى حلول المساء، من دون أن تغادر الساحة إلا قلة قليلة منهم. بعد صلاة العشاء في الساحة، بدأت ترد أخبار من المحافظ في طرطوس ــ وهي مركز المحافظة التي تشمل بانياس ــ تفيد بأن رجال الأمن سوف يهاجمون الساحة لفض الاعتصام بالقوة، في حال استمراره إلى ما بعد منتصف الليل. لذا تفاقم الانقسام واللغط والمناقشات ما بين المعتصمين، فيما حاولنا، نحن الشبان الناشطين، أن نساعد المصرّين على الاعتصام، على تقبّل

فكرة فضّه والانصراف إلى بيوتهم، على أن نواصل التظاهر في الأيام التالية.

كنت أقف بين جمع من الرجال العاميين البسطاء، محاولاً إقناعهم بتفكيك خيمة نصبوها في جهة من الساحة، حينما هبّ أحدهم لمواجهتي قائلاً: أنت غني، أما نحن الفقراء فلا نحصّل ما يكفي لطعامنا، لذا نعتصم ولن نغادر الساحة. وحتى الساعة الحادية عشرة ليلاً، كان ما لا يقل عن ١٠ آلاف شخص حاضرين في الساحة، فدعونا الشيخ أنس عيروط من بيته لمساعدتنا في إقناع الناس بفض الاعتصام، فأتى الشيخ وألقى كلمة طويلة، قبل أن ينزل عن المنصة ويروح يتنقل بين أصحاب الخيم المنصوبة في الساحة، ويدعوهم إلى تفكيكها والانصراف إلى بيوتهم. استمرّت الحال على هذا المنوال حتى ما بعد منتصف الليل بقليل، حينما بدأت الساحة تفرغ رويداً رويداً من أواخر المعتصمين، فقمنا، نحن الناشطين، بتنظيف الساحة والشوارع المؤدية إليها والقريبة منها، ثم انصرفنا إلى بيوتنا، فيما كانت دوريات رجال الأمن تجوب الشوارع في بعض نواحي المدينة، بعيداً من الساحة.

هلع الفجر وقتلى النهار

بعد وقت قليل من وصولي إلى بيتنا في حوالى الساعة الثانية من ليلة الجمعة ـــ السبت تلك، انقطع التيار الكهربائي وجميع أنواع الاتصالات عن بانياس، فدب الذعر في نفوس الأهالي الذين كان معظمهم لا يزال ساهراً في البيوت. خرجت من بيتنا وجلت في الشوارع القريبة المعتمة التي سرعان ما راح يتكاثر فيها رجال وشبان

وفتيان أخرجهم من بيوتهم الخوف من توقع هجوم رجال الأمن والشبيحة على أحياء المدينة. همهمات وأصوات عارية إلا من الهلع، أخذت تتعالى وتتجاوب أصداؤها وتتلاشى في عتمات الشوارع وبين البيوت الملطخة جدرانها بظلال شبحية لبشر يتدافعون من بيوتهم حاملين مصابيح يدوية صغيرة، وترسل أضواء مستطيلة، تشع في ظلام جعل البشر وظلالهم، فيما هم يهتفون: الله أكبر، الله أكبر، كما البشر في أزمنة السبي والحروب البدائية القديمة. ظل هذا الهتاف يتردّد متباعداً في أرجاء المدينة، مع تكاثر الناس على مداخل الأحياء، وسريان شائعات عن أن الهجوم الأمني سيبدأ عند الفجر. موجات هلع الأهالي بعثت في مخيّلتي صور مقتلة حماه في عام ١٩٨٢. بعض من العائلات تراكضت نحو المساجد للاحتماء فيها، فعلا التكبير من المآذن بأصواتٍ مذعورة. بعض من الشبان والرجال أقاموا حواجز على مداخل أحيائهم السكنية، مستعملين حجاراً وأخشاباً وبقايا معادن مهملة، وحاملين قطعاً وقضباناً من الحديد، وما توافر من بنادق الصيد والبومب أكشن والسيوف والخناجر القديمة، للدفاع عن أحيائهم وبيوتهم. أما بعض صيادي الأسماك في ميناء المدينة، فاستعمل خبرته في الصيد بالديناميت، وجهز متفجرات من الأسمدة الزراعية التي يستعملها المزارعون في تسميد شتول البندورة في خيم البلاستيك المنتشرة بكثافة في السهل حول المدينة وفي قراها القريبة.

عند صلاة الصبح في المساجد، قام مجند سابق في الجيش ــ وهو من الشبان الناشطين في التظاهرات ــ بجولة سريعة في شوارع المدينة، فمر في ساحاتها، ثم عاد إلى مداخل الأحياء معلناً للرجال والشبان على الحواجز، أنه لم يبصر أثراً لرجال الأمن والشبيحة، وأن

لا شيء ينبئ بهجومهم المتوقع، فبادر كثيرون من الرجال والشبان إلى نزع الحواجز، من دون أن يغادروا مداخل الأحياء ويأووا إلى بيوتهم. لكن في حوالى الساعة الخامسة فجراً، فوجئ الناس بسبع سيارات مليئة بعناصر أمن مسلحين، تنطلق في سرعة قصوى في بعض من الشوارع، مطلقة زخات متتالية من الرصاص العشوائي في اتجاه البيوت والبنايات. كنت في جامع القبيات، فخرجت منه بعد هنيهات من سماعي رشقات نارية، فلمحت سيارة الأمن تبتعد مسرعة، تاركة خلف المسجد أربعة جرحى إصاباتهم طفيفة في أرجلهم أو أذرعهم، فنقلوا إلى أحد مشافي المدينة. لكن إطلاق زخات الرصاص العشوائي لم يتوقف، فإحدى سيارات الأمن خلّف مرورها قرب جامع أبو بكر الصديق ثلاثة جرحى آخرين، منهم أسامة الشيخة الذي تُوفي بعد أسبوع في المستشفى، متأثراً بجروحه البالغة. بعض من الرجال والشبان أطلقوا النار من بنادق الصيد والبنادق الحربية القديمة على سيارات رجال الأمن التي مرّت مسرعة وأطلقت زخاتٍ من الرصاص على البيوت، من دون أن يعلم أحد من الأهالي إن كان أيّ من رجال الأمن قد أصيب. استمرّت غاراتهم السيارة ورشقات نيرانهم العشوائية الغزيرة على البيوت، حتى حموة الشمس على شوارع المدينة شبه المقفرة والمزروعة بالخوف وأزيز الرصاص وبأصدائه المدمدمة.

وفي حوالى الساعة العاشرة بدأت تبتعد أصوات الرشقات النارية وتتخافت أصداؤها، بعد مواجهة حصلت على الأوتوستراد عند طرف المدينة، بين مجموعة من شبانها المسلحين ورجال الأمن والشبيحة المنسحبين في سياراتهم التي تركوا منها اثنتين على الأوتوستراد وفروا في السيارات الخمس الأخرى. وهذا ما حمل

جموعاً من شبان بانياس ورجالها على إدخال السيارتين الأمنيتين إلى ساحة السنتر ــ التحرير، وإضرام النيران فيهما، فكتبوا على إحداهما، بعد احتراقهما وخمود النار فيها: انتبه أنت في بانياس لا في إسرائيل.

ابتداءً من الساعة الثانية من بعد ظهر السبت، ٢ نيسان، أخذت مجموعات من رجال الأمن والشبيحة تتكاثر في حيّ القوز العلوي على طرف المدينة، قريباً من محلة تدعى رأس النبع. وبعد حوالى نصف ساعة شاهد الأهالي وحدة من الجيش النظامي تتقدم على الأوتوستراد، وتتوقف غير بعيد من رأس النبع. لم تكن الوحدة التي يبلغ عدد جنودها نحو مئة، تستعمل دبابات ولا مصفحات، بل سيارات عسكرية صغيرة وناقلات جند، وعلى رأسها عقيد، شاع بين الأهالي أنه حرّك الوحدة من دون أمر عسكري من قيادة الجيش، بل بالتعاون مع أجهزة الأمن والشبيحة، وكي يظهر ولاءه للقيادة السياسية العليا في البلاد، وينال حظوتها. وسرعان ما أخذ جنود الوحدة يطلقون النار، تارة في اتجاه رأس النبع وطوراً في اتجاه حي القلعة السني الذي يتوسّطه جامع الرحمن. ثم شرع رجال قناصون من الشبيحة والأمن بإطلاق نيران قناصاتهم على حي القلعة، من حيث يتمركزون على سطوح البيوت في حي القوز، فدار إطلاق النار بين الحيّين، العلوي والسني، شارك فيه جنود الوحدة العسكرية. وحتى الساعة السابعة مساءً، كان قد قتل من شبان رأس النبع أربعة شهداء، وجُرح خمسة آخرون من الأهالي، فنقلوا، وسط انطلاق التكبير من مساجد بانياس، إلى المستشفيين في المدينة. وفي الأثناء، وفقاً لرواية شاب أعرفه، أطلق العقيد، قائد الفرقة العسكرية، النار على ستة من جنوده رفضوا أوامره، فأردى ثلاثة

منهم، وجرح ثلاثة آخرين، قبل أن يبادر أحد الجنود بإطلاق النار على العقيد. وروى الشاب أيضاً أنه استطاع، مع رفاقه، نقل الجنود الجرحى إلى المستشفى، قبل أن يهاجمه رجال الأمن والشبيحة، ويقتلوا الجرحى فيه، ويحتلوه ويحوّلوه مقراً أمنياً أو عسكرياً لهم. أما المستشفى الآخر في بانياس ــ وهو بدائي التجهيز وتديره جمعية أهلية ــ فاكتفى رجال الأمن والشبيحة بإطلاق زخات من رصاص بنادقهم عليه بين وقت وآخر. وهذا ما حمل شباناً من المدينة على وضع شاحنتين أمامه، لحمايته من الرشقات النارية. في نشرة أخبار التلفزيون السوري الرسمي التي تذاع في الثامنة مساءً، قال بيان عسكري إن ضابطاً من الجيش قتل في بانياس، وإن ضابطاً آخر أصيب وبُترت رجلاه. والضابط هذا روى في مقابلة مصوّرة بثها التلفزيون السوري مساء الأحد ٣ نيسان، أن أحد الشبان «القبضايات» في بانياس هاجمه بحزمةٍ من الديناميت قذفها داخل سيارته. وبلهجته العلوية الموصوفة التي لا تخفى على السوريين، قال الضابط المبتور الرجلين: «قرد، بحياتي ما شفت هيك قوة قلب. فتح (الشاب) باب السيارة (التي كنت في داخلها) وحط ضرب الديناميت، وسكر الباب، وهرب، يا قرد».

الحصار ومغادرة العلويين

مساء ذلك السبت، ٢ نيسان، خلا حيّا العلويين في بانياس، القصور والقوز، خلوَا تماماً من سكانهما الذين نزحوا من بيوتهم إلى قراهم في جبلهم القريب. وفي المساء نفسه، وحتى ساعة متقدمة من الليل، دارت اتصالات مكثفة ما بين جهات عليا في الدولة وبعض من كبار ضباط الجيش ومحافظ طرطوس من جهة، ورئيس بلدية

بانياس وبعض من رجال الأعمال والتجار فيها على صلات ما بالسلطة وأجهزة الأمن، بينهم الشيخ أنس عيروط الذي رفض المشاركة في المفاوضات، من جهة أخرى. اتفق الطرفان على انسحاب أجهزة الأمن من بانياس، ودخول الجيش النظامي إليها، وتوقف الأهالي عن التظاهر في المدينة التي جلا عنها فعلاً رجال جهاز أمن الدولة، حاملين أثاثات مقرهم قبل إقفاله. وفي صبيحة نهار الأحد قدمت إلى محلة رأس النبع وحدة عسكرية صغيرة، وأخلت جثث الجنود الثلاثة الذين قتلهم العقيد أمس، بعد رفضهم أوامره.

صبيحة الاثنين، ٤ نيسان، انتشرت قوة عسكرية كبرى من الجيش، بدباباتها وآلياتها، على أطراف المدينة وتخومها، من دون أن تدخلها. وحين حاولت الدبابات التقدم إلى داخل المدينة للتمركز فيها، خرجت جموع من الأهالي إلى الشوارع في تظاهرات تصدّت لدخول الدبابات التي عادت أدراجها وتمركزت خارج المدينة. أما قوات الأمن والشبيحة التي خرجت من بانياس، فأقامت حواجز على جميع الطرق المؤدية إليها، ضاربة حولها حصاراً، ومانعة إدخال المؤن إليها، مع قيامها بحملة خطف واعتقال لكل من يدخلها ويخرج منها. لذا شلت دورة الحياة في المدينة، وأقفلت معظم المتاجر في سوقها، وتوقف العمل في مؤسساتها وإداراتها الحكومية العامة، لأن معظم موظفيها من العلويين الذين لم يبقَ منهم أحد في بانياس. أما المدارس فأقفلت أبوابها أيضاً، فيما دفع الخوف والحصار بعضاً من العائلات السنية إلى مغادرة المدينة، برغم خوفها من الحواجز الأمنية التي اختطفت أو اعتقلت شباناً من هذه العائلات.

الجمعة الرابعة: جنازة الشهيد الأول

بعدما جلت الأجهزة الأمنية عن بانياس، وأخلى رجالها مقارهم من محتوياتها وأقفلوا أبوابها ليلة الجمعة ـــ السبت ٢ نيسان، عاش أهالي المدينة في حال من القلق والحيرة والترقب، يخالطها شعور غريب وجديد بالتحرر من سطوة تلك الأجهزة ورقابتها المزمنتين. فالتحرر هذا كان محاصراً بحواجز رجال الأمن على الطرق المؤدية إلى المدينة، فيما وحدات من الجيش ودباباته ترابط على تخومها وتحاصرها. كل شيء كان جديداً علينا في تلك الأيام الأولى من نيسان. حتى ضوء النهار في الشوارع وعلى البيوت كان جديداً وغريباً، كأنه يطيل مكوثه في الأماكن، كالأصوات التي صارت أشد وضوحاً ومتطاولة الأصداء في أسماعنا، فيما نحن ننشط لحشد المتظاهرين وتسيير التظاهرات اليومية.

في نهار من تلك النهارات دُعينا، نحن مجموعة من الشبان، إلى حضور اجتماع في منزل تاجر ميسور في بانياس. ضم الاجتماع زهاء ٥٠ شخصاً من وجوه العائلات ورجال الأعمال والتجار المعروفين بعلاقاتهم المتفاوتة ببعض أركان الحكم ومقدمي الأجهزة الأمنية. وحضر أيضاً أعضاء المجلس البلدي ورئيس البلدية وجمع من الأطباء والمهندسين ومدرسي الجامعة. كنا نحن الشبان نعلم مسبقاً أن لدى الداعين إلى الاجتماع تفويضاً من مقدمي أجهزة الأمن المركزي في طرطوس، وأنهم مكلفون بالعمل على تهدئة الوضع في المدينة، وبحملنا على العزوف عن التظاهر. بعد زهاء ساعتين من المناقشة وتبادل الرأي انفض الاجتماع الذي تعهد فيه بعضنا، نحن الشبان، على مضض، بوقف التحريض على التظاهر

والدعوة إليه، فيما ظل آخرون منا صامتين، كناية عن رفضهم هذا التعهد.

في اليوم الذي تلى الاجتماع، غادر معظم الأطباء المدينة، بعدما وصلتهم من جهاتٍ في نقابتهم تهديدات بسحب ترخيص ممارسة المهنة من كل طبيب يقدم على معالجة أحد «الإرهابيين». أما الأطباء القلة العلويون الذين لم يغادروا ومكثوا في المستشفى الحكومي، فتعاونوا مع رجال الأمن والممرضين على تعذيب الجرحى والتنكيل بهم، بحجة أنهم «متآمرون على النظام». حتى المرضى العاديون حرموا من الرعاية الطبية. وحين نقل سائق تاكسي طفلة تعاني من انحلال في الدم إلى المستشفى، اعتقل رجال الأمن المرابطون فيه السائق، وحقّقوا مع أم الطفلة، فامتنع أصحاب سيارات التاكسي عن نقل المرضى والمصابين. والشاب الذي نقل أخاه المصاب بفشلٍ كلوي على دراجته النارية إلى المستشفى، اعتُقل بدوره مع أخيه المريض.

بعد صلاة الجمعة ٨ نيسان، خرجت من مسجد أبو بكر الصديق تظاهرة صغيرة، شارك فيها ما بين ٢٠٠ و٣٠٠ من الشبان، بعضهم من بانياس وكثيرون منهم من بلدتي البيضا والبساتين القريبتين. وفي الطريق إلى ساحة السنتر ــ التحرير، انضم إلى المتظاهرين زهاء ٦٠ شاباً. لم يمكث شبان هذه التظاهرة الصغيرة وقتاً طويلاً في الساحة، فغادروها قبل صلاة العصر. لكن وفاة أسامة الشيخة في المستشفى فجر الاثنين ١١ نيسان، متأثراً بجروحه الخطرة جراء إصابته برصاصات رجال الأمن العشوائية التي أطلقوها في الشوارع قرب جامع أبو بكر صبيحة ٢ نيسان، جدّدت غضب أهالي بانياس وغيرها من القرى، وسخطهم، معتبرين أن الشاب الجريح ربما تُرك

يموت من دون علاجٍ في المستشفى. لذا خرج أكثر من ١٠ آلاف شخص في جنازة الشيخة. فبعدما نُقل جثمانه، صباح الاثنين، إلى بيت أهله في قريته القريبة، البساتين، انطلق منها موكب تشييعه، عابراً في القرى التي خرجت جموع من أهلها وانضمت إلى الموكب الذي أخذ يكبر ويكبر في الطريق إلى جامع أبو بكر في بانياس، حيث صُلّي على الجثمان، وانطلقت الجنازة مجدداً في شوارع المدينة.

كان قد سبق الشيخة في الاستشهاد أربعة شبان قضوا في إطلاق رجال الأمن رصاص بنادقهم العشوائي على رأس النبع، بعد ظهر السبت ٢ نيسان، فدفنوا في النهار التالي. لكن وفاة الشيخة بعد أسبوع من إصابته، ومن تحرر بانياس من القبضة الأمنية وحصارها من خارجها، حملتنا على اعتباره شهيدها الأول، فتحوّلت جنازته تظاهرة كبرى سارت إلى مثواه الأخير في قريته البساتين. موكب التشييع ــ التظاهرة الحاشدة، وأخبار التظاهر والقتل اليومي في درعا، وخروج تظاهرات كبرى في حمص وداريا ودوما في ريف دمشق، ألهبت حماسة أهالي بانياس، وبعثت فيهم العزم على مواصلة التظاهر، برغم تردّد فئة منهم، فضّلت التريث والانتظار.

الجمعتان الخامسة والسادسة: النساء في الشوارع

بعد صلاة الجمعة ١٥ نيسان، خرجت من مساجد بانياس إلى ساحة السنتر ــ التحرير، تظاهرة حاشدة. مكث المتظاهرون في الساحة حتى أقاموا صلاة العصر، فألقى مثقفون إسلاميون وليبراليون ويساريون كلمات دعوا فيها إلى مواصلة التظاهر حتى إسقاط

النظام، فخرجت ظهيرة الثلاثاء ١٩ نيسان تظاهرة أخرى كبرى تجمّعت روافدها في الساحة نفسها التي كانت على موعد مع استمرار التظاهر ظهيرة الجمعة ٢٢ نيسان، ومع خروج النساء للمرة الأولى إلى شوارع بانياس، متظاهرات في جموع منفصلة عن الرجال. امرأة في الثلاثين من عمرها وقفت خطيبة في النساء المحتشدات في ناحية من الساحة، فدعتهن إلى مواصلة المشاركة في التظاهر، وإلى الخروج غداً السبت في تظاهرة نسائية، دعماً لأهالي درعا وإحياءً لذكرى شهدائها، واحتجاجاً على هجوم الجيش عليها وعلى اللاذقية التي يتعرض أهلها للقتل اليومي أيضاً. في ظهيرة السبت ٢٣ نيسان، احتشدت جموع من نسوة بانياس وقراها القريبة متظاهرات في ساحة التحرير، من دون مشاركة الرجال. وفي أثناء التظاهر اتصل بعض من أهالي مدينة جبلة بأقاربهم ومعارفهم في بانياس، وقالوا إن مدينتهم تتعرّض لهجوم عسكري، فتداعى أهالي بانياس إلى التظاهر غداً، الأحد ٢٤ نيسان، الذي خرجوا في صبيحته جموعاً من رجال ونساء وشبان وشابات، وتوجهوا إلى الأوتوستراد الذي يعبر في طرف مدينتهم، ويشكل شريان حركة المواصلات ما بين اللاذقية شمالاً وطرطوس جنوباً على الساحل السوري. عطلت الحشود حركة السير على الأوتوستراد، لكن النساء وحدهن مكثن محتشدات في وسطه حتى المساء، احتجاجاً على العملية العسكرية في جبلة.

الجمعة السابعة: خوف وتظاهرات ليلية

بعد تظاهرة الأوتوستراد، أخذت تصل إلى بانياس تهديدات مصدرها المحافظ في طرطوس، وتفيد بأن ساحة السنتر ـــ التحرير ستتعرّض

لهجوم رجال الأمن، في حال استمرار التظاهر. ومع التهديدات أُشيع أن المحافظ على استعداد لتلبية ما يريده أهالي بانياس من المطالب، برغم استيائه من خرقهم تعهداتهم السابقة بعدم التظاهر. وحين طالبنا بإطلاق سراح معتقلي جبلة الذين يبلغ عددهم زهاء ٧٠ شخصاً، وعد المحافظ بإطلاقهم بعد يوم الجمعة ٢٩ نيسان، حالما يعلم بأننا لم نخرج إلى التظاهر. إذذاك اشترطنا أن يعتذر المحافظ علناً في وسائل الإعلام، من أهالي جبلة وبانياس. كنا موقنين أن مطلبنا هذا مستحيل، وأخذنا ننشط في الإعداد لتظاهرة الجمعة المقبلة، وسط تكاثف شائعات عن عزم رجال الأمن على اقتحام ساحة التحرير. لذا قرّرنا نقل التظاهر إلى ساحة الميدان. وبرغم خوفهم من التعرض للخطف أو الاعتقال على حواجز رجال الأمن خارج بانياس، أقدم بعض من عائلاتها على مغادرتها إلى طرطوس وحلب ودمشق، خائفين من تعرض مدينتهم لاقتحام أمني وشيك. لكن الخوف لم يقلل من عزمنا على تشجيع الأهالي على التظاهر، ولطمأنتهم وضعنا، مع مجموعات منهم، خطة لحماية المتظاهرين في الساحة وفي الشوارع المؤدية إليها، حيث توزعت حواجز من الشبان والرجال يحملون العصي والسلاح الأبيض، من خناجر وسكاكين وسيوف وقضبان من الحديد، إضافة إلى بعض من بنادق «البومب أكشن» في مواضع خلفية، لاستعمالها في حال تنفيذ رجال الأجهزة الأمنية تهديدات المحافظ باقتحام الساحة وإطلاقهم النار على المتظاهرين. والحق أن الخوف وتوقع الهجوم، دفعا زهاء ١٥ ألف شخص من أهالي بانياس وقراها، وخصوصاً من بلدة البيضا والبساتين، إلى الاحتشاد في مساجد مدينتنا للصلاة في ظهيرة الجمعة ٢٩ نيسان، قبل اندفاعهم إلى الشوارع متظاهرين في

اتجاه ساحة الميدان، وهاتفين بحماسة غير مسبوقة لله وسورية وللحرية، ولإسقاط النظام. على خلاف التظاهرات السابقة، لم تستغرق تظاهرة الجمعة هذه أكثر من ساعتين، تفرقت الجموع بعدها، وخلت الساحة تماماً من الناس.

في الأيام التي تلت تظاهرة هذه الجمعة في ٢٩ نيسان، استمر خروج التظاهرات يومياً إلى شوارع مدينتنا، فيما كانت بلدة البيضا وغيرها من القرى القريبة منها، تتعرض لهجوم أمني وعسكري كبير، فتصل إلينا أخباره اليومية مع تكاثر الأقاويل والشائعات عن اقتراب موعد اقتحام بانياس التي أخذت تخرج جموع من شبانها وأهلها في تظاهرات ليلية مدفوعة بالقلق والخوف من البقاء في البيوت، ودفعاً للقلق والخوف.

الهجوم على البيضا

كانت الأجهزة الأمنية تعلم أن شبان بلدة البيضا التي تبعد عن بانياس زهاء ١٠ كلم، ويقيم كثيرون منهم في مدينتنا، هم الشبان الأنشط في تحريك التظاهرات وحشدها وتنظيمها. وكان محافظ طرطوس قد بعث إلى اجتماع الوجهاء الأخير في بانياس، لائحة بأسماء زهاء ٣٠٠ شاب من شبان البيضا، مطالباً بتسليمهم إلى الجيش، متعهداً بإطلاق سراحهم، بعد الحصول على إفاداتهم، باعتبارهم هم من أطلقوا النار على الجنود الذين قتلوا في محلة رأس النبع في ٢ نيسان، ويعلم أهالي بانياس أن العقيد، قائد وحدتهم العسكرية، هو الذي أطلق النار عليهم، بعد رفضهم أوامره بإطلاق النار على حي القلعة. وبحجة عدم استجابة أهالي البيضا وبانياس طلب المحافظ والجيش، بدأت وحدات عسكرية وأمنية وزمر من

الشبيحة بالهجوم على البيضا، بعد تظاهرة بانياس الحاشدة نهار الجمعة ٢٩ نيسان. مهّد الجيش للهجوم بقصف كثيف من الأسلحة الخفيفة والمتوسطة على البلدة، قبل أن تدخلها وحداته التي قال جنودها للأهالي إن هدفهم مصادرة السلاح الذي استعمله شبان من بلدتهم في قتل الجنود في بانياس. هذا بعدما كان القصف المدفعي قد قتل رجلاً من الأهالي قرب بيته، وآخر في حي النصارى على طرف البلدة. وسط تقدم الجنود وإطلاقهم نيران بنادقهم الرشاشة في الطرق وعلى البيوت، يتبعهم رجال الأمن والشبيحة الذين بدأوا باعتقال الرجال عشوائياً وضربهم وشتمهم، فر شبان البيضا من بيوتهم هاربين إلى الحقول والبساتين. استمرّت هذه الأعمال ساعات انتهت بجمع زهاء ٣٠٠ رجل من الأهالي في ساحة بلدتهم، بعدما دخل رجال الأمن والشبيحة من القرى العلوية القريبة، إلى البيوت وأطلقوا النيران على أثاثاتها ثم حطموها، ونهبوا مدخرات أصحابها المالية التي قدِّرت، لاحقاً، بمئة مليون ليرة سورية ومليونين من الدولارات الأميركية، إضافة إلى مجوهرات النساء.

استمر احتجاز الرجال في ساحة البيضا ليلة كاملة منطرحين أرضاً، مقيّدي الأيدي والأرجل، فيما رجال الأمن والشبيحة ينهالون عليهم رفساً بأقدامهم، وضرباً بالعصيّ وبأعقاب البنادق، شاتمين أمهاتهم ونساءهم وبناتهم وأخواتهم أقذع الشتائم. وقد شاهد العالم كله هذه المشاهد على شاشات التلفزيون وبين وقت وآخر من تلك الليلة المعتمة ــ إذ كانت الاتصالات والتيار الكهربائي قد قطعا عن البيضا وغيرها من القرى القريبة ــ كان رجال الأمن والشبيحة يعتلون ظهور الرجال المرميين أرضاً، متقافزين عليها هاتفين

صارخين: الله وسورية وبشار وبس، ثم يجرّون بعض الرجال من أرجلهم، مسدّدين إلى رؤوسهم رفسات من أقدامهم على وقع صرخاتهم: بدكن حرية يا منايك، بدكن حرية؟! خوذ حرية ولاه، خوذ ولاه خنزير. وفي أثناء نوبات الرفس هذه والقفز على الظهور، كان هذا أو ذاك من رجال الأمن والشبيحة ينادي قائلاً للآخر: شوف هالخنزير هاد، شوف. ليك هالخنزير هاد، ليك هالكلب ابن الكلب، يا قرد، قال بدو حرية، قال... خوذ حرية يا حيوان... خوذ... مش عارف انو بشار ربكم، ولاه؟!

مع انبلاج الفجر أنهى رجال الأمن والشبيحة أفعالهم هذه، بإحضار عدد من الباصات إلى ساحة البيضا. وبعدما أفرغوا من مثاناتهم البول على أجسام الرجال ورؤوسهم وفي أفواههم، فكوا أيديهم وأرجلهم المقيّدة، وأدخلوهم إلى الباصات، ثم ساروا بهم متجهين إلى القرى العلوية التي خرجت جماعات من أهلها إلى الطرق لاستقبال رجال البيضا بنوبات جديدة من طقوس الإهانات والشتائم والتشفي والتنكيل. فما إن كانت الباصات تصل إلى هذه القرية العلوية أو تلك، حتى يصعد إليها جمع من نسائها ورجالها وشبانها، فينهالون على الرجال المعتقلين أو الأسرى بأقذع الشتائم، باصقين على وجوههم التي تروح قبضات بعض شبان القرى تنهال عليها بلكمات الحقد وسط زغردات النسوة، وصرخات رجال الأمن والشبيحة المتهكمة، فيما يصرخ هذا الشاب أو ذاك برجال الأمن قائلاً: أعطونا هذا الراس لنذبحه، شقد حق هالراس، شقد؟ عشرة آلاف؟ هاي عشرة آلاف، عطونا ياه لنذبحو.

حتى الظهيرة استمرت جولة المهانة والحقد هذه في القرى العلوية،

فقاد رجال الأمن والشبيحة الباصات برجال البيضا إلى فرع الأمن العسكري في طرطوس، حيث بدأت من جديد نوبات تعذيبهم مع زهاء مئة رجل وشاب من بانياس كان رجال الأمن قد اعتقلوهم على الحواجز والكمائن التي نصبوها على الطرق المؤدية إليها. وفي سجون الأمن العسكري والسياسي بطرطوس، تعرّض بعض الرجال والشبان الأربعمئة المعتقلين لتعذيب منهجي، فكسرت أرجل كثيرين، ونُتف الشعر من ذقون الذين يطيلون لحاهم.

صبيحة النهار التالي خرجت نسوة البيضا من بيوتهن في البلدة، وسرن على أقدامهن مسافة تزيد على أربعة كيلومترات، حتى بلغن الأوتوستراد القريب من بانياس، التي خرجت مجموعات من نسوتها أيضاً، فاشتركن مع نساء البيضا في تعطيل حركة السير على الأوتوستراد طوال النهار. وعند العصر وصل محافظ طرطوس في سيارته، ووعد النساء المعتصمات بإطلاق سراح رجال البيضا وبانياس الأربعمئة. لكن النسوة لم ينهين اعتصامهن، إلا بعدما علمن بأن الرجال أطلق سراحهم فعلاً بعد هبوط الظلام. وحينما وصلت نسوة البيضا إلى بيوتهن وجدن رجالهن محطمين، وكثيرين منهم ترك التعذيب تشوّهات في وجوههم وأجسامهم. وفي صبيحة اليوم التالي جاء جمع من رجال القرى العلوية إلى البيضا لتقديم اعتذار لأهلها الذين اعتكفوا في بيوتهم، رافضين استقبال رجال الوفد العلوي وقبول اعتذاره. ذلك أن النظام ــ بعد ظهور ما تعرض له أهالي البيضا على شاشات التلفزيون ــ سارع إلى الادعاء أن مشاهد التعذيب المهينة مفبركة، وهي تعود إلى ما تعرّض له عناصر البشمركة الكردية في العراق.

ترويع المسيحيين وقتيلات المرقب

هجوم وحدات من الجيش على البيضا، افتتح هجمات مماثلة على قرى بانياس، وعلى بانياس المدينة. مهّد الجنود لدخولهم القرى المسيحية أولاً، كظهر صفرا والروضة، بإطلاقهم عليها رشقات من نيران أسلحتهم الرشاشة، فاختبأ الأهالي في بيوتهم، واندفعت إلى القرى مجموعات من رجال الأمن والشبيحة. مشاة من دون آليات اندفعوا في الطرق بين البيوت مطلقين رشقات من بنادقهم، ولترويع الأهالي المسيحيين، وإيهامهم بأن جماعات إسلامية سلفية تهاجم قراهم، أخذوا يهتفون: علوية عَ التابوت، والمسيحي عَ بيروت. (لاحقاً أطلق رجال الأمن إشاعات تقول أن هذا الهتاف ردّده المتظاهرون في بانياس). دخل المهاجمون عدداً من البيوت، فأطلقوا النار على أثاثاتها، وأخرجوا منها سكانها، ونهبوا ما خفّ حمله، واعتقلوا بعضاً من الشبان واقتادوهم إلى مقارهم الأمنية. بعد حملة الترويع هذه، دخل الجنود القرى المسيحية نفسها، مشاة من دون آليات، موهمين الأهالي، مجدداً، بأن الجيش جاء لحمايتهم من السلفيين الإرهابيين. لكن الأهالي لم تكن تخفى عليهم هوية المهاجمين الذين اصطحبوا معهم من القرى العلوية القريبة رجالاً يعرفهم أهالي القرى، وقام رجال الأمن بتجنيدهم لقاء أجر مدفوع، إضافة إلى ما يسطون عليه وينهبونه من البيوت أثناء حملات الدهم والترويع. ثم إن هيئات المهاجمين وأعمارهم وملابسهم كانت تشير إلى هويتهم التي لا تخطئها خبرات السوريين وتجاربهم المريرة، فرجال الأمن وأعوانهم من زمر الشبيحة، غالباً ما يكونون في الأربعين وما فوق من أعمارهم، وينتعلون أحذية رياضية، ويرتدون

ثياباً مدنية، ويتركون لحاهم نابتة، لكن من دون أن يطيلوها. أما الجنود الذين يستخدمون في الاقتحامات وحملات التأديب والترويع، فيكونون من الشبان والفتيان المجندين تجنيداً إجبارياً في الجيش، وتتراوح أعمارهم ما بين ١٨ و٢٠ سنة، ويقودهم ضابط، من دون أن يكون بينهم جنود محترفون من الرتباء وصف الضباط. فالقيادة العسكرية ــ الأمنية تدرك أن الجنود الرتباء المحترفين، قد يرفضون الأوامر العسكرية وإطلاق النار على الأهالي، لأنهم في غالبيتهم الساحقة من السنّة، شأن الجنود الأغرار الذين تحول خشيتهم وخبرتهم الضئيلة في الجيش، دون إقدامهم على التمرد ورفض أوامر الضباط العلويين غالباً.

بعد حملة ترويع القرى المسيحية، توجه المهاجمون إلى قرية البساتين السنيّة التي، منذ بدايات الانتفاضة، لم تتعرّض لحملات ترويع وتأديب، فأهلها لم يشاركوا في التظاهرات، سوى قلة من شبانها. لذا قامت القوة الأمنية والعسكرية المهاجمة بتمشيط القرية سريعاً وسط إطلاق النار العشوائي، واعتقال بعض من رجالها وشبانها. أما قرية المرقب السنيّة أيضاً، وقلعتها على تلة مشرفة على بانياس، فقامت بالهجوم عليهما قوة عسكرية مؤلفة من ٢٠ دبابة وخلفها مجموعات من الجنود المشاة. بدأ الهجوم على القلعة التي كان يحتمي فيها شبان من القرية، يحمل بعضهم بنادق كلاشنيكوف وبومب أكشن، للدفاع عن أهلهم وقريتهم من زمر الشبيحة التي تنطلق من القرى العلوية القريبة، ومنها قرية ظهر الزوبة المشهورة بشبيحتها. وبعد قصف مدفعي عنيف على القلعة ومحيطها، تقدمت الدبابات إليها، وحاصرتها، ثم أتى ضابط من

الجيش بمختار قرية المرقب، لإقناع شبان القلعة بتسليم أنفسهم للسلطة العسكرية، لا للسلطة الأمنية، لكن الشبان فروا من القلعة هاربين إلى بساتين الزيتون والأراضي الزراعية، رافضين وساطة المختار، فأخذت مدفعية الدبابات ورشاشاتها الثقيلة تمشط البساتين والكروم ومحيط القرية. أصيب في حملة التمشيط هذه بعض من الشبان الذين التقيت أحدهم بعد أيام في المعتقل، فروى لي ما حدث في المرقب وقلعتها. كان الشاب مصاباً في رجليه كغيره كثيرين من المعتقلين الجرحى الذين تلقوا، قبل اعتقالهم، علاجاً بدائياً في البيوت، لئلا يقتلوا في حال نقلهم إلى مستشفى بانياس الحكومي، حيث أقدم رجال الأمن والشبيحة على قتل عدد من الجرحى وإخفاء جثتهم.

دخل الجنود القلعة وتمركزوا فيها، بينما أخذت دباباتهم تقصف خراج قرية المرقب التي دخلتها وحدة من مشاة الجيش، يتبعها رجال الأمن والشبيحة، مطلقين النار على البيوت شاتمين سكانها المختبئين فيها. وإذ لم يجدوا الشبان الراغبين في اعتقالهم ولديهم قائمة بأسمائهم، قام المهاجمون باعتقال أهلهم وأقاربهم من الرجال، من دون أن يوفروا الأطفال والأولاد ما فوق السابعة من أعمارهم، مطلقين النار على أثاثات البيوت وجدرانها الداخلية، غضباً وانتقاماً، ومروّعين النساء اللواتي خرجن من بيوتهن صارخات معولات، ومحاولات تخليص أطفالهن وأولادهن وحمايتهم من عنف رجال الأمن والشبيحة الذين يجرّونهم من شعرهم مع آبائهم وأقاربهم. حدث هذا نهار الأربعاء ٤ أيار. وفي صبيحة النهار التالي خلت المرقب وقبلها البيضا من رجالهما تقريباً، فخرجت منهما

النسوة والأمهات الملتاعات على أطفالهن وأولادهن المعتقلين، وسرن في تظاهرة عفوية غاضبة في ساحة القرية، فأطلق رجال الأمن والجيش النار عليهن، وأردوا منهن أربع نساء وجرحوا سبعاً أخريات وسط الطريق، فتناقلت صورهن محطات التلفزة العالمية، وروت امرأة من الناجيات أنها شاهدت ضابطاً يطلق النار على جنديين ويرديهما، بعدما رفضا إطلاق النار على النسوة المتظاهرات.

الجمعة الثامنة: اقتحام بانياس

الجمعة الثامنة في ٦ أيار، كانت جمعة غضب في بانياس، رداً على حملات الدهم والترويع في القرى المجاورة، وعلى قتل النسوة المتظاهرات ما بين البيضا والمرقب. واستباقاً للهجوم المتوقع على المدينة، تدافع سكان بانياس الخائفون إلى المساجد لأداء صلاة الجمعة، ثم إلى التظاهر في ساحة دوار البلدية. كانت التظاهرة حاشدة صاخبة، فيما وحدات الجيش المدرعة ودباباته تضيّق الحصار على المدينة. لم يمكث المتظاهرون وقتاً طويلاً في الساحة، على خلاف عادتهم في الجمع السابقة، فغادروا سريعاً إلى بيوتهم. وقبيل منتصف الليل انقطع التيار الكهربائي وتعطلت الاتصالات في بانياس. وعلى خلاف ما حدث في الهجوم الأول قبل أكثر من شهر، لم يُخرج الخوفُ والعتمةُ الأهالي إلى الطرق، فأنكفأوا في البيوت على هلع مكتوم يملأه دويّ الصمت في أسماعهم، فإذا بصليل مجنزرات الدبابات على الاسفلت يقترب مختلطاً بأصوات أذان الفجر المنبعثة من المساجد. كانت أصوات الأذان غريبة في انطلاقها حيّة بلا مكبرات صوت، كأنها آتية من البعيد، وتترك في الفضاء الضيق المختنق أصداءها المتقطعة، قبل أن يبتلعها صليل

المجنزرات الذي أخذ يطفو وتتزايد ارتجاجاته المتطاولة مع خيوط الفجر القصديرية. ومع حموة الشمس كانت الدبابات قد توغلت في شوارع المدينة من ثلاثة محاور أو أربعة، الرئيسي منها في ناحية رأس النبع، حيث الجسر فوق مجرى نهر بانياس.

نحن شبان المدينة الناشطين، كنا قد اتفقنا على عدم مجابهة الجيش ومقاومته، وعلى أن من لديه قطعة سلاح يخبئها ويخفيها، تاركين الخيار لمن يقرر الهرب أن يهرب إلى الأراضي الزراعية والبساتين، وكنت من القلة التي قررت البقاء. فأنا ليس لديّ قطعة سلاح، وبيتنا يخلو منها، مع العلم بأن الغالبية الساحقة من شبان سورية يجيدون استخدام السلاح، وشيئاً من الفنون القتالية، لأنهم خدموا في الجيش مجندين إلزاميين.

من محاور رأس النبع والمحطة الحرارية وحي القلعة وطريق بطرايا، وغيرها من الطرق المؤدية إلى المدينة، تقدمت الدبابات، مطلقة زخات متتالية من نيران مدافعها الرشاشة، كأنها تتوغل في ساحات حرب، لكن خالية تماماً من أي مقاومة. حي القوز العلوي القريب من رأس النبع ــ وهو كان قد خلا تماماً من سكانه قبل أكثر من شهر، مثله حي القصور العلوي أيضاً ــ بدأت تنطلق فيه رشقات نارية في الهواء ابتهاجاً، ثم في اتجاه الأحياء السنيّة، بعدما كانت الدبابات قد تجاوزت الحي العلوي، واخترقت الأحياء السنيّة التي منها أخذت الدبابات توجه نيران رشاشاتها في اتجاه حي القوز، لإيهام الأهالي السنّة بأن الجيش يطلق النار لأنه يتعرض لمقاومة من مسلحين في المدينة التي لم يطلق أي من أهاليها رصاصة واحدة على الجيش. ومن يكون مطلقو النار من الحي العلوي الخالي غير

رجال الأمن والشبيحة الذين أتوا خلف وحدات الجيش ودباباته المتوغلة في أحياء بانياس؟!

عدد من البيوت بدأت تلتهمها النيران، فيما الأهالي يلفهم الهلع في غرف بيوتهم الداخلية. لا أدري ما الذي أخرج رجلاً من جيراننا إلى مدخل بيته، لأسمعه يصرخ فجأة مستغيثاً، فتجرأت على الخروج من بيتنا والاختباء قرب جدار. رأيت الرجل قاعداً أمام عتبة بيته والدم ينزف من رجله، ولمحت في الشارع رجلاً آخر يركض رافعاً يديه بشارة النصر، ثم ينبطح أرضاً أمام دبابة لمنعها من التقدّم. لا أعلم إن كان الرجل أصيب أم لا، لأنني أسرعت في الدخول إلى بيتنا، مستجيباً صراخ والدي. لاحقاً، في النهار التالي، بعدما اعتقلت مع جموع من أهالي المدينة، علمت أن ما لا يقل عن ثلاثة شبان قتلوا في إطلاق النار العشوائي الكثيف على الأحياء السكنية، اثنان منهم في حي التربة القريب من المقبرة، وثالث في رأس النبع، أما عدد الجرحى فتجاوز العشرين، كثيرون منهم أصيبوا على عتبات بيوتهم.

حتى عصر السبت ٧ أيار، استمر توغل الدبابات في أحياء بانياس التي تحوط حاراتها الداخلية الكثيفة السكان، من دون أن تتوقف عن إطلاق نيران رشاشاتها. وفي الأحياء هذه، شنّ مشاة الجيش حملة اعتقالات يعاونهم فيها رجال الأمن والشبيحة، فشملت الحملة جميع الذكور المتراوحة أعمارهم ما بين ١٤ و٧٥ سنة. بعد الغروب، ومع حلول الظلام، توقفت حملة الاعتقال الجماعي، وتمركزت الدبابات في الأماكن التي وصلت إليها، لكنها في الصباح الباكر استأنفت تقدمها إلى أحياء المدينة الداخلية، مطلقة صليات نارية خفيفة ومتقطعة. وبعد تمركزها على مداخل هذه الأحياء، باشر مشاة الجيش ورجال الأمن عمليات الدهم والاعتقال،

فوصل عدد المعتقلين إلى حوالى ٤ آلاف شخص، كنت بينهم مع والدي البالغ عمره ٧٥ سنة، والذي كنت وإياه وحدنا في البيت مع والدتي، بينما نجا إخوتي الثلاثة من الاعتقال، لأن أحدهم اختبأ في مكان ما خارج بيتنا، وكان الآخران قد غادرا بانياس قبيل اقتحامها.

في أحد مواقع تجميع المعتقلين قرب المحطة الحرارية، أخبرني شاب أن جندياً يعرفه وشارك في الحملة، روى له في غروب السبت، أن عدد الدبابات التي هاجمت بانياس وقراها من قبل، يبلغ ٧٥ دبابة، إضافة إلى ألوف من الجنود الذين استقدموا من جبل الشيخ على الحدود السورية ــ الإسرائيلية. كان الجنود المستقدمون من المجندين إجبارياً منذ أكثر من سنة، لأن القيادة العسكرية والأمنية السورية تحسب ألف حساب لمدينتنا وقراها. فإلى حسبانها أن شبان المدينة مسلحون ولن يتهاونوا في مقاومة الجيش، فإن بانياس تحتل موقعاً استراتيجياً مهماً وحيوياً لن تتهاون القيادة السورية العليا في السيطرة عليه. فهي تضم مصفاة للنفط يُوزع منها على المدن السورية، ومنشأة حرارية أساسية، ومحطة مركزية للقطارات، إضافة إلى أن الأوتوستراد الذي يمر على تخومها يشكل شريان المواصلات البرية الحيوي على الساحل السوري. وروى الشاب المعتقل نقلاً عن الجندي أن كلاً من أطقم الدبابات المهاجمة ضمّ، إلى المجندين من الفرقة الرابعة، ضابط أمن علوياً يساعده اثنان أو ثلاثة من رجال الأمن العلويين، لوضع جنود الأطقم تحت رقابة أمنية مشددة، تحول دون عصيانهم وانشقاقهم، وإطلاقهم النار على الدبابات الأخرى المهاجمة. وهذا يعني أن الحرب الأهلية تعسّ ويتفشى دبيبها انشقاقات واغتيالات وعمليات قتل، داخل وحدات الجيش، لا بين الأهالي وفي صفوف

المتظاهرين السلميين الذين يخرجون إلى الشوارع، ويتلقّون الرصاص بصدورهم، مما يؤجج النعرات الطائفية ودبيب الحرب الأهلية في صفوف وحدات الجيش.

رحلة التنكيل في القرى العلوية

الملعب البلدي الرياضي في بانياس، سمّاه الأهالي «المسلخ» بعدما حوّله الجنود ورجال الأمن والشبيحة مركزاً لتجميع زهاء ٤ آلاف معتقل من سكان المدينة البالغ عددهم الإجمالي حوالى ٥٠ ألف نسمة. كان المعتقلون في أثناء عمليات الدهم، قد جُمعوا أولاً في مواقع ثلاثة أو أربعة، قرب المحطة الحرارية، وفي جامع أبو بكر الصديق، وفي منطقة رأس النبع التي اقتادني إليها مع والدي خمسة من رجال الأمن اقتحموا منزلنا واعتقلونا، ثم عصبوا عيوننا وأوثقوا أيدينا خلف ظهرينا وانهالوا علينا بضرباتهم وشتائمهم طوال مسافة كيلومتر. وعلى هذه الحال نقلونا مع جمع من الأهالي إلى ساحة قرب المحطة الحرارية، ومنها إلى الملعب البلدي ــ المسلخ البشري. بعد ظهر الأحد ٨ أيار، استقدم رجال الأمن والشبيحة عدداً كبيراً من الباصات لأخذنا في رحلة الإهانات والتنكيل في القرى العلوية القريبة. قبل أن يدفعني ضابط أمن برجله لأصعد إلى أحد الباصات، قصّ شعري بآلة حلاقة كان يحملها، لكنني تمنّعت عن الصعود إلى الباص الذي سبقني والدي في الصعود إليه، كي لا أراه يُضرب ويُهان في حضوري. بركلة قوية من رجله رماني الضابط أرضاً، ثم اعتلى ظهري متقافزاً عليه شاتماً أبي وأمي وأخواتي وديني، وفي هذه اللحظات انطلق الباص مع زهاء ٣٥ رجلاً، فحمدت الله على نجاتي من أن أكون مع والدي في هذه الرحلة.

عرّج الباص الآخر الذي أصعدني ضابط الأمن إليه، على حيّ القوز الذي تعرّضنا فيه لنوبة أولى من الشتائم والبصاق والصفعات واللكمات التي سدّدها جمع من سكانه العلويين إلى وجوهنا، صارخين: بدكن حرية يا عرصات يا منايك... خذوا حرية، خذوا. رجل مسن على المقعد قربي، أخذ يبكي في صمت، ورأيت دموعه تختلط بالبصاق على وجهه، فأرجعت ظهري قليلاً إلى الخلف، وبكل ما أوتيت من قوة غضبي ومهانتي ومهانة الرجل المسن، سددت بقدميّ الاثنتين رفسة إلى بطن الشاب الذي يشتمنا ويضربنا ويبصق على وجوهنا، فوقع الشاب في أرض الباص بين صفّي المقاعد، صارخاً. وفي هذه اللحظة لم أعد أميّز على أيّ مواضع من جسمي انهالت عليّ الضربات، قبل أن يحملني عدد من رجال الأمن المسلحين من يديّ ورجليّ، ويرموني من نافذة الباص إلى الخارج، حيث ارتطمت بالأرض، وسمعت صوت الشاب الذي رفسته يصرخ بأن يتركوني ليتدبّر أمري، فقال له أحد رجال الأمن أن يفعل بي ما يشاء ويعيدني إلى الملعب البلدي. حين انطلق الباص وانهال عليّ الشاب يضربني بعصا خشبية، حمدت الله مجدداً، لأنه ألهمني أن أفعل ما فعلت، مما قصّر رحلتي في القرى العلوية التي أخبرني من عادوا منها قبيل غروب يوم الأحد ذاك بأن عدد محطاتها تجاوز الخمس، لتأجيج الأحقاد الطائفية وتعميقها ما بين السنّة والعلويين.

الملعب البلدي مسلخ بشري

بعدما أنهكهم ما أنزلوه من ألوان الشتائم والعنف بكل ما أُوتوا من أحقاد، جرّني الشاب العلوي مع اثنين من أمثاله، طوال الطريق من حيّ القوز إلى الملعب البلدي. مدمى الوجه والصدر جرّوني مرات

على الأرض وسحلوني، كأني فضلة بشرية، فتبقعت مِزَقُ ثيابي بدمي المتخثر بعضه تحت جلد ربلتي ساقيّ المخدرتين مثلي، بعد إغماءات متتالية. على هذه الحال رموني في الساحة أمام مبنى الملعب البلدي. لا أدري كم من الوقت مضى عليّ في إغماءتي بين أجسام المعتقلين المرمية في الساحة، أو الجاثية على ركبها، فيما مجموعات من رجال الأمن والشبّيحة، تتقافز على ظهور المنطرحين أرضاً، أو تنهال بالهراوات والعصي والأرجل والأيدي على أجسام الجاثين المترنحة قبل أن تتهاوى إلى الأرض. في حقل الأجسام هذا كان الأنين يختلط بالهمهمات وبكلمات مخنوقة تستجير بالله والأنبياء، فيما كانت تتعالى فوق هذا الخليط من الحشرجات صرخات شاتمة الله والنبي، ومردّدة: انتو ربكم الله، ونحنا ربنا بشار، ورح نشوف مين بينتصر بالآخر، رح نشوف. بدكن تسقّطوا النظام؟! يا قرد، قوم ولاه قوم سقّط النظام لشوف. انتو ما بتعرفو انو الله تبعكن ما بيقدر يسقّط النظام؟! ما بتعرفوا انو بشار وحافظ هن حطوا الله بالسما؟! بدكن حرية؟ رح نفرجيكن الحرية في قبوركم اليوم.

تقدّم أحدهم مني وداس بقدمه رأسي، ثم هرسه أرضاً وقال: قوم وقف ولاه قوم وقف، وقول مين أسيادك. وإذ لم أقوَ على الوقوف، أمسكني بمزق الثياب على صدري وأوقفني، فقلت كالمنوّم إن حافظاً وبشاراً أسيادي، لكنني في قلبي قلت: هُبل، هُبل. فهبل، إلى الزرافة، هي من تسميات بشار الأسد الشائعة في سورية، وتحمل معنى مزدوجاً: صفة الهبل، وتسمية الوثن الجاهلي هُبل في الكعبة أيام الرسول محمد. وحين تركني رجل الأمن أو الشبيح، لا فرق، تهاويت إلى الأرض، ولمحت قربي، في حقل الأجسام البشرية المطروحة، شاباً أعرفه، يدوس رأسه شبيحٌ، وينزف الدم من أذنيه

وفمه. ثم سمعت الشبيخ يسأله مَن ربّه، فلم يجب الشاب بأن بشار الأسد ربه، إلا بعدما تكاثر عليه الشبيحة، دوساً ورفساً.

عند الغروب بدأوا بإخلاء الساحة من أجسامنا المدمّاة المحطمة، لتتلقى نوبات جديدة من الركل والصفع واللكم، فيما هم يدخلوننا إلى مبنى الملعب البلدي. أحدهم، فيما هو يرفسني من الخلف، صرخ بي: كم يرسل إليكم سعد الحريري من النقود، كي تتظاهروا؟! وكم تقبضون من المال من السعودية وقطر والأردن؟! في الباحات الداخلية التي تعلوها سقوف المدرجات العالية، لمحت من بعيد والدي بين جمع من رجال مسنين يدخلونهم إلى واحدة من غرف تبديل الملابس الخاصة بلاعبي كرة القدم. أما نحن الشبان والفتيان والكهول غير المسنين، فحشرنا كل حوالى ٨٠٠ شخص في مهجع لا يتسع لأكثر من مئة. قبل أن أدخل إلى مهجعي، قلت لرجل أمن إنني أريد قضاء حاجتي، فرفسني في بطني قائلاً أن أقضيها في ثيابي. أربعة أيام بنهاراتها ولياليها أمضيتها في المهجع كغيري من المعتقلين المكدّسين متلاصقي الأجسام كقطعان بشرية في وقوفها وقعودها، وفي تمدّدها على الأرض، رؤوس تحاشر أقداماً، ورؤوس على أقدام، وأيدٍ لم تعد تميّز ما بين الأيدي والأقدام، ولا تشعر بأي من الجذوع تتصل، كأننا في مستوعب ضخم للنفايات. لعاب وأنين وبول وغطيط ودم متخثر وحشرجات وهواء مبنج بروائح كربونية... ورجال يندفعون كثيران هائجة إلى مهجعنا، ويطلقون الرصاص من بنادقهم على الجدران فتتطاير منها شظايا اسمنت تتساقط علينا قبل أن يتقافز الرجال على أجسامنا المتلاصقة ويضربوها بالهراوات وأعقاب البنادق ومورينات الخشب والعصي، فيما صرخاتهم تتعالى: كساس، عرصات، شراميط، حيوانات... وفي واحدة من نوبات

هجومهم على مهجعنا، رأيت رجلاً منهم يخرج عضوه التناسلي ويوزّع بوله على كومة من الأجسام، مرسلاً تنهدات نشوته، هاتفاً: حرية، حرية، حرية. الله وسورية وبشار وبس، فيما هو يتقافز على الظهور والجذوع البشرية. وفي نوبة أخرى أخرج رجل منهم قداحة من جيبه، فأشعلها وقعد على ظهر فتى صغير وأخذ يحرق شعره، بينما أطلق رجل ضرير صرخات متتالية، جراء ضربه بعقب بندقية على رأسه. وكان بيننا في المهجع مرضى عقليون يجهلون أسماءهم. وحين أغمي على أحدهم من شدة الضرب ونفر الدم من أذنيه، حملوه إلى الخارج. وبعد وقت صَعُب عليّ تقديره، أعادوه عارياً مبللاً بالماء، ورموه على كومة من الأجسام، فصرخ أحدهم: قوموا نيكو، قوموا، حيوانات، فرأيت الجسم المرمي يرتجف ارتجافات متسارعة، كمصاب بالحمى. أما من كان شعر ذقونهم طويلاً، فكان نصيبهم اقتلاع لحاهم بالبنسات أو الكماشات، انتقاماً من إسلاميتهم. ومع اقتلاع كل خصلة من لحى هؤلاء، كنت أسمع، مع صرخة الرجل، صرخة أخرى يطلقها الشبيح أو رجل الأمن، قائلاً: حرية ولاه، حرية هاه؟! بدك حرية؟! خوذ حرية لقلبك خوذ. وحين قال أحد الرجال الملتحين للشاب الذي شرع بنزع شعر لحيته، إنه كان معلمه في المدرسة قبل سنوات، قام الشاب، بمساعدة شابين آخرين، بفتح فم الرجل عنوة، ثم اقتلع بالكماشة سناً من أسنانه.

بعدما أعادوه إلى المهجع من نوبة تحقيق في غرفة جانبية، روى لي طالب في ثانوية بانياس، أن المحقق قال له: بدي خليك تحكي من قفاك يا حقير يا كلب، قبل أن يقوم رجلا أمن بخلع ثيابه عنه، ثم أدخل أحدهما عصاً في شرجه، وأخرجها منه، ووضعها في فمه، قائلاً له: هلق حكي يا حيوان، يالله حكي.

شاب كان جريحاً في المستشفى الحكومي، قبل اقتياده إلى الملعب البلدي، حيث أخبرني أنه في منتصف ليل استيقظ، فجأة، على صفعاتٍ على وجهه في المستشفى، فإذا بممرضات يمسكن أحذية ينهلن بها على وجوه المرضى النائمين في أسرّتهم، يساعدهن في ذلك بعض الأطباء الذين أخذوا يضغطون بأصابعهم على جروح المصابين. ووسط صراخ الجرحى الأليم، أخذ الأطباء والممرضات يهتفون متضاحكين: ألله أكبر، ألله أكبر... عَ الجنة رايحين، شهدا بالملايين؟! شاب آخر مصاب إصابة طفيفة في رجله، روى أنه مع صديقٍ له خرجا إلى الشارع حاملين قطعتين من قماش أبيض، وراحا يلوّحان بهما للجنود عند دخولهم إلى بانياس، فتعرّضا لإطلاق نارٍ أصابته إحدى رصاصاته في رجله، بينما أصيب صديقه في بطنه. وبعد نقلهما إلى مستشفى جمعية البر، قام طبيب بتضميد جرحه، فيما انشغل طبيب آخر بإسعاف صديقه. لكن مجموعة مسلحة من رجال الأمن دخلت فجأة إلى غرفة الطوارئ، وأخذت تضرب الطبيبين بأعقاب البنادق، لأنهما رفضا التوقف عن إسعاف الجريحين، قبل إرغام الطبيبين على مغادرة المستشفى، ثم قام رجال الأمن بتقييد يدي صديقي ورجليه إلى سرير الطوارئ، واقتياده في سيارتهم إلى الملعب البلدي. وأخبرني الشاب أيضاً بأن قريبه اتصل به هاتفياً من اللاذقية، قبل أيام من هجوم الجيش على بانياس، فروى له أنه كان بين متظاهرين هناك، عندما انهمر عليهم الرصاص، وتمكن من الاختباء في مكان أبصر منه عدداً من الجرحى والقتلى وسط الشارع. وبعد دقائق من فرار المتظاهرين وتفرقهم، وصلت شاحنة جمع نفايات تتقدّمها سيارة ترجّل منها عدد من المسلحين،

أخذوا يحملون المصابين، قتلى وجرحى، ويرمونهم في الشاحنة، وسط استمرار إطلاق الرصاص عشوائياً على البنايات.

عارياً فوق بانياس وفي بيروت

في ظهيرة اليوم الرابع من أيامي في مسلخ الملعب البلدي، دخل إلى مهجعنا ضابط أمن، فتلا أسماء ٣٠ أو ٤٠ شخصاً منا سمعت بينهم اسمي. قال الضابط أن نتبعه، نحن من تليت أسماؤنا، ونمشي خلفه في صف منتظم، ففعلنا وصولاً إلى باحة داخلية واسعة في الملعب الرياضي، حيث أمرونا بأن نمر واحداً واحداً أمام طاولات يجلس وراء كل منها رجال جهاز أمني: الأمن السياسي، والعسكري، والجوي، والجنائي، والمركزي، وأمن الدولة... رجل من كل هذه الأجهزة شرع في سؤالنا عن أسمائنا، ودوّنها في ملف أمامه على الطاولة، حتى إذا ارتأى أو استحسن أيّ من هذه الأجهزة أن يستمر اعتقال هذا أو ذاك منا، جدّدوا اعتقاله. هذا ما حصل لرجلين سبقاني في المرور أمام الطاولات، فتوقعت ألا يطلق سراحي، وأخذت أستعد لتجديد اعتقالي. لكنني في الساعة الثانية من بعد الظهر، تقريباً، وصلت حافي القدمين إلى ساحة دوار البلدية. لوهلة لم أصدق ما أسمع وأرى: تظاهرة نسائية ضخمة وسط الساحة، تطالب بإطلاق سراح الرجال المعتقلين، أزواجهن وأبنائهن وإخوتهن، إذ ليس من امرأة في بانياس لم يتعرّض رجل من بيتها أو أسرتها أو عائلتها للاعتقال.

كغريب وقفت مبتعداً ومنتحياً جانباً من الرصيف. مبنَّج الحواس، زائغ البصر، نظرت إلى وجوه النساء أستعرضها، لعلّي أبصر وجه أمي. لكنني بعد لحظات قليلة مشيت متجهاً إلى بيتنا، عازفاً عن أن

أرى أمي وتراني حافياً محطماً، ممزق الثياب، وفي وجهي وجسمي كدمات وجروح ينز بعضها دماً ماصلاً ومتخثراً في ربلتي ساقيَّ اللتين أبذل جهداً مضاعفاً ومؤلماً لأحملهما وأنقلهما، لأمشي. على هذه الحال مشيت في شوارع وطرق خالية شبه مقفرة، كأنني لا أعرفها ولا أعرف أحداً فيها. ضوء النهار أصفر ماصل على الأشياء، ويؤلم عينيَّ ألماً لم أجرّبه من قبل. وحين جعلت أغمضهما بين وقت وآخر، كانت إبر الظلام تروح تخزني في دماغي وروحي، فأشعر بغثيان وملوحة في فمي ولساني المتخشب.

وصلت إلى بيتنا، فإذا بابه مفتوح، كأنه مهجور منذ زمن بعيد. كيف لأربعة أيام أن تجعل العالم غريباً ونائياً ومهجوراً وغير حقيقي كمنام؟! فكرت، فيما أنا أجتاز العتبة وأدخل متنقلاً بين الغرف، فإذا بوالدي ــ الذي كنت ناسياً وجوده ــ ملقى على السرير نائماً، فدهمتني فكرة النوم. على سرير في غرفة أخرى ارتميتُ، وسريعاً غفوتُ ورأيتني في منامٍ أطير عارياً فوق بانياس، محلقاً وموصولاً بخيوط معدنية إلى جثة على السرير وسط جموع من النساء الصارخات بلا صوت. أطير عارياً وفي يدي هاتفي أصوّر به شوارع خالية مقفرة. فجأة ظهر الشيخ أنس عيروط يركض وحيداً في شارع، وفجأة اختفى، فإذا بي أسقط في هوة معتمة، وأعب الماء من نبع بانياس، فيرشح الماء من جسمي كله، وتدرزه طلقات بلا صوت. ممرضات وممرضون حولي على سرير أبيض، وصراخ جرحى في ثكنة عسكرية، وجنود يتخاطفون جثثاً من على الأسرة. والدي يتسلم جثتي ويوقِّع على ورقة في مكتب رجل امن، وفجأة سمعت صوت أمي تناديني باسمي، فيما يهتز جسمي اهتزازات سريعة، فأفقت وجلست على السرير قرب أمي، بينما رأيتُ والدي يقف صامتاً ينظر إلينا من أقصى الغرفة.

كان ذلك النهار نهار الخميس ١٢ أيار الذي سبق «جمعة الحرائر» في ١٣ أيار، فلم أخرج من بيتنا. قلة قيلة من رجال بانياس المسنين، مشوا في شوارع خالية شبه مقفرة، متوجهين لأداء صلاة الجمعة في المساجد، كأنهم في مدينة أشباح. من لم يُعتقل من شبانها ورجالها مكثوا في بيوتهم مع النساء في إقامة جبرية أو في مدينة محتلة ومحاصرة. بعد الظهر بقليل خرجت زهاء ٦٠ أو ٧٠ امرأة من بيوتهن محاولات السير في تظاهرة، احتجاجاً على اعتقال الرجال، لكن وحدات الجيش ودباباته المنتشرة بكثافة في الشوارع والأحياء، فرّقت النساء سريعاً، فعدن إلى بيوتهن. الأسواق والمتاجر والأفران مقفلة. الفرن الوحيد الذي استمر يعمل طوال الشهر الذي سبق الهجوم الكبير والاعتقالات الجماعية، اعتُقل صاحبه وأولاده جميعاً، فتعرضوا لأعتى أشكال التعذيب والتنكيل في الملعب ــ المسلخ البلدي، قبل نقلهم إلى أحد سجون أجهزة الأمن في طرطوس، لأنهم لم يستجيبوا طلب المحافظ إقفال فرنهم أيام الحصار الذي سبق احتلال المدينة. أما مستشفى جمعية البر البسيط والبدائي، فنهبت تجهيزاته الطبية، ودُمر ما لا يُحملُ منها، ثم تحوّل مقراً للجيش ورجال الأمن. الجرحى الذين كانوا فيه قتلوا، ولم تُسلَّم جثثهم إلى ذويهم إلا بعدما أُجبروا على توقيع مستندات تفيد بأن جماعات إرهابية قتلتهم. الجرحى الذين نقلوا إلى المستشفى الحكومي اختفوا. واحد منهم وصل إلى المستشفى مصاباً برصاصة في رجله، فتسلم أهله جثته مصابة بطلقات في العنق. في البلدية والمدارس والحديقة العامة وضعوا كميات من الأسلحة والذخائر والقنابل، ثم أتوا بمصوري التلفزيون السوري وكاميراته، فصوروا ما ادّعوا أنهم عثروا عليه من أسلحة وذخائر. الفرن الذي اعتقلوا

صاحبه وأولاده، جلبوا إليه الاسلحة والمعدات التلفزيونية والمصورين في سيارة إسعاف، لأن مصوري التلفزيون يخشون الدخول إلى الحي المكتظ بالسكان، للقيام بالمهمة الموكلة إليهم. وحين دخلت سيارة الإسعاف إلى الحي، أطلق رجال الأمن رشقات من بنادقهم على جدران البيوت، لئلا يطل أيّ من السكان من نوافذ البيوت، فيشاهدوا الأسلحة التي نقلت من السيارة إلى الفرن، حيث جرى تصويرها.

غادرت بانياس هارباً في ليل الثلاثاء ١٧ أيار، غير موقن بأنني سأصل إلى الحدود السورية ــ اللبنانية. من بيروت شاركت على شبكة «الفايسبوك» في مناقشات التحضير لــ «جمعة ازادي» (الحرية) في ٢٠ أيار. بعدها بأيام شاركت أيضاً في بث شرائط تصوّر أهالي بانياس يطلون من نوافذ بيوتهم في منتصف الليل، ويصرخون مرددين هتاف «الله أكبر، الله أكبر، سورية حرة»، فيما تنطلق أصوات المؤذنين من المساجد، مختلطة بأزيز الطلقات في الهواء وعلى جدران البيوت، لمنع الناس من التكبير، لكن الناس استمروا في رفع أصواتهم أعلى من صوت أزيز الرصاص وأقوى. أما في «جمعة حماه الديار» في ٢٧ أيار، فقد مُنع أهالي بانياس من الخروج من بيوتهم، ومن الصلاة في المساجد، سوى زهاء مئتي شخص تمكنوا من الوصول إلى جامع الرحمن، لكنهم بعد خروجهم منه، لم يستطيعوا السير في الطريق أكثر من أمتار معدودات، إذ هجمت عليهم بالهراوات والعصيّ وإطلاق النار، جموع كثيفة من رجال الأمن، فتفرقوا هلعين هاربين إلى بيوتهم.

المؤلف

روائي وكاتب من لبنان.

مؤلفاته:

ـ **بولين وأطيافها**، رواية، دار الفارابي، بيروت ١٩٩٠.

ـ **الرجل السابق**، رواية، الطبعة الأولى، دار الجديد، بيروت ١٩٩٥، الطبعة الثانية، دار النهار، بيروت ٢٠٠٦.

ـ **سكان الصور**، رواية، دار النهار، بيروت ٢٠٠٣.

ـ **بلاد المهانة والخوف**، رحلات، دار النهار، بيروت ٢٠٠٤.

ـ **أقنعة المخلص**: شهادات في الشيعة العونية وإمامها، تأليف مشترك مع وضاح شرارة، دار النهار، بيروت ٢٠٠٩.

ـ **طرابلس** ـ ساحة الله وميناء الحداثة، دار الساقي، بيروت ٢٠١١.

فهرس الأعلام

ج

ح

خ

د

ر

ز

س

ش

ص

ط

ع

غ

ف

ق

ك

ل

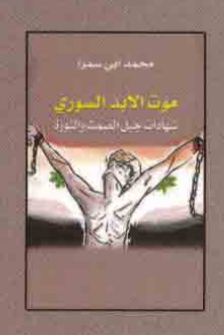
م

ن

و

ي

فهرس الأماكن



يروي هذا الكتاب فصولاً من حقبة رمادية من حياة السوريين الصامتة بعد مقتلة حماه في العام ١٩٨٢، وفصولاً أخرى عن خروجهم على الصمت والقهر في ثورة لا تزال مستمرة منذ آذار ٢٠١١.

سيرة حياة الأشخاص ووقائعها وشهاداتهم هي مادة هذا التأريخ الاخباري عما عاشه الرواة في حياتهم العائلية ومدارسهم وجامعاتهم ومدنهم وأحيائهم السكنية، وفي المعتقلات والسجون، قبل الثورة وفي خضمها الراهن.

إنه كتاب يروي شيئاً عن موت الأبد في سورية، وعن تحررها من الأبد، ليصير لها تاريخ، وليتمكن السوريون من رواية تاريخهم.




ISBN 978-9953-21-536-5
9 789953 215365